الأسس التربوية
في
ضوء القرآن الكريم

د. محمد بن عبد الله الأنصاري
(أبو عمر)

١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م

خطة الرسالة :

تشمل ستة أبواب تفصيلها كالآتي :-

الباب الأول :

(التربية)

- **الفصل الأول : مدخل إلى الموضوع ويشتمل على الآتي :**

١- تقديم .

٢- تمهيد .

٣- منهجية الدراسة .

٤- مشكلة الدراسة .

٥- أهمية الدراسة ودوافعها وأهدافها .

- **الفصل الثاني : مفهوم التربية.**
- **الفصل الثالث : أسس التربية الإسلامية وأهدافها.**
- **الفصل الرابع : مجالات التربية.**

الباب الثاني :

(المفومات التربوية في ضوء القرآن الكريم).

فيه أربعة فصول :

- **الفصل الأول : دور الأسرة التربوي**
- **الفصل الثاني : تربية الطفل .**
- **الفصل الثالث : تربية الصبي المراهق .**
- **الفصل الرابع : التربية في مرحلة النضج .**

الباب الثالث:

(الإنسان والتربية في ضوء القرآن الكريم) .

وفيه أربعة فصول :

- **الفصل الأول : التربية بين الإنسان وخالقه .**
- **الفصل الثاني : التربية بين الإنسان ونفسه .**
- **الفصل الثالث : التربية بين الإنسان ومن حوله من البشر .**
- **الفصل الرابع : التربية بين الإنسان والكون .**

الباب الرابع :

(معالم الفكر التربوي في ضوء القرآن الكريم).

فيه أربعة فصول :

- **الفصل الأول : النظرة الواقعية لفطرة الإنسان .**
- **الفصل الثاني : التوجيه العلمي .**
- **الفصل الثالث : المرونة .**
- **الفصل الرابع : الوضوح .**

الباب الخامس :

(مؤسسات التربية في ضوء القرآن الكريم).

فيه ستة فصول :

- **الفصل الأول : دور البيت .**
- **الفصل الثاني : دور المسجد .**
- **الفصل الثالث : دور المدرسة .**
- **الفصل الرابع : دور المكتبات .**
- **الفصل الخامس : دور المجتمع .**
- **الفصل السادس : وسائل الإعلام .**

الباب السادس :

(الشخصية السوية كما وصفها القرآن الكريم)

وفيه خمسة فصول :

- **الفصل الأول : التوجه الديني .**
- **الفصل الثاني : السمو النفسي .**
- **الفصل الثالث : الارتقاء الخلقي .**
- **الفصل الرابع : الوفاق الاجتماعي .**
- **الفصل الخامس : النضج السياسي .**

الباب الأول

التربيـــة

- **الفصل الأول : مدخل إلى الموضوع ويشتمل على الآتي :**

١ - تقديم .

٢ - تمهيد .

٣ - منهجية الدراسة .

٤ - مشكلة الدراسة

٥ - أهمية الدراسة ودوافعها وأهدافها.

- **الفصل الثاني : مفهوم التربية.**
- **الفصل الثالث :**

- أسس التربية الإسلامية.

- أهداف التربية في الإسلام.

- **الفصل الرابع : مجالات التربية.**

١- تقديم:

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد ... فإن حركة الحياة الدائبة، وارتباطها بحياة بني الإنسان تقتضي منهم مع مطلع كل صباح جديد أن يفكروا في الإبداع ويبحثوا عن الوسائل التي تعينهم على سعادة النفس وطمأنينة القلب وسمو الروح.

والإنسان مدني بفطرته التي فطره الله عليها، وقد خلق الله للإنسان كل شيء في عالمه الأرضي بل سخر له الشمس والقمر والنجوم والكواكب.

(هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٢٩)) [١].

وبما أنَّ تربية الإنسان في أسمى معانيها تدل على معنى التغذية أي توفير حاجات الإنسان من الطعام والشراب حتى يكتمل بناء جسمه، ويشتد عوده، ليهيئ لنفسه من الوسائل ما يرقى به ويسعد؛ فالله سبحانه وتعالى رب عباده رب العالمين، المفيض عليهم من موائد كرمه، والمسبغ عليهم من حلل فضله. (الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢) الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٣)) [٢].

ويدور معنى التربية في الإسلام مع ما تدور به المصطلحات الحديثة التي تفسرها ؛ فإن قالوا :

إن التربية تنمية لطاقات الإنسان النفسية، ومواهبه العقلية، وقدراته البشرية وتوجيهها نحو الهدى، ونأي بها عن الشر، و إقبال بها على قيم الحق، والهدى والجمال ففي القرآن الكريم ما يشير إلى هذا في أتم منهج، وفي أكمل صورة .

---

١ - سورة البقرة الآية (٢٩) .

٢- سورة الفاتحة الآيتان (٢ – ٣) .

فالإنسانية في الإسلام أسرة واحدة تنتمي لآدم وحواء، وإن غاب هذا المعنى عن أذهان بعض الملاحدة، وأصحاب الفلسفات المادية فهو لا ينبغي أن يغيب عمن نزل فيهم آخر كتاب من ربهم، وبعث فيهم رسول من أنفسهم، جعله الله تعالى مسك ختام النبوة.

(قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيراً مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنْ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنْ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ (١٥) يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنْ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنْ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (١٦) [1].

والتربية في مجتمعنا العربي منذ مطلع القرن العشرين مصابة بداء عضال، يفري الأعضاد، ويفتت الأكباد، ويتمثل في الاتجاه إن لم نقل الانحراف بالقلب والقالب نحو الحضارة الغربية.

وكانت تجربتنا مع هذه الحضارة خبيثة الغرس، سيئة الحصاد، مريرة المذاق؛ فلا نحن طورنا أنفسنا، ولا صغنا مناهجنا، ولا بَيَّنَّا للآباء والأمهات أن هذه التربية الغربية لكي تعطي دائماً ثماراً مقبولة فلا بد أن تستقيم في أبعادها المادية، ومناهجها، وصوغها، ومدارسها، وبنائها، وتخطيط برامجها، ومكتسبات أجيالها .

كما أننا لم نضرب في أعماق تربيتنا الإسلامية، ولم نعد إلى جذورنا، وأصولنا الثابتة الممتدة إلى آفاق سمائنا، وبمحاولة تقليد الغرب تقليداً مبتوراً، مع التباعد عن أصالتنا التربوية أصبحت التربية في بلادنا هشيماً تذروه الرياح .

---

١ - سورة المائدة الآيتان (١٥ – ١٦) .

"إن الغرب الذي وصل إلى تقدم مادي عجيب يشكو من النقص في الجانب الروحي، والخلقي، والاجتماعي، ويتطلع مفكروه اليوم إلى تدارك هذا النقص بالحوار مع الحضارات الأخرى وبخاصة الإسلام" [1] .

إن الإسلام دين عالمي ينظر إلى الإنسانية على أنها أسرة واحدة يربيها خالقها على أساس من العقيدة الصحيحة الواحدة التي تنزع فتيل الفرقة، وتدمر عوامل التفرقة، وقد ألغى التعصب القبلي، بل تعصب الإنسان لذاته أياً كان لون هذا التعصب أو اتجاهه، فقال جل شأنه:(**يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَتَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً** (١) [٢]

كما أكد الإسلام أن الأسرة البشرية أقوى وأكثر تماسكاً، فالأم (حواء) وهي أصل الأسرة البشرية ليست غريبة عن الأب، ولكنها منه (وخلق منها زوجها) وقد نعى الإسلام على من يفرقون بين رسل اللّه بدافع العصبية الجاهلة التي تقود إلى شر الفرقة، ونار العداوة، وتنحرف بالناس عن الهدى والإيمان .

وامتدح الذين آمنوا باللّه ورسله، ولم يفرقوا بين أحد منهم، بل أثنى ثناءً حسناً باقياً على رسوله صلى اللّه عليه وسلم وعلى المؤمنين برسالته لإيمانهم بجميع رسل اللّه دون أن يفرقوا بين أحد منهم، فقال جل شأنه:(

١- عبد الوهاب عبد السلام الطويلة: التربية الإسلامية وفن التدريس ، ص (١٤) بتصرف ، دار السلام، ط١، القاهرة- مصر، ١٤١٨هـ- ١٩٩٧م .

٢- سورة النساء الآية (١) .

آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ (٢٨٥)) [١].

وتكاد المجتمعات الإسلامية تفقد تباعاً امتداد جذور تربيتها الإسلامية، ويحل محل ذلك تعلق بالغرب في جميع مناحي الحياة، وخاصة التربية

ويلاحظ أن المجتمع بما لديه من وسائل وأجهزة يركز على أن يقوي الاتجاهين المادي والعلماني في الإنسان، وفي الوقت نفسه يحرص على أن يقدم له ألوان التسلية والترويح عن طريق السينما والتليفزيون والإذاعة، والصحافة، وما إلى ذلك في صورة ترضي الدوافع، وتشبع النوازع دون التفات إلى الآثار الخلقية السيئة، وإلى انتشار الأفكار الضالة بين الشباب، ولا يحاول أن يكون الترويح بما يغذي الوجدان، وينمي الفضيلة، وأن يكون الترويح بما يريح الجسد ويسر النفس، ولكن دون إسفاف وابتذال.

خروج الأم إلى ميدان الصراع المادي، ومشاركتها في العمل وتخليها عن رسالتها الأساسية، وترك أبنائها وبناتها للخادمات، وقد يكن غير مسلمات، ولا عربيات، بل هن غالباً جاهلات، غابت الأم عن مملكتها، أهملت رعاياها، وجهلت حقوقهم في التربية، وحسن الرعاية.

وتطوعت أجهزة الإعلام بتزويدهم بكثير مما يطلبون، وفوق ما يطلبون عبر قنواتهم الناطقة بالعربية،أو بغيرها من اللغات، ثم دهت الداهية بالفضائيات التي شغلت كل الوقت، وكان الذي يأتينا من السماء وحي إلهي مرشد، وبيان قرآني موجه، ورحمة ربانية، وكانت السماء قبلتنا في الدعاء، فأصبح الفضاء الخارجي مزدحماً بكثير من المغريات، يرسلها إلينا أهل الأرض في صور زينتها الشياطين لأوليائهم.

١- سورة البقرة الآية (٢٨٥) .

ولو بحثنا عن أسرار هذا الابتعاد عن الدين لوجدنا أنه ضعف التربية الدينية، أو غيابها ويرجع هذا إلى أسباب كثيرة منها :

- الافتتان الكبير بالقوة المادية ونتائجها المذهلة .
- الانبهار الكبير بالمستحدثات العلمية .
- الجري وراء كل ما هو جديد وإن كان مخلاً .
- طريقة الحياة التي تحتاجها الأسرة، وتغير أدوار الآباء والأمهات .
- انشغال الآباء بأعباء العمل، وعودة الأب مشغولاً بأثقاله وهمومه مما أدى إلى تخلي الآباء عن دورهم في التربية، وإلقاء المسئولية على المدارس التي لم تقم بواجبها كما ينبغي، وما هي بقادرة على أن تعوض دور الأب، فأفسح المجال للأجهزة الحديثة، واستولت على عقول الأسرة بدءاً من أصغر الأبناء ، وختماً بالأمهات .
- مشاركة الأبناء للآباء والأمهات في مشاهدات لا يقرها الدين مع التخلي عن مهام الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .
- انقسام المسلمين إلى أحزاب وشراذم لكل منهم زي، ومنطق، وشارة، وشعار، وتوجهات وما يصاحب ذلك من انحراف عن الدين أو تطبيقاته في حياتنا العملية، واغترار كل حزب بنفسه واتهامه الآخرين.
- الفهم الخاطئ لثوابت الدين، وافتقاد الإيمان الذي لا يعتريه شك بسلامة هذه الثوابت، والتسليم بها، إن جُهِلَتْ حكمة التشريع في بعضها، وذلك لدى الذين نهلوا من معارف غير إسلامية، أو مَنْ تتلمذوا على أيديهم .
- إلى جانب وقوع الالتباس في الفهم بين نصوص الدين، وقيمه المعصومة والمطلقة والمجردة عن حدود الزمان والمكان، وبين نماذج

وأشكال التدين القائمة مما يعطي صورة شوهاء عن قيم الدين وثوابته.

- شيوع جو من الإرهاب الفكري والمطاردة لكل محاولات الإصلاح والخروج عن التقاليد المألوفة لدى فئة أو فئات ادعت لنفسها الوصاية على الدين وولاية أمره .
- الاتجاه إلى الخلط الشديد بين مظهر هذه الفئات وما تعتقده، والدين الإسلامي بشموله وقيمه لدرجةٍ تَصَوَّرَ معها هؤلاء أَنَّ المساس بهم شخصياً في أمر من الأمور يعد انتقاصاً من الدين نفسه مما أعطى صورة للتدين المغلوط الذي يعطي حق القداسة لهؤلاء في ذواتهم لا فيما يحملون من علوم الشريعة .
- سيطرة الفكر الهروبي المُتَّسِم بالانعزالية والسلبية باسم الإسلام والنظر إلى المجتمع نظرة عدائية، كما اتضح ذلك من سلوك بعض الشباب الذي ينضوي تحت مسميات إسلامية خالية من المضمون الهادف والمحتوى البناء .

وفي ظل هذا الشتات افتقدت القدوة الإسلامية الخالصة التي تحاول إخراج المجتمع من ماديته وانحلاله، ولو كان على حساب الوقت والجهد والمال واقتصر دور كثير من الدعاة على الخطابة المنبرية دون الخروج إلى المجتمع ومحاولة الإسهام في علاج مشكلاته .

هذه العوامل وغيرها أدت بالعالم من حولنا إلى أن يعيد النظرة وراء النظرة متسائلاً .

من نحن ؟ من نكون ؟ ما مصداقيتنا مع معتقداتنا ؟

وبرزت على الساحة العالمية قضايا الإرهاب، وألصقتْ بالمسلمين ونسي الجميع، أو تناسَوْا أن أول من أبدع الإرهاب في هذا العالم منذ القدم هم من يتهمون المسلمين بصفة ليست من دينهم في شيء .

وفي ظل الكيل بمكاييل شتى أصبح العالم نهباً للصراع والأهواء، فبينما نغض الطرف عما يحدث للفلسطينيين من قتل وتدمير وتشريد ووأد وحصاد وإبادة واستيطان نتباكى على قتلى الصهاينة الذين اغتصبوا الأرض والعرض، ونهبوا الثروات، ونصبوا أسلحة الإبادة، وما نبع هذا أو ذاك إلا من افتقاد الإيمان الصحيح .

فماذا نطلب من العالم ؟ وماذا سنجد عند العالم ؟

بل ماذا يطلب منا العالم ؟ وماذا سيجد عندنا ؟

إن العالم يفتقد روح الإيمان الصادق، ويعميه التعصب لماديته، ويجهل الكثير والكثير عن حقائق الإسلام .

إن المؤمنين الصادقين هم خلفاء رسل الله إلى هذا العالم بعد انتهاء عهد الرسالات المادية، وختمها بالإسلام على يد خاتم الأنبياء نبينا محمد صلى الله عليه وسلم لا سيما العلماء العاملين بالإسلام خلفاء رسول الله الذي يحث البشرية كلها على التآخي مهما انفصلت في العالم المعاصر العلوم والمعارف عن ارتباطها باسم الله، فانطلقت في مجال الاختراع المادي، وتوظيف المخترعات دون حساب لقيم، أو اعتبار لقانون، أو احترام لشريعة سماوية

وفي ظلال المادية الكثيفة التي تلقي بظلالها على العقل حتى لا يفكر، وعلى القلب حتى لا يشعر، وعلى النفس حتى لا تنفعل .

ونسي المخترعون ما وراء ذلك ... ونسوا أن العقل الذي فكروا به من صنع الله لا من صنعهم، بل الأيدي التي صنعت، وخططت، ورسمت، وأبدعت من خلق الله لا من خلقهم وأن من ورائها إلهاماً إلهياً، ومن حولها إمكانات مادية خلقها الله لقد نسوا أن هذه المخترعات لا تنفصل أبداً عن الكون المادي المخلوق لله، وعن الهداية الربانية للعقل، فلم يراقب كثير من أرباب هذا الاختراع أو ذاك في استخدامه شرعاً ولا خلقاً، ولم يحاولوا إخضاع عقولهم لقوة الله تعالى وقدرته التي أبدعت ما حولهم من كون فسيح بديع فيشرفون بالإيمان، ويقودهم إيمانهم إلى الاقتناع بأن الإنسان فطر على الخير، واستخلف لنشره، ودعي من خلال رسالات السماء إلى بذل عطاء يتناسب مع رسالته والغاية من وجوده .

إن إعمار الأرض، ونشر الأمن فيها وحسن التعامل مع الوجود كله فضلاً عن الإنسان تعبير صادق عن عظمة الإنسان، وعظمة ما خلق له الإنسان أما الإفساد والجفوة والتقاطع والقسوة، وتصدير الدمار إلى كل موقع فلا رعاية فيه لإنسانية، ولا احترام لكرامة، لقد انحازوا بمخترعاتهم إلى منعطف خطير يُنْسِي القيم، ويُهْمِل تعاليم السماء .

وها هي المجتمعات النامية تلهث وراء حضارة الغرب ظانة أنها الطريق السهل للوثوب السريع إلى عالم الغد بإشراقه وإبداعه وفضائياته فتوارى الإنسان المهتدي وانزوى مجتمع الفضيلة، واختفى الضمير الحي، واندثرت الأخلاق الكريمة، وكان لا بد لنا إزاء هذا كله أن نسأل

ماذا يحتاج العالم الحديث ؟

إنه يحتاج إلى الأسس الصحيحة للتربية ، ولن نجدها إلا حيث أراد الله للإنسان أن يكون كلاً لا يتجزأ .

في فهم مبادئه، وفي شرح ميسر لأصوله، وعن بيان واضح لقيمه

وفي عرض أمين لمحاسنه .

٢- تمهيد:

تمتاز المرحلة الراهنة من القرن الجديد الحادي والعشرين عن أي مرحلة من مراحل التاريخ القديم، أو الوسيط بما يسمى (صراع الحضارات) وكان الأولى أن يسمى (حوار الحضارات)؛ لأن الحضارات التي تسمح لنفسها بالصراع إنما تسقط معناها ومدلولها.

وحيث إن الصراع يتنافى تنافياً تاماً مع الحضارة؛ لأنه طبيعة الحياة الوحشية، أو الحيوانية، أو حياة الغاب، حيث لا أخلاق تحكم، ولا قانون ينظم، ولا قضاء يعدل فيحتكم إليه؛ فتكون الكلمة في قانون الغاب غير المدون للأقوى؛ فالأقوى له السيادة، والغلبة، والتبعية، والأقوى يسمع رأيه، ولا يعترض عليه، ولا تهدر حرماته في ظل قانون الغاب، فإن الضعيف مملوك للأقوى شاء أم أبىَ، وهو مسخر له، الضعيف لا رأي له، وإن وُجِد رأيٌ فهو رأي الأقوى، وإن كان في أعماقه رأي وجب أن يموت بحسرة كتمانه، وعدم الإفصاح عنه، بل مسحه من الذاكرة، ونسيانه، وعدم التفكير فيه إذا أبت الذاكرة نسيانه.

كما تمتاز هذه المرحلة بالحركة السريعة، وما زلنا - في يقيني - نحبو في هذا الحين من الدهر، لا نريد منه خلاصاً.

والهوة الفسيحة تزداد عمقاً واتساعاً بين أمم تعيش على هامش الحياة، وأمم تعيش في قلب الحياة، وتمسك بمقاليد الأمور فيها، والحل الذي نمتلكه، ولا يمتلكه غيرنا هو العودة السريعة إلى هويتنا الذاتية، والاعتزاز بها، والتحرك السريع المنظم على هداها، لننطلق من خلالها إلى آفاق العالمية.

وهنا سوف يجد العالم المتقدم أننا سبقنا، ولكن في ميدان غير ميدانه، وبوسائل تختلف عن وسائله، وأننا نقف على أرض أصلب من تلك

الأرض التي يقف هو عليها، وأننا قادرون على التحليق في عوالم لا يستطيع فيها لحاقاً بنا، بل لا يقدر أن يدنو منا إذا بلغناها، وما ذلك على اللّه بعزيز .

إن هويتنا الذاتية تقتضي أن نعود إلى منبع القوة الذي لا يقدر غيرنا أن يرده، ولا يسوغ له أن ينهل منه إلا بإقامة علاقة طيبة مع خالقه، وخالق الكون، ومسخره لعباده.

وليس ببالغه إلا من يتوافر له :

أولاً : إيمان باللّه تعالى لا يتزعزع، وثقة فيه لا يعتريها شك نرى دلائل عظمته في كل موجود، فنعيش في دائرة من المراقبة والاعتبار، والاعتماد والاعتداد، ونوقن أن شكر نعمة واحدة من نعمه التي لا تحصى لا يفي بها العمر.

ثانياً: عمل بمقتضى هذا الإيمان انقياداً للّه تعالى، واقتداءً برسوله صلى اللّه عليه وسلم .

ثالثاً: علم بحقوق الآخرين ، ووفاء بهذه الحقوق .

رابعاً: سمو في التعامل مع الخلق، وارتقاء في السلوك يحدث عن إيماننا، والتزامنا بمبادئ ديننا وقيمه .

خامساً: تربية أولادنا على قيم الإسلام، وأخذهم بشرائعه، حتى يعمروا الحياة على هدي منها.

سادساً: التفاعل مع الحياة في ظل هذا الإيمان أخذاً وعطاءً رجاء أن نكون كما أراد اللّه تعالى أمناً وإيماناً، وصدقاً ووفاءً كما كانت في صدر الإسلام .

وهنا أرى ضرورة العناية بإصلاح جذور التربية، في مراحل العمر المختلفة، ولا يكون ذلك إلا إذا قامت الأسرة المسلمة بدورها المنوط بها، وأدت المؤسسات التربوية الأخرى رسالتها في إطار السياسة التربوية الإسلامية المتكاملة القوية القادرة على بناء الإنسان بناءً محكماً بما اجتمع لها من خصائص عزَّ أن تكون لغيرها.

ومن هنا كانت فكرة البحث ومحوره يستهدفان غاية واحدة أظنها بغية دول العالم الثالث- كما يسمونه- وهي أن نُضيِّق الفجوة بيننا، وبين دول العالم المتقدم، وأن تكون لنا في نفس الوقت هويتنا فيما يخصنا، وسبقنا فيما ميزنا الله به من دين عالمي، ورسالة للناس كافة، قامت على أسس تكفل لنا التميز، وتتيح لنا الانطلاق، ولا يكون ذلك إلا بتربية على منهج الله، وسير في مناهجنا وفقاً لتعاليم ديننا الحنيف، بدءاً من تكوين الأسرة، ثم تعهدًا لأولادنا منذ النشأة الأولى، وما يتلوها من مراحل نغذوهم بكتاب الله وسنة رسوله، وبما أخذ به السابقون الأولون أنفسهم ليكونوا قرة عين لنا ولأوطانهم، بل لدينهم.

تلك هي الغاية المنشودة من هذه الدراسة دون أن تتعثر خطاها، أو أن تضيع الجهود المبذولة سدىً، أو يتبخر معظمها في أجواء الفضاء.

والله من وراء القصد وهو المستعان.

٣- منهجية الدراسة:

أنتهج في دراستي المنهجين التحليلي والمقارن:

المنهج التحليلي: وبه يمكننا الوقوف على الأسس التربوية في القرآن الكريم، وتحديدها في مواقعها المختلفة، ثم مدارستها لاستنباط الأسس التربوية الإسلامية، والعمل على إخراجها في صور ميسرة يسهل الأخذ بها، والعمل بمقتضاها، مع تجلية جوانب العظمة فيها، والكشف عن أمارات تميزها، ومدى صلاحيتها لكل بيئة، وإمكان الأخذ بها في كل عصر مهما كانت ملامح الحياة والأحياء، وذلك من خلال دراسة تحليلية لآيات القرآن الكريم التي نرى فيها إمداداً لبحثنا، وإعانة على تحقيق غايتنا.

المنهج المقارن: فللتربية المعاصرة أسسها، وغاياتها، وهي التي تحكم التربية وتوجهها في عالمنا العربي، بل قامت عليها التربية في العالم الإسلامي كله متناسية أن التربية الإسلامية أولى وأحق بأبنائها، وأنها واقعٌ غِبْنَا عنه لعوامل كثيرة، وبالمقارنة بين تلك الأسس الدخيلة، وأسس التربية الإسلامية القويمة يمكننا الوصول إلى غايتنا في التعريف بأصالة أسسنا الإسلامية، والتسليم بضرورة الأخذ بها لمن أراد إصلاحاً.

٤- مشكلة الدراسة:

" تعتبر البلاد العربية والإسلامية متخلفة حضارياً، وإن تفاوتت فيما بينها في مدى هذا التخلف، وكان من نتيجة هذا التخلف التطلع الدائم إلى مستوى ونظم وفلسفات وأيديولوجيات ومؤسسات البلاد المتقدمة حضارياً، ولم يكن أمامهم غير هؤلاء الذين لا يدينون بالإسلام، ولا يضمرون له ولأهله غير الحقد والكراهية، والرغبة الشرسة في تشويه تراثنا الحضاري، وأدى هذا إلى عدم الاستقرار في السياسة التعليمية وعدم الارتباط بين

فلسفة التعليم وواقع هذه البلاد"[1]، التي أرهقها الاستعمار، وغزاها: أرضاً، وشعوباً، وفكراً، وثقافة، وحال بينها وبين تراثها بالتشكيك في قِيَمه تارة، وإشاعة قصوره، وجموده، وعجزه عن مسايرة الحياة في حركتها الدائبة، وتطورها السريع، تارة أخرى فأخذوا عن الغرب، وأولعوا بتقليده في كل ما يصلهم عنه ظانين أنه الحضارة والرقي والتقدم، "حتى التربية نجدها غريبة عن الإسلام وأصوله سواءً في فلسفتها أو مناهجها أو نظمها"[2].

وغاب عنهم، أو تناسوا لما فرض عليهم الاستعمار من تخلف أن " التربية عملية اجتماعية، ولذا فهي تختلف من مجتمع لآخر حسب طبيعة ذلك المجتمع والقوى الثقافية المؤثرة فيه، بالإضافة إلى القيم الروحية والفلسفية التي اختارها وارتضاها لتسير عليها حياته"[3].

وما كان الإسلام ليبني أتباعه، أو يقيم مجتمعه على غير أساس تربوي يجعل منهم أمة جديرة بالتبليغ عن الله تعالى، ورسوله صلى الله عليه وسلم، وحمل الرسالة الخاتمة إلى أرض الله كلها.

أيعقل أن الذين أقاموا دولة خلال عشر سنوات، ونشروا التوحيد في شبه الجزيرة العربية، وأخضعوا القوتين العظميين في ذلك الوقت (الفرس والروم) لم يقم بناؤهم على أسس تربوية جعلت منهم أهلاً لما حملوا في السلم والحرب؟

١- د. عبد الغني النوري، د. عبد الغني عبود ،نحو فلسفة عربية للتربية، ص ٣٤، بتصرف، دار الفكر العربي، بدون ط، القاهرة – مصر ،سنة ١٩٧٦م.

٢- د. فاخر عاقل، معالم التربية - دراسات في التربية العامة والتربية العربية، ص ١٤، بدون ط، بيروت – لبنان، سنة ١٩٦٤م .

٣- علي خليل أبو العينين، فلسفة التربية الإسلامية في القرآن الكريم، إشراف د.إبراهيم عصمت مطاوع، د.عبد الغني عبود، تقديم د. عبد الغني عبود، ص ٣٧، دار الفكر العربي، ط٢، بيروت – لبنان، سنة ١٩٨٥م.

ولكنه التعتيم الحاقد، والذي لا يزال يلاحقنا مزرياً بمناهجنا، مستهزئاً بنظمنا التعليمية، مُصِرّاً على الدخول فيها، والغريب أن فينا من تَغَرَّبَ رغم إسلامه، ورأى أن فساد التعليم لا صلاح له إلا بالرجوع إلى الغرب، والاستعانة بمفكريه، والسماع لهم في صمت، والانقياد دون مراجعة، والغريب أنهم لم ينجحوا في تربية مجتمعاتهم، وظهرت أمارات فشلهم فيما كتب بعضهم، أو كتب عنهم، ومع ذلك ندعوهم للقيام على نظمنا التربوية.

٥- أهمية الدراسة ودوافعها وأهدافها :

" لقد وقع الشرق العربي والإسلامي في أحضان التربية الغربية، ونظمها التعليمية، ومناهجها الفكرية، وقيمها، ومثلها العليا، وتصورها للحياة الإنسانية والإنسان، ونظرتها للعلوم والآداب، كما يترامى الطفل الصغير في أحضان مرب كبير، ويقبل نظامه التعليمي، وبالأصح فكرية التعليم بحذافيرها على علاتها التي نشأت واختمرت في بيئة تؤمن بعقائد وأسس ومبادئ وقيم ومفاهيم ومثل تختلف كل الاختلاف عن العقائد والأسس والمبادئ والقيم والمفاهيم والمثل التي يؤمن بها ويعيش لها، ويجاهد في سبيلها، بل تقوم على هدمها ونفيها أحياناً، والتهكم بها والاستهانة بقيمها، أحياناً أخرى" [١].

وكما قاسى الشرق العربي والإسلامي من ويلات الغرب كمستعمر، عانى منه كمخرب لفكره، مدمر لثقافته، حريص على أن يكون ولاء الأجيال له، وأن ينصرفوا عن تراثهم، ولو كان أساس هذا التراث معصوماً (القرآن الكريم والسنة الشريفة) وحين اتجه هؤلاء المغلوبون

١- أبو الحسن الندوي، نحو التربية الإسلامية الحرة في الحكومات والبلاد الإسلامية، ص ١٠، المختار الإسلامي، القاهرة – مصر ، سنة ١٩٧٦م.

على أمرهم إلى التربية جعلوا الغرب قبلتهم، بل خطط لهم الاستعمار أنظمتهم التعليمية لا التربوية، وتتلمذ الرعيل الأول على يديه في بلاده ومدارسه مباشرة، أو على أساتذة استقدموا للشرق كمعلمين، أو بقراءة ما كتب علماؤه، أو ترجم عنهم، وكانت النهضة كما سموها تعليمية لا تربوية، وإن سبقت التربية التعليم في كثير من البلاد كمسمىً للكيان القائم على التعليم، وجعلوا التربية الإسلامية مادة تدمج مناهجها، ويختصر وقتها في بلاد، أو يتسع في بلاد أخرى، وأياً ما كان فليست هذه هي التربية الإسلامية المرادة، والتي يجب أن تصاحب الطفل منذ مولده، بل تسبقه في اختيار أمه، وانتقاء أبيه، ثم ترافقه في المجتمع، والمؤسسات التعليمية على اختلاف مراحلها، ويراها في بيئته التعليمية: معلميه، وإدارة مدرسته، بل العاملين فيها جميعاً.

وحين كان التطور العلمي، وصارت التربية مادة مستقلة لها فروعها، ودارسوها وأساتذتها جعل الدارسون الغرب قبلتهم، وأساتذته المثل العليا لهم، ونظريات غير المسلمين في أوروبا وغيرها مرجعهم، ومَنْ ألَمَّ منهم بالإسلام مَرَّ بنتف منه مروراً عابرًا، فتمخضت التربية في بلاد الإسلام عن " طبقة مضطربة في عقائدها وأفكارها وسيرتها وأخلاقها، وأحسن أحوالها أن تكون مذبذبة بين الفكرة الغربية والفكرة الإسلامية، وإلا فهي في أكثر الأحيان تنسلخ من كل ما يدين به مجتمعها وأمتها وبلادها" [1].

هذا والاستعمار يحاول أن يجعل التراث الإسلامي نسياً منسياً، وإن كانت حضارته قد أفادت منه كثيراً، وأقامت نهضتها العلمية على ما خطه أقلام سلفنا فكان منطلقاً لحضارة عملاقة باهرة، وإن كانت مادية طاغية، وكانت التربية كغيرها من العلوم، فقد عرف الغربيون عن قرب

١- أبو الحسن الندوي، نحو التربية الإسلامية الحرة، في الحكومات والبلاد الإسلامية، ص ١٠، مرجع سابق

أعلام السلف الذين خاضوا غمارها من أمثال (الغزالي، وابن سينا، وابن خلدون، وغيرهم)[١] وتأثروا بهم، واستفادوا منهم كثيراً في أبحاثهم، وإن زعموا لأنفسهم سبقاً.

وقد ظلت التربية في بلاد الإسلام غريبة الوجه، والملامح، والتوجهات، وإن تعرَّبَ لسانها حتى قيض الله لها من امتلأت قلوبهم غيرة على الإسلام وتراثه، واعتزازاً بسلف الأمة وعلمائها، ورأوا في التربية الإسلامية ما يكفي ويغني فعكفوا على دراستها، وشرفوا بتناول المعطيات التربوية في مصدريها (القرآن الكريم والسنة النبوية) ومما يسعد حقاً أن فيض الرسائل حول موضوع التربية الإسلامية قد بدأ يزداد، وأن المجال قد بدأ يتسع، ليشمل المناهج، وطرق التدريس، وعلم النفس أيضاً، كما بدأ في قسم التربية المقارنة، إلا أن الأمر يحتاج إلى وقت حتى تتم بلورة هذه الموضوعات، التي تجري حالياً، مع شباب مؤمن، مقتنع بالمجال، ومستعد للبذل والتضحية ليصل إلى (شئ) فيه"[٣] .

وقد أحببت أن أشارك بجهد في هذا المجال لعل تلك الجهود تثمر ما يجب أن يوقن به المسلمون .

- أن منهج التربية الإسلامية أكمل، وأشمل، وأدق، وأصدق مناهج التربية.

- أن منهج القرآن الكريم في التربية أعدل المناهج، وأوفقها في التربية، وقد فصلته، وأوضحته السنة النبوية الشريفة.

١- تأتيك تراجمهم في طاقة من أعلام التربية الإسلامية الأوائل في ص (٣٥).

٣- عبد الغني عبود في تقديم كتاب علي خليل أبو العينين، فلسفة التربية الإسلامية في القرآن الكريم، ص(٦- ٧) بتصرف، مرجع سابق.

- أن التربية الإسلامية أسبق من التعليم لأن اللّه تعالى ما أقرأ رسوله (ﷺ) إلا بعد تربيته له فقال جل شأنه (**اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ**) [1].
- أن يدرك المسلمون أن في التربية الإسلامية ما يكفي، ثم نأخذ من غيرنا ما يتفق وقيمنا الروحية، وبيئتنا الإسلامية.

وإني لموقنٌ أن أجد في كتاب اللّه تعالى ما يُثري الدراسة، بل يُثري في نفس الموضوع بحوث الباحثين أياً كان عددهم، أو كانت توجهاتهم وقدراتهم إلى أن يرث اللّه الأرض ومَنْ عليها فعطاء القرآن لا ينفد، ومدده لا ينقطع **(قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَاداً لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَداً**) [2].

وربما لا تتيسر المراجع التربوية المتخصصة في موضوع الدراسة فأجد في كتب التفسير، وكتابات السلف، ومفكري الإسلام خير عون، ثم تلك النصائح الغالية والتوجيهات الخبيرة من الأستاذ الدكتور المشرف على الرسالة ففيها ما يجيب على كثير من تساؤلاتي، ويفسح لي الطريق إلى عطاء أوفر بفضل اللّه ورحمته.

١- سورة العلق الآية (١) .

٢- سورة الكهف الآية (١٠٩).

الفصل الثاني :

مفهوم التربية

" قد يبدو أن ليس من أمر أسهل من تعريف كلمة التربيةEducation ، ومع ذلك ما نكاد نقبل على هذا التعريف حتى تجابهنا منذ الخطوات الأولى بعض الصعوبات، ولا غرو فعلى التعريف الذي سنتبناه قد يتوقف سائر اتجاه دراستنا، وتتحدد توجهاتنا" [١] .

تعريفات أولية :

إذا نحن بحثنا في المعاجم اللغوية لتحديد معنى التربية فإننا نجد أنها ترجع في أصلها اللغوي العربي إلى الفعل (ربا – يربو) أي نما وزاد، وفي التنزيل الحكيم : (**وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ**) [٢]، أي نمت وزادت لما يتداخلها من الماء والنبات، وتقول رُبِّي في بيت فلان أي نشأ فيه ورباه بمعنى نشأه ونَمَّى قواه الجسدية والعقلية والخلقية، وفي التنزيل الحكيم أيضاً: (**قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيداً وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ**) [٣]، (**وَقُلْ رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً**) [٤].

" وورد في الصحاح في اللغة والعلوم أن التربية هي تنمية الوظائف الجسمية والعقلية والخلقية كي تبلغ كمالها عن طريق التدريب والتثقيف .

١- رونيه أوبير، التربية العامة، ترجمة د. عبد الله عبد الدايم، ص(٢١)، بتصرف، دار العلم للملايين، ط، بيروت- لبنان، ١٩٧٢م .

٢- سورة الحج الآية (٥) .

٣- سورة الشعراء الآية (١٨) .

٤- سورة الإسراء الآية (٢٤).

وهكذا يتضمن المعنى اللغوي عملية النمو والزيادة، ومن الطبيعي أن يكون هذا النمو وتلك الزيادة من جنس الشيء وطبيعته، وبالنسبة للإنسان يكون هذا النمو في جسمه وعقله وخلقه كما سبق .

وهذا المعنى اللغوي للتربية على أنها عملية نمو هو لب معنى التربية بمعناها الاصطلاحي في أذهان المربين .

والواقع أن هناك عدة معانٍ للتربية تتفرع كلها من عملية النمو، فهي بالمعنى الواسع تتضمن كل عملية تساعد على تشكيل عقل الفرد وخلقه وجسمه باستثناء ما قد يتدخل في هذا التشكيل من عمليات تكوينية أو وراثية، وهي بهذا المعنى تعني التنشئة الاجتماعية المتكاملة للفرد، وهذا هو المعنى الاجتماعي للتربية .

والتربية بمعناها الضيق تعني غرس المعلومات والمهارات المعرفية من خلال مؤسسات معينة أنشئت لهذا الغرض كالمدارس مثلاً، وهي بهذا المعنى تصبح مرادفة للتعليم، ولا شك في أن التعليم هو جانب جزئي من جوانب التربية يقتصر على تنمية الجانب العقلي والمعرفي، وهذا هو مفهوم التربية بالمعنى التعليمي أو التثقيفي، وهذا المعنى للتربية هو من جانب المتعلم سواء كان تعلمه من خلال اكتشافاته وخبراته الخاصة أو من خلال تعلمه على أيدي أناس آخرين" [1].

في اللغة الإنجليزية كلمة (تربية) Education مشتقة من الكلمة اللاتينية Educare أو Educere، وتعني أن تقود إلى الخارج (مستخرج) To lead out وبالتالي صار مفهوم التربية عند الذين تبنوا هذا المعنى هو: البحث عن المعاني الفطرية عند الطفل واستخراجها .

١- د. محمد منير مرسى، أصول التربية الثقافية والفلسفية ص (١٣ - ١٤)، عالم الكتب، بدون ط، القاهرة- مصر، سنة ١٩٧٩م .

كما ورد عن أفلاطون الذي كان يرى أن التربية هي أن نستحضر للوعي الحقائق الكامنة في التلميذ .

إلا أن الملاحظ أن كلاً من(Educare & Educere) قد تم استعمالهما من قبل الرومان عند إشارتهم لتربية الأطفال، وبالتالي أصبح من الصعب أن نقرر فيما إذا كان أحد الاشتقاقين هو الأصل لكلمة تربية .

بالإضافة إلى ما تقدم فإن كلمة (Educere) قد استعملت أيضاً لتعني (تدريب) بالإضافة إلى المعنى الأول الذي أشرنا إليه وهو: أن نقود إلى الخارج (مستخرج)، كما أن كلمة (Educare) بالإضافة إلى معنى (تدريب) قد استعملت أيضاً لتعني (يغذي، ويربي) Nourish في صلتها بالنبات.

إن هذا يعني أن الكلمتين قد استخدمتا بالمعنيين المتعارضين في التربية.

ويقول رونيه أوبير:"صحيح أن الكلمة محدثة بعض الشيء: إذ يذكر معجم (هاتزتفيلدHatzfeld) و (دارمستر Darmester) و (توماس Thomas) أننا لا نقع عليها في اللغة الفرنسية قبل عام ١٥٢٧م، ونحن نجدها في جميع المعاجم منذ عام ١٥٤٩م، كما نجدها في المعجم الفرنسي اللاتيني لصاحبه (أوبير إتيين) حيث نجدها ملحقة بكلمة طعام . ولكنها مع ذلك لم تكن تظهر في النصوص إلا نادراً، على أنها ليست من الوجهة الاشتقاقية سوى نقل عن اللاتينية، وهو نقل قام به أصحاب النزعة الإنسانية في عصر النهضة الأوروبية، فاللغة اللاتينية كانت تستخدم الكلمة للدلالة على تربية النباتات أو الحيوانات وللدلالة على الطعام وعلى تهذيب بني البشر دون ما تفريق بين هذه الأحوال جميعها، وفي عام ١٦٤٩م لم يكن المجمع العلمي الفرنسي يعرف غير المعنى الأول لهذه الكلمة، فلم يكن يفهم من التربية سوى تكوين النفس والجسد، وكان يجعل منها والتعليم شيئاً واحداً

إذ يرى فيها العناية التي نقدمها لتعليم الأطفال، سواء فيما يتصل برياضة النفس أو رياضة الجسد" [1] .

حول مفهوم التربية :

" **عند جون ديوي** ..

(التربية هي الحياة نفسها، وليس مجرد إعداد للحياة، وأنها عملية نمو وعملية تعلم، وعملية بناء، وتجديد مستمرين للخبرة، وعملية اجتماعية)

مرجريت ميد :

رأت أن التربية هي.. (العملية الثقافية، والطريقة التي بها يصبح الوليد الإنساني الجديد عضواً كاملاً في مجتمع إنساني معين)

فالتربية عند هذين عملية استخراج إمكانات الفرد في إطارها الاجتماعي."[2]

وتكوين اتجاهاته، وتوحيد نموه، وتنمية وعيه بالأهداف التي تسعى الجماعة إلى تحقيقها أي أن التنشئة التربوية هنا تهدف إلى تشكيل أفراد من البشر في مجتمع معين بحيث يكتسبون الاتجاهات والمعايير والأيدلوجيات التي تسود النظام الاجتماعي وتوجهه.

والتربية كعملية لها أهميتها في بناء الأفراد والجماعات، وثيقة الصلة بالزمان والمكان شديدة التأثر بالنواحي الروحية والجسمية والخلقية، والاجتماعية والاقتصادية والثقافية وغير ذلك مما يؤثر في الإنسان فرداً، أو عضواً في جماعة .

" يقول (ليتري Littre) : إن التربية هي العمل الذي نقوم به لتنشئته طفل أو شاب، وإنها مجموعة من العادات الفكرية أو اليدوية التي تكتسب ومجموعة من الصفات الخلقية التي تنمو، وفي هذا التعريف نقع على طائفة

١- رونيه أوبير، التربية العامة، ص ٢٢، مرجع سابق .

٢- د. محمد منير مرسي، أصول التربية الثقافية والفلسفية، ص(١٥- ١٦)، بتصرف، مرجع سابق.

من الكلمات كل واحدة منها تثير مشكلة، ف (ليتري) يفرق في تعريفه هذا بين العمل الذي نمارسه وبين نتيجة هذا العمل، وهو يتحدث بعد ذلك وفي تتمة هذا التعريف عن التربية المهنية، وعن التربية الأولى التي هي عنده مجموعة ضروب العناية والتعاليم التي نقدمها في دور الطفولة الأولى"[1].

" وإذا ما اتجهنا شطر الفلاسفة، وجدنا تعريفات متباينة تباين مذاهبهم الفلسفية ولنذكر بعض هذه التعريفات :

إن التربية في نظر (هربارت Herbart) موضوع علم يجعل غايته (تكوين الفرد من أجل ذاته، بأن نوقظ فيه ضروب ميوله الكثيرة) .

وهي عند وليم جيمس مادة فن (يكتسب في الصف عن طريق ضرب من الحدس وعن طريق الملاحظة التعاطفية للوقائع ولمعطيات الواقع).

أما دوركهايم Durkhiem فيرى فيها تكوين الأفراد تكويناً اجتماعياً ويرى جيمس ميل (James mill) الفيلسوف النفعي أن موضوع التربية (أن نجعل من الفرد أداة سعادة لنفسه ولغيره) .

ويضع (ستوارت ميل Sruart Mill) فيها جميع المؤثرات التي يعانيها الإنسان، سواء أتت من الأشياء أو من المجتمع أو من الناس :

(إنها جميع ما نقوم به من أجل أنفسنا، وما يقوم به الآخرون من أجلنا بغية الاقتراب من كمال طبيعتنا، وهي في مفهومها الأوسع تشمل حتى الآثار غير المباشرة التي تحدثها في طبع الإنسان وملكاته أمور غايتها مباينة لما ذكرنا: ونعني بذلك الآثار التي تتركها القوانين وأشكال الحكم والفنون الصناعية بل حتى الحوادث الطبيعية المستقلة عن إرادة الإنسان، كالمناخ والتربية والوضع المحلي)". [2]

١- رونيه أوبير ، التربية العامة، ص (٢١- ٢٢) بتصرف، مرجع سابق .

١- رونيه أوبير، التربية العامة، ص(٢٢- ٢٣)،مرجع سابق.

"ويقول لودج: (هناك معنيان للتربية أحدهما واسع والثاني ضيق، أما المعنى الواسع فيعني أن التربية تعادل الخبرة أي خبرة الكائن الحي في تفاعله مع بيئته الطبيعية أما في معناها الضيق فيقصد بها التعليم المدرسي).

وقديماً عرف أفلاطون التربية بأنها تدريب الفطرة الأولى للطفل على الفضيلة من خلال اكتسابه العادات المناسبة .

ويعرف ميلتون التربية الصحيحة بأنها التربية التي تساعد الفرد على تأدية واجباته العامة والخاصة في السلم والحرب بصورة مناسبة وماهرة .

ويرى توماس الأكويني أن الهدف من التربية تحقيق السعادة من خلال غرس الفضائل العقلية والخلقية .

ويرى هيجل أن الهدف من التربية العمل على تشجيع روح الجماعة وتخليص الفرد من روح الأنانية .

ويعرف دروكهايم التربية بأنها الإجراء الذي يمارسه الأجيال الأكبر سناً على الأجيال التي لم تستعد للحياة الاجتماعية، وهدف التربية إيقاظ وتنمية تلك الجوانب الجسمية والعقلية والخلقية للطفل التي يتطلبها منه كل من المجتمع والبيئة التي أعد من أجلها .

ويعرف هرمان هورن وهو أحد الفلاسفة المثاليين التربية بأنها العملية الخارجية للتوافق السامي مع الله من جانب الإنسان الحر الواعي الناضج جسمياً وعقلياً، كما يعبر عن هذا التوافق في بنية الإنسان العقلية والانفعالية والإرادية .

ويقول بتسالوتزي في معنى التربية: (إن التربية الحقة المثمرة تتمثل أمامي كشجرة غرسها على مقربة من مياه جارية .. بذرتها الصغيرة التي تنمو منها الشجرة وتستمد منها صفاتها المدفونة في الطمي والشجرة كلها سلسلة متصلة الحلقات مكونة من أجزاء عضوية، والإنسان يشبه هذه الشجرة وفي الطفل تكمن كلُّ الملكات والقوى الإنسانية التي تنمو فيما

بعد كما أن الفرد وأعضاءه المختلفة لا تلبث أن تتشكل وتصير وحدة متكاملة، ويصير الإنسان نفسه على الصورة الإلهية المقدسة، ومن هنا كانت تربية الإنسان نتيجة أخلاقية بحتة .

ويقول ديوي في التربية : إني أعتقد أن الطفل الذي نريد تربيته فرد اجتماعي وأن المجتمع وحدة عضوية مؤلفة من أفراد، وإذا نحن أسقطنا العامل الاجتماعي من حساب الطفل بقينا أمام شيء مجرد وإذا أسقطنا العامل الفردي من المجتمع لم يبق إلا جمهور بغير حركة أو حياة .

من أجل ذلك كان لا بد للتربية أن تبدأ بالنظر في قوى الفرد واهتماماته وعاداته وكان لا بد أن تضبط بالرجوع إلى هذه الاعتبارات ولا بد أن تفسر على الدوام هذه القوى والاهتمامات والعادات بمعرفة ما تدل عليه، ولا بد من ترجمتها إلى نظائرها الاجتماعية أي إلى اللغة التي بها تستطيع القيام بخدمة اجتماعية .

ويتفق بستالوتزي مع فروبل على أن التربية يجب أن تستهدف الإصلاح الاجتماعي من خلال تنمية إمكانيات الفرد". [1]

ونجد أن أكاجون ديوي وهو أحد البراجماتيين يعلن أن : التربية قد تعرف بأنها عملية مستمرة لإعادة بناء الخبرة بهدف توسيع وتعميق مضمونها الاجتماعي، بينما يحظى الفرد بالتحكم في الطرائق المتضمنة .

"وهكذا يرى ديوي أن التربية نمو إلى ما هو أحسن بالنسبة للفرد والجماعة وفي رأيه أنه ليست هناك أهداف ثابتة للتربية"[1] .

"ومع ذلك يتفق الفلاسفة بوجه عام على حد التربية بالعمل الإرادي الذي يحدثه الراشدون في الصغار بغية إيصالهم بدورهم إلى مرحلة الرشد"[2].

١- د. محمد منير مرسي، أصول التربية الثقافية والفلسفية، ص (١٥- ١٦)، مرجع سابق .

١- نفس المرجع والصفحة.

٢- رونيه أوبير، التربية العامة ص(٢٣)، مرجع سابق .

" ويصف عالم النفس (هنري جولي Henri Joly) التربية بأنها مجموعة الجهود التي تهدف إلى أن نيسر للفرد الامتلاك الكامل لمختلف ملكاته، وحسن استخدامها.

ويرى فيها عالم الاجتماع دوركهايم: العمل الذي تحدثه الأجيال الراشدة التي لم تنضج بعدُ النضج اللازم للحياة الاجتماعية، وموضوعها عنده أن تثير لدى الطفل وتنمي عنده عدداً من الحالات الجسدية والفكرية والروحية التي يتطلبها منه المجتمع السياسي في مجموعه والبيئة الخاصة التي يهيأ لها بوجه خاص .

ويدعم (جون ديوي John Dewey) رأياً شبيهاً بهذا فيقول: (إذا تحدثنا بلغة النوع قلنا إنَّ التربية تعني مجموعة العمليات التي يستطيع بها مجتمع أو زمرة اجتماعية، صغرت أو كبرت، أن ينقلا سلطاتها وأهدافها المكتسبة بغية تأمين وجودهما الخاص ونموهما المستمر .

ولا شك أننا نستطيع أن نتفحص العملية من وجهة نظر المراهقين الذين سيصبحون أعضاءً في المجتمع يرعون نموذج الحياة العام القائم في مجتمعهم، وإذا نظرنا من هذا المنظار أمكننا أن نعرف التربية بأنها تنظيم مستمر للخبرة، هدفه توسيع محتواها الاجتماعي وتعميقه، بينما يهضم الفرد في الوقت نفسه الوسائل الملائمة ويتمثلها، ورغم هذا الاحتياط تظل الغلبة مع ذلك عند ديوي لوجهة النظر الاجتماعية.

وتعريف التربية بأنها العمل الذي يمارسه كائن على كائن آخر هو أكثر التعاريف شيوعاً وأقدمها، ومع ذلك فكل عمل من هذا النوع ليس جديراً بأن يسمى تربية، إذ لا بد بالإضافة إلى ذلك أن يكون هذا العمل تقدماً وأن تكون النتيجة الحاصلة منه نمواً في القيمة .

" ويلاحظ (لابي Lapie) في المادة نفسها أن ليس من المفيد أن نفصل بين العمل الممارس وبين نتيجته، ومع ذلك فبعض الفرق بينهما قائم، وعندما

نتحدث عن التربية الصالحة أو الطالحة، التي يملكها كائن، نعني بذلك جملة من الاستعدادات ترجع إلى الآثار التي يتركها المحيط الخارجي فيه وتحدد تجلياتها أخيراً بسلوك الكائن في المجتمع بل في المجتمع الصالح"[1] .

ولكن هل تشتمل هذه التعريفات جميعها، وكثير غيرها على خصائص مشتركة ؟

هذه الخصائص المشتركة يمكن أن نتبينها من خلال الدراسة، والموازنة بين هذه التعريفات.

إنها جميعاً تجعل الجنس البشري موضوع التربية.

جميعها تعتبر التربية فعلاً يمارسه كائن في كائن آخر، ويمارسه بوجه خاص راشد في صغير، أو جيل بلغ النضج في الجيل الناشئ اللاحق.

وجميعها تقر أن الفعل موجه نحو هدف ينبغي بلوغه، فلكل تربية غاية ووجهة، وهي تخضع لقانون الغائية، غير أن تلك الغاية تنطبق تمام الانطباق على الغاية المعينة للإنسان نفسه، ولهذا نجد المربين يفترقون عندما يقبلون على تحديد محتوى هذه الغاية، ويستبين لنا أن خلافات عميقة تفصل في هذا المجال بين الميتافيزيقيين وعلماء النفس وعلماء الاجتماع والباحثين في الأخلاق والنقاد.

جميعها ترى على الأقل أن هدف التربية لا يتلخص في اكتساب بعض الممتلكات الإيجابية بمقدار ما يتلخص في اكتساب بعض الاستعدادات العامة التي تيسر الحصول على تلك الممتلكات وتخلق لدى الكائن عادة Habitus تضاف إلى طبيعته الأصلية بل يغدو طبيعة ثانية.

ومن هنا نخلص إلى تعريف التربية تعريفاً أولياً فنقول : التربية جملة الأفعال والآثار التي يحدثها بإرادته كائن إنساني في كائن إنساني آخر، وفي الغالب راشد في صغير والتي تتجه نحو غاية قوامها أن يكون لدى

١- رونيه أوبير، التربية العامة ص (٢٣ - ٢٦) بتصرف، مرجع سابق.

الكائن الصغير استعدادات منوعة تقابل الغايات التي يعد لها حين يبلغ طور النضج.

ا - فالتربية إذن ينبغي أن تفهم بأوسع معاني هذه الكلمة، و"روسو Rousseau " على حق حين يريد أن تبدأ منذ المهد بل قبل المهد، ويمكننا أن نضيف أنها لا تنقطع أبداً، فلقد تحدث بعضهم عن تربية الأبناء للآباء، ويمكننا أن نتحدث أيضاً عن تربية الشيوخ إذا كان لابد أن ننتظر الشيخوخة حتى نعد الإنسان لقبول فكرة الموت، على أن هذا التوسع في التعريف محدود من الوجهة العملية بالفكرة التي تقضي أن الكائن يبلغ نضجه حين يملك جميع القابليات اللازمة ليقوم بوظيفته في الحياة، أما وراء ذلك، فالأمر غالباً ليس أمر تربية بالمعنى الحقيقي لهذه الكلمة، وإنما هو سلطة ودعاوة أو نصيحة .

ب - والاستعدادات المكتسبة عن طريق التربية ليست في حد ذاتها ممتلكات اللهم إلا ممتلكات ملحقة ونسبية وإنما هي وسائل للحصول على ممتلكات، فتربية العقل ليس هدفها امتلاك المعرفة، وإنما هدفها السيطرة على الطرائق التي تسمح باقتناص المعرفة، كذلك ليس هدف تربية العواطف السعادة، وإنما هو خلق القابلية العاطفية للسعادة .

جـ - ثم إن البنية الجسدية والنفسية التي تكتسب بتأثير التربية ليست (طبيعية)، على حد تعبير أرسطو، وإنما هي (كالطبيعة) فقد لا تكون سوى تفتح لهذه الطبيعة الأصلية، ولكن قد تكون أيضاً مناقضة لها بوجه من الوجوه بحيث تحل محلها، وحتى في الحال

الأولى، هي تعارض الطبيعة الأصلية معارضة ما هو بالفعل لما هو بالقوة وما يحتمل وبالتالي أشكالاً مناقضة [1].

اختلاف النظرة إلى مفهوم التربية :

" من الطبيعي بالنسبة لموضوع هام كالتربية أن تختلف وجهات النظر فيه، وقد عرضنا لبعض الآراء والتعريفات التي توضح هذا الاختلاف :

فقد ينظر إلى التربية على أنها تهذيب الخلق وتنمية الخلال الحميدة في الإنسان وتربيته على الكمال والفضيلة وهذا هو مفهوم التربية بمعناها التهذيبي أو التأديبي .

وقد ينظر إلى التربية على أنها عملية روحية لتعميق إيمان الإنسان بخالقه وتقوية صلته به.

وقد يقصد بها تسامي الإنسان عن رغباته الدنيوية وحاجاته المادية والبيولوجية.

وقد يقصد بالتربية عملية إعداد الإنسان لحياة الكبار أو تكيفه لبيئته المادية والاجتماعية .

وقد ينظر إلى التربية على أنها خدمة المثل العليا للمجتمع، ومن ناحية أخرى خدمة المثل العليا للفرد وقد يجمع بين النظرتين في ظل الديمقراطية مثلاً .

وقد ينظر إلى التربية على أنها عملية تنمية اجتماعية .

وقد ينظر إليها على أنها عملية اقتصادية تعني استثمار الأموال في الموارد البشرية التي هي عنصر هام من عناصر الإنتاج الرئيسية، ويصبح هدف التربية في ظل هذا المفهوم إعداد القوى البشرية المدربة التي تستطيع أن تقدم بدورها في مجال العمل والإنتاج، وأن التربية لها دور رئيسي في عملية التنمية الاقتصادية ولها عائدها ومردودها الاقتصادي الذي يفوق أي عائد

١- رونية أوبير، التربية العامة، ص (٢٧)، بتصرف يسير، مرجع سابق .

نحصل عليه من أي مجال استثماري آخر، وهذا مفهوم التربية بمعناها الاقتصادي .

وقد يجمع بين أكثر من وجهة نظر من النظريات السابقة، وقد يجمع بينها جميعاً .

وهناك معنىً آخر مخالف لكل ما سبق وهو أنه قد ينظر إلى التربية على أنها أحد فروع المعرفة الأكاديمية الذي ينقسم إلى تخصصات مختلفة في فلسفة التربية وأصولها وتاريخها ومناهجها وطرق تدريسها وغيرها من التخصصات التي تنقسم إليها التربية وهذا هو معنى التربية بالمعنى المهني" [1].

١- د.محمد منير مرسى، أصول التربية الثقافية والفلسفية، ص (١٧ - ١٨)، مرجع سابق .

التربية في الإسلام:

لقد خاض غمار التربية صفوة من أفذاذ المسلمين من فلاسفة، وفقهاء، ومربين، وطالعوا الإنسانية في عصور الظلام والتخلف بآراء في التربية، ومبادئ رئيسة، قوامها ما حفل به الكتاب العزيز، والسنة النبوية الشريفة،مضيفين ما اتسعت له عقولهم من ثقافة دينية، وعلمية، وحضارية، ووضعوا أسساً وأساليب في التربية بالغة الأثر، قوية فاعلة، كانت منطلق من بحثوا، وألفوا وصاغوا آراء ونظريات في العصر الحديث.

" لقد كتب في التربية فلاسفة المسلمين من أمثال ابن سينا[١] وابن مسكويه[٢] والغزالي[٣]، كما كتب الفقهاء من أمثال ابن سحنون[٤] والقابسي[٥] والعبدري[٦]، كما كتب المثقفون من أدباء ومؤرخين وتربويين

١- ابن سينا: الشيخ الرئيس أبو علي الحسين بن عبد الله بن سينا، حفظ القرآن الكريم وهو صغير ودرس اللغة والأدب والفلسفة والمنطق وعلم الكلام، له مؤلفات عديدة منها الشفاء والقانون والأدوية القلبية توفي سنة ٤٢٨هـ.

٢- ابن مسكويه: أحمد بن محمد بن يعقوب مسكويه أبو علي: مؤرخ بحاث أصله من الري وسكن أصفهان، اشتغل بالفلسفة والكيمياء والمنطق مدة ثم أولع بالتاريخ والأدب والإنشاء ألف كتباً نافعة منها (تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق) عمر طويلاً، وتوفي سنة (٤٢١هـ - ١٠٣٠م).

٣- الغزالي: الإمام أبو حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي، ولد بطوس بخراسان،له مؤلفات عديدة مشهورة منها إحياء علوم الدين والمستصفى، مات وعلى صدره صحيح البخاري سنة ٥٠٥هـ.

٤- ابن سحنون: الإمام محمد بن عبد السلام (سحنون)، فقيه مالكي من أهل القيروان، لم يكن في عصره أجمع لفنون العلم منه، له مؤلفات عديدة منها آداب المعلمين، توفي سنة (٢٥٦هـ ، ٨٧٠م).

٥- القابسي: أبو الحسن علي بن محمد بن خلف المعافري القروي الإمام الحافظ المحدث الفقيه علامة المغرب، رحل إلى الشرق ثم عاد إلى القيروان. من مؤلفاته الرسالة المفصلة لأحوال المتعلمين والمعلمين ، توفي سنة ٤٠٣ هـ.

٦- العبدري: محمد بن محمد بن محمد أبو عبد الله المشهور بابن الحاج، من وجوه المالكية كان قاضياً فقيهاً خبيراً بمذهب مالك من تصانيفه المدخل، نزل مصر وفيها توفي سنة ٧٣٧هـ.

٧- الجاحظ: عمرو بن بحر بن محبوب الكناني بالولاء الشهير بالجاحظ، كبير أئمة الأدب ولد بالبصرة،له تصانيف كثيرة منها البيان والتبيين، قتلته مجلدات من الكتب بالبصرة سنة (٢٥٥هـ- ٨٦٩م) .

٨- ابن خلدون: العلامة عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي ولد في تونس ، تلقى تعليمه على عدد كبير من الأندلسيين المهاجرين إلى تونس، له مؤلفات عديدة منها في التاريخ "العبر" وفيه مقدمته الشهيرة. توفي في مصر سنة ٨٠٨هـ .

٩- طاش كبرى زاده: أحمد بن مصطفى أحد علماء المسلمين الأتراك، له مؤلفات في الأدب والأخلاق، =

كالجاحظ[٧] وابن خلدون[٨] وطاشْ كُبرى زادَه[٩]، وآخرون معلومون ومجهولون، كلهم كتبوا من وجهات نظر مختلفة، وتناولوا جوانب متعددة في التربية، سواء أفردوا لها فصولاً خاصة، أو كتباً مستقلة بذاتها، أو على العكس عرضوا لها في ثنايا كتاباتهم العامة التي سلموا بصحتها وآمنوا بفاعليتها، ونصحوا بالعمل بها، وكانت عندهم في موضع اهتماماتهم المفضلة، فكانت في النهاية خلاصة هذه النظرية التربوية عند المسلمين، وقد أخرجوا إلينا معجماً تربوياً، غنياً بلغته الاصطلاحية، والتي ترسم حدود هذا العلم، بل لعل كثيراً مما نستخدمه في لغتنا التربوية المعاصرة يستمد أصوله من روافد هذه اللغة التربوية الإسلامية التي عرفها أجدادنا منذ قرون بعيدة ونقدم على سبيل المثال ألفاظاً اصطلاحية أو فنية لها دلالتها في هذا المجال.

التعليم: طرقه، والتدرج فيه، التأديب، التربية، الطبع، الغريزة، الميل والدوافع، الاستعداد والتهيؤ، اختبار الذكاء وسبر القريحة، العقل المطبوع والعقل المصنوع (أو الفطري والمكتسب)، تحصيل المعرفة، آداب المعلمين وآداب المتعلمين، العقوبة (أو الضرب) وحدودها، اللعب وآثاره، صحة النفس، وصحة العقل، التوجيه للصنعة، مراحل تطور الطفل، الانفعالات: أعراضها وآثارها، التعلم طول الحياة، المراهقة، سنها وأعراضها، الملكات كملكة الحفظ، وملكة التذكر، وملكة التخيل" [١].

وإني سأورد لمحات محدودة عن توجهات بعض من هؤلاء لنتعرف على قليل من تراثنا التربوي، وروادنا التربويين ملقياً الضوء ما استطعت على بعض ملامح التربية لدى كل منهم، مشيراً إلى سبقهم، وتفوق عطائهم التربوي في وقت كان العالم فيه لا يدرك معنى التربية.

= وله باع طويل في ميدان الدراسات الموسوعية منها مفتاح دار السعادة ومصباح البيان، توفي سنة (٩٦٨هـ - ١٥٦١م).

١ - د. محمود قمبر، دراسات تراثية في التربية الإسلامية، جـ٢، ص(١٦- ١٧) بتصرف، دار الثقافة، ط١، الدوحة- قطر، (١٤٠٧هـ- ١٩٨٧م).

إخوان الصفاء:

والمعرفة عندهم مكتسبة، ويكون الطريق إلى تحصيلها الذي يعتمد على المداومة والنظر، وأصل المعرفة عندهم الحواس .

" والمعقولات التي هي في أوائل العقول ليست شيئاً سوى رسوم للمحسوسات الجزئيات الملتقطة بطريق الحواس من الأشخاص مجموعة في فكر النفس المسمى أنواعاً وأجناساً، وكل من كان أكثر تأملاً للمحسوسات، وأدق نظراً في أمور الموجودات، وأجود بحثاً عن الخفيات، وأكثر تجارب للأمور الدنيوية، وأحسن اعتباراً لأهلها كان أرجح عقلاً من أبناء جنسه، وأكثر علماً من أهل طبقته "[1].

ويرون الدليل على ذلك قوله تعالى:

(وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٧٨)) [2] .

وقد فطن إخوان الصفاء إلى قيمة المعلم وضرورته في تلقين العلوم والمعارف وإن اشترطوا في المعلم شروطاً تتفق مع مذهبهم، وتخدم أغراضهم، وقد نبه إخوان الصفاء إلى أهمية التربية والتعليم في طبع النفوس بالآراء والسجايا مما يصعب محوه بعد ذلك، ولكنهم أغفلوا مع ذلك حلقة أولى في التعليم، بل هي أساس بنيانه، وهي مرحلة تعليم الصبيان حتى سن الخامسة عشرة .

١- إخوان الصفاء، رسائل إخوان الصفاء وخلان الوفاء، جـ٣ ص ٤٢٥ بتصرف، المطبعة العربية ، بدون ط، بيروت- لبنان، سنة ١٩٢٨م.

وإخوان الصفاء هم جماعة سرية من المفكرين عاشت في البصرة بالعراق في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري وكان لها فرع في بغداد ، ولم يعرف من أشخاصها سوى خمسة يتغشاهم الغموض والشك ويرى كثير من الدارسين أنها جماعة باطنية إسماعيلية ووضعت رسائل في العلوم الرياضية والدينية والكونية والفلسفية.

٢- سورة النحل الآية (٧٨) .

فطن إخوان الصفاء إلى أهمية التعليم في طبع النفوس على العقيدة فقالوا: "واعلم أن مثل أفكار النفوس قبل أن يحصل فيها علم من العلوم واعتقاد من الآراء كمثل ورق أبيض نقي لم يكتب فيه شيء، فإذا كتب فيه شيء حقاً كان أم باطلاً فقد شغل المكان، ومنع أن يكتب فيه شيء آخر، ويصعب حكه ومنعه" [1].

" وقد نظروا إلى التربية والتعليم نظراً عقلياً لا علمياً .

فعرفوا العلم بأنه: (صورة المعلوم في نفس العالم)، وضده الجهل وهو عدم تلك الصورة من النفس .

وطريق اكتساب المعلومات عندهم إنما يكون بثلاث طرق:

الأول : الحواس الخمس التي يدرك بها الأمور الحاضرة في الزمان والمكان.

الثاني: استماع الأخبار التي ينفرد بها الإنسان عن سائر الحيوان يفهم بها الأمور الغائبة عنه بالزمان والمكان جميعاً.

الثالث: القراءة والكتابة طريق يفهم بها الإنسان معاني الكلمات واللغات والأقاويل بالنظر فيها"[2]، كما قال الله تعالى ومَنَّ بها على الإنسان فقال لنبيه محمد ﷺ : (**اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤)**) [3].

١- إخوان الصفاء، رسائل إخوان الصفاء، جـ٤ ص (١١٤)، نقلاً عن د. أحمد فؤاد الأهواني ، التربية في الإسلام، ص(٢٢١)، مرجع سابق .

٢- د. أحمد فؤاد الأهواني، التربية في الإسلام،ص(٢٢١)، دار المعارف، بدون ط، القاهرة- مصر ، ١٩٨٣م.

٣- سورة العلق الآيتان (٣- ٤) .

ابن سينا والتربية :

" عرض ابن سينا في كتاب (السياسة) لواجب الرجل نحو ولده، فبسط أحوال تعليمه وتأديبه بكلام يدل على نفاذ الفكر وصدق النظر مما هو جدير بمقام فيلسوف الإسلام الشيخ الرئيس ابن سينا" [1].

يقول : "إذا فطم الصبي عن الرضاع بدئ بتأديبه، ورياضة أخلاقه قبل أن تهجم عليه الأخلاق اللئيمة، فإن الصبي تتبادر إليه مساوئ الأخلاق فما تمكن منه من ذلك غلب عليه فلم يستطع له مفارقة"[2].

وهكذا يبدأ في التربية من الفطام ليؤصل في نفس الطفل طيب السلوك، وحسن العادات .

وهذه هي نظرية تكوين العادة، وصعوبة الإقلاع عنها، وأغلب المسلمين على هذا الرأي.

ابن سينا والتعليم الجماعي :

وهو يرى أن يكون التعليم في المكتب لا فردياً على مؤدب لأن انفراد الصبي الواحد بالمؤدب أجلب لضجرهما، أما وجود الصبي مع غيره من الصبيان فهو أدعى إلى التعلم والتخرج، فإنه يباهي الصبيان مرة ويغبطهم مرة، ويأنف من القصور عن شأوهم مرة، ثم إنهم يترافقون، ويتعاوضون الزيارة، ويتكارمون، ويتعارضون الحقوق، وكل ذلك من أسباب المباراة والمباهاة، والمساجلة والمحاكاة ، وفي ذلك تهذيب لأخلاقهم، وتحريك لهممهم، وتمرين لعاداتهم"[3]، ويهتم ابن سينا بالمعلم، ويرى قيمته في خلقه وسيرته، ولذلك ينبغي أن يكون: " عاقلاً، ذا دين، بصيراً برياضة

١- د. أحمد فؤاد الأهواني، التربية في الإسلام، ص (٢٢٩)،مرجع سابق

٢- المرجع السابق ص (٢٣٠) .

٢- ابن سينا نقلاً عن المرجع السابق ص (٢٣١).

الأخلاق، حاذقاً بتخريج الصبيان، وقوراً رزيناً، بعيداً عن الخفة والسخف، قليل التبذل والاسترسال بحضرة الصبي" [1].

رأيه في العقوبة:

" أما رأيه في العقوبة فلا يخرج عما هو معروف عند الفقهاء، وموافق لما ذهب إليه القابسي، فهو بالترهيب والترغيب، والإيناس والإيحاش، والحمد مرة، والتوبيخ أخرى، ثم الضرب بعد الإرهاب الشديد"[2].

مسايرة ميول الصبي:

ولقد كان ابن سينا عظيماً في رأيه جديداً في فكره، معبراً عن توجهات حديثة وآراء معاصرة في التربية وعلم النفس حين تحدث عن مسايرة ميول الصبي، ثم توجيهه إلى الصناعة أو المهنة التي تتفق مع ميوله ذلك أنه كما يقول: "ليس كل صناعة يرومها الصبي ممكنة له مواتية، لكن ما شاكل طبعه، وناسبه، وأنه لو كانت الآداب والصناعات تجيب، وتنقاد بالطلب والمران ودون المشاكلة والملاءمة، إذن ما كان أحد غفلاً من الأدب وعارياً من صناعة، وإذن لأجمع الناس كلهم على اختيار أشرف وأرفع الصناعات"[3].

ويستطرد ابن سينا ليوضح لنا كيف يمكن اختيار الصناعة المناسبة أو الاتجاه المناسب للصبي فيقول : "وينبغي لمدير الصبي إذا رام اختيار الصناعة أن يزن أولاً طبع الصبي ويسبر قريحته، ويختبر ذكاءه، فيختار له الصناعات بحسب ذلك "[4].

١- ابن سينا نقلاً عن المرجع السابق ص (٢٣١).

٢- نفس المرجع والصفحة.

٣- د. أحمد فؤاد الأهواني، التربية في الإسلام، ص(٢٣١- ٢٣٢)، بتصرف، مرجع سابق.

٤- المرجع السابق ص (٢٣٢) .

وهو بهذا يفتح آفاقاً ارتادها علماء التربية وعلم النفس، وأقاموا عليها كثيراً من نظريات التربية وعلم النفس في العصر الحديث، واعتبروا لأنفسهم السبق فيها، وما هم بسابقين، بل ربما كانوا عيالاً على علمائنا.

ويرى ابن سينا في تعريفه للتربية أنها :

"وسيلة إعداد الناشئ للدين والدنيا في آنٍ واحد وتكوينه عقلياً وخلقياً، وجعله قادراً على اكتساب صناعة تناسب ميوله وطبيعته وتمكنه من كسب عيشه" [1] .

" وقد أكد ابن خلدون على ضرورة العناية بتنمية عقل المتعلم ومراعاة استعداداته العقلية " [2].

التربية عند الغزالي :

يرى الغزالي أنه ينبغي أن نعلمهم منذ الصغر؛ "لأن التعلم في الصغر كالنقش على الحجر" [3]، ويؤكد على التعليم في الصغر فيقول :

" والطريق في رياضة الصبيان من أهم الأمور و أوكدها، والصبي أمانة عند والديه،وقلبه الطاهر جوهرة نفيسة ساذجة، خالية عن كل نقش وصورة، وهو قابل لكل ما نقش ومائل إلى كل ما يمال به إليه[٥] "

ويهتم الغزالي بالتربية والمربين فيجعل للمتعلم آداباً، وعلى المعلم واجبات تجعل التربية مثمرة والتعليم ذا قيمة حيث إنهما قطبا التربية .

١- د. عبد الحميد الزنتاني، أسس التربية الإسلامية في السنة النبوية، ص(٢٤)، الدار العربية للكتاب، بدون ط، ليبيا – تونس، سنة ١٩٨٤م .

٢- د. عبد الحميد الزنتانى، أسس التربية الإسلامية في السنة النبوية، ص(٢٤)،الدار العربية للكتاب، بدون ط، ليبيا – تونس، سنة ١٩٨٤م.

٣- الإمام الغزالي، ميزان العمل، تحقيق د.سليمان دنيا، ص(٢٢٧)، دار المعارف،ط١،القاهرة- مصر، ١٩٦٤م

٤- الغزالي، إحياء علوم الدين، تخريج العراقي، جـ٣ ص(٦٩)، دار القلم،ط١، بيروت- لبنان، بدون ت.

٥- د. أحمد فؤاد الأهواني، التربية في الإسلام ، ص (٢٣٧) بتصرف .

" وإن كنا نأخذ عليه ما يعيبه على المعلم من أخذ الأجر فهذا من الآراء المثالية التي لا تتفق مع الواقع، ومتطلبات الحياة، مع انتشار التعليم وشدة الحاجة إلى المعلمين في فروع العلم المختلفة، ولم تعد الحياة بالبساطة التي كانت عليها في عهده، وهو فيه مخالف لرأي القابسي" [1]

" ولكن الغزالي بسط هذه المبادئ العامة في إيجاز دون أن يخوض في تفصيل شئون التعليم والتربية، فلم يتكلم على المنهج، أو مكان التعليم أو اليوم الدراسي، أو اختيار الصبيان"[2]، ولا يغض هذا من قيمة الغزالي، أو ينقص قدر عطائه في التربية، فقد تناول أموراً لها أهميتها، ووضع من الأصول ما يُعَدُّ مرجعاً للباحثين .

وآراؤه في التربية تعين المربين على أداء رسالتهم بنجاح فهو يرى:

"١- وجوب تعويد الطفل مكارم الأخلاق، وتجنيبه سيئها .

٢- مكافأة الطفل على جميل خلقه، وحميد فعله، وفي ذلك تشجيع له على الخير، وباعث على الإكثار منه .

٣- وجوب الاقتصاد في اللوم والتعنيف عند وقوع الذنب؛ لأن كثرة العتاب والتوبيخ مما يهون عليه سماع الملامة وركوب القبائح ويخفف وقع الكلام في قلبه .

٤- ألا يؤخذ الغلمان جميعاً بطريق واحدة، ولا يعاملون المعاملة نفسها بل يجب أن يختلف علاجهم باختلاف أمزجتهم وطبائعهم وأسنانهم وبيئاتهم.

٥- وهو يرى أن يسلك المربي سبيل التدرج مع الغلمان الذين لا يقدرون على ترك الخلق السيئ دفعة واحدة.

٦- أن يعود الخشونة في المفرش والملبس، والمطعم، وهو محقٌّ فالرفه أمر طارئ، وقد يزول، فيقع من ألفه في الحرج.

١- المرجع السابق ص(٣٣٧).

٧- أن يمنع من كل ما يفعله في خفية، فإنه لا يخفيه إلا وهو يعتقد أنه قبيح، فلو ترك تعود فعل القبيح.

٨- أن يعود التواضع، والإكرام لكل من عاشره، والتلطف معهم،وغير ذلك مما يصعب استقصاؤه في هذا المجال.

وهذا يجعل الغزالي مدرسة تربوية عميقة الخبرة، جديرة بالبحث والدراسة.

وقد ركز في آرائه التربوية على أن الهدف الأسمى للتربية هو التقرب إلى الله تعالى والاستعداد للحياة الآخرة، ولذلك دعا إلى تربية الصبيان تربية دينية وخلقية قوامها التقشف والزهد في الملذات حتى البريئة منها، ولعل مرد ذلك إلى توجهاته، وما أخذ نفسه به من الزهد والعبادة" [١] .

ابن خلدون وتوجهاته التربوية :

أما عند ابن خلدون " فالتعليم ضروري في البشر لحاجة الإنسان إلى معرفة العلوم المختلفة لا التي تتيسر بالفهم والوعي فقط، بل بملكة خاصة .

والحصول على هذه الملكة في العلم أو الفن يكون بالتعليم ، ولهذا كان السند في التعليم في كل علم أو صناعة إلى مشاهير المعلمين فيها معتبراً عند أهل كل أفق وجيل [٢] "

١- فاخر عاقل، التربية قديمها وحديثها، ص(٥٩- ٦٠) بتصرف، دار العلم للملايين، ط١، بيروت- لبنان، ١٩٨١

٢- د. أحمد فؤاد الأهواني ، التربية في الإسلام ، ص (٢٤٢) مرجع سابق .

"ولابن خلدون آراء تربوية قيمة ترتكز على أسس نفسية صحيحة غالباً نجملها فيما يلي :

- الاعتماد في البدء على الأمثلة الحسية، ذلك أن المبتدئ ضعيف الفهم فلا بد من أمثلة حسية تعينه على فهم ما يلقى إليه.
- ألا يؤتى بالغايات في البدايات ؛ فلا يؤتى بالتعاريف والقوانين في أول الأمر مما يكره الطفل في العلم ويصعبه عليه.
- يكون تلقين العلوم للمتعلمين مفيداً إذا كان على التدريج شيئاً فشيئاً وقليلاً قليلاً .
- إن الشدة على المتعلمين مضرة بهم فإن إرهاق الحد في التأديب مضر بالتعلم سيما في أصاغر الولد لأنه من سوء الملكة، ومن كان مرباه بالعسف والقهر سطا به القهر وضيق على النفس في انبساطها وذهب بنشاطها ودعا إلى الكسل وحمل على الكذب والعبث خوفاً من انبساط الأيدي بالقهر عليه ..
- أن يعتمد في تهذيب الأطفال على القدوة الحسنة فإن الأطفال يؤخذون بالتقليد والمحاكاة أكثر مما يؤخذون بالنصح والإرشاد .
- الرحلة إلى الأقاليم النائية في طلب العلم فإن ذلك يزيد في تجارب المتعلم ويكسبه معارف وعلوماً لا تتاح له لو أقام جميع حياته في بلده".[1]

القابسي والتعليم الإلزامي :

سبق القابسي عصره بقرون حين نادى بالتعليم الإلزامي، وما أخذت الأمم بهذا النظام إلا في عصور متأخرة، ولا تزال تنادي به، وتدعو إليه رغبة في نشر العلم، ومحو الأمية، والذين قصروا التعليم على طبقة معينة، وحرموا أغلب الشعب من نعمة المعرفة إنما كانوا ينظرون إلى مصلحة

١- فاخر عاقل، التربية قديمها وحديثها، ص(٦٤- ٦٥) بتصرف، مرجع سابق .

طبقتهم لينعموا بالسلطان والثروة والجاه، لأن العلم يفتق الأذهان، ويبصر الإنسان بحقوقه، ويدفعه إلى المطالبة بحقوقه .

علماؤنا والمؤدب الخاص :

" لم يقر ابن سينا في كتابه (السياسة) هذه النزعة، وآثر لمصلحة التعليم، وفائدة الطفل أن يشترك مع غيره من الصبيان .

أما القابسي فقد أهمل المؤدب الخاص قصداً، لأنه لا ينزله منزلة الاعتبار ولا يرضى أن يعترف له بالوجود حتى يتعلم أبناء المسلمين في مكان واحد، ويتلقوا المعرفة عن معلم واحد، فلا تتسع الهوة بين الطبقات، وتسود النزعة الإسلامية الصحيحة". [1]

بل يرى القابسي أن تكون معاملة المعلم للصبيان على قدم المساواة،حتى لا يشبوا على الحقد والتباغض، ويروا في المعلم أسوة حسنة، ومن الطبيعي أن هؤلاء الذين يدفعون أجوراً عالية هم الأغنياء لا الفقراء، فلا ينبغي أن نشعر الفقراء بهوانهم وإلا فلا خير في هذه التربية.

" وهو حين يطالب بتعليم أبناء المسلمين جميعاً، القادر منهم وغير القادر، والموسر والمعسر، بل المعدم، حين يقدم إليهم لوناً واحداً وثقافة واحدة لا يخص بها أحداً دون أحد إنما يجري في طريق التقدم العقلي ويشرف على الإنسانية من سماء العدل والحق والخير " [2]

ولعل هذا يذكرنا بمأساة معاصرة أفاض علماء التربية في الحديث عنها، وشغلت بها وسائل الإعلام مسموعة، ومرئية، ومقروءة وهي (الدروس الخصوصية) وما ترتب عليها في مجتمعنا العربي من إهمال المعلم لواجبه وشدة اهتمامه بالطلاب الذين يترددون عليه في بيته، أو يتردد هو عليهم في بيوتهم مع إهمال لواجبه عامة ، ولمن لم يترددوا عليه خاصة .

١- د. أحمد فؤاد الأهواني، التربية في الإسلام ص(٢٤٧ –٢٤٨) بتصرف.

٢- المرجع السابق ص (٢٤٨) ، بتصرف.

وإذا كان التعليم في العصر الحديث مسئولية الدولة تنفق عليه الكثير، فقد نصح القابسي بتعليم غير القادرين على الإنفاق على التعليم، بأن يقوم بيت مال المسلمين (الدولة في العصر الحاضر) بالإنفاق عليهم .

" وإذا كان الإلزام في العصر الحديث يفرض عقوبة على ولي الأمر المهمل إلحاق ولده بالمدرسة فإن القابسي يراه إلزاماً دينياً وأدبياً لا إلزاماً قانونياً، لهذا لم يحدد عقاباً لمن يترك تعليم ابنه، وإنما تركه لعقاب الله تعالى، وضميره وجزاء المجتمع، وربما كان هذا في نظرنا أشد وأخوف في مجتمع تأصلت فيه قيم الإسلام، وسادت فيه الروح الدينية" [1] .

وإذا كان المجتمع قد تفاعل، في العصر الحديث، ونظر إلى التربية كأمر ضروري مهم فقد سُئل القابسي عن: " رجل امتنع أن يجعل ولده في الكتاب، هل للإمام أن يجبره ؟ وكيف إن كان له أب وله مال، ولا يبالي ذلك فهل للإمام أن يسجنه، أو يضربه على ذلك أم ليس له ذلك؟

وفي هذا تعبير واضح عن شعور أهل زمانه، بمسئولية إهمال الطفل وترك تربيته، والحرص على تقرير قاعدة العقوبة لكل من يتخلف عن أداء هذا الواجب .

كما أقر تعليم البنات، وسبق إليه حتى تأخذ المرأة حظها من العلم النافع، وما شق تعليم المرأة طريقه إلى النور إلا في القرن التاسع عشر

وما منع القابسي عن تقرير العقوبة غير منهجه الفقهي وأنه لا يقرر أمراً إلا بنص من الدين" [2].

ورسالة القابسي تزيل الوهم الذي علق بالأذهان من أن المسلمين لم يعنوا بتعليم الصبيان، وتثبت أن المسلمين ابتكروا في التربية آراء جديدة لم يأخذوها عن الغرب المسيحيين، أو ينقلوها عن التراجم اليونانية اللاتينية

١- المرجع السابق ص (٢٤٩) ، بتصرف.

٢- المرجع السابق ص (٢٤٩) بتصرف .

التي قام النقلة من المترجمين بتقديمها إلى العالم العربي، وهذه الرسالة دليل على تأصل الميل إلى فن التعليم، والاهتمام بالطفل والاشتغال بالبحث والتنقيب، والتفكير في المسائل من جميع أطرافها وزواياها، رغبة في التقدم والرقي.

وإذا نظرنا إلى القابسي كأحد المربين في الإسلام، فهو صاحب رأي، وصاحب رسالة ترفع اسمه إلى قائمة قادة التربية، ولا سيما إذا عرفنا أنه عاش في القرن الرابع الهجري، أي في صميم العصور الوسطى، التي يعدها المؤرخون من عصور الظلام والتأخر في حياة العالم ذلك أن الميزان الذي يوزن به قادة الفكر وزعماء الرأي هو سبقهم لزمانهم، والتقدم في سبيل الرقي لبني الإنسان، وطريق الرقي هو الطريق الذي يميز عالماً عن الآخر.

مفهوم التربية في الإسلام عند المعاصرين:

التربية هي:

" نظام اجتماعي ينبع من فلسفة كل أمة، وهو الذي يطبق هذه الفلسفة أو يبرزها إلى الوجود، {فهي} انعكاس فلسفة الأمة وتطبيقها عملياً" [1].

والتربية: "هي إعداد المرء ليحيا حياة كاملة، ويعيش سعيداً، محباً لوطنه قوياً في جسمه، متكاملاً في خلقه، منظماً في تفكيره، رقيقاً في

١- أحمد فؤاد الأهواني، التربية في الإسلام، ص (٧)، مرجع سابق.

شعوره، ماهراً في عمله، متعاوناً مع غيره يحسن التعبير بقلمه ولسانه، ويجيد العمل بيده"[1]

" ولئن كان هذا التعريف قد راعى شمولية العملية التربوية، بتركيزه على الجانب البدني والعقلي والوجداني والاجتماعي إلا أنه أغفل التركيز على الجانب الروحي وهو أهم الجوانب المؤثرة في حياة الفرد والمجتمع اللهم إلا إذا كان قد أشار إلى ذلك ضمنا بإبرازه للكمال الخلقي باعتبار أن أساس الفضائل الخلقية هو القيم الروحية" [2]

وأنا أرجح هذا الاحتمال فالدكتور الإبراشي ما كان ليغفل الجانب الروحي وهو من هو في علماء التربية ومفكريها .

ويمكننا أن نبسط تعريف التربية بقولنا: "إنها عملية تشكيل الشخصية السوية المتكاملة في جميع جوانبها روحياً وعقلياً ووجدانياً وخلقياً واجتماعياً وجسمياً والقدرة على التكيف مع البيئة الاجتماعية والطبيعية التي تعيش فيها"[3]

" التربية في الإسلام تعني بلوغ الكمال بالتدريج ، ويقصد بالكمال هنا كمال الجسم والعقل والخلق، لأن الإنسان خليفة اللّه على الأرض ولذلك يجب أن تأتي تربية الإنسان متمشية مع مطالب هذه الخلافة بجوانبها المختلفة".[٤]

١- محمد عطية الإبراشي، روح التربية والتعليم،ص (٦)، مكتبة عيسى الحلبي، ط ١١ ،القاهرة - مصر، سنة ١٩٦٦م.

٢- د. عبد الحميد الزنتاني، أسس التربية الإسلامية في السنة ، ص (٢٥)، مرجع سابق .

٣- المرجع السابق ص (٢٥).

٤- د. محمد منير مرسي، أصول التربية الثقافية والفلسفية، ص(١٦- ١٧)، بتصرف، مرجع سابق.

وشخصية المسلم كما بلورتها فلسفة التربية الإسلامية شخصية لا يستهان بها من حيث إدراكها وصلاحها" [1]

" وقوة نقاء بصيرتها فقد زودت التربية الإسلامية الإنسان على إمكانياته الموجودة فيه بإمكانية الانطلاق بثبات نحو الإدراك الكامل حتى يحقق مكانته في الأخلاق " [2] .

مفهوم التربية عند أ / محمد قطب :

"تدور الفلسفة الإسلامية في التربية حول منطلقين أساسيين هما: الإنسان بكل طاقاته، وإمكانياته، والكون بكل غوامضه، وأسراره حتى يتلاءم الأول مع الثاني، وقد نبه العلماء إلى ضرورة تربية الإنسان المسلم حتى يتكيف مع مجتمعه، الإسلامي، ويتطور به ومعه نحو حياة أفضل[3] "

أما وقد عايشنا العطاء التربوي المعاصر، وما أثرى به التربية فإنني أضيف أن التربية هي:

" عملية بناء الإنسان بناءً يتفق ومنهج الله تعالى، وتتكامل فيه شخصيته روحياً، وعقلياً، وجسمياً، وخلقياً، ووجدانياً، واجتماعياً، متكيفاً مع بيئته، والطبيعة التي سخرها الله له ".[٤]

ولن تجد الإنسانية الحائرة ضالتها إلا في منهج الله المتميز في كماله، وشموله، ودقته، وبراءته من الباطل، وصلاحه للبشر جميعاً على

١- محمد عطية الإبراشي، التربية الإسلامية وفلاسفتها، ص (٤٦)، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، بدون ط ، القاهرة – مصر، ١٩٦٩م.

٢- المرجع السابق ص (٤٨).

٣- محمد قطب، الإنسان بين المادية والإسلام، ص(٩٥)، دار إحياء الكتب العربية، ط٣، بيروت – لبنان، ١٩٦٨م. محمد بن قطب بن إبراهيم عالم ومفكر إسلامي معاصر، صاحب رؤية إسلامية بصيرة وفقه ديني أصيل وهو شقيق الكاتب الإسلامي الشهير سيد قطب ولد بمصر وتلقى تعليمه بها ألف مجموعة من الكتب في مجالات التربية وعلم النفس والاجتماع والأدب والفكر الإسلامي، وحاز جائزة الملك فيصل العالمية للدراسات الإسلامية سنة (١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨م).

٤- رأي الباحث عن مفهوم التربية.

اختلاف طبائعهم، وتباين بيئاتهم، وتنوع عصورهم لأنه من الله ﴿أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١٤)﴾[1]، ولأنه ينسجم مع الفطرة التي فطر الله الناس عليها.

١- سورة الملك الآية (١٤).

الفصل الثالث:

أسس التربية الإسلامية

تقوم التربية الإسلامية على أسس وركائز تشكل في مجملها المفهوم الشامل للتربية الإسلامية، وتكشف عن تميزها، وتفردها، وتكاملها، وشمولها لجميع نواحي الحياة في دقة ووضوح مستمدة تلك الأسس من مصدر معصوم (القرآن الكريم والسنة الشريفة)، ويمكننا عرض هذه الأسس فيما يلي :

١- تكامل التربية الإسلامية:

فهي تنظر إلى الإنسان نظرة متكاملة تشمل كل جوانب شخصيته، فهي تربية للجسم وتربية للنفس، والعقل معاً، ولا شك أن كل جانب من هذه الجوانب يؤثر في الآخر، ويتأثر به فهي تعني بها جميعاً، وتوليها اهتمامها فترعى البدن "فإن لجسدك عليك حقا"[١]، (**وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ**) [٢]، كما تخاطب الحواس، وتبرز دورها في حياة الإنسان ومسؤوليته عنها قال تعالى:

(**إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً** (٣٦)) [٣]،

وقال جل شأنه: (**أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ** (٨) **وَلِسَاناً وَشَفَتَيْنِ** (٩)) [٤]، "والتربية الإسلامية تربية نفسية لأنها تخاطب عاطفة الإنسان ووجدانه وقلبه وضميره وتحتكم إليها، .وأمرنا ديننا بأن نربي نفوسنا على الفضيلة والخير

١- ابن حجر العسقلاني، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، (٣٩٨/٦فتح)، تحقيق طه عبد الرؤوف سعد، دار الغد العربي، ط١، القاهرة – مصر، سنة (١٤١٢هـ - ١٩٩٢م)، مسلم، صحيح مسلم (٨١٣/٢)، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، ط١، بيروت – لبنان، سنة (١٣٧٥ – ١٩٥٦م).

٢- سورة البقرة الآية (١٩٥).

٣- سورة الإسراء الآية (٣٦).

٤- سورة البلد الآيتان (٨ - ٩).

وحب الناس والتجرد من الأنانية وحب الذات عن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه" [1]، وجعل أساس الحساب على الأعمال ما استقر في النفس لا بما ظهر من السلوك وأمرنا ديننا بالتعفف وعزة النفس ورياضتها وتدريبها والتحكم فيها"[2].

كما حذر من شطط النفس، وغلبة هواها، ودعا إلى تزكيتها، وحملها على التقوى، قال تعالى :

(وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (٨) قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا (١٠))[3].

وهي تربية للعقل تخاطب العقل وتحتكم إليه **(وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ (٤٣))**[4].

والإسلام دين العقل والنظر والتفكير والتأمل .

(قُلْ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ (١٠١))[5].

ولو تتبعنا القرآن الكريم وجدناه مليئاً بالآيات التي تحث على النظر والتأمل وتقدير الأمور بميزان العقل .

---

١ - رواه البخاري (١/١٢٩- ١٣٠ فتح) ، ومسلم (١/٦٧).

٢- د. محمد منير مرسي، أصول التربية الثقافية والفلسفية، ص(٤٣)، بتصرف، مرجع سابق.

٣- سورة الشمس الآيات (٧ - ١٠).

٤- سورة العنكبوت الآية (٤٣) .

٥- سورة يونس الآية (١٠١) .

٢- توازن التربية الإسلامية :

لقد أدخلت التربية الإسلامية ما أهمله علماء التربية الغربيون وهو الحياة الآخرة، ودعت إلى الموازنة بين الحياتين الأولى والآخرة **(وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنْ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ)** [١].

فالرهبنة بمغالاتها الروحية مرفوضة، وإفراط الصوفية لا يتيح التربية القويمة التي تعد الإنسان للدنيا، وتؤهله لأخذ نصيب منها، كما أن الاستغراق في المادة، وإيثار الدنيا مردود على صاحبه، فالتربية الإسلامية تستهدف إصلاح الدنيا والآخرة .

٣- التربية الإسلامية سلوكية عملية :

فهي لا تكتفي بالقول، وإنما تتعداه إلى العمل والسلوك، بل من تمام كمال المسلم وسلامة تدينه أن تطابق أقواله سلوكه وأعماله **(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ (٢) كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ (٣))** [٢]، وما أداء الفرائض إلا التزام عملي يعبر عن العقيدة، ويحكي الإقرار الصادق بوحدانية اللّه عزَّ وجلَّ، كذلك ما يتبع الفرائض مما دعانا إليه الإسلام من خلق.

٤- التربية الإسلامية ذاتية اجتماعية :

الإسلام يربي المؤمن على أنه عضو في جسد، ولبنة في بناء، فعنيت التربية بذاته كفرد، ثم بالمجتمع كمجموعة أعضاء متناسقة متعاونة؛ فتعنى بتربية المسلم تربية فردية ذاتية قوامها الفضيلة، ليكون مصدر خير

١- سورة القصص الآية (٧٧).

٢- سورة الصف الآيتان (٢ - ٣) .

لجماعته، متحملاً مسئولية أعماله وتصرفاته (**كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ**)[1]، وهي في نفس الوقت تربية اجتماعية (**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ**) [2]، وكما علمنا الرسول صلى الله عليه وسلم" المسلم أخو المسلم" [3] .

كما تؤكد أهمية القدوة، ودور الوسط الاجتماعي في تنشئة الفرد، وتكوين العادات الحسنة .

٥- التربية الإسلامية تربية لضمير الإنسان :

" فضمير الإنسان هو الموجه لسلوكه والرقيب على أعماله، وقد حرصت التربية الإسلامية على تربية هذا الضمير" [4].

والضمير الحي الواعي خير عاصم للإنسان من الزلل وأكبر حافز له على العمل الصالح وإيمان الإنسان أن هناك ربًّا يحاسبه على أعماله وأنه رقيب عليه (**وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ**) [5]، وقوله جل شأنه: (**يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ** (١٩)) [6]، مما يجعله يفكر في كل عمل قبل أن يقدم عليه، وتربية الضمير تربية لإرادة الإنسان بحيث يصبح متحكماً في تصرفاته، غير مستعبد لأهوائه وشهواته، وفي تكوين الضمير لجأ الإسلام إلى أسلوب الثواب والعقاب وهو أسلوب يتمشى مع طبيعة الإنسانية .

١- سورة المدثر الآية (٣٨).

٢- سورة الحجرات الآية (١٠).

٣- رواه مسلم (١٩٨٦/٤) والترمذي، الجامع الصحيح "سنن الترمذي"، (٢٧٣/٥)، إعداد الشيخ هشام سمير البخاري، دار إحياء التراث العربي، بدون ط ، بيروت – لبنان، سنة (١٤١٥ هـ - ١٩٩٥م).

٤- د. محمد منير مرسي ، أصول التربية الثقافية والفلسفية، ص (٤٦)، مرجع سابق .

٥- سورة الحديد الآية (٤).

٦- سورة غافر الآية (١٩) .

٦- التربية الإسلامية تربية لفطرة الإنسان وإعلاء لغرائزه :.

أقر الإسلام أن الإنسان يولد بطبيعة إنسانية فطرية محايدة (**فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا**) [١]، وقد ورد عن النبي (**ﷺ**) قوله: " ما من مولود إلا يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه" [٢]، فكانت التربية الإسلامية تربية لهذه الفطرة وعملاً على تنمية الميل الفطري لدى الإنسان في معرفة ما يجهل، ودعماً للخير فيها، وتنمية لعطائها الطيب المبارك، وصوناً لها من أن تمتد إليها يد التغيير والتحريف، وتعبث بها الأهواء؛ فالإسلام دين الفطرة، وكل شرائعه تعترف بهذه الفطرة وتتمشى معها ولا تخالفها، كما اعترفت بجوانب الضعف في الطبيعة الإنسانية ولم تحملها فوق طاقتها (**لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا**) [٣]، متمشية مع روح الإسلام التي تقوم على التوسط والاعتدال، ونبذ الإسراف والتقصير انطلاقاً من وسطية هذه الأمة؛ والتسامي بالغرائز، وإعلائها على أساس وضع معايير وأهداف عليا للحياة الإنسانية، وتكوين الإرادة الضابطة التي تحكم الغرائز، وتحسن توجيهها، بما يتفق وروح الإسلام، ومقتضيات العقل الواعي البصير، وفي ذلك يقول الإمام الغزالي: "الفكرة مترددة بين الشهوة والعقل، العقل فوقها والشهوة تحتها فمتى مالت الفكرة نحو العقل ارتفعت وشرفت وولدت المحاسن، وإذا مالت إلى الشهوة تسفلت إلى أسفل السافلين وولدت القبائح"[4]، قال تعالى وهو أصدق القائلين (**وَلا تَتَّبِعْ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ**) [٥]

١- سورة الروم الآية (٣٠).

٢- رواه البخاري (٤/٥٢١، ٤٧٧- ٥٢٦ فتح)، ومسلم (٤/٢٠٤٧) .

٣- سورة البقرة الآية (٢٨٦).

٤- الغزالي، ميزان العمل ، ص (٥٦) ، مرجع سابق .

٧- التربية الإسلامية تربية موجهة نحو الخير :

إن التربية الإسلامية موجهة لما فيه خير الفرد والمجتمع وفقا لمنهج الله تعالى فهي توجه الإنسان إلى الفضيلة بالالتزام بالخلق الكريم والتحلي بجميل الصفات ومعاملة الناس بالحسنى، وحث الإسلام المسلمين على الخير وكل ما فيه سعادة الناس جميعاً، قال تعالى: **وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**)[١]، ودعاه إلى الاستقامة: (**فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ**) [٢]، وقوله ﷺ " قل آمنت بالله ثم استقم"[٣]، وجعل حب الخير للآخرين من تمام الإيمان " لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه"[٥] كما اهتم بتنمية نزعات الخير في المسلم بما فيها من تعاون، وتعاطف وتراحم وتآخٍ ومودة، وتناصح وتشاور، ومساواة، وتواضع في غير ضعف وغير ذلك، ويقول الغزالي: " إن جلب المنفعة ودفع المضرة مقاصد الخلق وصلاح الخلق في تحصيل مقاصدهم لكنا نعنى بالمصلحة المحافظة على مقصود الشرع ومقصود الشرع من الخلق خمسة، وهو أن يحفظ عليهم دينهم ونفسهم وعقلهم ونسلهم ومالهم فكل ما يتضمن حفظ هذه الأصول الخمسة فهو مصلحة، وكل ما يفوت هذه الأصول الخمسة فهو مفسدة ودفعها مصلحة"[٥]

٥- سورة ص الآية (٢٦).

١- سورة الحج الآية (٧٧).

٢- سورة هود الآية (١١٢).

٣- رواه مسلم (٦٥/١) .

٤- تقدم تخريجه (56)، رقم (1).

٥- الإمام الغزالي، المستصفى في علم الأصول، جـ١ ص (٢٨٦- ٢٨٧)، دار الكتب العلمية، ط١، بيروت، سنة (١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م).

٨- استمرار التربية الإسلامية :

إنها تربية تختلف كثيراً عن غيرها من نظم وأساليب التربية، فهي لا تبدأ بمرحلة معينة، ولا تقف عند فترة موقوتة من عمر الإنسان، بل إنها تبدأ من المهد، وقل إنها تسبقه باختيار الزوجة، وتحري صلاحها وحسن منبتها، وتستمر معه، وتتغير وتتطور وفقاً لتغير مراحل حياته، واستجابة لتطور الحياة، مع عظمة معطيات التربية الإسلامية وملاءمتها التامة للتربية الصالحة لسلامة أصولها، وبراءتها مما يلحق غيرها من النظريات والمذاهب البشرية، وذلك لأنها من صنع الله جل وعلا(**أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ**) [1].

٩- التدرج في التربية الإسلامية :

إن بلوغ الإنسان (موضوع التربية) الكمال الإنساني هو المطلب الأسمى في التربية، وما كان في مقدور المربين مهما أوتوا من خبرة، ومهارة، وتميز أن يبلغوا بالمربى ذلك الكمال دفعة واحدة، فسنة الحياة التدرج، تشهده في نمو الأحياء من نبات، وحيوان، فضلاً عن الإنسان (موضوع التربية) بل إن المهارات فطرية ومكتسبة تنمو مع تتابع أطوار الإنسان، وتنوع الظروف المحيطة به، وقد قامت التربية الإسلامية على أساس من التدرج مما أكد فاعليتها، وحقق نجاحها إذا سلك بها المسلك الصحيح، وما كان التدرج طارئاً في الإسلام، ولكنه أصيل فيه في تنزل كتابه وتوالي شرائعه، وتدرج التحريم في كثير من المحرمات، بل أشار القرآن الكريم إلى ذلك التدرج في الإنسان نفسه، قال تعالى: (**وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَاراً**) [2].

٢- سورة الملك الآية (١٤).

١- سورة نوح الآية (١٤).

١٠- المحافظة والتجديد في التربية الإسلامية :

إن التربية الإسلامية لها مصدر معين تستقي منه، وتعرف من خلاله أهدافها وقيمها ومناهجها، بل وسائلها، ولها من بعد ذلك مرجعيات ثانوية تستعين بما فيها من تجارب تربوية .

فمصدر التربية الإسلامية ومعينها هو الكتاب والسنة النبوية المطهرة فالقرآن الكريم كما قال عنه تعالى: (**وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ**) [1]، والسنة النبوية هي التي تفصل ما أجمل في القرآن الكريم، قد قال الله تعالى عنها (**وَمَا آتَاكُمْ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا**) [٢]، وروى أبو داود بسنده عن المقداد بن معدي كرب رضي الله عنه قال : قال رسول الله r " ألا إني أوتيت الكتاب ومثله معه ألا يوشك رجل شبعان على أريكته يقول: عليكم بهذا القرآن فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه، وما وجدتم فيه من حرام فحرموه، (ألا وإن ما حرم رسول الله r مثل ما حرم الله عز وجل)" [٣].

١- سورة النحل الآية (٨٩) .

٣- سورة الحشر الآية (٧) .

٣- أبو داود، سنن أبي داود، (٤/٢٠٠)، راجعه محمد محيي الدين عبد الحميد ، دار إحياء السنة النبوية ، بدون ط ، مكة المكرمة – المملكة العربية السعودية ، بدون ت . وزيادة "ألا وإن ما حرم رسول الله ..... " رواها ابن ماجه، سنن ابن ماجه، تحقيق د. مصطفى الأعظمي، شركة الطباعة العربية السعودية، ط٢، الرياض، المملكة العربية السعودية ، سنة (١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م).

وهو مصدر معصوم (**لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ**) [1]

" ومرجعيات التربية الإسلامية هي تراث المسلمين في التربية، وما تركه مشاهير علماء التربية منهم في العصور السابقة ، بشرط أن يكون ملائماً للعصر، منسجماً مع منهج اللّه تعالى.

أما علماء التربية من غير المسلمين فيجعلون معينهم التجارب الإنسانية وحدها، بل التجارب الخاصة بالإقليم الذي يعيشون فيه دون سائر الأقاليم، مع محدودية نظرياتهم بظروف زمانهم.

ومعنى ذلك أن التربية الإسلامية تأخذ من تجارب الإنسانية كلها في اعتبارها إلى جوار مصدريها الأصيلين الكتاب والسنة " [2].

مما أضفى عليها محافظة صانت لها مقوماتها، وميزت معطياتها وهي مع ذلك مجددة متطورة لا يقف بها الجمود، ولا تعجز عن مسايرة أي عصر من العصور، ولا غرو فالإسلام دين اللّه للناس كافة صالح لكل زمان ومكان، معطٍ كل تطور عطاءً لا شطط فيه ولا تجاوز لما يدعمه ويضاعف صلاحياتها .

١١- عالمية التربية الإسلامية:

إنها تربية قامت على أساس نظيف يرفض التعصب، والتمايز، ويأبى التفاضل بلون أو عرق أو جاه أو نحو ذلك، وإنما يرى الناس سواسية كأسنان المشط ولا فضل لعربي على عجمي ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى فالمسلمون متساوون في عبوديتهم للّه عز وجل، وقد ألزم الإسلام

١- سورة فصلت الآية (٤٢).

٢- د. علي عبد الحليم محمود، التربية السياسية، ص (١٨- ٢٠)، بتصرف، دار التوزيع والنشر الإسلامية، بدون ط، القاهرة – مصر، ٢٠٠١م.

٣- سورة النساء الآية (٥٨).

نبيه (ﷺ) وأمته بالعدل (**وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ**) [٣]، كما أمره بالمساواة في المعاملة بين الناس دون أي تمييز فالمسلمون سواء في الحقوق أو التكاليف والمسئوليات، ويقول عليه الصلاة والسلام: "المسلمون تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم، ويرد عليهم أقصاهم، وهم يدٌ على من سواهم "[١]، والتربية الإسلامية تربية إنسانية لأنها تقوم على أخوة الإيمان قال تعالى: (**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ**) [٢]، قال ﷺ "المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره" [٣] "فالمسلمون في مشارق الأرض ومغاربها ومن كل عرق ولون ولغة أعضاء في الأسرة الإسلامية الواحدة يؤلف الإسلام بين قلوبهم ويجمعهم على قلب رجل واحد في جسد واحد"[٤]

بل هم أعضاء في جسد واحد ينبغي أن يجمعه التناسق والتآلف، والتواد والتوحد عقيدة وشعوراً وتفاعلاً مع الحياة .

" وهي تربية عالمية لأن الإسلام رسالة عالمية جاءت للناس كافة وعالمية الرسالة الإسلامية تعني أيضاً عالمية التربية الإسلامية". [٥]

قال تعالى: (**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ**) [٦]

وقال جل شأنه: (**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ**) [٧]

١٢- خصوصية وسائطها :

إن التربية الإسلامية تضيف إلى وسائط التربية: المسجد، وتعطيه أهمية قصوى، وتكل إليه أنواعاً من التربية قلما يحصل عليها المتلقي إلا في المسجد، ثم التقاء المسلمين في الجماعة، والجمع، والعيدين، والخسوف، والكسوف، وغير ذلك مما شرع الله فيه الاجتماع، فهذا نوع اختلاف جدير

١- البغوي، شرح السنة للبغوي (١٠/١٧٢)، تحقيق زهير الشاويش وشعيب الأرناؤوط، المكتب الإسلامي، ط١، بيروت – لبنان ، سنة (١٣٩٦هـ - ١٩٧٦).

٢- سورة الحجرات الآية (١٠)

٣- تقدم تخريجه ص (58) رقم (3).

٤- د. محمد منير مرسي، أصول التربية الثقافية والفلسفية، ص (٥٣)، بتصرف، مرجع سابق .

٥- نفس المرجع السابق ص (٥٣).

٦- سورة سبأ الآية (٢٨).

٧- سورة الأنبياء الآية (١٠٧).

بالتأمل والنظر، وذلك أن علماء التربية من غير المسلمين أغفلوا دور العبادة إغفالاً، ولم يعدوها بحال من وسائط التربية أو الوسائل التربوية.

أهداف التربية في الإسلام

" يقوم العمل التربوي في أساسه على تمكين الفرد من تحقيق ذاته، وتنمية قدراته واستعداداته في جوانبها الفكرية والوجدانية والسلوكية والاجتماعية.

لذلك لا بد لواضعي الأهداف التربوية من معلومات كافية حول مراحل نمو الإنسان وخصائص وطبيعة كل مرحلة، وحاجات الإنسان في هذه المراحل، وما تتطلبه من رعاية تربوية، وذلك حتى يمكن ترجمتها إلى أهداف تربوية توجه الجهود نحو تحقيقها" [1]

كذلك يعكس "النظام التربوي في أي مجتمع من المجتمعات، ما وصل إليه ذلك المجتمع من حضارة، ورقي، فكلما تقدمت الحضارة تعقدت الحياة، وتعقدت معها شئون التربية، وأصبح لتنظيمها أهمية اجتماعية، واقتصادية، وسياسية وثقافية " [2].

ومعنى هذا " أن التربية وليدة المجتمع بكل ما فيه، بنظامه الاجتماعي، وظروفه السياسية، وموقعه الجغرافي، ومركزه الاقتصادي، وتقاليده الروحية وتفوقه في نواحي المعرفة المختلفة " [3].

وتتحدد في إطارها اتجاهات الأهداف التربوية، ومساراتها، ومن ثم تعتبر أساساً هاماً في بلورتها واشتقاقاتها.

وعليه .. فالتربية تشتق أهدافها من أهداف المجتمع، وتشكل نفسها حسب فلسفته وتتحدد خطواتها لبلوغ تلك الأهداف، آخذة في اعتبارها الإنسان (موضوع التربية) ذاتيته، قدراته، واستعداداته في جوانبها المختلفة

١- أحمد علي الفنيش، أصول التربية، ص (١٤١)، الدار العربية للكتاب، ص (١٤١)، ط٥، ليبيا – تونس، سنة ١٩٨٥ م .

٢- فتحية سليمان، التربية عند اليونان والرومان، ص (ح)، نهضة مصر، بدون ط، القاهرة – مصر، بدون ت

٣- المرجع السابق ص (٥٥).

"والتربية الإسلامية تضم جميع مناحي الإنسان، ولا ينصب اهتمامها على جانب واحد، أو تفرط في تناول ناحية، وتوليها اهتمامها بينما تهمل تتبع أخرى، أو آخر، كما أنها تعني منهجاً شاملاً، كاملاً، متكاملاً للحياة، وتعتمد في تحديد أهدافها على قيم أساسية، أخرى فرعية متداخلة معها والقيم الأساسية تتدرج تدرجاً واضحاً، ومعيار القيم هو الله، حيث أقام القرآن ميزاناً ثابتاً، وضوابط محكمة لقيم الحياة" [1].

وعلى ذلك فأهداف التربية الإسلامية إذا توفرت لجامعها خبرة واعية ورغبة صادقة في التعبير عن عظمة تلك التربية ستكون أشمل وأوسع من أهداف التربية عامة، وستكون أدق وأعمق لطهارة النبع، وسلامته من الهوى، واستقامته على منهج الله تعالى وللتربية الإسلامية أهداف منها :

١- تعريف المؤمن بربه :

تعمل التربية على تكوين وتنشئة الإنسان العابد العاقل الصالح من جميع جوانبه (العارف بربه) الملتزم بدينه الحريص على طاعته، وميزة العقل هنا من أهم الصفات التي يتصف بها المؤمن حتى يصل إلى معرفة الخالق عن طريقه ومعرفة الكون الذي يعيش فيه والوقوف على أسراره والإيمان لا يتأتى إلا عن طريق البحث، وعن طريق الإيمان يكون الإنسان قد وصل إلى درجة الخلافة في الأرض .

وغذاء العقل البشري العلم ولا يتأتى العلم إلا عن طريق البحث والقراءة حيث قال الله عز وجل : ﴿**اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ** (١)﴾ [2] .

١- محمد شديد، قيم الحياة في القرآن الكريم، ص(٩)، دار الشعب، بدون ط، سنة ١٩٧٣م.

٢- سورة العلق الآية (١) .

والعلم فضيلة عليا، وقيمة سامية وفضيلة تعرف بثمرته وهي التقرب إلى الله تعالى(**إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ**)[1].

٢- **استقرار معنى العبودية لله في النفس**، فتطمئن، وتوقن أن هناك رباً يعبد وهي تقر بذلك في صلواتها مع كل ركعة (**إِيَّاكَ نَعْبُدُ**) [٢]، " فليس في هذا الوجود إلا عابد ومعبود، رب واحد لا شريك له، وعبيد له يخضعون، وبه يؤمنون" [٣].

٣- **التوجه إلى الله بكل حركة في الضمير**، وكل حركة من كل شعور آخر ومن كل معنىً غير معنى التعبد لله.

" وإذا كان هذا هو الهدف الكلي للتعليم والتربية في الإسلام"[٤].

فإنه يمكن القول بأن هدف التربية الأعلى هو إعداد وتنمية وبناء الإنسان العابد " الذي يفي بشرط العبادة في الأرض "[٥] هادفاً عبادة الله ما دامت العبادة "شاملة لكل ما يقوم به الإنسان، من عمل وفكر، وشعور ما دامت وجهته إلى الله تعالى[٦]" ومن ثم فإن هدف التربية الإسلامية هو تكريم وتنشئة الإنسان العابد الصالح، من جميع جوانبه، وهذا الإنسان العابد إنسان " يعرف ربه ، ويدين له بالطاعة والعبادة، ويعرف نفسه، فيقدرها حق قدرها في حدود العبودية لله وحده، لكنها عبودية مكرمة لأنه نفحة من

١- سورة فاطر الآية (٢٨) .

٢- سورة الفاتحة الآية (٥) .

٣- سيد قطب، في ظلال القرآن، مجلد ٦، ص(٣٣٨٧)، دار الشروق، ط١٠، القاهرة - مصر، بيروت - لبنان، سنة(١٤٠٢هـ- ١٩٨٢م).

٤- عبد الفتاح جلال، من الأصول التربوية في الإسلام، ص (٧٩)، المركز الدولي للتعليم الوظيفي للكبار في العالم العربي، سرس الليان – المنوفية ٠مصر.

٥- محمد قطب، منهج التربية الإسلامية، ص(٧٩)، دار الشروق، بدون ط، بيروت – لبنان، بدون ت .

٦- حسن إبراهيم عبد العال، التربية الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ص(٦٢) ، رسالة ماجستير غير منشورة، مكتبة كلية التربية طنطا – مصر، سنة ١٩٧٧م.

روح اللّه، مفضلة على سائر الخلق بالعقل، والقدرة على التفكير، وعلى الاختيار" [1].

٤- احترام الحريات :

"حرص الإسلام على احترام حريات الآخرين سواء في القول أو الرأي دون التعرض لأصحابها بالسوء واتسع الأمر في هذه الحرية حتى تشمل الحرية في العقيدة ذاتها" [2] حتى قال عز وجل في كتابه : **(لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنْ الغَيِّ)** [3]، وقال أيضا **(لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ (٦)** [4].

وقد حث الإسلام المسلمين على عدم تسفيه الآخرين أو تسفيه أقوالهم بل دعا إلى احترامهم لأنهم جميعاً خلق اللّه وهم عبيده حيث قال: **(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَومٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْراً مِنْهُمْ وَلا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْراً مِنْهُنَّ)** [5].

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَتَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً (١) [6].

١- زغلول راغب النجار، أزمة التعليم وحلولها الإسلامية، ص (١٣١) المسلم المعاصر، العدد الثاني عشر، سنة (١٣٩٧هـ- ١٩٧٧م) .

٢- محمد إقبال، تجديد الفكر الديني في الإسلام، ترجمة عباس محمود، ص (٤٢)، لجنة التأليف والنشر، بدون ط، القاهرة – مصر، سنة (١٩٥٥م).

٣ - سورة البقرة الآية (٢٥٦).

٤ - سورة الكافرون الآية (٦) .

٥ - سورة الحجرات الآية (١١) .

٦ - سورة النساء الآية (١)

٥- إقامة عدالة اجتماعية :

لقد أرسى الإسلام المساواة كأساس يقوم عليه المجتمع المسلم فلا فضل لعربي على عجمي، ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى وبها يتفاضلون عند الله تعالى، أما فيما بينهم فهم سواء .

والعدل يرتبط أساساً بفكرة التوحيد، والإيمان بالله التي على أساسها يقوم المجتمع المسلم، وتظهر فيه معالم ذلك الدين الحنيف، والإيمان بالله تفريغ للنفس من الشر ودواعيه، وملء لها بالخير ودوافعه .

ولا يفرق الإسلام بين فقير وغني ولا أسود وأبيض وإنما جعل العمل أساساً للتفرقة بين الناس حيث قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " لا فضل لعربي على عجمي ولا أحمر على أسود إلا بالتقوى"[١].

وقال الله عز وجل في كتابه الحكيم : **(يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ)** [٢]

" وهذا يعني أن هناك إقراراً بالمساواة بين الناس من حيث مبدأ الخلق وإنما يختلف الناس في استعدادهم وفي تفكيرهم وفي أعمالهم ولكن إذا خالفوا ما جاءت به الشريعة والدستور الإسلامي واعتدوا على حريات الآخرين نالوا عقابهم مهما كانت أوضاعهم الاجتماعية وأعمالهم وأقرب مثل لذلك المساواة بين العبد وسيده في التكاليف التي ألزمهم وأمرهم بها الإسلام .

وأقام رسول الله (ﷺ) تلك العدالة، وسار على نهجه الخلفاء الراشدون، وضربوا أمثلة عظيمة في ذلك يعتز بها تاريخ الإسلام.

١- الطبراني، المعجم الأوسط، كما في مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، (١٦٠/٨)، حديث رقم (١٣٠٧٩)، للإمام الهيثمي، تحقيق عبد الله محمد الدرويش، بيروت- لبنان، سنة (١٤١٤هـ - ١٩٩٤م).

٢- سورة الحجرات الآية (١٣).

وهذا أبو بكر في خطبتيه حين ولي أمر المسلمين يقول في خطبته الأولى عند توليه الخلافة: (إنني وليت عليكم ولست بخيركم فإن أحسنت فأعينوني وإن أسأت فقوموني، القوي فيكم ضعيف حتى آخذ الحق منه والضعيف فيكم قوي عندي حتى آخذ الحق له)" [1] .

وما ضاع حق في الإسلام، أو علا باطل، وما أقيم وزن لاعتبارات بشرية تقلب موازين العدالة في كثير من القضايا، وما أهدر حق لقرابة من حاكم، أو اتصال بذي سلطان، أو خوف من سطوة وها هو القرآن الكريم يربي الأمة على ذلك قال جل شأنه :

(وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (٨) [2] .

٦- احترام العمل :

" يدعو الإسلام إلى احترام العمل المنتج الخير ومضاعفته والأخذ بأسباب القوة وهذا لا يأتي إلا بمضاعفة الإنتاج الإنساني، سواء كان هذا عن طريق الصناعة أو الزراعة، أو التجارة وليس عيباً أن يعمل الإنسان جامعاً للحطب وإنما العيب أن يمد يده للناس فإن شاءوا أعطوه أو منعوه وقد حث الله سبحانه وتعالى المؤمنين على العمل حيث قال: **وَقُلْ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ...** [3] "[4]

١- مدكور إبراهيم، الفلسفة الإسلامية (منهج وتطبيق)، ص (٥٧- ٥٨)، دار إحياء الكتب العلمية، القاهرة – مصر، سنة (١٩٤٧م).

٢- سورة المائدة الآية (٨).

٣- سورة التوبة الآية (١٠٥).

٤- سيد قطب، نحو مجتمع إسلامي، ص (٩٩)، دار الشروق، ط٢، بيروت- لبنان، سنة(١٩٧٥)م.

٧- الدعوة إلى المعرفة :

فغاية التربية الإسلامية هي إحراز الحكمة حيث قال عز وجل: **يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُوا الأَلْبَابِ** [١]

والحكمة طريقها المعرفة، ومصدرها الله تعالى، وقد أودعها في الكون والإنسان .

١- سورة البقرة الآية (٢٦٩)

الفصل الرابع:

مجالات التربية

للتربية مجالات ثلاثة رئيسة وهي تتكامل فيما بينها، وتتلازم في بناء المربي روحياً ونفسياً وبدنياً واجتماعياً، وتعمل على تحقيق الأهداف التربوية المنشودة وقد تختلف من أسرة لأسرة، وهذا أمر طبيعي، حيث إن كل أسرة تربي من خلال مأثورات عاشها الأبوان في تربيتهما، وقل أن تشبه أسرة أخرى، فالعطاء التربوي ودوافعه ومظاهره عطاء نفسي يحمل البصمات الروحية والنفسية لكل من الأبوين، وهو مختلف تماماً، وإن التقى الجميع عند غاية واحدة وعملوا من أجل أهداف عامة متقاربة.

أولاً: المجال الخلقي:

المتتبع لأحوال المسلمين فرادى وجماعات يرى أن الإسلام يرسم مسارهم، ويحدد توجهاتهم ما داموا آخذين به، مستمسكين بشرائعه حتى ليكاد كل ما يصدر عن المسلم يعد عبادة ما دام الإخلاص محركه، والتوجه إلى الله تعالى باعثه. **وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ**[1].

قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِيناً قِيَماً مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنْ الْمُشْرِكِينَ (١٦١) قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ (١٦٣) [2].

فإذا ربَّى المسلم ولده فبباعثٍ من دينه، وبهدي من تعاليم الإسلام واستنارة برُؤَاهُ، وبذا يكون للتربية الخلقية أساليبها.

١- سورة البينة الآية (٥).

٢- سورة الأنعام الآيتان (١٦١- ١٦٣).

١- التربية بالقدوة :

ونظرة الصغير إلى الكبير تجعله مصدر عطاء، ومرجعاً ينقل عنه ومثلاً يقتدي به، ولعلنا نرى أن ولد المصلي والمصلية، وإن كان لا يعقل للصلاة معنىً يبسط فراش الصلاة، ويقف كما يقف أبوه وأمه، ويأتي بحركات مشابهة لما يفعلان، وعلى النقيض من ذلك ولد المدخن يفتح صندوق اللفائف، وقد يخرج واحدة وقد يبحث عن وسيلة الإشعال .

إن القدوة تفعل فعلها مع هذا الصغير، ولذا ينبغي ألا يرى من والديه أو أحدهما سلوكاً معيباً، بل يجب أن نريه الإسلام في كل ما نأتي، وأن تكون حركة البيت كله إسلامية تقرب الصغار من الله تعالى، وتحبب إليهم شرائعه شيئاً فشيئاً بما يتناسب وإدراك هؤلاء الأولاد.

وها هو القرآن يحدثنا عن القدوة في مواقع كثيرة نكتفي بموقعين منها:

قال تعالى :

(وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ (٢١)) [1]

يقول المراغي رحمه الله تعالى تعليقاً على هذه الآية :

" بعد أن ذكر الله تعالى ما يتمتع به أهل الجنة من المطاعم والمشارب والأزواج كرماً منه وفضلاً أردف ذلك ذكر ما زاده لهم من الفضل والإكرام وهو أن يلحق بهم ذريتهم المؤمنة في المنازل والدرجات، وإن لم تبلغ بهم أعمالهم ذلك لتقرّ بهم عيونهم إذا رأوهم في منازلهم على أحسن

١- سورة الطور الآية (٢١).

الأحوال، فيرفع الناقص في عمله إلى الكامل فيه، ولا ينقص من عمله هو ولا منزلته"[1].

وهل يتأتى ذلك من ذرية إلا إذا رأت في أصلها أسوة حسنة، وقدوة طيبة حببت إليهم الطاعة، وكرهت إليهم المعصية ؟

ويقول جل شأنه : ﴿**وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لا نَسْأَلُكَ رِزْقاً نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى** (١٣٢)﴾ [2]

"فأول واجبات المسلم أن يحول بيته إلى بيت مسلم وأن يوجه أهله إلى أداء الفريضة التي تصلهم معه بالله، فتوحد اتجاههم العلوي في الحياة وما أروع الحياة في بيت أهله كلهم يتجهون إلى الله !

(**وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا**) على إقامتها كاملة، وعلى تحقيق آثارها، (إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر) وهذه هي آثارها الصحيحة، وهي في حاجة إلى اصطبار على البلوغ بالصلاة إلى الحد الذي تثمر فيه ثمارها هذه في المشاعر والسلوك، وإلا فما هي بالصلاة المرادة .

فمن أنزله الله منزل القدوة فليذكر الأسوة الحسنة r وقد أخذ المسلمون عنه القرآن سلوكاً وعملاً قبل أن يحفظوه آيات وسوراً وقد سئلت

١- الشيخ أحمد مصطفى المراغي،تفسير المراغي، مجلد(٩)، جـ ٢٧، ص(٢٥)، دار الفكر، ط٣، بيروت– لبنان، سنة (١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م).

المراغي: أحمد بن مصطفى المراغي، مفسِّر مصري، من العلماء تخرج في دار العلوم ثم كان مدرس الشريعة الإسلامية بها، وولي نظارة بعض المدارس وعين أستاذاً للعربية والشريعة الإسلامية بكلية غوردن بالخرطوم، له مؤلفات أشهرها تفسير المراغي، توفي بالقاهرة سنة (١٣٧١هـ - ١٩٥٢م).

٢- سورة طه الآية (١٣٢) .

السيدة عائشة رضي الله عنها عن خلق رسول الله r فقالت : "كان خلقه القرآن " [1]

"إنها لإجابة دقيقة مختصرة شاملة، ضمت في معانيها منهج القرآن الشامل، ومبادئ الأخلاق الفاضلة... حقاً إن النبي r كان الترجمان الحي لفضائل القرآن، والصورة المتحركة لتوجيهاته الخالدة " [2]

هذا مع الأمة كبارها قبل صغارها، فأولى بها الصغار مع من يكبرونهم، "والولد مهما كان استعداده للخير عظيماً، ومهما كانت فطرته نقية سليمة فإنه لا يستجيب لمبادئ الخير، وأصول التربية الفاضلة ما لم ير المربي في ذروة الأخلاق، وقمة القيم، والمثل العليا " [3]

والتزام الآباء القيم الفاضلة، وسلوكهم السلوك القويم أرفع وأنجح وسائل التربية وهو أدعى لتأثر صغارهم بهم، وما القدوة الصالحة إلا عرض مجسم للفضائل .

و"تعتبر القدوة من أهم وسائل التربية إن لم تكن هي أهمها على الإطلاق؛ وذلك لوجود تلك الغريزة الفطرية الملحة في كيان الإنسان التي تدفعه نحو التقليد والمحاكاة خاصة الأطفال الصغار " [4]

ثم يتصل الحديث نقلاً عن ابن خلدون حيث يقول: "فهم أكثر تأثراً بالقدوة إذ يعتقد الطفل في سنواته الأولى أن ما يفعله الكبار صحيح، وأن آباءهم أكمل الناس وأفضلهم لذا فهم يقلدونهم ويقتدون بهم، ويبدأ التقليد

١- الإمام أحمد بن حنبل، المسند للإمام أحمد، (٩١/٦، ١٦٣، ١٨٨)، فهرس الألباني، المكتب الإسلامي، ط٤، بيروت- لبنان، سنة (١٤٠١هـ - ١٩٨٣م)، ومسلم (٧٤٦).

٢- عبد الله ناصح علوان، تربية الأولاد في الإسلام، جـ ٢، ص (٦٣٥)، دار السلام، ط٣ مزيدة، حلب – سوريا، بيروت – لبنان، سنة (١٤٠١هـ - ١٩٨١م).

٣- عبد الله ناصح علوان، تربية الأولاد في الإسلام، جـ٢، ص (٦٣٣)، مرجع سابق .

٤- عدنان حسن صالح باحارث، مسؤولية الأب المسلم في تربية الولد في مرحلة الطفولة، ص (٦٥)، دار المجتمع للنشر والتوزيع، ط٨، المدينة المنورة، جدة – المملكة العربية السعودية ، سنة (١٤٢٣هـ- ٢٠٠٢م).

عند الأطفال عادة منذ السنة الثانية تقريباً، ويبلغ التقليد غايته في الخامسة أو السادسة، ويستمر معتدلاً حتى الطفولة المتأخرة " [1]

ويقول الأستاذ محمد قطب في منهج التربية: "فهناك جهازان شديدا الحساسية في نفسه هما جهاز الالتقاط، وجهاز المحاكاة، فعلى الآباء أن يدركوا ذلك إدراكاً تاماً، وأن يحسنوا استغلال تلك الملكة في أولادهم، فلا يرون منهم إلا خيراً، ولا يلمسوا في تصرفاتهم إلا رشاداً، وليتق الله كل أب أو مرب، وليحذر أن يطلع ولده منه على مخالفة، أو يسجل له إهمالاً للفرائض، أو ولوعاً بالمعاصي، ثم يطلب منه الاستقامة، ويحذره من المخالفة، كما نرى مثلاً في مرضى التدخين الذين يرفضون تلك العادة الذميمة في أبنائهم". [2]

وها هو رسول الله r في زورة لبيت من بيوت الأنصار يرسي دعائم القدوة، ويكشف عن أهميتها، ويحذر من إغفالها أو التهاون فيها.

عن عبد الله بن عامر رضي الله عنه قال دعتني أمي يوماً ورسول الله r قاعد في بيتنا فقالت: ها تعال أعطيك فقال لها رسول الله r : "ما أردت أن تعطيه " ؟ قالت: أعطيه تمراً، فقال لها رسول الله r :" أما إنك لو لم تعطه شيئاً كتبت عليك كذبة "[3]

صدق رسول الله r إذ كيف يعلم كذاب ولده الصدق ؟! كمن يقول لولده رد على طارق الباب، أو الهاتف وقل له: أبي غير موجود .

٢

١- المرجع السابق ص (٦٦).

٢- محمد قطب، منهج التربية الإسلامية، جـ٢ ص (١١٧)، دار الشروق، بدون ط، بيروت – لبنان ، بدون ت

٣- رواه أبو داود (٢٩٨/٤).

- **التربية بالملاحظة :**

ينبغي أن يكون الطفل تحت سمع والده وبصره، يرى تقلباته، ويحصي عليه أعماله، ويرعى فيه سلوكه فما كان مستحباً شجعه عليه، وكافأه ولو بالكلمة الطيبة فإنها تعمل في نفس الصغير عمل السحر، ويرى فيها أمارة نجاحه، ودليل تميزه، وإن رأى فيه غير ذلك ترفق به، وأحسن توجيهه واستعان بالله تعالى في ذلك، ويختار للتوجيه أنسب الأوقات وينتقي أوفق الأساليب لتكون آنس إلى الصغير، وأسرع إلى قلبه وأوفى في أداء الغرض المراد.

وليست القدوة داخل البيت معلقة بالأبوين فقط، بل تمتد لتشمل كل كبير فيه، لذا " ينبغي ألا يغرب عن بال الأبوين أن التركيز على إصلاح ولدهما الأكبر هو من أبرز المؤثرات في إصلاح باقي الأولاد، لأن الولد الأصغر يحاكي عادة ما يفعله الأكبر، بل ينظر إليه أنه المثل الأعلى في كل شيء، ويقتبس الكثير والكثير من صفاته الخلقية، وعاداته الاجتماعية، وهنا تكون الطامة أكبر إذا وجد الولد من يكبره سناً في تميع، وانحلال "[1] .

وقد يكون هذا الكبير شريك والديه في تربية من دونه، وقد يصبح القيم على البيت لغياب والده بسفر أو نحوه، وهو لا شك خليفته إن فارق الحياة، وهو في كل مسؤول عن ملاحظة هذا الصغير ومتابعته فضلاً عن تأديبه وتربيته.

إن الأخ الأكبر في مقام المربي بعد أبيه، وقد تكون استجابه أخيه له أشد من اقتدائه بأبيه، فيخشى إذا فسد الكبير أن يتأثر به الصغير، ويأخذ عنه، ويكون هذا الولد الأكبر معول هدم لما يريده الأب في ولده من الاستقامة والصلاح .

١- عبد الله ناصح علوان، تربية الأولاد في الإسلام، جـ٢، ص (٦٦٢)، مرجع سابق .

" ولهذا كله وجب على الأبوين أن يركزا جهودهما على الولد الأكبر ثم من يليه، ليكونوا لمن بعدهم قدوة " [1] .

" ولقد أثبتت الدراسات أن الأطفال الأكثر كرماً هم أولئك الذين كانوا يرون في آبائهم من صفات الكرم والتعاطف والرعاية والحب أكثر، مما كان يرى أولئك الرافضون لتقاسم ما لديهم مع غيرهم من الأطفال" [2].

ولذا يعتبر "البيت أول بيئة للطفل هو الذي يهيئ نمط اتجاهاته نحو الناس، والأشياء، والحياة عموماً، فضلاً عن أن الصغير يتوحد مع أعضاء الأسرة الذين يحبهم، فيقلد سلوكهم، ويتعلم أن يتوافق بالحياة على غرارهم، وفي كلمة واحدة أنه بينما النمط الذي ينشأ بالبيت يتعدل كلما كبر الصغار، فهو لا يقتلع من جذوره تماماً في الكبر وطول الحياة " (٣)

فقد يلحظ الأب في ولده سلوكاً غير مرضٍ كأن يراه مسرعاً إلى فتح الأبواب دون استئذان للدخول على أبيه أو أمه أو كليهما، أو أخته الكبرى أو أخيه أو نحو ذلك، فيدنيه منه، ويصوغ آداب الاستئذان صوغاً يناسب إدراكه، وبذلك يوقفه على قيمة من قيم الإسلام، وأدب من آدابه السامية.

١- المرجع السابق، جـ ٢ ، ص (٦٦٣).

٢- محمد عماد الدين إسماعيل، الأطفال مرآة المجتمع، ص (٢٩٨)، عالم المعرفة، العدد (٩٩)، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت سنة (١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م).

٣- كمال دسوقي، النمو التربوي للطفل والمراهق، ص(٣٢٩)، دار النهضة العربية، بدون ط، بيروت- لبنان، سنة (١٩٧٩م) .

قال تعالى: **(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنْكُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلاثَ مَرَّاتٍ** [1].

أو يراه حريصاً على التسمع ومعرفة الأخبار خلسة من غير إذن فيهديه ذلك الأدب السامي (ولا تجسسوا)

وانظر كيف كان المعلم المعصوم r يربي فتكون تربيته فخراً لمن رباه، ودرساً للمسلمين جميعاً .

عن عمر بن أبي سلمة قال: كنت غلاماً في حجر رسول الله r وكانت يدي تطيش في الصحفة، فقال لي رسول الله r : "يا غلام .. سمّ الله، وكل بيمينك، وكل مما يليك " [2] .

إن موقفاً كهذا قوّم ذلك الصغير تقويماً سليماً، ووضّح للأمة كثيراً من آداب الطعام، يراها الأبناء في الآباء، ويسمعونها منهم إرشاداً وتوجيهاً إذا ضل الصغار عنها .

و أي تربية كتلك التي أرسى رسول الله r أسسها في أربع كلمات ؟ قال رسول الله r : "أكرموا أولادكم ،وَأَحْسِنُوا أدبهم" [3] .

إن الأب المشغول عن ولده بلهو، أو حتى تحصيل نفع، أو استثمار ثروة غافل مقصر فتقويم الولد وتأديبه عبادة من أعظم العبادات، وكذلك المأخوذة بمفاتن الحضارة الحريصة على العمل من الأمهات مفرطة في أعظم الأمانات، فالأخطاء حين تتراكم تكون عبئاً ثقيلاً، أما حين تعالج أولاً

١- سورة النور الآية (٥٨) .

2- رواه البخاري(١٥/١٧٨- ١٧٩فتح) ، ومسلم (٣/١٥٩٩) .

٣- رواه ابن ماجه (٢/٣١٠).

بأول فتلكم الأبوة الرشيدة والأمومة النصوح الواعية، ولا يكون ذلك إلا بمخالطة الأولاد، وقوة ملاحظتهم فعن عمرو بن سعيد بن العاص أن رسول الله r قال: " ما نحل والد ولداً من نحل أفضل من أدب حسن"[1] .

إن الذين ينعمون ببر أبنائهم قد أحسنوا أدبهم فجوزوا بالإحسان إحساناً، وأما المفرطون اللاهون فلا يلومون إلا أنفسهم .

إن على الوالد أن يكون دائم الملاحظة لجوانب ولده السلوكية منذ نعومة أظفاره، فيتعرف مدى التزامه بالصدق إذا حدث، وأمانته فيما استودع البيت.

وعليه أن يلحظ مدى العفة في لسانه، فإن وجد فيه فحشاً في القول أو نقلاً لكلام خبيث، أو القذف بشتم أو سباب ، أو الخوض في حديث غير لائق، أو غير ذلك مما يعيب، أوقفه وعلمه ، وأظهر له سوء هذه الخصال، وأعانه على استبدالها بأخلاق كريمة، وتعويضها بسلوك طيب، وتابع ذلك فيه ليرى مدى التزامه، ويستمر في تقويمه اتقاء أن يشب على غير دين، أو يتشرب في نشأته سوء الخلق، والتزاماً من الأب المربي أو الأم بذلك الأمر الإلهي . **(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلائِكَةٌ غِلاظٌ شِدَادٌ لا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ (٦)** [1]

- التربية بالنصح والموعظة:

ما أجمل أن نقرأ قوله تعالى **وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا**

١- رواه الترمذي (٣٣٨/٤)، والحاكم (٢٦٣/٤). المستدرك على الصحيحين ، للإمام الحاكم النيسابوري، دار الكتاب العربي، بدون ط، بيروت – لبنان، بدون ت.

٢- سورة التحريم الآية (٦) .

وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (٣)[٣]

وما ورد عن تميم بن أوس الداري رضي الله عنه أن النبي r قال : "الدين النصيحة" قلنا: لمن؟ قال :" لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم " [2].

فتلك حقيقة تقررها سورة العصر حيث "إن الناس جميعاً في خسران إلا من اتصفوا بأربعة أشياء: الإيمان، والعمل الصالح، والتواصي بالحق، والتواصي بالصبر" [3]

فإذا كان التواصي بالحق والصبر ضرورة لازمة، وفريضة مقررة على كل مؤمن يرغب في البراءة من الخسران يؤديهما لخلق الله ما استطاع إلى ذلك سبيلاً فهما منه لولده من مفتتح إدراكه إلى ما شاء الله تعالى ألزم وأوجب .

ثم إذا كان (الدين النصيحة) وحدد الرسول الكريم r طرائقها حتى انتهى بها إلى عامة المسلمين فأولى بها وأحق خلفك وعقبك وفلذة كبدك في تربيتك له، وسياستك لأموره .

" والتربية بالموعظة من أهم وسائل التربية المؤثرة في تكوين الولد إيمانياً، وإعداده خلقياً ونفسياً واجتماعياً تربيته بالموعظة، وتذكيره بالنصيحة، لما للموعظة والنصيحة من أثر كبير في تبصير الولد بحقائق الأشياء، ودفعه إلى معالي الأمور، وتحليه بمكارم الأخلاق، وتوعيته بمبادئ الإسلام " [4] .

٣- سورة العصر الآيات (١- ٣) .

١ - رواه مسلم (٧٤/١) .

٢ - المراغي، تفسير المراغي، مجلد ٩ الجزء ٣٠ ، ص(٢٣٥)، مرجع سابق .

٣- عبد الله ناصح علوان، تربية الأولاد في الإسلام، جـ٢ ص (٦٨٥)، بتصرف، مرجع سابق .

فقد يتحرك الصغير بسلوك ذاتي لا يتوافق مع آداب الكبير، أو معاني التوجيه الخاصة بتصحيح السلوك إما لأنه لا يفهم حقيقة القيم، والفضائل السلوكية التي يوجه نحوها، أو لأنه لا يجد فيها إشباعاً لحاجاته التي يحس بها، ومن ثم يتدخل الآباء بأسلوب النصح والموعظة لأن الإرشاد العملي وحده لا يكفي وإنما يلزم تفهيم الصغير وظيفة هذه القيم أو الفضائل، ومغبة الخروج عليها، ويكون النصح رقيقاً، وبأسلوب هادئ بسيط، يتناسب مع إدراك الطفل، ويميل إلى إقناعه من خلال أمثلة تختار بدقة ولا يستعصي على الولد فهمها، أو سرد قصص بأسلوب سهل واضح جامع للعبرة والموعظة، أو حوار شيق العرض مثير الأداء، مرغب في الوصول إلى الهدف، وغير ذلك من طرائق العرض التربوي الهادف الناجح وهاك مثل من السنة المطهرة ..

عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال : سمعت رسول الله r يقول : "تدرون من المسلم" ؟

قالوا : الله ورسوله أعلم

قال : "من سلم المسلمون من لسانه ويده"

قال: "تدرون من المؤمن" ؟

قالوا : الله ورسوله أعلم .

قال : "من أمنه المؤمنون على أنفسهم وأموالهم والمهاجر من هجر السوء فاجتنبه" [1] .

لقد اتخذ الرسول r الحوار طريقاً لتعليم أصحابه رضي الله عنهم وتربيتهم على منهج الله تعالى، والصغار أولى وأحق، وتلك الطريقة أليق بهم.

١- رواه أحمد (٢٠٦/٢) .

وقص من القصص الحق ما حفلت به كتب السنة، فضلاً عما حواه القرآن من طرائق في التربية ما كان لنا ولا لغيرنا أن ندركها لولا كتاب الله تعالى وقد اهتم الرسول الأكرم r بالنصيحة يربي بها أمته صغاراً وكباراً لما علمه ربه من عظيم تأثيرها، وقوة فعلها، وأخذها بمجامع القلوب وهاكم وصيته الجامعة لابن عباس رضي الله عنهما

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : كنت خلف النبي r يوما فقال لي : "يا غلام إني أعلمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف" [1] .

إن المعلم المعصوم المربي بالوحي r قد اصطفى للنصيحة من هو لها أهل، وعلى حفظها أقدر، واختار أنسب الأوقات، وأنسب الحالات لعرضها، واختص بها غلاماً مع عظمها، وقدرها في دين الله تعالى وهو أهل لها فوعاها وبلغها .

" فما أحسن الأب المربي، والأم المربية حين يجتمعان مع أولادهما في كل أمسية (أو كلما حانت فرصة) وقد ملؤوا سهرتهم (مجلسهم) بأنواع الطرائف، وأصناف الحكمة، ولطائف الموعظة، فحيناً بعرض قصة، وأحياناً بتوجيه موعظة، وتارة بإنشاد شعر، وأخرى بسماع تلاوة، ورابعة بإلقاء طرفة، وخامسة بإجراء مسابقة، هكذا يعددون في الأساليب، وينوعون البرامج، حتى تؤدي السهرة (المجلس) غرضها في تكوينهم روحياً،

١- رواه الترمذي (٦٦٧/٤) .

وهكذا يستطيع المربي أن يجمع بين الجد والمرح ويمزج ما بين الموعظة والطرفة، ويوازن ما بين الحقيقة والتسلية، حتى يطمئن قلبياً ويقتنع وجدانياً بأن الأولاد قضوا جل وقتهم في الأمور النافعة والأشياء المفيدة "[1]

إن الأب المربي والأم المربية كالطبيب الماهر يأخذ ما استطاع بأساليب الوقاية حتى يسلم من المرض من ولي أمره، وحين يرى بوادر الداء يسرع، في التشخيص، ويحسن اختيار الدواء، ويبرع في إقناع مريضه به، وعين الأبوين تغاير كل العيون، ومشاعرهما فوق كل المشاعر، وإحساسهما قادر على أن يزن أحوال ولدهما، وإن دقت، ويقف على أمره، وإن استخفى، ويرده إلى والديه رداً جميلاً ليجد مع الدفء والحنان، والصبر والحرص حسن بصر وصفاء حكمة، وناضج معرفة بالحياة، وعلم بما يصلح الولد جسماً وعقلاً ونفساً .

ويتجلَّى إعجاز القرآن الكريم، وتشرق نضارة منهجه التربوي، ويقدم زاداً تربوياً وافياً شاملاً لا تعثر عليه إلا في القرآن الكريم، وذلك في وصية لقمان لابنه .

وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ (١٣) وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ (١٤) وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفاً وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (١٥) يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ (١٦) يَا بُنَيَّ أَقِمْ الصَّلاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنْ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ

١- عبد الله ناصح علوان، تربية الأولاد في الإسلام، جـ٢ ص (٧٢٣)، مرجع سابق .

(١٧) وَلا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحاً إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ (١٨) وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ (١٩) [1].

"وإنها لعظة غير متهمة فما يريد الوالد لولده إلا الخير، وما يكون الوالد لولده إلا ناصحاً،والنصيحة من الوالد مبرأة من كل شبهة، بعيدة عن كل ظنة " [2]

والنصيحة فيما أرى جامعة لكل مجالات التربية، ولو بسطت بجهود مخلصة موفقة لكانت منهاجاً شاملاً في تربية الصغار والكبار، فعرفت الإنسان بالله تعالى، وبالتالي عرف نفسه، وذكرته بأحق الحقوق بعد حق الله تعالى (حق الوالدين) فعلم الله الواسع المحيط، وما يستوجب من إخبات وخشية، وحسن عبادة، وصدق دعوة إليه، وكريم صلة بخلقه جل وعلا قد استقرت تلك المعاني السامية في هذه الوصية.

وتسير الوصية سيرًا بليغاً محكماً لا يملكه غير كتاب الله عز وجل، ولا يحسن متابعته وتدبره إلا وَفِيٌّ للإسلام موقن أن منهجه في التربية هو المنهج الأمثل لأنه تنزيل من حكيم حميد .

٤- بين الترغيب والترهيب:

إن طبائع الأولاد مختلفة، وقدرتهم متفاوتة، ففيهم الذكي ومن دونه، ومنهم متعسر الفهم على درجات متباينة، ولأسباب متغايرة، كما ترى صوراً شتى في أمزجتهم، فمنهم الهادئ المسالم، وفيهم المستعصي الغضوب، دائم الثورة، عصبي المزاج، وفيهم الألوف، ومن يؤثر العزلة والانطواء، ومنهم غليظ الوجه جاف المحيا، وفيهم من يشرق وجهه دائماً بابتسامة ، ويبعث مرآه التفاؤل .

١- سورة لقمان الآيات (١٣ - ١٩) .

٢- سيد قطب،في ظلال القرآن، ج٥ ص (٢٧٨٨) بتصرف يسير، مرجع سابق .

صور شتى كاختلاف الألوان والألسنة، وإن كان مرجعهم إلى أب واحد وأم واحدة، ووراء هذا كله أسباب لا حصر لها قد تكون الوراثة أو البيئة، أو النشأة والتربية، أو ترد إلى عوامل نفسية، أو غير ذلك مما أدركه العلم أو غاب عنه .

والمربي (أباً أو غيره) عليه أن يكو ن بصيراً بحال من يربيه، عارفاً به ملماً بتوجهاته، وسمات شخصيته حتى ينزله المنزل المناسب في التربية، ويوجهه التوجيه الذي يبني ولا يهدم، ويصون ولا يبدد .

يقول أبو حامد الغزالي :

" وكما أن الطبيب لو عالج جميع المرضى بعلاج واحد قتل أكثرهم، كذلك المربي لو أشار على المريدين بنمط واحد من الرياضة أهلكهم، وأمات قلوبهم، وإنما ينبغي أن ينظر في مرض المريد وفي حاله، وسنه، ومزاجه، وما تحتمله نفسه من الرياضة، ويبني على ذلك رياضته "[1]

والغزالي في تعريفه بأحوال المقصودين بالتربية، وتنوع العطاء نظراً لاختلاف أحوالهم، ثم التدرج في التربية إنما يقدم للتربية نموذجاً فريداً في التعامل يقوم على البصر والخبرة، وتسوسه الحكمة، ويزينه الترفق، وإذا كان قد اتجه بالحديث عن المريدين كإمام صوفي فالصغار أولى وأحق بذلك وإذا كان الطفل جوهرة فهو إلى الرفق وحسن الرعاية والحكمة أحوج، أو كان صفحة بيضاء فهو في أشد الحاجة إلى من يدرك أبعادها، ويعرف ما يصلح فيها .

١- الإمام الغزالي، إحياء علوم الدين، جـ٣ ص(٥٩) بتصرف، مرجع سابق.

والغزالي فيما ذهب إليه خبير بالنفس، ملم بأحوالها، عارف بما يحتاج إليه في رياضتها .

ولا شك أن هناك أساليب تربوية متنوعة والمربي يصطفي منها ما يرى فإذا لم يصل به إلى غايته سلك سبيلاً آخر، واللجوء إلى الترغيب والمكافأة مادياً ومعنوياً، أو الترهيب والتلويح بالعقوبة نفسية أو بدنية قد يكون طريقاً مفضلة عند بعض الأولاد.

يقول ابن مسكويه :

" وعلى الوالدين أخذهم بها (أي حمل الأولاد على مراعاة الفضائل) وبسائر الآداب الجميلة بضروب من السياسات من الضَّرْبِ إذا دعت إليه الحاجة أو التوبيخات أو الإطماع في الكرامات أو غيرها ممن يميلون إليه من الراحات أو يحذرونه من العقوبات حتى إذا تعودوا ذلك واستمروا عليه مدة من الزمان كثيرة أمكن فيهم حينئذ أن يعلموا براهين ما أخذوه تقليداً " [1]

ويرى ابن الجزار القيرواني أنه " لا بد لمن كان كذلك (أي عسر التأديب) من إرهاب وتخويف عند الإساءة، ثم يحقق بالضرب إذا لم ينجع التخويف " [2]

غير أن اختيار الضرب كوسيلة للتربية أمر يحتاج إلى مراجعة، ويتطلب سوابق لا بد من المرور بها حتى إذا وصل الأب إلى الضرب يكون قد استنفد حيله التربوية.

١- أبو علي حمد بن محمد بن مسكويه، تهذيب الأخلاق، تحقيق قسطنطين زريق، ص (٥٨- ٦٢)، الجامعة الأمريكية، بيروت، ١٩٦٦م .

٢- ابن الجزار القيرواني، سياسة الصبيان وتدبيرهم، تحقيق وتقديم د.محمد الحبيب الهيلة، ص (١٩٤)، الدار التونسية، بدون ط، تونس، سنة (١٩٦٨م) .

وابن الجزار هو أبو جعفر أحمد بن إبراهيم بن أبي خالد القيرواني، طبيب مؤرخ له مؤلفات منها رسالة في النفس وطب الفقراء، توفي سنة ١٩٦١م .

ولذا نرى أن المربين حذروا من لجوء الآباء بشكل مستمر إلى الضرب كوسيلة سهلة ومريحة أو مخلصة لهم من متاعب الصغار، فالإنسان لم يخلق للضرب، ويقول علي بن أبي طالب: "إن العاقل يتعظ بالأدب، والبهائم لا تتعظ إلا بالضرب" ولهذا يقر ابن سينا أن المربي إذا اضطر إلى معاقبة الطفل فلا يلجأ إلى العقوبة إلا عند الضرورة بعد أخذه بأساليب الترهيب والترغيب والإيناس والإيحاش والإعراض والإقبال والحمد والتوبيخ، " فإن احتاج إلى الاستعانة باليد لم يحجم عنه .. بعد الإرهاب الشديد وبعد إعداد الشفعاء " [1].

وما أجمل التعبير بقوله: "وبعد إعداد الشفعاء"؛ لأنه سيكون أرجى في ضبط النفس، وعدم التجاوز في العقوبة .

أما ابن خلدون فقد قرر في مقدمته أَنَّ القسوة المتناهية من المربي على من يربيه لا تعقب إلا أسوأ الصفات من ضعف، وخوف، وهروب من تكاليف الحياة، وذهاب بالنشاط، وإيثار للكسل، وضياع للمروءة يقول ابن خلدون :

" من كان مرباه بالعسف والقهر سطا به القهر، وضيق على النفس في انبساطها، وذهب بنشاطها، ودعاه إلى الكسل، وحمله على الكذب،والخبث خوفاً من انبساط الأيدي بالقهر عليه"(٢)، وعلمه المكر والخديعة، ولذلك صارت هذه له عادة وخلقاً، وفسدت معاني الإنسانية التي له.

وما ذهب إليه ابن خلدون يتفق، وما دعا إليه الإسلام من رفق، وما ألزمنا من رحمة، وما حبب إلى المربين من حكمة تعينهم على فهم من يربون، وعلاجه العلاج المناسب دون إفراط أو تفريط .

١- د. محمود قمبر، دراسات تراثية، جـ (٢)، ص (٥٩)، بتصرف، مرجع سابق .

٢- د. أحمد فؤاد الأهواني، التربية في الإسلام ص(٢٤٣)، بتصرف، مرجع سابق .

ثانياً: المجال الاجتماعي :

" تشمل التربية الاجتماعية مجالاً كبيراً في حياة الطفل وأنشطة الأسرة، فهي تقوم بالتطبيع الاجتماعي الذي يبرز كمسلك حياة يكتسب فيه الطفل صفته الاجتماعية بحيث يصبح متكيفاً في سلوكه مع القيم والرموز الخاصة بنظم الوسط الاجتماعي الذي يعيش فيه ويتفاعل مع أفراده في شبكة علائقية ومنظومة من الأدوار التي ينهض بها هو والآخرون، ويؤثر بعضها في بعض، فالتربية الاجتماعية تعنى بتنشئة الطفل بحيث :

- يفهم القيم الرئيسية ورموز النظم الاجتماعية .
- يعبر في سلوكه بشكل مرض عن هذه القيم والرموز.
- يقوم بمجموعة من الأدوار يتوقعها المجتمع منه.

وهذه التنشئة تتطلب إكساب الطفل أدوات ووسائل اجتماعية مرغوبة أو ضرورية منها : اللغة – العادات – الانفعالات – المهارات، وإكساب هذه الأدوات بحاجة إلى صفات مربية خاصة من جانب الكبار تتمثل في حب وعطف، صبر وتحمل، تفهم وتقدير، خبرة وكفاءة، أهداف ومثل "[1] .

ولقد تجسد هذا في أسلوب عام تنتهجه الأسرة وتجعل منه منطلقاً لبناء أفرادها اجتماعياً منذ طفولتهم المبكرة حتى يشبوا عليه، ويتدرج معهم في مراحل حياتهم، فيكونوا أعضاءً فاعلين في نواة المجتمع، وأولى لبناته وهي الأسرة، ثم أعضاءً مؤثرين في مجتمعهم في إطار قيمه ومبادئه التي ارتضاها لنفسه وعرف بها، ولأهمية البناء الاجتماعي للطفل، وأثره في بناء شخصيته اهتم به الإسلام، ووضع من القواعد والأسس ما يتيح للطفل، منذ الصغر التزام هذه الآداب، والتخلق بها، وتكون تلك القيم مصبوغة

١- د. محمود قمبر، دراسات تراثية، جـ(٢)، ص (٤٩)، بتصرف، مرجع سابق.

بالإسلام، مطبوعة بطباعه معبرة عنه أصدق تعبير إذا أخذت مأخذها الصحيح، والتزمت كما دعا إليها الإسلام.

أسلوب التنشئة بالمعايشة :

ونعني به اكتساب الطفل صفته الاجتماعية، وتكيفه مع الوسط الاجتماعي الذي ينتمي إليه، حيث يلقى من الحب، والإرشاد، والتشجيع ما يحفزه إلى إثبات وجوده، وتحقيق فاعليته، وتأكيد دوره .

ويتم ذلك من خلال ثلاثة أساليب فرعية :

١- المعايشة بالمخالطة :

لقد رعى الإسلام الطفولة، وجعلها موضع عنايته، ودعا إلى ضرورة الاهتمام بها، والقيام بشؤونها حتى تتحقق الغاية منها، وتحسن الاستفادة من هؤلاء حين تحتم الحياة ظهورهم، وتكون لكل منهم مسئوليته وقد جاء القرآن الكريم والسنة النبوية بدستور كامل ينظم حماية الطفل ورعايته، وأقر له من الحقوق والواجبات ما يؤهله لاحتلال المرتبة اللائقة به في مجتمعه، ومن دلائل عظمة ذلك التشريع وشموليته أن تلك الحقوق لم تعد مجرد وصايا يلتزم بها الوالدان والمجتمع، وتصونه الطبيعة الغراء، ويسوسه الحب والود والرأفة والرحمة، "حيث يرى الإسلام أن تحقيق النضج الانفعالي، والوصول إلى صحة النفس لا يتم إلا من خلال طفولة منحت الحب والحنان، ولقد دعا الإسلام إلى سيادة الحب والرحمة بين أفراد الأسرة، ولكي ينمو أطفالنا بشكل طبيعي وخالٍ من أية عقد نفسية، فإن

علينا كمربين أن نغذوهم بأكثر كمية ممكنة من الحنان والرأفة والعطف الأبوي" [1]

وعطاء القرآن الكريم للطفولة فوق كل عطاء، واهتمامه بها، وعرضه لنماذج رائعة تأكيد لواجب الاهتمام بها، والحرص عليها كأهم مرحلة من مراحل الإنسان .

قال تعالى: **(لا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ (١) وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ (٢) وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ (٣)** [2]

أهناك إبراز لدور البنوة أعظم من هذا القسم ؟

بل حدث الرسولَ الأكرمَ صلى اللّه عليه وسلم عن طفولته، ودعاه وأمته إلى رعاية الطفولة، وكفايتها، والعمل على حمايتها فقال جل شأنه :

(أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَى (٦) وَوَجَدَكَ ضَالاًّ فَهَدَى (٧) وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَى (٨) فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلا تَقْهَرْ (٩) [3]

فامتن سبحانه وتعالى عليه بما هيأ له في طفولته، ثم كشف له ولأمته عما يجب تجاه قطاع من المجتمع ألا وهم اليتامى؛ حيث تلزم رعايتهم رعاية حماية للحاضر وإعداد للمستقبل، ثم عملاً على أن تظل صورة الإسلام مشرقة بناءة في سلوك أمته، حتى إذا فقد اليتامى الآباء نسباً، فالمؤمنون لهم آباء.

١- جون كونجرو وآخرون، سيكولوجيا الطفولة والشخصية، ترجمة أحمد عبد العزيز سلام وآخر، ص (١٧٨)، بتصرف، دار النهضة العربية، بدون ط، بيروت – لبنان، ١٩٧٠م.

٢- سورة البلد الآيات (١- ٣) .

٣- سورة الضحى الآيات (٦- ٩) .

ويذكر لنا نموذجاً للطفولة الرائدة التي تنشر في إعجاز ما خلق الإنسان من أجله، وما أنيط به من تكاليف، فيقول جل شأنه على لسان عيسى بن مريم عليه السلام راداً افتراءات البشر مؤكداً قدرة الله الذي خلق فسوى: **(قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيّاً (٣٠) وَجَعَلَنِي مُبَارَكاً أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيّاً (٣١) وَبَرّاً بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّاراً شَقِيّاً (٣٢) وَالسَّلامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيّاً (٣٣))**[1]

رأينا كيف اهتم الإسلام بالطفل وكيف اتسع القرآن الكريم للطفولة، والدعوة إلى حسن رعايتها وإذا كان الله تعالى يحدث عن محمد r ومن معه ذاكراً أعظم صفاتهم فيقول :

(مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ) [2]

إذا كانت هذه سمة محمد r ومن معه فيما بينهم فماذا يكون حظ الطفل منها؟

لا بد أنه سيكون أوفى وأكمل لأن طبيعته أشد احتياجاً إلى الرحمة، وإذا كان الرسول r كما حدث ربه عنه :

(وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ (١٠٧)) [3]

فلا بد أن يُرِيَ الدنيا كيف تكون الرحمة بالطفل في معايشته وتربيته، ليكون الأسوة الحسنة لكل من أراد أن ينهج منهجاً سوياً في معايشة الأطفال وتربيتهم عن أنس رضي الله عنه قال : "أتى رسول r على غلمان يلعبون فسلم عليهم "[4]

١- سورة مريم الآيات (٣٠ – ٣٣) .

٢- سورة الفتح الآية (٢٩) .

٣- سورة الأنبياء الآية (١٠٧) .

٤- رواه أبو داود (٣٥٢/٤) .

قد يمر بعضهم فلا يأبه بهؤلاء الصغار، ولا يلقي لهم بالاً مروراً عابراً لأنه في ذاته مصروف عن التلقي الحسن عن رسول الله r أو أن مداركه لا تتسع لمثل ذلك النهج التربوي الرفيع والحق أن السلام على الطفل خاصة إذا كان من عظيم كرسول الله r فيه إشعار الطفل بأهميته وحافز له لأن يتعجل رجولته، ويدخل في غمار المجتمع، عن أسامة بن زيد رضي الله عنهما كان رسول الله r يأخذني فيقعدني على فخذه، ويقعد الحسن بن عليٍّ على فخذه الآخر، ثم يضمهما، ثم يقول: " اللهم ارحمهما فإني أرحمهما" [1].

وعن أم سلمة رضي الله عنها قالت: بينما رسول الله r في بيتي يوماً إذ قالت الخادمة: " إن علياً وفاطمة بالسدة، قالت: فقال لي: "قومي فتنحي لي عن أهل بيتي " قالت: فقمت فتنحيت في البيت قريباً، فدخل علي وفاطمة، ومعهما الحسن والحسين وهما صبيان صغيران ، فأخذ الصبيين فوضعهما في حجره فقبلهما، قالت: واعتنق علياً بإحدى يديه وفاطمة باليد الأخرى، فقبل فاطمة وقبل علياً فأغدق عليهم خميصة سوداء فقال : " اللهم إليك لا إلى النار أنا وأهل بيتي " .

قالت: فقلت: " وأنا يا رسول الله، فقال " وأنتِ " [2]

وفي إجلاس الطفل في حجر من يكبره إيناس له، وإنماء للألفة في قلبه، وتأصيل للمودة في سلوكه، فما بالك إذا كان هذا الجلوس في حجر رسـول الله r؟ إن قبلة حانية تطبع على وجه صغير فيها تحريك لمشاعر

٢- رواه البخاري (٣٠٦/١٦فتح) .

٣- رواه أحمد (٢٩٦/٦) .

الحب والولاء، وهي أعظم الطرق وأسرعها في إشباع الحاجة إلى الشعور بالانتماء لدى ذلك الذي يرى نفسه بين عمالقة، ولا يدري أنه سيكون يوماً ما مثلهم أو أشد، إنها التربية على طريقة الإسلام الحنيف.

لقد عود الرسول r أطفال المسلمين أن يجتمعوا به، وكانوا يستوحشونه إذا غاب، فإذا عاد من السفر "يتلقاه الصبيان، فيقف لهم، ثم يأمر بهم، فيرفعون إليه، فيرفع منهم بين يديه ومن خلفه، ويأمر أصحابه أن يحملوا بعضهم، فربما يتفاخر الصبيان بعد ذلك بزهو، أولئك الذين حملهم الرسول "[1]

لقد كان الرسول r يخرج إلى الناس في بعض الأحيان حاملاً أو مصطحباً أحد أحفاده كالحسين أو الحسن، أو كليهما.

وهكذا هيأ الرسول r اختلاط الصغار بالكبار فصاحبوهم في غشيانهم المساجد، وحضور حلقات العلم، والخروج إلى الأسواق للبيع والشراء وفي صلة أرحامهم، وبر أصدقائهم.

" هذه المخالطة تعبر عن الحب يظهره الكبار للصغار، وتعطيهم كثيراً من الأمن النفسي، والتقدير الاجتماعي، وتعودهم السلوك الاجتماعي بشكل عملي طبيعي يقوم على المحاكاة والامتصاص دون تلقين أو فرض، أو تشديد، كما تعطيهم كثيراً من الخبرات، وتعجل من سرعة نموهم العقلي والنفسي والاجتماعي بل أثبتت الدراسات الحديثة أن (العزل

١- د. محمود قمبر، دراسات تراثية، جـ(٢)، ص (٥٠)، مرجع سابق.

الاجتماعي للطفل) يعوقه بيلوجياً (بالإضافة إلى التعويق النفسي والتخلف العقلي)

وكانت خلاصة هذه الدراسات أَنَّ هجر الأطفال، وعزلهم عن المخالطة للكبار، وحرمانهم من إقامة علاقات أولية في عهد مبكر من طفولتهم، يجردهم من طبيعتهم الإنسانية، ويفقدهم القدرة على التعبير الإنساني، والتكيف السلوكي، وينتج في النهاية شخصيات منهارة أو مرضية".[1]

وكان الإسلام حريصاً على ألا ترى هذه الصورة في مجتمع يديره الإسلام وتسوده تعاليمه " وهاهو رسول اللّه r كثيراً ما كان يأتيه رجال من المسلمين ومعهم صبيانهم، فيداعبهم عليه الصلاة والسلام، فيوصي الآباء بهم خيراً، وينصح بالعدل بينهم "[2]

وقد وعى المسلمون ذلك وأخذوا أنفسهم به حتى في حالات انفصال الأبوين حضانة الصغير لأمه ما لم تتزوج، ورؤيته ومجالسته حقهما .

٢- المعايشة بالمشاركة :

لا شك أن الطفل يربى إعداداً له، وإنماءً لقدراته، وإظهاراً لكرامته حتى يدعم المربي فيه ما يراه صالحاً، ويعمل من أجل تطويره والارتقاء به، ويكتشف ما لا يحمد فيتولاه برفق ليستبدل به سلوكاً قويماً، ينبع من أعماقه، ويعبر عن توجهاته .

والمشاركة من أشد وسائل التربية تأثيراً وأسرعها في إبراز شخصية الطفل، والقرآن الكريم يشير إلى تلك المشاركة في كثير من

١- د. محمود قمبر، دراسات تراثية، جـ(٢)، ص (٥٠)، مرجع سابق .

٢- ابن قيم الجوزية، تحفة الودود بأحكام المولود، ص (١٣٥- ١٣٦) بتصرف، المطبعة الهندية العربية، ط١، بمباي – الهند، سنة (١٣٨٠هـ - ١٩٦١م) .

آياته، وعديد من مواقفه المعصومة، وإن كان الأمر يحتاج إلى تدبر، ويقظة بصيرة، وصفاء فكر، فيوسف عليه السلام لم يتح له أبوه أولاً مشاركة إخوته فيما هم فيه من رعي ولعب لما يتوسم فيه، وما يؤمل له، فاحتفظ به لنفسه، وأشركه في أمور تتفق وما توقع له، فهو يعمق فيه الصلة بالله، ويوثق صلته بآبائه، وفي طليعتهم أبو الأنبياء إبراهيم عليه وعليهم أفضل الصلاة وأزكى السلام، وقد أثمرت هذه التربية حين خص أباه يعقوب بقص ما رأى، وتفاءل ببشارته، ولزم نصحه **(إِذْ قَالَ يُوسُفُ لأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ (٤) قَالَ يَا بُنَيَّ لا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْداً إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ (٥) وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٦)**[1]

وحين أصروا على أخذه أجابهم وهو به ضنين بعد ما نثر على مسامعهم خوفه منهم وتوجسه من غفلتهم، ونفذت إرادة الله تعالى، وتجلت آثار رحمة الله تعالى بذلك الصبي، وأثمرت تربية أبيه له .

وها هي أم موسى تذعن لأمر ربها، وتلقي رضيعها كما أمر الله تعالى : **(وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلا تَخَافِي وَلا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنْ الْمُرْسَلِينَ (٧)**[2]

١- سورة يوسف الآيات (٤- ٦) .

٢- سورة القصص الآية (٧).

وحين سمعت الأم بوقوعه في يد فرعون طار عقلها، وغلت عاطفتها، وخافت هلاك ولدها، فدعت ابنتها إلى مشاركتها، ولولا أنها جربتها قبل، وخبرت حكمتها في مشاركات سابقة ما اختارتها لتلك المهمة العظمى **وَقَالَتْ لأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (١١) وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ (١٢)** [1]

إن حوار تلك الفتاة فضلاً عن متابعتها الواعية كما صورها القرآن الكريم، وأفاض فيه المفسرون أمور توحي بعمق خبرة، ورجاحة عقل مما يؤكد حسن تربية أمها لها، وإشراكها منذ طفولتها الأولى في عظائم أخرى، وباللّه، ثم بما أفاء اللّه عليها من رشاد، وما ألهمها من حجة كانت عودة موسى لأمه، فإذا ما أسرعنا في نفس السورة، ووردنا مع موسى عليه السلام ماء مدين ، وطالعتنا الآيات الكريمة : **(وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنْ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمْ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ (٢٣))** [2]

الأب كبير فمن يحمل عنه همومه ؟ أولاده لا شك في ذلك إذا حسنت تربيتهم، وشاركوه أمر معاشه، ولو كن إناثاً، وهذا ما حدث لابنتي الرجل الصالح، فليست هذه أول مرة لهما، بل ربما مارستا هذا العمل أعواماً قبل ذلك، وليس بغريب أن تكون المشاركة قد تمت منذ طفولتهما المبكرة وليس هذا بغريب في مجتمع رعوي، أو زراعي، وهذا ما نعيشه واقعاً لدى كثير من بيئاتنا العربية حيث توكل مثل هذه الأعمال إلى الأطفال، بل إنهم ماهرون وماهرات حتى في الذبح إذا

١- سورة القصص الآيتان (١١ - ١٢) .

٢- سورة القصص الآية (٢٣) .

اقتضى الأمر ذلك، فالرجل الصالح أشركهما في مهنته صغيرتين، فكانتا عوناً له فيما بعد، حيث لم يشر القرآن الكريم من قريب أو بعيد إلى وجود أولاد ذكور للشيخ .

ناهيك عن أن تربيته لهما لم تقف عند الجانب الحسي المهني بل أحسنت التعامل مع الجانب الديني وأثمرت أيما إثمار، نرى ذلك في عدم مزاحمتهما الرجال، وفيما وصف الله تعالى إحداهما بالحياء، وحديثها إلى موسى عليه السلام قال تعالى: ﴿**فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنْ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ** (٢٥)﴾ [1]

وهما صغيرتان، وأرى أن خبرتهما أسبق بسنوات، ولم يشر القرآن إلى ذلك حيث لا يتعلق به غرض، أو قل هو متروك لمتدبر القرآن الكريم ومعلوم أن الزواج في تلك العصور كان يتم في سن مبكرة فضلاً عن أن كثيراً من المفسرين ذهب إلى أن الزواج كان بعد قضاء الأجل وهو أبر الأجلين وأوفاهما عشر سنوات كما أعلمنا الرسول الكريم ﷺ .

ومريم رضي الله عنها يقول عنها ربها جل وعلا : ﴿**فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتاً حَسَناً وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقاً قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ** (٣٧)﴾ [2]

١- سورة القصص الآية (٢٥) .

٢- سورة آل عمران الآية (٣٧) .

لقد طلبت امرأة عمران الولد لأمر عظيم لا يقوم له إلا الذكور فوهبها الله مريم وجعلها تفوق كثيراً من الرجال .

وأي تعبير عن سلامة التربية، وطيب النشأة بعد تعبير القرآن الكريم (**وَأَنْبَتَهَا نَبَاتاً حَسَناً**)؟! ومن المسلم به أن جودة الزرع وطيب الثمر رهن بالبيئة من تربة وماء ومناخ ، فوضع مريم هذا الموضع دليل على عظم تأثير البيئة الصالحة فيها، وكفالة زكريا عليه السلام لها وهو الرسول المبلغ عن الله لن يوردها إلا حيث يرضى الله تعالى، بل جعل الله تلك الكفالة خيراً له لما رأى من تتابع رحمة الله تعالى عليها، وتكريمه لها .

(هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ (٣٨) [1]

وفي سورة مريم: **(قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيّاً (٤) وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتْ امْرَأَتِي عَاقِراً فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيّاً (٥) يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيّاً (٦))** [2]

وكانت الإجابة .. **(يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيّاً (٧))** [3]

ويجتمع لذلك الغلام ما خصه الله به من فضل، وما أجرى عليه من أدب في رحاب أبيه **(يَا يَحْيَى خُذْ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيّاً (١٢)**

١- سورة آل عمران الآية (٣٨) .

٢- سورة مريم الآيات (٤ - ٦) .

٣- سورة مريم الآية (٧) .

وَحَنَانًا مِنْ لَدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيّاً (١٣) وَبَرّاً بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّاراً عَصِيّاً (١٤) وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيّاً (١٥))[1].

وأترك المجال لأحد المفسرين المحدثين ليقول ما أفاء الله عليه عن هذا النموذج الطيب في التربية .

" ما ذكره الله من خصائص يحيى يعتبر نقاط علامٍ في تربية الأطفال، فأن تربي طفلك على مجموع هذه الخصائص هي الغاية التي ما بعدها غاية :

(يَا يَحْيَى خُذْ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ) ربِّ ولدك على أخذ الكتاب بجد وعزم

(وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيّاً) ربِّ ولدك على فهم الحكمة والتحقق بها كي يكون حكيماً .

(وَزَكَاةً) ربِّه على التقوى والطهارة في الأخلاق والسلوك .

(وَكَانَ تَقِيّاً) ربِّه على التقوى والإسلام والطاعة .

(وَبَرّاً بِوَالِدَيْهِ) ربِّه على البر وجنبه العقوق .

(وَلَمْ يَكُنْ جَبَّاراً عَصِيّاً) ربِّه على التواضع والطاعة "[2].

وحاشاك أن يقول قائل: هؤلاء رسل، ومصطفون، ومصطفيات، فنجيب عليه بالقرآن نفسه **لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُوْلِي الأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثاً يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (١١١)** [3]

٤- سورة مريم الآيات (١٢- ١٥) .

١- سعيد حوى، الأساس في التفسير ،جـ٦، ص (٣٢٥٧- ٣٢٥٨)، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع، ط١، القاهرة – مصر ، سنة (١٤٠٥هـ- ١٩٨٥م).

٢- سورة يوسف الآية (١١١) .

فما يجريه الله لهم إعجازاً أو كرامة يحققه لغيرهم تكريما واستجابة إذا صدقوا الله تعالى في تربية من ولوا ..

ومع القرآن الكريم وهو يحدثنا عن رسول الله r في نشأته الأولى: لقد مات أبوه وهو جنين، والأب أصل التربية وأساسها وفقده نذير خطر أياً كان الكافل بعده إن لم تكن رعاية الله تعالى، وهذا ما حدث لرسول الله r **(أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَى (٦))** [١] "أي ألم تكن يتيماً لا أب لك يعنى بتربيتك، ويقوم بشئونك، ويهتم بتنشئتك، فما زال يحميك ويتعهدك برعايته، ويجنبك أدناس الجاهلية وأوضارها حتى رقيت إلى ذروة الكمال الإنساني " [٢] .

" ولو تدبر المنصف في رعاية الله له، وحياطته بحفظه وحسن تنشئته، لوجد من ذلك العجب، فلقد كان اليتم وحده مدعاة إلى المضيعة وفساد الخلق، لقلة من يحفل باليتيم ويحرص عليه، وكان في خلق أهل مكة وعاداتهم ما فيه الكفاية في إضلاله لو أنه سار سيرتهم، لكن عناية الله كانت ترعاه، وتمنعه السير على نهجهم، فكان الوفي الذي لا يمين، الأمين الذي لا يخون، والصادق الذي لا يكذب، والطاهر الذي لم يدنس برجس الجاهلية" [٣] .

١- سورة الضحى الآية (٦) .

٢- المراغي، تفسير المراغي ،جـ١٠، الجزء ٣٠ ص (١٨٥)، مرجع سابق .

٣- المرجع السابق نفس المجلد و الصفحة .

وبتوفيق من الله تعالى شارك قومه في كل طيب، وإن كان قليلاً، وهجر ما كان فيهم من سوء، وما أكثره !

" وبقدر ما كان r يبغض الأوثان ويتنكر لها .. بقدر ما كان كثير الصمت والتفكير .. والتخلق بالأخلاق الحسنة المحببة .. إلى كل الناس .. وربه سبحانه يعده إعداداً يليق بما سيكرمه به ويحمله إياه إلى البشرية ..

وقد روى ابن العباس قال: حدثتني أم أيمن قالت: كانوا في الجاهلية يجعلون لهم عيداً عند (بُوانة) وهو صنم تعبده قريش، فكان أبو طالب يحضر مع قومه يكلم رسول الله أن يحضر ذلك العيد فيأبى، حتى غضب عليه ولم يزالوا به حتى ذهب معهم، ثم رجع فزعاً مرعوباً، فقالوا: ما دهاك؟ قال: إني كلما دنوت من صنم منها تمثل لي رجل أبيض طويل يصيح بي: وراءك يا محمد لا تمسه، فما عاد إلى عيدهم حتى تنبأ .. r .. فما كان له حتى مجرد التقليد أو التشبه بما أراد أن يكرهه عليه ذووه .. من عادات وطقوس .. " [1] .

إن المشاركة التي تراد منه تتنافى مع ما أعد له، فليشارك ولكن على نهج يوافق تربية الله تعالى له .

١- عبد السلام هاشم حافظ، سيرة نبي الهدى والرحمة، ص (٦٢)، رابطة العالم الإسلامي الأمانة العامة، ط١، مكة المكرمة – المملكة العربية السعودية، سنة (١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م).

فهو مع أترابه مثلاً لا يخاصم، ولا يتصايح معهم، فلنسمعه r يتحدث عن أيام صغره، إنه يشارك غير أن له حدوداً لا يتجاوزها، وآداباً يلتزمها، فهناك ملاحظة خفية، وعصمة تسري في كيانه تعصمه من أن يتجاوز، يقول r : "لقد رأيتني في غلمان قريش ننقل حجارة لبعض ما يلعب به الغلمان، كلنا قد تعرى، وأخذ إزاره فجعله على رقبته، يحمل عليه الحجارة، فإني لأقبل معهم كذلك وأدبر، إذ لكمني لاكم ما أراه، لكمة وجيعة، ثم قال: شد عليك إزارك، فأخذته فشددته علي، ثم جعلت أحمل الحجارة على رقبتي وإزاري علي من بين أصحابي" [1].

وقد أفسح الإسلام المجال للصبيان في المساجد ليشاركوا من يكبرونهم من الرجال في إقامة الصلاة ويشهدوا ما للجماعة من آثار طيبة .

"كان رسول الله r يجعل الرجال قدام الغلمان وخلفهم النساء خلف الغلمان"[2]

كما كان رسول الله r يباشر بنفسه تعليم الأطفال كل ما يحتاجون إليه في الصلاة. عن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما قال: علمني رسول الله r كلمات أقولهن في الوتر: "اللهم اهدني فيمن هديت، وعافني فيمن عافيت، وتولني فيمن توليت، وبارك لي فيما أعطيت، وقني شر ما قضيت، إنك تَقْضِي ولا يُقْضَى عليك، إنه لا يعز من عاديت وإنه لا يذل من واليت تباركت ربنا وتعاليت"[3]

١- عبد السلام هاشم حافظ، سيرة نبي الهدى والرحمة، ص (٦٢)، مرجع سابق .

٢- رواه أحمد (٣٤١/٥- ٣٤٢).

٣ ٣- رواه أبو داود (٦٣/٢) والترمذي (٣٢٨/٢).

أي مشاركة أعظم من هذا فيما يمس العقيدة يلقى على صغير وهو أهل له فيتلقفه الصحابة، ويأخذ به الأئمة، ويشيع في دعاء القنوت ؟ وقد اتسعت مجالس النبي r لصغار الصحابة وشاركوا الشيوخ السماع عن رسول الله r والأخذ عنه .

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله r : "إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها، وإنها مثل المسلم، فحدثوني ما هي؟" فوقع الناس في شجر البوادي، قال عبد الله: ووقع في نفسي أنها النخلة، فاستحييت، ثم قالوا: حدثنا ما هي يا رسول الله ؟ قال: "هي النخلة"[1]

لقد جالت أفكار الكبار، ووقعوا مواقع مختلفة لعلهم يصلون إلى جواب صحيح وما استقر الجواب الحق إلا في نفس صغير، وإن لاصقه أبوه، وشارك في المجلس أبو بكر .

وفي رواية وألقي في نفسي، أو روعي أنها النخلة، فجعلت أريد أن أقولها فإذا أسنان القوم فأهاب أن أتكلم ..

وحين يخبر والده عمر يقول له: لأن تكون قلتها أحب إلى من كذا وكذا .

إنه حرص الصحابة على مشاركة صغارهم لهم في مجالس الهدى، وما أسفر عنه ذلك من نبوغ مبكر، وسبق لسنوات العمر، وما سلكوا هذا المسلك في التربية إلا بما أخذوا عن رسول الله r وها هي تلك المشاركة يجليها لنا المعلم المعصوم r في كبرى نعم الله علينا، ألا

---

١ - رواه البخاري (١/٢٥٨- ٢٥٩ فتح) .

وهي العقيدة تلقياً، ودعوة، حيث إن المتلقي وإن كان صغيراً إلا أنه أُعِدَّ للدعوة، وفطر عليها .

عن أبي العباس عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: "كنت خلف النبي r يوماً، فقال لي: "يا غلام، إني أعلمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء، لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، وإن اجتمعت على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف" [1]

أي مخالطة كهذه، وأي مشاركة يدعى إليها الصغير، فيكون أهلاً لما حمل، ويظهر أثره فيه، ويبلغ عن الله تعالى، ورسوله r أصلاً كبيراً في رعاية حقوق الله، والتفويض لأمره، وحسن التوكل عليه ؟ أي منهج في التربية يداني منهج رسول الله r ؟ إن مجرد إردافه لذلك الغلام خلفه له في النفس آثار عز أن يحيط بها قلم،أو يحصيها باحث، فضلاً عن تخصيصه بتلك الموعظة .

إن التربية بالمشاركة تقتضي أن يكون اهتمامك في الفرائض بحكمة مراعياً في الطفل مقدار إدراكه، تريه وضوءك فإن اكتفى بغسل الوجه فاقبل ذلك منه لعله فيما بعد يثني بغسل اليدين، ثم يصل

٢- تقدم تخريجه ص (٨٤)، رقم (١) .

إلى غسل القدمين حتى يتم وضوءه، أره نفسك وأنت تصلي وأعنه على تقليدك، ثم اصحبه إلى المسجد ليراك وغيرك، اقبل منه صوم ساعة أو ساعتين أو أكثر وشجعه، واشكر فيه اهتمامه بالصيام ليكون الصوم كما أراد الله تعالى ميسوراً عنده، تصدق في حضرته، وأَثِرْهُ للصدقة، وأعطه ليتصدق هو بنفسه، بَسِّطْ له الخلق، وحَبِّبْ إليه الالتزام به، وكن أنت قدوته، ورغبه في الطاعة شيئاً فشيئاً، وحذره بحكمة من المخالفة .

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلائِكَةٌ غِلاظٌ شِدَادٌ لا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ (٦)) [1]

ولا تكون الوقاية إلا بتعريفه بالله خالقه قدر إدراكه، مع الاستعانة بالمحسوسات، ثم ترغيبه في طاعته ، وتنفيره منذ نعومة أظفاره من معصيته .

يقول محمود شلتوت: "والصلاة ليست كما يظن كثير من المسلمين مجرد عبادة شخصية يقوم بها المؤمن فيما بينه وبين ربه، تقتصر فائدتها على تهذيب النفس، وإنما هي مع ذلك جعلت عن طريق الاجتماع لها فرضاً كان الاجتماع أم سنة أم فضيلة سبيلاً لتعارف المؤمنين، وتفاهمهم فيما يحتاجون إليه من خير في دينهم ودنياهم "[2]

١- سورة التحريم الآية (٦) .

٢- الإمام الأكبر محمود شلتوت، الإسلام عقيدة وشريعة، ص (١٠٤)، دار الشروق، ط٤، القاهرة - مصر، سنة (١٩٦٨م).

محمود شلتوت: فقيه مصري، كان داعية إصلاح نير الفكرة، كان خطيباً موهوباً جهير الصوت، عُين وكيلاً لكلية الشريعة ثم عضواً من كبار العلماء وعضواً في مجمع اللغة العربية ثم شيخاً للأزهر، له مؤلفات منها فقه القرآن والسنة، توفي سنة (١٣٨٣هـ - ١٩٦٣م).

ودخوله المسجد يعرفه بالله رب هذا البيت، ويعرفه بعبادته، كما يعرفه بأمته التي فرض الله عليها الصلاة خمس مرات كل يوم، وإن اعتياد الصغير المساجد، وارتياده لها، واجتماعه بالمسلمين على مختلف أعمارهم وأوضاعهم له ثمار عظيمة، وثمار عملية في التربية حيث ..

"١- شعور الطفل أنه أخ لكل من في المسجد، وأنه مساوٍ له، فتنمو عنده روح المساواة الحقيقية .

٢- يربي فيه النزعة الاجتماعية فيحس بقوة الجماعة ووحدتها وأخوتها في ظل هذا اللقاء الطاهر في ضيافة الله .

٣- يتعود الطفل في صلاة الجماعة التنظيم وتوحيد الصفوف من خلال أداء أعمال واحدة وراء إمام يرمز إلى القائد الذي ينبغي له أن يطاع، وما يعكسه ذلك من روح محبة للنظام والطاعة في مختلف جوانب الحياة، وهذا نوع من الجهاد ضد التعنت وحب النفس.

٤- تطبعه بطابع خلقي جميل تصنع منه مستقبلاً عضواً حياً يعمل وينتج ويعم خيره على الناس .

٥- تدريبه على استماع الوعظ والإرشاد من خلال خطبة الجمعة وسماع أحكام فيما يحل وما لا يحل" [1] .

ولذا كان الإسلام حريصاً على تلك المشاركة لأنها البناء الحقيقي الصادق لشخصيات أبنائنا .

وما وقفت المشاركة عند حد العبادات، والبناء العقيدي، وإنما شملت أمور الدنيا، فالإسلام يعد المسلمين للدين والدنيا .

عن أبي سعيد الخدري t قال : "إن رسول الله r مر بغلام يسلخ شاة، فقال له رسول الله r : تنح حتى أريك فأدخل رسول الله يده بين الجلد

١- سهام مهدي جبار، الطفل في الشريعة الإسلامية ومنهج التربية النبوية، ص (٢٧٨- ٢٧٩) بتصرف، المكتبة العصرية، ط١، صيدا، بيروت – لبنان ، سنة (١٤١٧هـ - ١٩٩٧م).

واللحم، فدحس بها حتى توارت إلى الإبط، وقال: يا غلام هكذا فاسلخ، ثم مضى وصلى للناس ولم يتوضأ"(1).

"وهكذا لا يمنعه عليه الصلاة والسلام انشغاله بأمور المسلمين الكبرى عن توجيه غلام صغير إلى سلخ شاة، فقد كان بالإمكان أن يقوم غيره من الصحابة بذلك، ولكن لتتم القدوة والأسوة به في هذا المجال قام عليه الصلاة والسلام بنفسه بتعليم الغلام، فما الذي يمنع الأب من الاجتماع بأولاده في أوقات متفرقة منتظمة، يعلمهم أمور دينهم فهي أهم من ذبح الشاة ونحوه، فإن بعض علماء السلف كانوا يجمعون الصبيان الصغار فيحدثونهم ويعلمونهم أمور دينهم، ولا يترفعون عن ذلك "[2]

و"هذه المشاركة سمحت للصغار أن يتملكوا في وقت مبكر أدوار الكبار في العمل والإنتاج"[3].

ثالثاً: المجال المعرفي:

للأسرة دور بارز في تنمية المعرفة لدى الطفل، حيث يتلقى الطفل الأصوات الأولى من أمه، ثم من أبيه وإخوته، ومن ثم يردد هو ما يمكن وفقاً لاستعداداته " ويبدأ النمو اللغوي لدى الطفل بما تقع عليه حواسه، وبما يسميه اللغويون (أسماء الذات) فهو يتعرف أول ما يتعرف على (ماما، بابا، لبن .. الخ) وتأتي الأفعال والحروف متأخرة في لغة الطفل أما أسماء المعاني فتكون مثل (حب، حنان، فرح، نسيان) فيتأخر ظهورها حيث تحتاج إلى خبرات معينة، وهذا لا يتأتى للطفل إلا في مراحل متأخرة" (٤).

٢- رواه ابن ماجه (٢/٢١٤)، وأبو داود (١/٤٧).

١- عدنان حسن صالح باحارث، مسئولية الأب المسلم، ص (٨٣)، مرجع سابق

٢- محمود قمبر، دراسات تراثية، ص(٥١)، مرجع سابق.

٣- د. محمد جميل محمد يوسف منصور، د. فاروق سيد عبد السلام، النمو من الطفولة إلى المراهقة، ص (٣٣٣)، بتصرف، الكتاب الجامعي، ط٤، جدة – المملكة العربية السعودية، سنة (١٤١٠هـ - ١٩٨٩م).

وللأسرة في مجال التربية المعرفية ثلاثة أساليب :

١- أسلوب التنمية اللغوية :

"وتبرز فيه الأم كمعلمة اللغة الأولى لطفلها، وتبدأ معه قبل أن ينطق أو يفصح"(١) حين تطربه بكلماتها المنغمة، وأغنياتها البسيطة، وإشاراتها المثيرة إذهاباً لحزنه، أو تجديداً لنشاطه، أو حثاً على رضاعه، أو تعجيلاً لنومه، مع ما تسبغ عليه من عطف، وما توليه من حنان وحسن رعاية.

وإذا تهيأ الطفل للنطق بدأت عملية التلقين اللغوي وفق أسلوب تربوي يوضحه ابن الخطيب بقوله:"إذا قرب كلامه فلتكثر الحاضنة (أماً أو مرضعاً أو مربية) الكلام بين يديه، وتناغيه، وتلقنه كلاماً خفيفاً سهلاً " .

" فابن الخطيب يركز على نواحٍ ثلاث في إكساب اللغة للصغير:

أولها كثرة الكلام، وذلك حتى يعتاد الطفل طبيعة الأصوات، وطريقة نطقها، ودلالة معانيها في المناسبات التي تذكر فيها، وحتى يختزن منها في ذاكرته بالتكرار كلمات ترسخ دون أن يذهب بها النسيان لندرة أو قلة استعمالها.

ثانيها المناغاة، وهي الإثارة التي تشد أذنه إلى سماع الكلام، وهي التوضيح الصوتي لمقاطع، وحروف الكلمة المنطوقة.

ثالثها البدء بالكلمات الخفيفة السهلة، التي يتمكن الصغير من نطقها، واستخدامها، واستيعابها ولو أكمل ابن الخطيب هذه العبارة بركن رابع يختص بذكر الكلمات التي تشبع بشكل مباشر حاجات

٤- د. محمود قمبر، دراسات تراثية، جـ(٢)، ص (٦٠) بتصرف، مرجع سابق

وابن الخطيب هو أبو عبد الله محمد بن عبد الله السلماني ذو الوزارتين كان من أعظم الكتاب والشعراء ورجال السياسة ومن مؤلفاته عمل من طب لمن حب .

الطفل، والتي تصبح له كلمات أدائية يعبر بها عن رغباته لكانت عبارته جامعة لمبادئ التربية الحديثة في تعليم الصغار لغة الأم " [1].

مع أن ما أشار إليه الدكتور محمود قمبر،واعتبره ركناً رابعاً يمكن أن يدخل فيما تحدث به ابن الخطيب ضمناً فما كانت مناغاة الأم، وكلماتها، وتكرارها لألفاظ معينة إلا إشباعاً لحاجات الطفل، وتمشياً مع إحساسها بمتطلباته، ويمكننا القول بأن ابن الخطيب سبق علماء التربية المحدثين بقرون في وضع مبادئ التربية الحديثة في تعليم الصغار في إيجازٍ بارع شامل.

١- د. محمود قمبر، دراسات تراثية، جـ(٢)، ص (٦٠) بتصرف، مرجع سابق

٢- أسلوب السؤال والجواب:

فالطفل بفطرته يسعى إلى اكتساب لغة وظيفية تساعده على التعامل مع البيئة التي يعيش فيها، ويتفهم من خلالها العالم المحيط به ويكتشف الرموز والأسرار التي يستعصي عليه حلها فنراه كثير السؤال: (ما هذا؟ من هذا؟ لماذا؟ كيف؟) وغير ذلك من الأسئلة التي تنمي معرفته، وتثري فكره، وتعينه على تفهم ما حوله من خلال ما يلقى عليه من إجابات.

ولقد قدر المسلمون هذه الطبيعة الطفلية المجبولة على البحث، والتي تبدأ بمعرفة أسماء الأشياء، وتتدرج نحو أسبابها وعللها، وقد نبه ناصر خسرو الأذهان إلى هذه الظاهرة المعرفية في حياة الصغار حيث " يكثر سؤال الأطفال عن أسماء الأشياء المتنوعة، والمختلفة الألوان التي يرددونها قائلين لأمهاتهم ما هذا ؟ " [١] .

٣- أسلوب التهيئة للتعليم :

إن تهيئة الطفل للتعليم النظامي تتوقف على مقدار ما يتلقى الطفل في محيط أسرته، من معارف أولية، وإدراكات مبدئية، تظهر فيها لباقة الأبوين، وفطنتهما، وقدرتهما على تشويق الطفل للدراسة، وإشعال رغبته في الانتقال إلى المدرسة، والتردد عليها، وحمل كتبه، وأدواته، وغير ذلك.

ويحاول الأبوان إيقافه عند بعض المشاهد الخاصة بوجود الصغار في المدارس، أو خروجهم منها، ولو من خلال التلفاز أو غيره، أو متابعة الطفل في مشاهدته لإخوته الذين يكبرونه في ذهابهم، ومجيئهم، أو عمل وظائفهم الدراسية.

١- د. محمود قمبر، دراسات تراثية، جـ(٢)، ص (٦١) بتصرف يسير ، مرجع سابق

وقد يصطحب الأب ولده إلى المسجد، أو يجلسه في مجلس علم، ويعلمه برفق آداب الاستماع حسب قدراته، ويرغبه فيه، ويحبب إليه المتحدث، كل هذه ترغبه في الدراسة، وتحبب إليه التعليم.

" ولم يعدم الصغار خارج الأسرة رجلاً حصيفاً منصفاً كعمرو بن العاص يقدر فيهم الرغبة العظيمة في تحصيل العلم فيعمل على تشجيعهم، وحسن استقبالهم مع الكبار في المجالس التعليمية، لقد رأى عمرو بن العاص حلقة (جلس أصحابها) إلى جانب الكعبة، فلما قضى طوافه جلس إليهم، وقد نحوا الفتيان عن مجلسهم، فقال: لا تفعلوا، أوسعوا لهم، وأدنوهم، وألهموهم، فإنهم اليوم صغار قوم يوشك أن يكونوا كبار قوم آخرين، وقد كنا صغار قوم أصبحنا كبار آخرين" [1].

وعند التدقيق تراها نظرة تربوية صادقة سابقة من عمرو بن العاص رضي الله عنه فقد نرى قسوة الكبار في تعاملهم مع الصغار في المساجد خاصة إذا جاءوا دون آبائهم، وقد نمنع الطفل من مجالسة كبار إخوته وأخواته عند المذاكرة، أفلا يكون الأولى أن نعلمه ما يتفق وإدراكه من آداب الجلوس مع أخيه المذاكر أو أخته ، ولو لفترة محدودة، ونتخذها طريقا لترغيبه في التعلم؟

وقد أشار القرآن الكريم إلى لون من ألوان التربية تنمي معرفة الطفل، وتعلمه السلوك القويم في الدخول على الكبار فيقول جل شأنه: **(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنْكُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلاثَ مَرَّاتٍ مِنْ قَبْلِ صَلاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنْ الظَّهِيرَةِ وَمِنْ بَعْدِ صَلاةِ الْعِشَاءِ**

١- ابن مفلح، الآداب الشرعية والمنح المرعية، جـ٣ ص (٥٥٧- ٥٥٨) بتصرف يسير، دار العلم للجميع، بيروت –لبنان، سنة (١٩٧٢م).

ثَلاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَّافُونَ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٥٨)[1] .

وكانت الصلة الوثيقة بين يوسف ووالده عليهما السلام حافزاً له على قص رؤياه على أبيه، حيث تلقى منه ما استقر في نفسه، وأثر في حياته حتى أذن الله باللقاء. يقول القرآن الكريم حاكياً: **(إِذْ قَالَ يُوسُفُ لأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ (٤) قَالَ يَا بُنَيَّ لا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْداً إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ (٥) وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٦))** [2]

٤- الخادمات والنمو المعرفي:

لقد كان للترف الذي أصاب كثيراً من الأسر الإسلامية أثر سيئ في تربية الطفل، وتشويه نموه المعرفي، وحرمانه من أهم دوافع ذلك النمو وعوامل إثرائه، حيث صار من علامات الرفه مربية لكل طفل، وغالباً ما تكون غير عربية، وكثيراً ما تكون غير مسلمة، وهنا تكمن الخطورة إن الأم تكاد لا تراه في بعض الأسر إلا في المناسبات أو في لقاء خاطف فممن يلتقط اللغة ؟ وعلى يد من يرتبط بعقيدته؟

إن المربية لا تعرف غير لغتها تداعبه بها، وتطفئ غضبه بمقاطع منها، وتطربه بأغنياتها، وإن تكلفت النطق بالعربية فهي عربية مشوهة لا تصلح أن تكون أساساً لبناء لغوي.

٢- سورة النور الآية (٥٨).

٢- سورة يوسف الآيات (٤ - ٦).

أما العقيدة فعقيدتها أحب إليها من كل شيء وإن أخفت عن الكبار طقوسها فهي مع الصغير آمنة، وكما تتعلق عين الطفل بأمه المسلمة وهي تصلي مثلاً، تجمد نظراته على المربية، وهي تمارس بعض طقوس دينها، كرسم الصليب على وجهها وصدرها إن كانت نصرانية، أو ما اعتاده البوذيون، أو الهندوس في خلواتهم، إن اللبنات الأولى في التكوين المعرفي ترسيها في الطفل غير أمه، وتقوم عليها من لا تملك مشاعر الأمومة، واهتماماتها، وهي ضرورية في البناء المعرفي للطفل، حيث يأخذ الحروف أو الكلمات مصبوغة بأحاسيس الأم، وعطائها العاطفي وما المربية إلا أجير تشغلها اهتماماتها المادية، وتشدها من أعماقها عقيدتها وقد تملأها أحقادها المكبوتة، أما الأم التي أوصى الله بها وأكد الوصية بكشف مزاياها، وكرر الرسول صلى الله عليه وسلم الوصاية بها ثلاث مرات مقدمة على الأب فغائبة مشغولة بهواتفها المتعددة، أو القنوات الفضائية المفضلة لديها، أو الإنترنت ومداخله المحببة إليها، أو العمل، أو الزيارات، أو التقلب على فراش النعيم والثراء.

" يقول الأطباء: تبدأ العلاقة الوطيدة بين الأم وطفلها في فترة الحمل، وتستمر حتى نهاية العمر" [1] فكيف يتسنى لتلك العلاقة في عصر الرفه والحضارة والرقي أن تكون طول العمر أو حتى تتيسر في أعوامه الأولى؟

" كما أوضحت الدراسات الحديثة أن الطفل الوليد بعد ولادته مباشرة يشعر بالارتياح لرؤية وجه أمه أكثر من أي وجه آخر، أو صورة أخرى"[2].

١- محمد رفعت، تربية الطفل صحياً ونفسياً من الولادة حتى العاشرة، ص (١٧٢)، دار البحار، ط٢، بيروت – لبنان، سنة (١٩٩١م).

٢- نفس المرجع السابق ص (١٧٤)

فماذا تساوي الأم إذا حرمت نفسها، وطفلها من ذلك الاتصال الوثيق الذي ينبع من أعماق طفلها، وعليه ينشأ، وبه يكون نموه جسمياً، ونفسياً، ومعرفياً؟ وأين أخص خصائص الأمومة، وأهم عطاءاتها التي أشار إليها القرآن الكريم في مواضع منها:

وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ (١٤) [١].

وقوله جل شأنه: **وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَاناً حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهاً وَوَضَعَتْهُ كُرْهاً وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاثُونَ شَهْراً** [٢]؟!.

وأي أمومة تلك التي وهبتها الحضارة المعاصرة لأطفال غابت عنهم أمهاتهم وهنَّ أحياء ؟.

٥- المدارس الأجنبية وخطرها:

وقد تفضل الأسرة التعليم الأجنبي لابنها أو ابنتها بدءاً من رياض الأطفال، حيث تصب في أذنيه إحدى اللغات الأجنبية حروفاً، فكلمات، فجملاً، فأغاني وأناشيد وأنشطة، ومواد علمية، أما لغته (لغة القرآن) فهي لغة ثانية أو ثالثة، وأما عقيدته فهي على هامش الدراسة، والعناية بهما شكلاً وظاهراً، وإن كانت الجهود تتجه إلى إماتتهما فيه منذ نشأته الأولى، وتتزاحم عليه قواعد اللغة، وتتوافد عليه تعبيراتها، أما اللغة العربية فلا يجني منها غير نتف مبعثرة مشوهة، مع رداءة في الخط حين يكتب،

١- سورة لقمان الآية (١٤).

٢- سورة الأحقاف الآية (١٥).

وتخلف في الإملاء، وضياع في ضبط الكلمات، وتطمس أعراف مجتمعه وتقاليده، ليلقن أعراف وتقاليد الأمة التي يدرس لغتها، فيحكم عليه منذ طفولته الأولى أن يكون من هؤلاء الذين يدرس في مدارسهم، وإن سرت في دمائه العروبة، وانتسب إلى الإسلام.

وكم يكون الأبوان سعيدين حين يلقي عليهما تحية الصباح أو المساء بلغته التي يتعلم بها، أو يعرفهما مسميات الأشياء بها.

لقد جهل السلام كتحية، وخاصم أعراف قومه، وعاش بفكر غريب، وتناوبته أفكار تتجه إلى هدم أصوله وثوابته، وتمييع انتمائه لإرساء ثوابت جديدة، وخلق توجهات تخدم أهدافاً عليا لأعداء الإسلام الحاقدين على العروبة.

إن لغة القرآن أعظم اللغات وأعلاها، ولو كانت هابطة إلى هذا المستوى المنفر ما اختارها الله تعالى لكلامه، وما أنزل بها الشريعة الخاتمة، وما تعبد المسلمين بها عرباً وغير عرب في صلواتهم وقرآنهم.

وهل رأينا في أفذاذ هذه الأمة، ونبغائها المعاصرين، ما يزري بهم أو يحط من شأنهم، ويعوق مسيرتهم؟

إن الأسرة هي البيئة الأولى للطفل والروضة أو المدرسة البيئة الثانية ذات الأثر العميق ولكي تنجح التربية لا بد أن يلتقيا على هدف واحد، ويتحركا في إطار متفاهم متعاون، فهل بيوتنا تنهج نهج تلك المدارس؟

هل ما يراه الطفل أو الطفلة في معلمته يراه في أمه؟

إنه يرى فيها رجلاً في هندسة شعرها، وملابسها، وإن كانت وافرة الزينة ناعمة الملمس، رقيقة الحديث، لتنجح في نقله إلى أوربا، وإن كان عربياً مسلماً، وتبذر فيه بذور الثورة ليشب عليها، فلا يكلف أعداء الإسلام مشقة في العمل لحسابهم، وعشق حضارتهم.

وإذا كان يولد على الفطرة **فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٣٠)**[١]

وكما علمنا الرسول صلى اللّه عليه وسلم "ما من مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه" [٢]

وكان هذا منطلق علماء التربية المسلمين قديماً، يقول أبو حامد الغزالي: "وقلبه - أي الصبي- جوهرة نفيسة ساذجة خالية من كل نقش وصورة وهو قابل لكل نقش فيه" [٣]

فماذا ننقش فيه بهذا التوجه؟ ولمن أسلمناه ليتولى النقش الذي يستعصي على الدهر إزالته ؟.

وهل استجبنا لذلك التوجيه الحكيم: **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلائِكَةٌ غِلاظٌ شِدَادٌ لا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ (٦)** [٤]

أم تعمدنا أن نلقيه وهو نبتة غضة في نار لا قبل له بها ؟ والأولى بنا والأجدر أن نقتدي بهذا القبس الكريم في تربية فلذات أكبادنا.. **وَلا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لا تُنصَرُونَ (١١٣)** [٥]

١- سورة الروم الآية (٣٠) .

٢- تقدم تخريجه ص (٥٩).، رقم (٢).

٣- الإمام الغزالي، إحياء علوم الدين، ج٣، ص (٦٩)، مرجع سابق.

٤- سورة التحريم الآية (٦)

٥- سورة هود الآية (١١٣)

٦- إلى أين هذه الفضائيات ؟:

وتأتي الفضائيات وقد فاقت الحصر، وتلبي طالبها في طرفة عين أو أقل، وما نسيت الطفولة، بل أمطرتها ببرامج مدعية إسهامها في رعاية الطفولة، والاهتمام بها في عصر هيستريا العلم، والأم أو بمعنى أصح وأدق المربية في حاجة إلى أن تشغل الطفل لتفرغ لفكرها وحياتها، والإخراج جاد مُصِرٌّ على احتواء الإنسان المعاصر من طفولته إلى مماته، وتمتزج المواد المعروضة بدم الطفل، وتستحوذ على مشاعره، وتشد حواسه، والإخراج بارع ماهر، تحركه أصابع الشيطان، إن الذين قاموا على هذه البرامج غالباً غير مسلمين، غرباء عن بيئتنا، أطفالهم غير أطفالنا، أسلوبنا في الحياة والتربية مخالف لهم تماماً، ولكنهم خضوعاً لمخطط يستهدف عولمة العالم خاصة المسلمين، ويعمل لإحلال قيم جديدة تتفق والرغبة في طمس معالم الإسلام وحضارته، بل إفساد الفطرة التي بها ميز الله الإنسان وكرمه، والطفولة أولى مراحل الإنسان، وأخصب البيئات لتشكيله.

فيها يتحاور الفتى والفتاة، وترفع الحواجز بينهما، فيها العنف، فيها المغامرة، فيها الحقد والعداوة، والقهر والتسلط، والمكر والخديعة، والسخرية والازدراء، لا تمس القيم الأصيلة لنا، وإذا ما ألمحت إليها كان ذلك من طرف خفي لا يدركه الطفل، ولا تعينه إمكاناته على اكتسابها.

لسنا ضد هذه الفضائيات، ولكنا نطالب بأن يكون عطاؤها منسجماً مع ديننا وأخلاقنا، مشاركاً الأسرة المسلمة، والمدرسة في تربية الطفل، وحسن صياغته، إنها وسيلة سهلة مغرية فعالة في التربية، ولكن على أي منهج؟

ليت المسلمين وفيهم مفكروهم الذين خدموا الشرق والغرب تتاح لهم الإمكانات الروحية والنفسية، والمادية، ويخططوا لتربية الإنسان المسلم، واضعين نصب أعينهم أن الطفولة هي الأساس آخذين بقوله تعالى: **وَقُلْ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ** (١٠٥) [1].

١- سورة التوبة الآية (١٠٥).

وخلاصة القول :

التقديم وقد ألمحنا فيه إلى عظمة التربية الإسلامية، مع بعد المسلمين المعاصرين عنها وإلقاء الضوء على دواعي هذا البعد، وضرورة العودة إليها.

كانت اللغة العربية أسبق اللغات في تحديد معنى التربية، وتطبيقه في حين غاب عن اللغتين الإنجليزية والفرنسية، وأشير إليه من بعيد في منتصف القرن السادس عشر تقريباً.

بعد استعراض مفهوم التربية عند الاجتماعيين والفلاسفة وعلماء النفس رجحت وجهة نظر الاجتماعيين مع دورانها جميعاً حول العمل الذي يمارسه راشد في صغير متجهاً به نحو غاية معينة.

سبق الإسلاميون فلاسفة، وفقهاء، وأدباء، ومثقفين، فتناولوا جوانب متعددة من التربية، بل أخرجوا معجماً تربوياً عربياً نستخدم كثيراً من مصطلحاته في لغتنا التربوية المعاصرة .

كانت لنا وقفات مع إخوان الصفاء، وابن سينا، والغزالي، وابن خلدون، والقابسي، لمدارسة بعض توجهاتهم التربوية التي بنى عليها الغرب نهضته، وإن قصرنا نحن في الاستفادة بها.

ناقشنا مفهوم التربية عند المعاصرين من علماء الإسلام، وخلصنا إلى أنها تشكيل الشخصية السوية المتكاملة روحياً وعقلياً، ووجدانياً وخلقياً، وجسمياً، واجتماعياً، تكيفاً مع البيئة الاجتماعية والطبيعة.

قيام التربية الإسلامية على أسس عَزَّ أن تكون لغيرها، فهي التربية المتكاملة، المتوازنة، الجامعة بين السلوك والعمل، والذاتية والاجتماعية، الموقظة لضمير الإنسان، المنسجمة مع فطرته السليمة الموجهة له نحو الخير، المتدرجة، المستمرة، العالمية، المتميزة في وسائطها.

تميزت أهداف التربية الإسلامية لتوافر الخبرة الواعية، والرغبة الصادقة، مع الشمول والوضوح وذلك لسلامة النبع واستقامته على منهج

الله، فكان من أهدافها إيجاد المؤمن العارف بربه، الصادق في عبوديته له، المتجه إليه ظاهراً وباطناً، مع احترام للحريات، وتقدير للعمل، ودعوة جادة إلى المعرفة، وعمل صادق على إقامة عدالة اجتماعية.

تنوعت مجالات التربية الإسلامية خلقياً، حيث تمثل في القدوة الحسنة داخل البيت، وخارجه، والملاحظة التي تجعل المربى تحت سمع وبصر من يربونه، والنصيحة التي تدعم الحسن، وتنفي القبيح، ثم الترغيب للهمم نحو الخير، والترهيب دفعاً للشر وبواعثه.

أما المجال الاجتماعي فهو حيث يكون التطبيع الاجتماعي كمسلك حياة، يتكيف به المربى مع المجتمع (قيمه وأفراده) وهنا تبرز المخالطة بين المربي والمربى، وما تمنح المربى من خبرات تقوم عليها حياته، وتنمي فيه استعدادات تفيده ومن وما حوله، فالمشاركة التي تجمع بين الصغير والكبير، وتيسر الأخذ وتساعد في التقويم.

أما المجال المعرفي، فله أساليبه التي عرف بها كالتنمية اللغوية، والأسرة أساسها، وخاصة الأم، فأسلوب السؤال والجواب بما فيه من إثارة، وتشويق، وإنماء، ثم تكون التهيئة للتعليم حتى لا يفاجأ بوجوده في المدرسة وتكليفه بالتزاماتها.

معوقات النمو المعاصرة كأثر من آثار التطور الذي عَقَّدَ الحياة أكثر مما أفادها، وفي طليعة ذلك الخادمات (بديلات الأم) بما لهن من آثار سيئة في التربية، والولوع بالمدارس الأجنبية، وما يترتب على هذا من أخطار تلاحق المربى منذ النشأة الأولى حتى آخر حياته، ثم الفضائيات، ومالها من ويلات هدمها أقوى من بنائها، وما تنبهنا حتى الآن إلى دقة توجيهها وحسن الإفادة منها.

الباب الثاني:

المقومات التربوية في ضوء القرآن الكريم

الفصل الأول: دور الأسرة .

الفصل الثاني: تربية الطفل.

الفصل الثالث: تربية المراهق.

الفصل الرابع: التربية في مرحلة النضج.

الفصل الأول :

دور الأسرة

شرعية التقاء الأبوين أرجى لنجاح التربية :

كثر الحديث عن التربية (أسساً، ومجالات، وأهدافاً) وغير ذلك مما شق حصره وكثرت الأبحاث، ناسية أو متناسية منبت الطفل، وعوامل نموه، والجو المحيط به، غائباً عنا أن هذا إنما يمثل القاعدة التي يعلوها بناء التربية، وبمقدار قوته يكون شموخ هذا البناء، وتفاعله مع الحياة والأحياء.

لقد كان على الذين يتحدثون عن التربية في ظل الحضارة أن يعيروا منبت الطفل اهتماماً، وقد فقدت شرعية الإنجاب في مجتمعات الرقي والتمدن،ما قيمة التربية في طفل يلتقي أبواه على سفاح فيجعلان اللذة هدفاً، والشهوة محركاً يلتقيان عليها، ويفترقان بالانتهاء منها، لا يوقظهما إلا ذلك الأثر المزعج، وكثيراً ما يهرب الأب، وتتحمل الأم أوزار هذه اللحظات الشهوانية الخاطفة لتعاني الحمل والوضع، وقد يدفعها الصراع مع الحياة، واستعباد المادة، والحفاظ على حظ أوفر من الجمال تستثمره في إشباع شهوتها، واستكمال لذتها مع من توقعه حبائلها أسير لحظات في علاقات مؤقتة لا تعرف الاستقرار، وإن أبقت عليه ألقته في ملجأ ليقوم على تربيته من لا تحركهم عاطفة الأمومة، بل شهوة المال، واستعباد المادة .

وهرب الرجل إلى أخرى وأخرى لا يشبع نهمه، ولا يطفئ ظمأه الشهواني كثرة الخليلات .

البذرة خبيثة، والمنبت سوء، والزارع جاهل غبي كل ما يعنيه قذف ما لديه من بذور، لا يقدر موقعها، ولا يخطط للناتج منها، فهل يستوي لتلك البذرة ساق، أو يمتد لها ظل، أو يينع لها ثمر ؟

إن العلاقات الآثمة أنتجت معظم مواليد هذا العالم، فكانوا حرباً عليه، وأداة لهدم حضارته، وتخريب عمرانه، فضلاً عن إحراق قيمه، ونسف المبادئ الإنسانية التي ينبغي أن تسود .

أما الإسلام فإنه يحوط البذرة بسياج يحقق لها الطهارة في ذاتها ومصدرها ومستقرها، ويباركها الله جل شأنه فتؤتي ثمارها بإذن ربها طيبة ميمونة برداً وسلاماً على بني الإنسان .

وَأَنكِحُوا الأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٣٢) [1]

فإن ضاقت اليد، وعجز طالب الزواج عن الوفاء بمتطلباته دعاه ربه إلى رحاب نقي يحيا فيه إلى أن ييسر الله أمره .

(وَلْيَسْتَعْفِفْ الَّذِينَ لا يَجِدُونَ نِكَاحاً حَتَّى يُغْنِيَهُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ) [2]

ويوضح له الرسول r سبيل العفة فيما روى عبد الله بن مسعود

قال : قال رسول الله r : "يا معشر الشباب من استطاع الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء"[3]

إن خليفة الله تعالى في أرضه لا يليق به أن يكون خبثاً وقذراً، وأبو البشرية آدم زوجه الله؛ ليقوم صرح البشرية على أساس طاهر طيب.

١- سورة النور الآية (٣٢) .

٢- سورة النور الآية (٣٣) .

٣- رواه البخاري(٣١٤/١٤ فتح)، ومسلم (١٠١٨/٢- ١٠١٩) .

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَتَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً (١)[1]

ورسل الله تعالى من أشرف الخلق نسباً، وأطهرهم أصولاً، والرسول r يكشف عن حفظ الله أصله، وصيانته مسيرة نسبه فيقول فيما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما:

" لم يلتق أبواي قط على سفاح، لم يزل الله ينقلني من الأصلاب الحسنة إلى الأرحام الطاهرة مصفىً مهذباً لا تتشعب شعبتان إلا كنت في خيرهما" [2]

ويضرب القرآن الكريم يوسف عليه السلام مثلاً في العفة والتسامي للتأسي والاقتداء، يوسف عليه السلام شاب في ريعان الشباب مكتمل الرجولة، رائع الفتوة تدعوه إلى نفسه امرأة ذات منصب وجمال، والأبواب مغلقة والسبل ميسرة كما حكى القرآن: **وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتْ الأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ** [٣] فماذا كان موقفه أمام هذا الإغراء، وتلك الفتنة التي تخطف الأبصار؟ ألانت قناته فاستسلم وخان عرضاً اؤتمن عليه ؟ كلا إنما قال: **قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ** (٢٣) [٣].

١- سورة النساء الآية (١) .

٢- ابن عساكر، كما في كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال (٤٢٧/١٢)، حديث رقم (٣٥٤٨٩)، للإمام علاء الدين علي المتقي الهندي، مكتبة التراث الإسلامي للنشر والتوزيع، ط١، حلب، سوريا، سنة (١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م).

٣- سورة يوسف الآية (٢٣) .

" ولقد حاولت امرأة العزيز بكيدها ومكرها، وبكل ما لديها من ألوان الإغراء والتهديد أن تذيب من صلابته، وتضعضع من شموخه، وأعلنت ذلك للنسوة في ضيق وغيظ :

وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونَ مِنَ الصَّاغِرِينَ [1].

ولكن الشاب يوسف عليه السلام اتجه بكليته إلى اللّه يسأله المعونة والعصمة:

قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنْ الْجَاهِلِينَ (٣٣) [2] .

كان فتنة بين ضمير المؤمن وخشيته الربانية، ومغريات الإثم، ففشلت المغريات، وانتصر الإيمان" [3]

فشرعية التقاء رجل بامرأة، وسلامة الولد من أدران السفاح أرجى لصلاحه، ونجاح تربيته .

أما مجتمعات السفاح، والتحلل فلن تعطي إلا شؤماً وشراً، ولن تدفع إلى الحياة إلا خبثاً ودماراً، وهيهات أن تثمر تربية هذا الصنف خيراً، وإن تعددت النظريات، وتنوعت معطياتها .

١- سورة يوسف الآية (٣٢) .

٢- سورة يوسف الآية (٣٣) .

٣- د. مصطفى عبد الواحد ، الإسلام والمشكلة الجنسية، نقلاً عن عبد الله ناصح علوان، تربية الأولاد في الإسلام، جـ ١، ص(٥٨٦)، مرجع سابق .

الأسرة هي المحضن الطبيعي :

" الأسرة هي المحضن الطبيعي الذي يتولى حماية الفراخ الناشئة ورعايتها وتنمية أجسادها وعقولها، وأرواحها، وفي ظله تتلقى مشاعر الحب والرحمة والتكافل، وتنطبع بالطابع الذي يلازمها مدى الحياة، وعلى هديه ونوره تتفتح للحياة، وتفسر الحياة، وتتعامل مع الحياة .

والطفل الإنساني هو أطولُ الأحياء طفولة، تمتد طفولته أكثر من أي طفل آخر للأحياء الأخرى؛ ذلك أن مرحلة الطفولة هي فترة إعداد وتهيؤ وتدريب للدور المطلوب من كل حي باقي حياته ولما كانت وظيفة الإنسان هي أكبر وظيفة، ودوره في الأرض هو أضخم دور امتدت طفولته فترة أطول؛ ليحسن إعداده وتدريبه للمستقبل، ومن ثَمَّ كانت حاجته لملازمة أبويه أشد من حاجة أي طفل لحيوان آخر، وكانت الأسرة المستقرة الهادئة ألزم للنظام الإنساني، وألصق بفطْرة الإنسان وتكوينه، ودوره في هذه الحياة .

وقد أثبتت التجارب العملية أن أي جهازٍ آخر غير جهاز الأسرة لا يعوض عنها، ولا يقوم مقامها، بل لا يخلو من أضرار مفسدة لتكوين الطفل وتربيته" [1].

" ويؤكد علماء النفس أن الطفل في سنتيه الأوليين لا يستطيع أن يفارق أمه فترة طويلة، وذلك بسبب الانشداد العاطفي والنفسي إليها " [2].

١- سيد قطب، في ظلال القرآن مجلد (١) ص (٢٣٥)، مرجع سابق .

٢- زهير الأعرجى، الأخلاق القرآنية، جـ(١) ص (٢٤٢)، دار الزهراء، ط١، بيروت- لبنان، سنة (١٤٠٧هـ- ١٩٨٧م)

الفصل الثاني :

تربية الطفل

الرضاعة تغذية وتربية :

فالإنسان يبدأ طفولته معتمداً على الغير في تنميته جسماً وعقلاً ونفساً وبدون هذا الاعتماد لا يتسنى له الاستمرار في الحياة .

وهو أشد ما يكون احتياجاً إلى رعاية متوازنة تهيئ له النضج الكامل المتوازن في شخصيته، بحيث لا تصل به إلى النضج الجسدي مهملة العقل والنفس فينمو جسدياً، ويبقى طفلاً في عقله ومشاعره "أو يصل إلى النضج العقلي والعاطفي ويبقى معتمداً على الآخرين في جسده والعلة في ذلك أنه حين تنمو الشخصية الإنسانية يرافقها تدرج آخر في عادات الإنسان العقلية والنفسية والاجتماعية والجسدية التي تنتهي إلى أحد مصيرين: فإما عادات فاعلة مؤثرة توفر له الخرائط العقلية والنفسية والجسدية التي يستطيع من خلالها حمل مسؤولياته، والنجاح في أعماله، واستثمار الفرص المتاحة له، أو عادات مكبلة تصبح أغلالاً نفسية تقيده عن مواجهة التحديات، وآصاراً اجتماعية تثقله عن القيام بالمسؤوليات، وغشاوة عقلية تعميه عن شهود ما ينفعه أو يضره بمستويات تتناسب مع هيمنتها ومضاعفاتها .

فالعادات عناصر قوية في أشخاصنا، ولها جاذبية هائلة في منطقة اللاشعور فينا، وكما أن الجاذبية في الكون الطبيعي يمكن أن تعمل لصالح الإنسان، أو ضده، فكذلك جاذبية العادات يمكن أن تعيقنا عن

عمل ما نتطلع إليه، أو ضده، أو تساعدنا على تنظيم جهودنا والمُضِي نحو أهدافنا"[1] .

إن الحديث عن الرضاعة كتربية وإنماء للطفل تجعلني أقف عاجزاً أمام جانب من جوانب عظمة الله تعالى في خلق الإنسان، قال فيه العلماء، وسيقولون حتى تنتهي الحياة وما بلغوا معشار حكمة الله تعالى في هذا الجانب التربوي الإنمائي .

لقد تناوله القرآن الكريم في آية من سورة البقرة :

وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلاَّ وُسْعَهَا لا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالاً عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلادَكُمْ فَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢٣٣) [2].

"والله يفرض للمولود على أمه أن ترضعه حولين كاملين؛ لأنه سبحانه يعلم أن هذه الفترة هي المثلى من جميع الوجوه الصحية والنفسية للطفل "لمن أراد أن يتم الرضاعة "، وتثبت البحوث الصحية والنفسية اليوم أن فترة عامين ضرورية لينمو الطفل نموًّا سليماً من الوجهتين الصحية والنفسية.

١- د. ماجد عرسان الكيلاني، التربية والتجديد وتنمية الفاعلية عند المسلم المعاصر، ص (١٧- ١٨) بتصرف، مؤسسة الريان، ط١، بيروت- لبنان، سنة (١٤١٨هـ- ١٩٩٧م) .

٢- سورة البقرة الآية (٢٣٣) .

ولكن نعمة الله تعالى على الجماعة المسلمة لم تنتظر بهم حتى يعلموا هذا من تجاربهم، فالرصيد الإنساني من ذخيرة الطفولة لم يكن ليترك يأكله الجهل كل هذا الأمد الطويل، والله رحيم بعباده، وبخاصة بهؤلاء الصِّغار الضعاف المحتاجين للعطف والرعاية" [1] .

بل ضمنه كتابه إعجازًا وتعليماً لمن أراد التربية على دين الله تعالى ومنهجه، يقول الفقهاء في تفسير الآية الكريمة: " أمر جاء بصيغة الخبر للمبالغة في تقريره، .والظاهر أن الأمر للوجوب مطلقاً، فالأصل أنه يجب على الأم إرضاع ولدها، يعني إن لم يكن هناك عذر مانع من مرض و نحوه " [2].

حين تحضنه أمه في تلك الفترة الهامة في حياة الإنسان، إنما يكون انسجاماً مع الفطرة، ومسايرة لما أراد الله تعالى، وهيأ، وحرمانه من أمه وهو أشد ما يكون احتياجاً إليها إضاعة له في جميع جوانب بناء شخصيته، في فترة هي الأساس الأكبر والأهم في حياته، وتؤكد الأبحاث عظمة الإسلام فيما ذهب إليه، فقد أثبتت أنه " بالرغم من التقدم الهائل في صناعة الحليب والأغذية الخاصة بالأطفال يبقى لبن الأم أفضل ما يمكن توفيره للطفل، وأكثر غنىً في تركيبه، وفي ملاءمته للطفل خاصة في الأشهر الأولى، فحليب الأم لا يفوق في قيمته الغذائية الحليب الاصطناعي فحسب، بل يمكِّن الطفل من اكتساب المناعة ضد العديد من أمراض الطفولة " [3].

١- سيد قطب، في ظلال القرآن، جـ ١، ص (٢٥٤)، مرجع سابق .

٢- محمد رشيد رضا، تفسير القرآن الكريم،"الشهير بتفسير المنار"، جـ٢، ص(٤٠٩- ٤١٠)، دار المعرفة، ط٢بيروت- لبنان، بدون ت.

٣- فايز قنطار، الأمومة: (نمو العلاقة بين الطفل والأم)، ص(٨٣)، عالم المعرفة العدد (١٦٦)، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، سنة(١٤١٣هـ - ١٩٩٢م) .

" وقد أكدت كذلك البحوث الصحية أن نسبة الوفيات من الأطفال الذين يتغذون من ثدي أمهاتهم أقل بكثير من غيرهم، كما أنهم أسلم صحة، وأقوى جسداً " [1] .

" وقد درس هذه المسألة الأطباء جرولي، وسنفود، وهيرون، وشفاوتس، وقارنوا صحة الأطفال الذين يقتصرون في رضاعتهم على ثدي الأم بصحة الأطفال الذين يتغذون بلبن البقر بالإضافة إلى لبن الثدي، كما درسوا الأطفال الذين يعتمدون على طرق التغذية الصناعية الأخرى، وقصروا دراستهم على ما يحدث لهؤلاء الأطفال خلال الأشهر التسعة الأولى من حياة هؤلاء الأطفال، شملت الدراسة (٢٠٠٦١) طفلاً من شيكاغو، وقد توفي (٢١٨) طفلاً ... أما الأطفال المتوفون فكان منهم (١٥) فقط ممن يرضعون بلبن الثدي، (وعددهم ٩٧٤٩) طفلاً أما باقي الموتى (١٤٤) فكانوا من مجموعة الرضاعة الصناعية" [2].

وليس هذا بغريب على الأطفال الذين توفرت لهم حياة تتواءم وخلقهم، وغذاء لا يتسرب إليه نقص، ولا يلحق عناصره ومقوماته خلل، فضلاً عما نعموا به من دفء وعاطفة في أحضان أمهاتهم .

ولم لا تكون النتائج كذلك، وأكثر من هذا ولبن الأم **صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ** (٨٨) [3]، لمخلوق كريم في مرحلة ضعفه التام، وعجزه المطلق عن تحديد حاجاته فضلاً عن القيام بها **أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ** (١٤) [4]؟

٤- سهام محمد جبار، الطفل في الشريعة الإسلامية ومنهج التربية النبوية، ص(١٥٥)،بتصرف ، مرجع سابق.

١- محمد فتحي، على عتبة الأمومة، ص (٣٣٦)، دار الأندلس، ط٦ ، بيروت – لبنان، سنة (١٤٠٤هـ-١٩٨٤م)

٢- سورة النمل الآية (٨٨) .

٣- سورة الملك الآية (١٤) .

وما أكثر الدراسات، وما أغزر البحوث إسلامية وغير إسلامية الكاشفة عن عظمة الإسلام فيما قرر "حيث أكد الأطباء أن حليب الأم، فضلاً عن هضمه وامتصاصه تماماً بواسطة الطفل فإنه ينقل إليه من الأم بعض الأجسام الحصانية ويجعله أقل تعرضاً للعدوى، فالأطفال الذين يرضعون من أثداء أمهاتهم تكون أصابتهم بنوبات الإسهال، والقيء والوعكات المعدية أقل منها لدى من يرضعون صناعياً.

والأمهات اللاتي يرضعن أطفالهن من أثدائهن يكون ارتباطهن بالطفل أوثق وحبهن له أكبر، والأطفال كذلك يكونون أقل توتراً، وأهنأ بالاً وأسعد حالاً، وتشير بعض الدلائل إلى أن هذا التقارب قد يكون ذا آثار بعيدة المدى على مستقبل الطفل .

والأمهات في جميع أنحاء العالم يرغبن في منح أطفالهن أفضل الأشياء، ويجب أن يفهمن أن حليبهن هو أفضل غذاء للرُّضَّع، وخاصة خلال الأشهر الأربعة الأولى من حياتهم، وأن حليبهن يجعل الأطفال أقوى أمام العدوى والأمراض، وأن عملية الرضاعة الطبيعية تهيئ لأطفالهن فرصة أفضل لحياة سعيدة مستقرة عندما يصبحون بالغين" [1].

وتأكيداً لإعجاز القرآن الكريم، وحاجة الناس عامة إلى الأخذ به نرى أنه "قد ازداد في السنوات الأخيرة، وخاصة في الدول المتقدمة، عدد الأمهات اللاتي يرضعن مواليدهن بعد أن تبين لهن أن لبن الأم هو أفضل غذاء كامل وآمن للمولود، ولا يكلف شيئاً ، وحتى الطفل الذي يولد مبكراً فإنه على الرغم من ضعفه يستطيع الرضاعة من الثدي إذا داومت الأم على تفريغه من اللبن كلما امتلأ به حتى يحين الوقت الذي يصبح فيه المولود قادراً على تعاطى الثدي.

١- محمد رفعت، تربية الطفل صحياً ونفسياً من الولادة حتى العاشرة ص(٧٣- ٧٤)،مرجع سابق .

والمولود يستمتع بلبن الأم ومذاقه وينمو جيداً عليه لأن القدرة الإلهية أعدته ليلائمه من كل الوجوه .

ولقد ثبت أن الرضاعة من الأم تعتبر أمراً حيوياً بالنسبة للنمو النفسي والاجتماعي خلال مرحلة الطفولة وما بعدها" [1].

والتصاق الرضيع بصدر أمه أطول وقت ممكن يشبع احتياجاته النفسية والعاطفية فضلاً عما يرسي فيه من أسس التربية وأنماط السلوك .

وتتجلى حكمة العلي الأعلى حين نجد أن " إفرازات اللبن قد لا تبدأ قبل اليوم الثالث بعد الولادة، وتؤدي عملية الرضاعة والامتصاص إلى تنشيط الإفرازات وضمان استمرارها، وبعد الولادة مباشرة يبدأ الثديان في إفراز مادة الكلستروم (Collostrom) وهي مادة بروتينية لزجة قاتمة اللون وجاهزة الهضم وتكفي لسد حاجة المولود من التغذية حتى يبدأ الإفرازات اللبنية، ويكون الجهاز الهضمي قد أصبح مستعداً لهضمها، وبالإضافة لذلك فإن تلك المادة البروتينية تحصن المولود ضد عدوى بعض الأمراض لاحتوائها على أجسام مضادة مستمدة من دم الأم " [2].

والألبان الصناعية مع محاولة إتقانها، وجودة إخراجها، ومحاولة الوصول بها إلى أرقى ما وصل إليه العلم في تغذية الرضع، لم تكن لتحل محل لبن الأم، وليس لها أن تنافسه لا في عطائه المادي، ولا فيما تفيضه عليه عملية الإرضاع من عطاءات نفسية لالتصاق اللحمين، وامتزاج جسد الرضيع بأمه، وعمل المشاعر والأحاسيس التي لا يفرغها إلا تلك العملية، وإذا كان قرار الأم السوية لا يكون إلا بإرضاع طفلها فإن قرار الطفل لا يكون إلا بتلقي ذلك الغذاء الإلهي من صدر أمه، وفي قصة موسى عليه السلام ما

١- د. محمود السروجي،د. مصطفى عبود، د. إبراهيم حسن ، موسوعة الأم والطفل، ص(٦١)، بتصرف، عالم الكتب، بدون ط، القاهرة- مصر، سنة (١٩٨٥م).

٢- المرجع السابق، ص (٦١ - ٦٢) .

يدعم هذا الاتجاه، ويقوي ما ذهب إليه علماء التربية من أهمية الإرضاع المباشر في بناء شخصية الإنسان .

يقول ربنا جل وعلا في سورة طه:

إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَنْ يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلا تَحْزَنَ[1].

وفي سورة القصص :

وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ (١٢) فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (١٣)[2].

" إن إرضاع الأم لطفلها بالإضافة إلى أنه تغذية عضوية هو تغذية نفسية؛ فالطفل في أمس الحاجة الوثيقة إلى الأمومة الوثيقة الاتصال به، أي أنه في حاجة إلى الحب والدفء العاطفي والاتصال اللمسي درجة لا تقل عن التغذية الجسمية التي يستخلصها من الرضعة؛ ذلك لأن هذه العلاقة تزود الرضيع بالأمن والطمأنينة علاوة على الحب والدفء العاطفي ومعنى ذلك أنه يجب أن تكون الأم وطفلها وحدة من الوجهة النفسية وهذه الوحدة تتحقق أثناء الرضاعة.

إن الرضاعة وهز الطفل ومداعبته كلها حاجات نفسية وضرورية لإشباع أعمق الحاجات النفسية عنده"[3]

١- سورة طه الآية (٤٠) .

2 ٢- سورة القصص الآيتان (١٢- ١٣) .

٣- د. نبيل سليم علي، الطفولة ومسؤولية بناء المستقبل،ص(٣٩- ٤٠)، كتاب (مجلة الأمة)، ط١، وزارة الأوقاف الدوحة –قطر، سنة (١٤٢٣هـ- ٢٠٠٣م).

والأم حين ترضع ولدها ليست جسداً مصمتاً يؤدي تلك العملية أداءً آلياً إنما هي روح، ومشاعر، وأحاسيس تفيض بهما نفس تتفاعل مع جزء منها .

حتى ولو كانت مطلقة فهذا حق الطفل عليها، وواجبها نحوه، حيث وردت آية الرضاع في سياق آيات الطلاق بل هي منها، ومتممة لها.

وما أعظم وأدق التعبير القرآني ﴿لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةُۢ بِوَلَدِهَا﴾ ورفع مضارة الأم لا شك فيه يعني أن يهيأ لها الجو النفسي المناسب والذي يتيح لها الاستمتاع بإشباع ولدها جسمياً وعقلياً ونفسياً، وقد ثبت علمياً فيما يخص كمية لبن الأم أنه " تتوقف عملية الإفراز وكمية اللبن على الحالة النفسية والبدنية للأم وتوالي تنشيط الثديين بالامتصاص والرضاعة، فانعدام التغذية السليمة أو سوؤها، والإرهاق الشديد، والحزن والاكتئاب تعمل جميعها على خفض الإفرازات أو حتى انقطاعها كلية، ويؤدي الهدوء النفسي والتفاؤل والقناعة وتقبل المولود، والتغذية السليمة، واستمرار الرضاعة إلى وفرتها". [1]

١- د. محمد جميل يوسف منصور، د.فاروق سيد عبد السلام، النمو من الطفولة إلى المراهقة، ص(٢٢٣)، بتصرف، مرجع سابق.

" وإنه لمن الأهمية بمكان أن تحمل الأم طفلها بين ذراعيها حالة الإرضاع وتضمه إليها فهي بذلك لا تغذيه لبناً فقط بل تغذيه روحياً أيضاً، وهناك طرق كثيرة يمكن للأم بها أن تظهر لطفلها الحب والحنان، أحدها وأفضلها الرضاعة عن طريق الثدي، ابتسام الأم مع الطفل، خلو الجو المحيط بالطفل من الشجار والصراع والمنغصات، وكلما كان الحب قائماً بين الطفل والمحيطين به، زاد احتمال قيام علاقات اجتماعية سليمة بين الطفل والآخرين" [1]

ومن المسلم به " أن فترة الرضاعة يجب أن تصبح وسيلة للتقارب العاطفي بين المولود والأم، وليس مجرد دقائق لإشباع حاجة المولود من التغذية، فهذا التقارب، والهدوء النفسي كلاهما يؤديان لغزارة الإفرازات اللبنية، وحصول المولود على وجبته الكاملة" [2] .

كما يحتاج الرضيع لبعض المحاضنة، والمداعبة العاطفية بعد الفراغ من الرضاع، وذلك أمتع وأسعد للأم، وأنفع له صحياً ونفسياً .

وكما ترى ملامح السعادة والارتياح، والشعور بالأمان حين يلتصق وجهه ورأسه صدر الأم، وحركة الصغير الطليقة المليئة بالإحساس، الفياضة بالمشاعر على ثدي أمه وصدرها مما يضاعف جرعة العطاء النفسي، والتجاوب العاطفي، كما يساعد على تنشيط إفرازات اللبن، ولهذا يفضل ترك يد الرضيع حرة طليقة أثناء عملية الرضاع .

ويقف الطبري رحمه الله تعالى عند قوله جل شأنه (كاملين) بعد قوله تعالى: (حولين)، وقد يظن البعض أن التعبير (حولين) كاف، والحق غير

١- د. محمود السروجي، مصطفى عبود، إبراهيم حسن، موسوعة الأم والطفل، ص(٦٨)، مرجع سابق

٢- المرجع السابق ص (٦٨) .

ذلك حيث يقول رحمه الله تعالى: "ليعرف سامعو ذلك أن الذي أريد به حولان تامان، لا حول وبعض الآخر." [1]

" وقد عقد في عام ١٩٩٩م المؤتمر السنوي لجمعية طب وجراحة الأطفال البريطانية وكان مما أثار الحضور الدراسة التي أجراها طبيب إنجليزي في نيجيريا، وقد جاء في هذه الدراسة ما يفيد أن السيدات في نيجيريا يحافظن على الرضاعة الطبيعية، وتغذية أطفالهن مدة عامين باللبن الآدمي، وأشارت الدراسة أن الرضع الذين لا يفطمون قبل سنتين من العمر، يتمتعون بصحة جيدة، ويقاومون الكثير من أمراض الطفولة .

ثم تبعه بحث آخر قادم من (بنجلاديش)، وثالث من (سيلان) وهي جميعاً تشير إلى أن الفطام في هذه البلدان لا يقل عن عامين، وأنه لولا استمرار الرضاعة الطبيعية طوال هذه الفترة لما قاوم الأطفال المساكين أمراض سوء التغذية، والأوبئة الشائعة، في هذه البلدان الفقيرة، ولما أعطيت الكلمة للأطباء العرب المسلمين أوضحوا أن هذه البلدان التي أجريت فيها تلك الأبحاث تتمتع بالعقيدة الإسلامية، حيث إن القرآن الكريم، والسنة الشريفة المطهرة يوصيان باستمرارية الرضاعة، والحضانة بمعرفة الأم لمدة لا تقل عن عامين" [2] .

ألا يكون هذا التشريع الرباني الحكيم بما فيه من واقعية مثار إعجاب مئات الباحثين أكثرهم من غير المسلمين وخير إقناع بأن الأسلوب الإسلامي في تغذية الطفل وتربيته حتى في رضاعه هو أقوم السبل،

٣- الإمام الطبري، تفسير الطبري، المعروف باسم (جامع البيان في تفسير القرآن)، تحقيق محمود محمد شاكر وأحمد محمد شاكر، جـ٥، ص(٣٢)، دار المعارف، بدون ط، القاهرة – مصر- ١٩٦٩م.
الطبري: أبو جعفر محمد بن جرير الطبري الإمام الجليل المجتهد المطلق صاحب التصانيف المشهورة، كان أحد الأعلام وجمع من العلوم ما لم يشاركه فيه أحد من أهل عصره ، من أشهر مؤلفاته التفسير المعروف باسم جامع البيان في تفسير القرآن وتاريخ الأمم والملوك، توفي سنة ٣١٠هـ .

١- د. نبيل سليم، الطفولة ومسئولية بناء المستقبل، ص(٤٢)، بتصرف، مرجع سابق .

وأهداها، وأشدها مواءمة لطبيعة الطفل، واتساقاً مع حاجاته لأنه تنزيل من حكيم حميد ؟

وفي واقع الأمر فإن تغذية الطفل وتنميته جسمياً وعقلياً ونفسياً رغم التطور العلمي السريع لم تصل درجة الكمال في منتج منها فهي نتاج خبرات علمية بشرية قد تقوى وتكثر، وقد تضعف وتقل، فهي تتنافس فيما بينها غير أنها لا تقوى بحال من الأحوال على منافسة لبن الأم، أضف إلى ذلك ما تحتاج إليه من تعقيم آنية ووسائل، وتحقيق لدرجة النقاء في الماء المستعمل، وضبط لمعدل الحرارة، ودقة في إتمام السعرات الحرارية، وغير ذلك مما تصعب الإحاطة به، وفوق هذا وذاك ..

أين صدر الأم ؟ وأين الوحدة النفسية ؟ وأين الاندماج العاطفي ؟ أين الروح المعطية بحب ومودة ؟ وما من مشكلة إلا اكتشف أن الرضاعة من ثدي الأم، فيها جزء كبير من الحل، إن لم يكن الحل كله سواء كانت تلك المشكلة صحية أو نفسية، ترتبط بالطفل، أو تخص الأم المرضع .

أمومة خالدة :

وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلا تَخَافِي وَلا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنْ الْمُرْسَلِينَ (٧) فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوّاً وَحَزَناً إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ (٨) وَقَالَتْ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ قُرَّةُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (٩) وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغاً إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ (١٠) وَقَالَتْ لأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (١١) وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ

مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ (١٢) فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (١٣) [1].

ويسجل القرآن الكريم في مشهد رائع، لا يستطيع أحدٌ التعبير عنه، والإحاطة بجوانب العظمة فيه، وإبراز الأم المرضع بإيمانها، وأمانتها، وبالغ حنانها، وصادق رحمتها في وقت يحدق فيه الخطر بالصغار ويخطف الجبار الطاغية، رقاب المواليد الذكور، ويملأ الأفق خوفاً وفزعاً ويدخل في قلوب الأمهات أسىً وحسرة.

يقول ربنا جل وعلا:

وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلا تَخَافِي وَلا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنْ الْمُرْسَلِينَ (٧)

" يا اللّه: يا للقدرة: يا أم موسى أرضعيه، فإذا خفت عليه، وهو في حضنك، وهو في رعايتك، إذا خفت عليه وفي فمه ثديك، وهو تحت عينيك، إذا خفت عليه (فألقيه في اليم) ..!!

(ولا تخافي ولا تحزني) إنه هنا .. في اليم .. في رعاية اليد التي لا أمن إلا في جوارها، اليد التي لا تقرب المخاوف من حماها (إنا رادوه إليك) فلا خوف على حياته، ولا حزن على بعده" [2] .

١- سورة القصص الآيات (٧ - ١٣) .

١- سيد قطب، في ظلال القرآن، ج (٥)، ص (٢٦٧٩)، بتصرف، مرجع سابق .

ويقع في يد عدو اللّه وعدوه فرعون، ويتحرش به، فينبعث صوت مؤمن نقي تقي عطوف **وَقَالَتْ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ قُرَّةُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (٩) وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغاً إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ (١٠)** [1].

٢- سورة القصص الآيتان (٩ – ١٠) .

وهذا حال الأم كما يصوره القرآن الكريم :

وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغاً إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ

" لقد سمعت الإيحاء، وألقت بطفلها إلى الماء، ولكن أين هو يا ترى؟؟ وماذا فعلت به الأمواج؟ ولعلها سألت نفسها: كيف أمنت على فلذة كبدي أن أقذف بها في اليم ؟ كيف فعلت ما لم تفعله من قبل أم ؟

والتعبير القرآني يصور لنا فؤاد الأم المسكينة صورة حية (فارغاً) لا عقل فيه ولا وعي ، ولا قدرة على نظر أو تصريف !

إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ.. وتذيع أمرها في الناس **لَوْلا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا** وشددنا عليه وثبتناها ، وأمسكنا بها عن الهيام والشرود.

لم تسكت أم موسى عن البحث والمحاولة" [1] .

لقد أرسلت أخته في أثره علها تعرف مصيره وتقف على منتهى رحلته في اليم .

ويأبى الرضاع من غير أمه، ويرفض أثداء جمعها له فرعون، وكل من هؤلاء تمني نفسها بغالي الأمنيات إن أنس الرضيع بها، ومال إليها، ولكن أنى ذلك، والأمر محسوم، و **وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ** وهنا ينبعث صوت أخته ..

هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ ؟ويعود الرضيع الغائب الظامئ الرافض لكل ري من غير أمه، يعود إلى قلب ملهوف، ونفس لا تطمئن إلا بجواره، وعين لا تقر إلا برؤيته، وصدر لا يحس الدفء إلا فيه **فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ** (١٣). [١]

ولعل قائلاً يقول ما لهذا والتربية ؟.

١- سيد قطب، في ظلال القرآن، ج (٥)، ص (٢٦٨٠)، بتصرف، مرجع سابق.

فهي قصة رسول وأمه، والوحي محركها، وإرادة الله تعالى تدير أحداثها؟ والأمر واضح ألاَ يدخل هذا في قول الله تعالى: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَـٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ .[٢]

أما علينا أن نتأسى بالرسل عليهم الصلاة والسلام ونهتدي بالنماذج الطيبة التي ضربها الله تعالى لنا مثلاً ؟ ﴿ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَـٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾ ﴾ .[٣]

أما آن لنا أن ندرك أن رسالة الأم أعظم وأغلى لا يقوى لها إلا العظيمات، ولا يفي بحقوقها إلا من آمنت أن لحظات تدفئ بها طفلها، وتغذوه بحبها، وبالغ عطفها وحنانها، ترسي دعائم شخصيته المرتقبة بعطائها المتفرد المتميز الذي لا يوجد عند سواها، أو تعدها إن كانت فتاة لأن تكون أمّاً ؟ إذا كانت هذه أم رسول قد عظمت به فكوني أنت أم عظيم تشرفين به، وتحدث الدنيا عنك بحديثها عنه .

إن عطاء الأم الذي ميزه الله حساً ومعنىً، وأهله لجوانب لا تقوم إلا بها ينبغي أن تسعى الأمهات في وضعه حيث أراد الله تعالى بعيداً عن ترهات التقدم المزعوم الذي ضاق به أهله، وأقروا راغمين بعظمة الإسلام، وإن كان نوره لم يلامس قلوبهم " إن رجال الصناعة قد حاولوا تعديل حليب الأبقار عن طريق تعقيمه، وإذابته وتكملته بحيث يصبح تكوينه مماثلاً لتكوين الحليب الآدمي.

١- سورة القصص الآية (١٣) .

٢- سورة العنكبوت الآية (٤٣) .

٣- سورة يوسف الآية (١١١) .

ولكن يجب أن نعرف أن حليب الأبقار المعدل، كما يباع في علب، ما هو إلا بديل للحليب الحقيقي، وحليب الأبقار (المعدل ليلائم الطبيعة البشرية) أو المتجانس لا يمكن للطفل أن يهضمه تماماً أو يمتصه كما هو الحال في حليب الأم ومن ثم فإنه ينبغي تغذية الأطفال بكميات أكبر كثيراً من هذه الألبان البقرية المعدلة لكي يكون نموهم جيداً .

وفي البلدان المتقدمة، حيث تعتاد الأمهات تغذية أطفالهن بحليب البقر المعدل بدلاً من حليبهن، أصبح مألوفاً أن يقارن الكتاب بين حليب الأم وحليب البقر، ولعل ذلك نوع من التبرير غير المقصود بيد أنه ينبغي، دوماً، إقرار الحقائق، فحليب الأم غذاء للأطفال، وحليب البقر غذاء للعجول، فإذا استخدمنا حليب البقر لتغذية الأطفال فإننا نستخدم بديلاً، إذ إن غذاؤهم المثالي هو حليب الأم، والذين لا يمكنهم بلوغ هذه المثالية هم وحدهم الذين ينبغي لهم التراجع إلى استخدام حليب البقر .

وخلال السنوات العشر الأخيرة، أدركت السيدات المثقفات في البلدان المتقدمة أنهن باستخدامهن حليب البقر يعطين أطفالهن (الغذاء التالي للأفضل)، وفي معظم الجامعات في أميركا وبريطانيا وأوروبا، عادت زوجات المدرسين والأساتذة وكذلك الخريجات إلى إرضاع أطفالهن من أثدائهن وانتشرت نوادٍ في كثير من البلدان والمدن، أنشأتها سيدات عاليات الثقافة، والهدف الرئيسي هو إقناع وتثقيف السيدات الأخريات بشأن أهمية الرضاعة من الثدي" [1].

وهب أنهم نجحوا في مواءمة لبن الأبقار بحليب الأم وهو فرض مستبعد فهل هم قادرون على أن يودعوه ما أودعه الله من خصائص لها أثرها الفعال في التربية عقلياً ونفسياً ؟

وأي عوض يصلح بديلاً لصدر الأم ؟

١- محمد رفعت، تربية الطفل صحياً ونفسياً من الولادة حتى العاشرة، ص (٧٣)، مرجع سابق .

لقد حاولوا تسجيل نبضات شبيهة بنبضات قلب الأم التي تستهوي الرضيع عند التصاقه بصدر أمه، وارتوائه بحنانها قبل حليبها ،ليؤنسوا بل ليخدعوا بها الطفل عند تناوله لوجبة صناعية، ونسوا أو تناسوا أن هذا لون من العبث فليس الإشباع الجسمي هو المقصود الأول والأخير، ولكنه واحد من متطلبات بناء الإنسان .

الحضانة كما أقرها الإسلام:

اهتم الإسلام بالحضانة، واعتبرها رسالة تربوية ينبغي ألا تفوت من عانت آلام الحمل، وتحملت مشقات الولادة، واستودعها الله من العاطفة ما لا يعلم قدره، ويحيط بأسراره وآثاره إلا الله مانحها إياها، وميسرها وأسبابها لها، وكرمها بالوصية بها، وألزم من أحسنت إليه البر بها، والإحسان إليها، وجعل شكرها من شكره .

قال تعالى:

وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ (١٤) [1]

وقال تعالى: **وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَاناً حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهاً وَوَضَعَتْهُ كُرْهاً وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاثُونَ شَهْراً** [2]

ويعرف الفقهاء الحضانة بأنها: "عبارة عن القيام بحفظ الصغير أو الصغيرة أو المعتوه الذي لا يميز ولا يستقل بأمره، وتعهده بما يصلحه، ووقايته مما يؤذيه ويضره، وتربيته جسمياً، ونفسياً، وعقلياً، كي يقوى على النهوض بتبعات الحياة، والاضطلاع بمسؤولياتها" (3) .

١- سورة لقمان الآية (١٤) .

٢- سورة الأحقاف الآية (١٥) .

٢ - السيد سابق، فقه السنة، جـ٢، ص(٣٣٨)، دار الثقافة، بدون ط، الدوحة- قطر، سنة (١٤٠٥هـ-١٩٨٥م).

وقدمت فيها الأم لأنها أعرف بالتربية، وأقدر عليها، وأقوى على تبعاتها، وأصبر على مشاقها، وأعلم بحاجات فلذة كبدها، وأدرى بما يصلحه، وأحرص على سلامته،وأرجى لفلاحه، فضلاً عن إعداد الله تعالى لها، وإمدادها بمقومات إتقانها لهذا الجزء الأهم من التربية في حياة الإنسان.

وقضى لها الرسول الأكرم r بها حتى عند افتراق الأبوين .. فعن عبد الله بن عمرو أن امرأة قالت: يا رسول الله إن ابني هذا كان بطني له وعاءً، وثديي له سقاءً، وحجري له حواءً، وإن أباه طلقني وأراد أن ينتزعه مني، فقال لها رسول الله r : " أنتِ أحق به ما لم تَنْكِحي "[1] .

وقضاء رسول الله r هو الحق، والأخذ به لازم، والميل عنه مخالفة لله ورسوله، حيث تضمن ما قضى به تشريعاً حكيماً تأخذ به أمته، وتعمل بمقتضاه، ولا تبخس أم حقها، ولا يحرم صغير من أمه، ما دامت أهلاً للحضانة، قادرة عليها .

وقضى بها أبو بكر الصديق رضي الله عنه في خلافته لأم عاصم الأنصارية ونزل عمر على حكمه، وما خالفه أحد من الصحابة .

وعن يحيى بن سعيد أنه قال: سمعت القاسم بن محمد يقول: "كانت عند عمر بن الخطاب امرأة من الأنصار، فولدت له عاصم بن عمر، ثم إنه فارقها، فجاء عمر قباء فوجد ابنه عاصماً يلعب بفناء المسجد، فأخذ بعضده فوضعه بين يديه على الدابة، فأدركته جدة الغلام، فنازعته إياه حتى أتيا أبا بكر .

فقال عمر : ابني، وقالت المرأة : ابني .

فقال أبو بكر: خل بينها وبينه . فما راجعه عمر الكلام "[1].

٣- رواه أبو داود (٢/٢٨٣)، والحاكم (٢/٢٠٧)

١- مالك بن أنس، الموطأ للإمام مالك، ص(٥٤٥)، إعداد أحمد راتب عرموش، دار النفائس، ط٦، بيروت - لبنان، سنة (١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م) .

المهد مرحلة متميزة:

" لسنوات المهد خصائص تجعلها مرحلة مميزة من مراحل حياة الطفل منها: أن المهد فترة حرجة، وخطرة، وجذابة أيضاً .

فهي حرجة لأنها تمثل سنوات الأساس في حياة الطفل حيث توضع فيها أسس كثيرة من أنماط السلوك، وكثير من الاتجاهات نحو الآخرين ونحو الذات كما تتحدد كثير من أنماط التعبير الانفعالي

وخطرة لارتفاع معدل الوفيات فيها رغم تزايد العناية الصحية .

وطفل المهد يعد ذا جاذبية خاصة، فعجزه، وضعفه، واعتماده على الآخرين يجذب إليه الكبار "[٢].

وأسعد الأولاد، وأوفرهم حظاً من يعيش بين أبوين، تجمعهما علاقات أسرية طيبة، وتظلهما مودة ورحمة وتسري السعادة في حنايا صدريهما، وتؤنس البيت الذي يجمعهما، وتلك السمات الطيبة أشد ما تكون ضرورة لطفل المهد الذي نتهمه جهلاً وزوراً بأنه في منأى عما يدور حوله، والحق: كل همسة أو لمسة أو انطباع وإن قَلَّ يحفر في صرح بنائه، وتكشف عنه الأيام في كبريات أعماله.

" تعد بيئة طفل المهد محدودة بالمنزل لذلك تلعب العلاقات الأسرية دوراً أساسياً في تحديد ما سيكون عليه الطفل فيما بعد، فالوالدان والإخوة والأخوات والجد والجدة والأقرباء والآخرون الذين يتصلون كثيراً أو قليلاً بالطفل خلال سنوات التطبيع المبكرة جميعهم يسهمون بدرجات متفاوتة في تحديد أنماط اتجاهات الطفل نحو الناس والأشياء والحياة بصفة عامة، وعلى الرغم من أن هذا النمط من الاتجاهات قد يتغير ويتعدل بازدياد نمو

الطفل واتساع دائرة البيئة فإن محور هذه الأنماط من الاتجاهات يظل كما هو مع قليل من التعديل [1] "

" أما الأطفال الذين نشؤوا في المؤسسات فقد أثبتت الأبحاث أنهم غالباً يكونون متخلفين[2] " فضلاً عما عاشوه من حرمان تأصل فيهم وعرفوا به طول حياتهم .

"وإن التجربة الفعلية أثبتت أن الولد الذي يعيش بين أبويه يكون أقوى جسماً وعاطفة من الأطفال الذين ينشئون في الملاجئ، وقد جرت تلك التجارب العلمية، ووضعت الموازنات بعد الحرب الأخيرة، إذ وجد أطفال بلا مأوى فآوتهم الملاجئ، وقد كتبت كاتبة أوروبية رسالة في نتيجة هذه الدراسة، وقد قررت أن طفل الملجأ في السنة الأولى من حياته ينمو نمواً حسناً ربما كان خيراً من نمو من يكون بين أبويه في السنة الأولى بسبب الرعاية الصحية والغذائية المتوافرة في الملاجئ وعدم توافرها في بعض الأسر، وإذا تجاوز الطفل العام الأول نجد الطفل الذي يكون بين أبويه يفوق ابن الملجأ نمواً "، وتقول الكاتبة: " كلما وازنا بين أطفال الملاجئ الذين تجاوزوا العام الأول وبين أطفال المنازل في مثل سنهم كانت نتيجة الموازنة ليست في صالح الأولين"، ثم تتكلم في نمو حاسة النطق، فتبين سرعة نموها بانتظام في ظل الأسرة، وتقول في ذلك: " إن بداية الكلام الحقيقي تنمو على أساس الصلة المباشرة بين الطفل ووالديه، فالطفل يدرك بغريزته كل انفعال يثيرانه، فهو يرقبهما، ويقلد التعبيرات المختلفة التي تظهر على وجهيهما . وهذا الانفعال العاطفي والتقليدي فيه من القوة ما يدفع إلى الكلام ".

١- د. محمد جميل محمد يوسف منصور، د.فاروق سيد عبد السلام، النمو من الطفولة إلى المراهقة، ص ١٩٦ بتصرف، مرجع سابق.

٢- نفس المرجع، ص (١٩٨) بتصرف .

ثم تقول الكاتبة في ختام رسالتها القيمة الفاحصة العميقة:

" في خلال الخمس سنوات الأولى من حياة الطفل تعمل القوى الغريزية البدائية عند الطفل في نشاط واضح، وفي علاقات الطفل الأولى بوالديه يستخدم هذه القوى، ثم يتغلب عليها بإدماج نفسه في رغبات والديه، فتهذب غرائزه وتكون في حدود معقولة، ويكون الضمير اللوام، ويبدأ الطفل حياة جديدة أساسها تهذيب الغرائز ومواءمتها" أي أن الطفل الذي تربى بين أبويه يكون في السنوات الخمس الأولى تحت تأثير عاملين قويين :

أحدهما: غرائزه التي لو انطلقت لكان وحشياً لا يألف ولا يؤلف .

والعامل الثاني: ما ينبعث من الوالدين من رحمة ومحبة، وما يبادلهما به هذه المحبة مما يجعله يتأثر بهما، ويحاول إدماج نفسه في أنفسهما، فتهذب بذلك غرائزه من غير إرهاق نفسي، ولا توجد في غير الأبوين، أو بعبارة عامة لا توجد في غير الأسرة تلك العواطف التي توجد اندماج نفس الطفل في نفس غيره لتهذب غرائزه، وإذا كانت الغرائز تهذب بغير طريق الأسرة فبنوع من السيطرة لا الاندماج، فيحس بالألم وبالضغط فيكون النفور، ومن النفور ممن حوله تتوالد الكراهية للمجتمع ، فلا يكون منه ألفة ولا ائتلاف، ويكون من الشذاب الذين ينظرون إلى الجماعات نظرة من يريد الافتراس" [1].

التربية رياضة لا ترويض :

١- محمد أبو زهرة، تنظيم الإسلام للمجتمع، ص(٦٤– ٦٦)، دار الفكر العربي، بدون ط، بيروت- لبنان، بدون ت.

ومحمد أبو زهرة: العلامة محمد أحمد أبو زهرة من أكبر علماء الشريعة الإسلامية في عصره،له مؤلفات عديدة مشهورة في أصول الفقه، المجتمع، تواريخ مفصلة ودراسة فقهية للأئمة الأربعة وغيرهم، توفي بالقاهرة سنة (١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م).

إن تربية الفطرة التي تمشي مع الطبع ولا تعاديه، وتحترم جوهر الذات الفردية، ولا تقضي عليه، هي التربية التي تعمل للنمو، كالرياضة البدنية التي تقوي عضلات البدن، وتزيد من لياقته، وكالرياضة العقلية التي تنمي العقل، وتصقل قدراته .

أما التربية التي تنكر طبيعة الطفل، وتسحق ذاتيته التي خلق بها وتكون من خلالها، وتحاول أن تفرض عليه طبيعة خارجية ليست له، وإنما هي مستعارة من عالم الكبار، ومعبرة عن صورة خاصة أو مثال مرغوب، فإنها تنقلب إلى تربية عدوانية، وكأنها عملية ترويض لطبيعة وحشية حيوانية عليها أن تنقاد وتسلس وتستأنس .

" ومفهوم الترويض Dressage في التربية مفهوم قديم استخدمه أفلاطون، حيث كان يعتبر الطفل كولد الحصان الجامح Poulain، ثائر ومضطرب، بل اعتبر الطفل " حيواناً عصياً دونه سائر الحيوانات، إذ هو أكثرها ذكاءً وأكثرها مخاتلة أيضاً، ولهذا يجب أن يحاط بكثير من القيود"، وفرض أفلاطون رقابة شديدة على الأطفال وجعلها ضرورة " كضرورة الراعي للأغنام والسيد للعبيد" [1]

وقد انتقل هذا الفكر إلى الثقافة العربية، وتأثر به بعض علماء المسلمين، وهو تصور بعيد عما أعطاه الإسلام للإنسان من كرامة، وما أفاض عليه من تفضيل، وما خصه به من رعاية في جميع أطوار حياته، ونظر كثير بمنظور إسلامي مخالف يرى التربية رياضة لا ترويضاً، ويفرق بأمانة بين المربي (معلماً أو غيره) وبين مروض الحيوانات.

فابن مسكويه مثلاً يقول :

١- د. محمود قمبر ، دراسات تراثية في التربية الإسلامية، جـ(٢)، ص(٢٣)، مرجع سابق .

" إن نفس الصبي ساذجة لم تنتقش بعد، ولا لها رأي وعزيمة تميلها من شيء إلى شيء، فإذا نقش بصورة وقبلها نشأ عليها واعتادها" [1] .

فهي نفسٌ لا زالت على فطرتها، لم يطرأ عليها تغيير، ولم يمل بها تعديل، وهي على نقائها وحياديتها قابلة للدخول عليها، والتأثير فيها .

يقول الغزالي: "اعلم أن الطريق في رياضة الصبيان من أهم الأمور، وأوكدها، وقلبه (أي الطفل) الطاهر جوهرة نفيسة ساذجة خالية عن كل نقش وصورة، وهو قابل لكل ما نقش ومائل إلى كل ما يمال به إليه، فإن عود الخير وعلمه نشأ عليه، وإن عود الشر وأهمل إهمال البهائم شقي وهلك، وكان الوزر في رقبة القيِّم عليه والوالي له " [٣] .

" فالغزالي هنا لا يجعل من الرياضة مرادفاً للترويض، بل مرادفاً للتربية والتي تؤثر في سن صغيرة يتشكل فيها طبع الطفل، وتتكون ذاتيته في إطار الثقافة المجتمعية الذي يحتويه، وإلا فإنه لا يجعل من الرياضة قوة سحرية تغير من طبائع الأشياء، وتقلبها من النقيض إلى النقيض، لنستمع إليه يقول في نص آخر: (إن النواة ليست بتفاح ولا نخل قبل أن نتعهدها بالغرس والتربية، على أن التربية لا يمكنها أن تغير من استعداد النواة لقبول بعض الأحوال دون بعضها الآخر، فتجعل من نواة النخل تفاحاً ولا من نواة التفاح نخلاً، فكذلك الغضب والشهوة لو أردنا قمعهما وقهرهما بالكلية حتى لا يتبقى لهما أثر، لم نقدر عليهما أصلاً، ولو أردنا سلاستهما وقودهما بالرياضة والمجاهدة [بمساعدة الذات المعنية] قدرنا عليه) [3] .

٢- أبو علي حمد بن محمد بن مسكويه، تهذيب الأخلاق، ص (٥٦)، مرجع سابق .

٣- الإمام الغزالي، إحياء علوم الدين، جـ٣، ص(٦٩)، بتصرف، مرجع سابق

١- د. محمود قمبر، دراسات تراثية في التربية الإسلامية ، جـ(٢)، ص(٢٤)، مرجع سابق .

فهو مع احترامه للاستعدادات الفطرية، وتسليمه بما ولد به الطفل من دوافع يراه، قابلاً للتأثير فيه، والتشكيل في طبعه، وبناء شخصيته من خلال تربية هادفة مخطط لها .

ومرحلة الطفولة أخصب الفترات وأولاها بالعناية، وأحقها بتكريس الجهود التربوية، لتملأ تلك الصفحة بالخير، وتحرس من الشر ودوافعه، ولتظل الجوهرة النفيسة طاهرة مطهرة، لا تعتمها الشوائب، ولا تذهب بوضاءتها المفاسد وقد أورد الشيخ رشيد رضا مفهوماً متقدماً للتربية يتمشى مع مفهوم السابقين من علماء المسلمين فيقول : " التربية هي مساعدة القوى التي من شأنها أن تربو وتنمو على بلوغ الكمال في نموها المستعدة هي له في أصل الفطرة والخلقة، وذلك بإزالة الأسباب التي تعيق النمو، أو تنحرف بالقوى عن جادة الاعتدال المطلوب وبإمداد هذه القوى بما تتغذى به من المواد في القوى المادية، والمعلومات في القوى المدركة العاقلة الخارجة عنها، وأحوج العوالم الحية إلى التربية الإنسان لأن سائر الحيوان والنبات يصل غالباً إلى كماله في الجملة من غير تربية إلا الطبيعة وما يهبه الباري تعالى للحيوان الأعجم من الإلهام . أما الإنسان فهو .. عالم صناعي في جميع أطواره الجسدية والروحية" [1] .

وإذا كانت الأسرة هي أولى المؤسسات التربوية في حياة الإنسان، وأهمها، وآثارها تظهر في كل مرحلة، وتسير مع كل طور من أطوار وليدها، فقد أولاها الإسلام اهتماماً، وركز على أساسي التربية فيها (الأم والأب) منذ تفكير كل منهما في الارتباط بالآخر، لأنهما الأساس الذي عليه ينهض البناء، وبهما تكون حراسته، وحمايته، وعن طريقهما يكون

١- الشيخ محمد رشيد رضا، مجلة المنار، م- ٣،جـ١١،ص(٢٥٥)، ١٩٠٠/٦/١٩.
والشيخ محمد رشيد رضا أحد رجال الإصلاح الإسلامي، وصاحب مجلة المنار وهو من العلماء بالحديث والأدب والتفسير والتاريخ، لازم الشيخ محمد عبده وتتلمذ له، له مؤلفات متعددة منها تفسير المنار، توفي سنة (١٣٥٤هـ - ١٩٣٥م).

إمداد المجتمع بعناصر بشرية تحسب له إن أحسنا التربية، أو عليه إن أساءا و ظلما، ولذا كان على كل منهما أن يحسن اختيار صاحبه، طارحاً هواه، مؤثراً هداه، مستخيراً اللّه جل وعلا فيمن سيكمله، ويعينه، ويستره .

هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ [1]

وأم المؤمنين عائشة رضي اللّه عنها تأخذ بيد الراغبين في الزواج إلى جادة الطريق كاشفة لهم عن معالم الهدى حتى لا يُشْقُوا بهم من خلفهم .

عن عائشة رضي اللّه عنها قالت: قال رسول اللّه r "تخيروا لنطفكم وانْكَحوا الأَكْفاء ، وأنْكِحوا إليهم" [2] .

وسُئل عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه ما حق الولد على أبيه ؟ فقال: "ينتقي أمه، ويحسن اسمه، ويعلمه القرآن"[٣] .

وعن أبي هريرة رضي اللّه عنه عن النبي r قال :

"تنكح المرأة لأربع لمالها، ولحسبها، ولجمالها، ولدينها، فاظفر بذات الدين تربت يداك"[4].

ولم لا يكون الاهتمام بها وهي الحرث، والمغرس الذي يعلم اللّه تعالى وحده منتهى فروعه ؟

ولها مثل ذلك فلا يرضى لها وليها إلا صالحاً يجمع أمرها، ويصون لها حقوقها، ويرعى اللّه فيها وفي ذريتها .

ثم إنها إذا كانت هي التربة التي أحلها اللّه بكلمته فمن حقها ألا يبذر فيها إلا طيب، ولا يستنبت في حماها إلا صالح .

١- سورة البقرة الآية (١٨٧) .

٢- رواه ابن ماجه (٣٦٢/١) .

٣- أحمد فائز، دستور الأسرة في ظلال القرآن، ص (١١٦)، مؤسسة الرسالة، ط٢، بيروت – لبنان، سنة (١٤٠٤هـ - ١٩٨٢م).

4- رواه البخاري (٣٤٣/١٤- ٣٤٤فتح)، ومسلم (١٠٨٦/٢).5

وصلتها بمن تدفع إلى الحياة أوثق وأقوى، ففي رحمها ينمو ويتقلب، ومن دمها يكون غذاؤه، فلا لحم إلا منها، ولا عظم إلا بما يسر الله عن طريقها، بل قل ما من ذرة في الجنين مبنىً ومعنىً إلا ومردها بَعْدَ الله تعالى إليها .

فإذا خرج إلى الوجود كان ريه وطعامه منها، وأمنه وراحته فوق صدرها، فما أعظم أن تكون هي طيبة المنبت والمنشأ، ثم المطعم والمغرس .

وحرص الإسلام على صلاح كل من الأبوين فضلاً عن شرعية التقائهما (ولما يفطن إليه علماء التربية غير المسلمين بعد)، حيث لا ينتج الخير إلا خيراً، ولا يجود الخبث إلا بشر.

وإذا كانوا قد اشترطوا أن تكون المرضعة وهي الأم غالباً صالحة فلا بد ألا يعمر بيتها، ولا يستر جسدها، ولا تطعم، أو تشرب إلا من حلال طيب تمشياً مع فطرة الله التي فطر الناس عليها، وحفاظاً عليها، وعلى ذريتها، فمن حقها على زوجها ألا يمونها إلا حلالاً .

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله r : "إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، فقال:

يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنْ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٥١) [١]

وقال: **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ** [٢]

ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء، يارب .. يارب، ومطعمه حرام ومشربه حرام وملبسه حرام وغذي بالحرام، فأنى يستجاب لذلك ؟"[٣]

١- سورة المؤمنون الآية (٥١).

٢- سورة البقرة الآية (١٧٢).

٣- رواه مسلم (٧٠٣/٢) .

فالدين عصمة، ولا يكون دوامها إلا بمطعم ومشرب حلالين فهما وقود الجسم، وأساس بنائه، وسر حركته ونشاطه، ودافع تفاعله وعطائه فإذا طابا طاب كل خارج منهما غذاء لجنين أو لبناً لرضيع فضلاً عن أن الخلق مرتبط بعوامل النماء المادي .

يرى أبو حامد الغزالي :

" وجوب العناية بتربية الطفل منذ اليوم الأول من حياته؛ وذلك لأن نفسه صفية بيضاء فكل ما ينقش عليها يترك أثره، فالواجب أن تكون مرضعته امرأة صالحة ذات دين "[1]

والزوجان شريكان فيما أعقبا من نسل ومسؤولان عن تربيته، ولكل منهما دوره الذي يسأل عنه، ويحاسب عليه

يقول ابن سينا :

" يسن في الولد أن يتولاه كل واحد من الوالدين بالتربية "[2]

وبمقدار انضباط التربية واستقامة موازينها، ودقة الأخذ والعطاء فيها منذ اللحظات الأولى للطفل موضوع التربية يكون رسم الخطوط الأساسية لتلك الشخصية، وإعدادها إعداداً مناسباً لمواجهة الحياة والأحياء والتفاعل معهما .

التربية أسلوب حياة :

لم تكن التربية في الإسلام دروساً تلقن، أو مبادئ يطلب حفظها وترددها، أو أناشيد جيدة السبك، قوية الإيقاع، وإنما هي حياة وأساليب حياة يعيشها الإنسان، ويتلقاها واقعاً ملموساً فيما حوله حيث إن الدين هو

١- أحمد عبد العزيز الحصين، المرأة المسلمة أمام التحديات، ص (١٤٨)، دار البخاري للنشر والتوزيع، ط٥، القصيم – المملكة العربية السعودية ، سنة (١٤٠٧/١٤٠٦ هـ – ١٩٨٦/١٩٨٥م)

٢- د. عبد الفتاح أحمد فؤاد، الأصول الفلسفية للتربية عند مفكري الإسلام، ص (٣٨٦)، منشأة المعارف، الإسكندرية – مصر، سنة (١٩٨٣م).

إطار الحياة وروحها، ودوافع السلوك، وظواهره، وغاياته في الحياة ينبغي أن تتسق مع شرع الله، وتعبر عن صلة وثيقة بالله تعالى الذي آمنا به .

"فالتربية في مفهومها، وفي طبيعتها، وفي وظيفتها عملية أخلاقية تعمل من أجل بلوغ الإنسان كماله الأخلاقي على حد تعبير ابن مسكويه، والكمال الأخلاقي ليس صورة مثالية نظرية فلسفية بل صورة إنسانية واقعية حددتها تعاليم الأدب الإسلامي)[1]

حتى أصبح ما يصدر من أفراد هذا المجتمع محكوماً له أو عليه بمدى التزامه بآداب الإسلام، وصدوره عنها سواء كان هذا في حدود الأسرة، أو خارج نطاقها على مستوى المجتمع، من هنا فالطفل يتلقى التربية في كل ما يطرق أذنه، أو تقع عليه عينه، أو يأخذه به مربيه أباً كان، أو أماً أو غير ذلك.

ومرحلة الطفولة المبكرة (٢ : ٦) سنوات مرحلة التأديب والتعليم، حيث يبدأ فيها النمو العقلي والنفسي والبدني، ويتقبل الطفل ما يصله من تأديب أو توجيه، وفيها يتكون طبع الطفل، وترسم شخصيته، وتؤثر فيها التربية تأثيراً واضحاً .

وقد عني المسلمون بهذه الفترة، وتكلم علماؤهم عن أهمية التأديب فيها فيقول ابن سينا: " فإذا فطم الصبي عن الرضاع بدئ بتأديبه، ورياضة أخلاقه قبل أن تهجم عليه الأخلاق اللئيمة، وتفاجئه الشيم الذميمة، فإن الصبي تتبادر إليه مساوئ الأخلاق، وتنثال إليه الضرائب الخبيثة، فما تمكن منه من ذلك غلب عليه، فلم يستطع له مفارقة، ولا نزوعاً عنه " [٢].

والواقع يؤكد ما ذهب إليه العلماء فعين الطفل في هذه المرحلة معلقة بما حوله، وأذنه مصغية لما يسمع من أصوات، ومشاعره تذوب فيما حوله

١- د. محمود قمبر، دراسات تراثية، جـ (٢)، ص (٣٢)، بتصرف كبير، مرجع سابق .

٢- المرجع السابق ص (٣٤).

من أحداث، فقد يضحك، وما قُصِدَ إضحاكه، وقد يبكي ويشتد بكاؤه، وما كان طرفاً في شجار أو خصومة، إنه يعيش الحياة، ويتفاعل مع ما حوله قصد أو لم يقصد، ولذا كانت التربية شاقة، وصار دور الكبار خطيراً، وتأثيرهم بالغاً، وكان عليهم أن يراجعوا ما يصدر منهم حتى لا يطبعوا فيه ما يجافي التربية الإسلامية السليمة.

الفصل الثالث :

تربية المراهق

المراهقة أهميتها وخطورتها :

المراهقة من أخطر المراحل التي تواجه الآباء والمربين، وأهمها في بناء الإنسان، ومنها يمكن الحكم للشاب أو عليه، فإن اجتازها آمناً سالماً توقعنا له حياة ناجحة موفقة سلوكياً واجتماعياً، وكانت إيذاناً بأنه سيمضي حياته صحيح النفس، سوي الشخصية، أما إذا لم يخرج منها سليماً فإن ذلك يؤذن بأوخم العواقب على تكوينه النفسي، وسلوكه الاجتماعي في المستقبل.

والشباب حماة الوطن، وبناة الحضارة، وعماد النهضة، ودعائم المستقبل، وبقدر سلامتهم، ونقائهم، وحسن بنائهم، واستواء شخصياتهم تكون عظمة الأمة، وتميزها في عقيدتها، وحريتها، وارتقائها علمياً، وثقافياً، واجتماعياً، لذلك كان الشباب أمانة عظمى في أعناق المربين، وعبئاً ثقيلاً تسأل عنه الأسر، وتختبر فيه المؤسسات التربوية، وتقاس به عظمة وسلامة التخطيط للبناء البشري وارتقاؤه، أو يحكم بتدنّيه، وانحطاطه، والمراهقة أولى عتبات الشباب، فالبدء بها عناية بالشباب في مراحل بنائه الأولى ووضع أسسه الثابتة وهي مرحلة التكوين الحقيقي والفعال لاتجاهات المراهق النفسية، ومن الخطورة بمكان التخلي عنه، وتركه ونفسه تعصف به الأهواء، وتتصارع فيه الرغبات، دون أن يجد عوناً يملأ بحكمة وذكاء وخبرة فراغه الديني والفكري بما ينبغي أن يعبأ به، ويغرس في أعماقه الحق الذي يجب الولاء له، وإلا أسرعت إليه الأفكار الفاسدة، واستقرت في وجدانه المعتقدات الضالة التي تصادف ميلاً في نفسه، واستجابة سريعة من عقله الناشئ الفارغ المهمل.

إن حكمة المربي وفطنته تعطيان المراهق المعايير الثابتة، والمقاييس الصادقة، والموازين المحكمة التي تعصمه من الزلل، وتمنعه من السقوط، وتبصره بدواعي الانحراف أما عند افتقاد المربي فليس بعجيب أن يدخله كثير مما أشارت إليه الآية الكريمة: **أَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً** (٤٣) [١].

" وهو تعبير عجيب يرسم نموذجاً عميقاً لحالة نفسية بارزة، حين تنفلت النفس من كل المعايير الثابتة، والمقاييس المعلومة، والموازين المضبوطة، وتخضع لهواها، وتحكم شهواتها، وتتعبد ذاتها، فلا تخضع لميزان، ولا تعترف بحد، ولا تقنع بمنطق" [٢].

ونحن كأمة لها تراثها الذي يقوم على وحي معصوم، وفكر منسق مصقول، علينا أن نعود إلى إسلامنا، وسنرى فيه ما يدعم البناء، ويسد الثغرات، ويمدنا بروافد التنشئة السليمة، وأصول التكوين الإنساني الصحيح، وبذلك نحفظ شبابنا، ونضع أقدامهم منذ المراهقة على طريق سوي لا يعرف التراجع، ولا يرضى الجمود، وإنما يجاهد من أجل نهضة صادقة عادلة تلبي حاجات الإنسان، والمجتمع، بل تكون رصيد خير، ونبع سعادة للبشرية، والقرآن الكريم في عرضه للنماذج السوية يهيب بنا أن نتخذه الدليل في أمورنا كلها فما بالنا ببناء الشباب؟

" والمراهقة في نظر علم النفس الحديث مرحلة نمو طبيعي، وإن المراهق لا يتعرض لأزمة من أزمات النمو طالما سار هذا النمو في مجراه الطبيعي، وفقاً لاتجاهات المراهق الانفعالية والاجتماعية" [٣]

---

١ - سورة الفرقان الآية (٤٣).

٢ - سيد قطب، في ظلال القرآن ، جـ٥ ، ص(٢٥٦٦)، مرجع سابق.

٣ - اللواء محمد جمال الدين علي محفوظ، التربية الإسلامية للطفل والمراهق، ص(٧٣)، دار الاعتصام، بدون ط، القاهرة – مصر، سنة (١٩٨٦م).

" ونرى أن المراهقة من الناحية العلمية مرحلة في مجرى النمو لها بداية، ونهاية، وأنها وثبة في الارتقاء من مستوى أدنى إلى مستوى أعقد، ولها خصائصها المميزة لها، والتي تطبع المراهق بخصائص نفسية ، واجتماعية، وعقلية مميزة" [1]

مفهوم المراهقة:

" المراهقة "Adolescence" مشتقة من الفعل اللاتيني "Adolescero" والذي يعني التدرج نحو النضج الجنسي والجسمي والعقلي والاجتماعي والسلوكي، وهي فترة في مجرى النمو لها بداية ونهاية، بدايتها البلوغ حيث يتحقق النضج الجنسي للفرد، ونهايتها الرشد حيث يتحقق النضج الاجتماعي والانفعالي. وتؤكد هيرلوك هذا الاتجاه فتقول: "تمتد المراهقة من النضج الجنسي حتى ذلك العمر الذي يتحقق فيه الاستقلال عن سلطة الكبار (Hurlock 1978)، وعليه فهي عملية بيولوجية في بدايتها (نضج جنسي) واجتماعية في نهايتها الاستقلال عن الكبار" [2]

" وهي في اللغة العربية من رهق رهقاً قال الشيباني: فيه رهق أي حدة وخفة، وإنه لرهق: أي فيه حدة وسفه، وقال ابن الأعرابي: إنه لرَهِقٌ نَزِلٌ أي سريع إلى الشر، سريع الحدة.

وفي التنزيل **فَزَادُوهُمْ رَهَقاً** (٦) [3]، أي سفهاً وطغياناً، وقيل في تفسير الرهق الظلم، وقيل: الطغيان، وقيل الفساد، وقيل: العظمة، وقيل: السفه، وفي سورة الكهف **وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَاناً وَكُفْراً** (٨٠) [4].

---

١ - د. محمود عطا حسين، النمو الإنساني: الطفولة والمراهقة، ص (٣٢٠)، دار الخريجي، ط٤، الرياض- المملكة العربية السعودية، سنة (١٤١٧هـ - ١٩٩٧م).

٢ - المرجع السابق ص (٣١٧) .

٣ - سورة الجن الآية (٦).

٤ - سورة الكهف الآية (٨٠) .

قال الأزهري: في هذه الآية: (الرهق) اسم من الإرهاق، وهو أن يحمل عليه ما لا يطيقه" [1].

وراهق الغلام فهو مراهق إذا قارب الاحتلام، والمراهق الغلام الذي قارب الحلم.

وهي كلها معانٍ تدور حول خصائص تلك المرحلة، فالسرعة، والاندفاع مع عدم التروي في معالجة الأمور، وتحمل ما فوق الطاقة، ورؤية النفس، والاعتزاز بالقوة الجسمية أمور تعرف بها هذه المرحلة وهي وغيرها ممكنة الاستنتاج من المعنى اللغوي.

ويعرفها فورد ويبتش فيقول: "إن المراهقة هي الفترة الممتدة من البلوغ وحتى النضج التناسلي الكامل" [2] .

وإن كنت أميل إلى الأخذ بأن "المراهقة هي التدرج نحو النضج البدني والجنسي والعقلي والانفعالي" [3]

وذلك لما فيه من شمولية تعبر عن سمات المراهقة في جوانبها المختلفة أو هي المعبر بين الطفولة والنضج ..، وإذا كان الوضع هو ميلاد الطفل، فالمراهقة هي ميلاد الرجل أو السيدة ..، وإذا كانت ولادة الطفل تستغرق ساعات فإن ميلاد الرجل أو السيدة تستغرق سنين.

"وهكذا فالمراهقة ميلاد جديد للرجولة بكل ما في هذه الكلمة من معنىً؛ ولذلك فمعناها علمياً هو: التدرج نحو النضج البدني والجنسي والعقلي والانفعالي وهذا هو مصدر أهميتها وخطورتها، وأثرها البعيد في

١- ابن منظور(أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم)، لسان العرب، جـ١٠، ص (١٢٨- ١٢٩) (رهق)، بتصرف، دار الرشاد الحديثة، دار صادر، بدون ط، بيروت – لبنان، بدون ت.

٣- محمد جميل منصور، وفاروق سيد عبد السلام، النمو من الطفولة إلى المراهقة، ص(٤٥١)، مرجع سابق.

٤- اللواء محمد جمال الدين علي محفوظ، تربية المراهق في المدرسة الإسلامية، ص (٦)، دار الكتاب المصري – دار الكتاب اللبناني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، بدون ط، القاهرة – مصر، بيروت – لبنان، (١٩٧٧م).

تكوين الشخصية من حيث سماتها الجسمية والعقلية والنفسية والاجتماعية" [1] .

المراهقة المبكرة (١٣ : ١٦) عاماً

المراهقة المتأخرة (١٧ : ٢١) عاماً

بينما يرى آخرون أن ..

المراهقة المبكرة (١٣ : ١٧) عاماً

المراهقة المتأخرة (١٨ : ٢٢) عاماً

وأياً ما كان الأمر فليست هناك مفارقات مثيرة فالبدء واحد، والنهاية ما بين (٢١ ، ٢٢) عاماً بل وصل بها بعضهم إلى (٢٣) عاماً وهو أمر محتمل جداً، بل كان الأخذ بالأخير أولى امتداداً بالرعاية، واستمراراً للتربية حتى نضمن سلامة اجتياز المرحلة، والتغلب على صعوباتها، والوصول بالمربى إلى شاطئ الأمان كما يقولون.

ولكل مرحلة من هاتين المرحلتين سمات خاصة تميزها وتعرف بها.

وتؤكد الدراسات المختلفة لخصائص هذه المرحلة أنها فترة تحدث فيها تغيرات جنسية وجسمية واجتماعية وانفعالية وعقلية تنقل الفرد من الطفولة إلى الرشد، وهذا الانتقال يعني التغير في مجال الانتماء للجماعة، وفي مجال القيم والاهتمامات، ومع هذا التغير تظهر الحاجة إلى التكيف مع الوسط الجديد، ويستلزم التكيف في مرحلة المراهقة إعادة النظر في الأساليب الطفولية السابقة وإحلال نماذج أرقى من السلوك تتفق مع حياة الراشدين، وتقوى على مواجهة المسئوليات الجديدة، " إنها على حد تعبير "Horrocks" وقت خبرات جديدة ومسئوليات وعلاقات جديدة مع الكبار والأقران، تحتاج من المراهق أن يقيم صلات وعلاقات من نوع جديد ويتعامل مع الكبار بأسلوب لم يعهده من قبل، فإن لم يجد المراهق التوجيه المناسب

١- اللواء محمد جمال الدين علي محفوظ، تربية المراهق في المدرسة الإسلامية ، ص٦ بتصرف، مرجع سابق

والفهم الدقيق لمطالبه فلاشك أن حياته لن تخلو من الاضطراب، إنها على حد تعبير Lewin انتقال من وضع معروف (الطفولة) إلى وضع مجهول وبيئة مجهولة معرفياً (الراشدين) لا يحسن التعامل معها" [1].

ولسنا بصدد تفصيل الخصائص وإنما سنحاول استخلاص بعضها رغبة في الوصول إلى الهدف من الرسالة .

١) نمو جسمي سريع يصل إلى مرحلة الاستقرار مع نمو في العضلات والصدر والكتفين حيث يصل إلى النضج البدني ويتحقق التوافق العضلي.

وقد أشار إليه القرآن الكريم في قوله تعالى:

ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ [2]

وقوله عن إسماعيل عليه السلام: **فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ** [3]

٢) وفرة النشاط والعمل على استنفاد تلك الطاقة بالتدريبات الشاقة ،أو التمرينات الرياضية التي تساعد على تناسق الجسم.

وإليه يشير القرآن حكاية عن إخوة يوسف وبياناً لحالهم التي يطلبون السماح ليوسف بمشاركتهم فيها: **أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَداً يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ** [4]

٣) وضوح نزعات الرجولة وظهور علامات البلوغ ثم الوصول إلى النضج الجنسي.

يقول ربنا جل وعلا **وَإِذَا بَلَغَ الأَطْفَالُ مِنْكُمْ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٥٩)** [5]

١- د. محمود عطا حسين عقل، النمو الإنساني: الطفولة والمراهقة، ص (٣١٩)، مرجع سابق.

٢ - سورة الحج الآية (٥) .

٣- سورة الصافات الآية (١٠٢) .

٤ - سورة يوسف الآية (١٢).

٥ - سورة النور الآية (٥٩).

٤) تتضح قدرات المراهق واستعداداته العقلية حتى تكتمل، وتتضح الفروق الفردية .

قال تعالى: **وَابْتَلُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْداً فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ** [١]

" وبلوغ النكاح: أن يحتلم وعن ابن عباس رضي اللّه عنهما : الرشد هو الصلاح في العقل والحفظ للمال".[٢]

٥) المشاركة في الحوار وإبداء الرأي، ولا مانع على أن يقوم الكبير مقام التوجيه برفق وحكمة.

يقول تعالى حكاية عن ابنة الرجل الصالح: **يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنْ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ (٢٦)** [٣]

وقد صدقت فراستها.

٦) زيادة الميل إلى اختيار الأصدقاء بنفسه وتأثره بهم، وتأثيره فيهم، وقد وضع القرآن الكريم ضوابط هذا السلوك في كلمات: **الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ (٦٧)** [٤]

وهنا يبرز دور المربي و حكمته وفطنته بحيث لا يرى فيه المراهق تسلطاً ولا استبداداً، ولا يجد في نصائحه طمساً لمعالم شخصيته.

٧) الاهتمام بالمظهر، والميل إلى التأنق في الملبس، واختيار ألوان خاصة ودعوة القرآن الكريم إلى حسن المظهر، وظهور أثر نعمة اللّه على الإنسان واضحة، فهو يدعونا إلى السمت الحسن حتى في بيوت اللّه، **يَا بَنِي**

---

١ - سورة النساء الآية (٦) .

٢- الإمام الزمخشري، أبو القاسم جارالله محمود بن عمر، الكشاف، جـ١، ص(٥٠٠- ٥٠١)، بتصرف، دار المعرفة، بدون ط، بيروت – لبنان، بدون ت.

٣ - سورة القصص الآية (٢٦) .

٤ - سورة الزخرف الآية (٦٧) .

آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ (٣١) [1]

وهنا يبرز دور المربي كمؤدب بارع يستهوي المراهق، ويعينه على إشباع رغباته وتحقيق ميوله، ولكن دون تشبه بالنساء، أو انزلاق وراء تيار مستورد، داعٍ إلى الانحلال، والتخلي عن كثير من سمات الرجولة عملاً بقوله تعالى:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ [2]

٨) نتيجة لصحوة الجنس ونضجه يكون ميل كل جنس إلى الجنس الآخر، ومحاولة لفت نظره، وإثارة اهتمامه، وهنا تؤدي التربية دورها في تهذيب تلك الغريزة المتوقدة، والسير بالمراهق أو المراهقة إلى شاطئ الأمان في إقناع حكيم، وتبصير بالحق الذي أخذنا القرآن الكريم به **قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ (٣٠) وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ مَا ظَهَرَ مِنْهَا** [3]

٩) الميل إلى المخاطرة والمغامرة واكتشاف البيئة، والتعرف على الغرائب، وقد جاءت دعوة الإسلام إلى السير في الأرض تدبراً وتعلماً، وعبرةً واتعاظاً فجاء في أكثر من موقع قرآني(أفلم يسيروا في الأرض) (أولم يسيروا في الأرض)(قل سيروا في الأرض) وعلى المربي أن يضع الضوابط، ويقوم الاتجاه، ويسمو بوجهة نظر المراهق، وهو أمر يحتاج إلى حكمة وصبر بالغين.

---

١ - سورة الأعراف الآية (٣١).

٢ - سورة التحريم الآية (٦)

٣ - سورة النورالآيتان (٣٠ - ٣١)

١٠) الاهتمام بالجمال، والتأليف بين مظاهره، والولوع به، والقرآن الكريم في كثير من آياته ربط المؤمن بمظاهر الجمال في الكون ليزداد إيمانه، ويقوي يقينه منها قوله تعالى: **وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ** (٥) [١]

وتثبت التربية نجاحاً في الاستغلال الحسن لذلك الميول في المراهق، وحمله على استثماره فيما ينفع، وحمايته من سوء استغلاله أو الانحراف به.

١١) الرغبة في المال لمواجهة حاجاته، ومسايرة رفاقه، والظهور بما يراه مناسباً في ملتقياته، وينبغي أن نأخذه برفق إلى ما أخذ به القرآن الكريم المسلم **وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَحْسُوراً** [٢]

وأخذ المراهق بهذا المنهج ليس بالأمر الميسور، بل تتجلى فيه قدرات المربي وكفاءته، بحيث لا يتلف الإسراف المراهق، ولا يصيبه البخل والتقتير بالكبت، والانطواء والعزلة.

منهج القرآن التربوي للمراهقة:

لم تعرف البشرية كتاباً أحاط بطبائع الإنسان، وعني بتربيته كالقرآن الكريم، وتلك إشاراته تحتاج إلى تدبر، ولها معطياتها لكل باحث، في كل عصر، وفي ظلال كل بيئة، وتنفد الحياة والأحياء ولا تنفد هذه المعطيات، فهلا أخذنا أنفسنا بها، وسرنا على نهجها ما استطعنا؟

وهاأنذا أعرض قطوفاً منها:

"١- العقيدة هي الأساس الأول لمنهج القرآن التربوي، فهي مع انسجامها مع الفطرة منبع الخلق، والحافز للنفس على الطاعة، والاستقامة،

---

١ - سورة الحج الآية (٥)

٢ - سورة الإسراء الآية (٢٩).

والضمان القوي للمجتمع من الفساد والانحراف" [1]، وما عانت الإنسانية أفراداً وجماعات إلا بفقدها، وهي صمام الأمان لتلك المرحلة، بل أساس البناء البشري السليم في كل مراحل العمر.

" وهي أساس التربية ومنطلقها منذ بدء الخليقة..

وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ [2]

٢- الحق أصيل في طبيعة الكون، عميق في تكوين الوجود، والباطل طارئ لا أصالة فيه، ولا استقرار له، وظهور الحق، وانتصاره ظاهرة من ظواهر الكون، وسنة من سنن الله "[3].

والقرآن دائم الدعوة إلى تأصيله في نفوسنا لنقيم حياتنا عليه، مع يقيننا بأنه الأقوى والأبقى.

بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمْ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ [4]

" ٣- مدلول العبادة - في القرآن- والذي يلزم أن نربي عليه أنفسنا ومن نعول شامل، لا يفرق بين الفرائض والسلوك، بل يجعل كل حركة في حياة لمسلم وثيقة الصلة بعقيدته، متجهاً بها إلى ربه، منفذاً بها أمره، محققاً رسالته عبادة يجزي بها"[5] **فَمَنْ يَعْمَلْ مِنْ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ** [6]

٤- على المربي أن يضع في اعتباره ضعف النفس الإنسانية، القائم على ما ركب فيها من شهوات، وما يستولي عليها من غفلة، وما يصيبها من

١- محمد شديد ، منهج القرآن في التربية، ص(١٣١) بتصرف يسير، مؤسسة الرسالة، بدون ط، بيروت – لبنان، سنة (١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م).

٢- سورة الأنبياء الآية (٢٥) .

٣- محمد شديد، منهج القرآن الكريم في التربية، ص (١٣٢ ، ١٣٣)، مرجع سابق.

٤- سورة الأنبياء الآية (١٨).

٥- محمد شديد، منهج القرآن الكريم في التربية، ص (١٦١) بتصرف، مرجع سابق.

٦- سورة الأنبياء الآية (٩٤).

فتن، أو يميل بها من هوىً، وما يجري في دمها من شيطان، ولا نستبدل هذا الضعف فيمن نربي بالقوة إلا بتوجيهه إلى الله، ودفعه إلى الاعتصام به.

وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ [1]

٥- المراهق فقير إلى الموعظة، وتتابع النصائح، رعاية وتقديراً لنجاحه، وتسديداً لأخطائه واندفاعه، مع رفق يستهويه، وصبر يستوعب أحواله، وخير مثل لذلك وصايا لقمان لابنه.

٦- إننا مسئولون مسئولية كاملة عن عجز المراهق عن التكيف مع الأسرة كبيئة يعيش فيها، و(المدرسة) كبيئة مسئولة عن تربيته، لتجاهلنا ما طرأ عليه من نضج، وإغفالنا ما له من سمات جديدة، مع التدخل في شؤونه، وإهمال رأيه، والحق غير ذلك، فلا بد من احترام ذاتيته.

٧- الأسرة هي المحضن الطبيعي للولد طفلاً فمراهقاً فشاباً، وبمقدار صلاحها يكون صلاحه، وتبعاً لفسادها يكون فساده.

يقول ربنا جل وعلا عن مريم: **فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتاً حَسَناً** [2]

ويقول جل شأنه: **وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لا يَخْرُجُ إِلاَّ نَكِداً** [3]

٨- احترام رغبة المراهق في التحرر والاستقلال، دون إهمال رعايته وتوجيهه.

قال تعالى: **وَابْتَلُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْداً فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ** [٤].

١- سورة آل عمران الآية (١٠١).

٢- سورة آل عمران الآية (٣٧).

٣- سورة الأعراف الآية (٥٨).

٤- سورة النساء الآية (٦) .

٩- ينبغي ألا تقف الأسرة بينة وبين طموحه، ولكن عليها أن تنظمه، وترشده برفق عسى أن يكون معداً لعطاء نافع لأمته أو البشرية كلها، خاصة أن القرآن فتح عيوننا وقلوبنا على البحث والتفكر فقال: **وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ (٢٠) وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ (٢١)**[1].

١٠- تحبيب التواضع إليه، وتنفيره من العلو والاستكبار، وإشعاره بالمساواة في الأصل والخلقة، وأن الأكرم هو الأتقى.

يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (١٣)[2]

وَلا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحاً إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ (١٨)[3]

١١- إن انطواء المراهق وعزلته لا يذهب بهما إلا أب أو مرب حكيم فطن، رقيق المشاعر، حلو الحوار، ماهر في احتواء محاوره، وبحكمة سامية كان ذلك النداء الرقيق (يا بني) نداء الآباء والمربين في القرآن الكريم حتى نوح مع ابنه الكافر وهو على رجاء هداه **يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ (٤٢)**[4]

١٢- مشاركة المراهق، وإفساح المجال لرأيه أساس من أسس التربية تعبيراً عن نفسه، وإبرازاً لدوره، وإظهاراً لشخصيته، وربما أتى بما لم يأت به من يكبره يقول القرآن الكريم حاكياً عن ابنة الرجل الصالح:

قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنْ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ (٢٦)[5]

وقد صدقت فراستها .

١- سورة الذاريات الآيتان (٢٠ – ٢١).

٢- سورة الحجرات الآية (١٣).

٣- سورة لقمان الآية (١٨).

٤- سورة هود الآية (٤٢).

٥- سورة القصص الآية (٢٦).

١٣- إتاحة الفرصة له في اتخاذ القرار، وهذا ما فعله إبراهيم مع ولده إسماعيل عليهما السلام في قصة الفداء.

فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنْ الصَّابِرِينَ (١٠٢) [1].

فعلى الذين يشكون في المراهق العناد، والسلبية، وعدم الاستقرار، أو الالتجاء إلى بيئات أخرى جديدة أن يراجعوا أنفسهم، ويعيدوا النظر في مواقفهم، فربما كانوا هم الجناة، أو على الأقل المقصرين.

١٤- قد يرى المربون أن الإعلام؛ الإذاعتين المسموعة والمرئية، مع ما أضيف إليهما من مخترعات والصحف، والمجلات، والكتب الرخيصة، بل الطريق، وإباحة الاختلاط في كثير من المجتمعات وسفور المرأة، وفقدان العفة في مجتمعات قد يفرض على أبنائنا معشر المسلمين التواجد فيها، كلها دوافع إلى الرذيلة، ومرغبات في الانحراف.

لا أخالفكم القول، ولكن ما الحل ؟ وماذا قدمتم لتربية المراهق؟

إن فتنة يوسف كانت أشدَّ مما ترون غير أن تربية يعقوب له كانت أقوى من الفتنة.

١٥- إن المراهق إذا قدرت له تربية إسلامية خالصة، ووجد المربي الصالح يمكن أن يتحول إلى داعية.

يَا بُنَيَّ أَقِمْ الصَّلاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنْ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ (١٧) [2]

فهلا اجتهدنا لإفساح المجال لتلك القدرات ؟

١- سورة الصافات الآية (١٠٢).

٢- سورة لقمان الآية (١٧) .

نماذج قرآنية لتربية المراهق:

وصايا لقمان

جرت عادة البشر أن يعطوا كل صانع الحق في تفهم أسرار صنعته، واعتبروا هذا حقاً له مع أنه آدمي فيه ضعفه وقصوره فأولى بهم أن يؤمنوا أن الله تعالى أعلم بخلقه، خبير بما يصلحه، بصير بما يؤدي إلى انتكاسه، عليم بما يحفظه، فالخلق خلقه، والأمر أمره **أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ** (١٤) [1]

ووصايا لقمان[٢] لابنه من الله تعالى، فهو الذي آتاه الحكمة، وأطلق بها لسانه، وألهمه محتوى ما يقدم لولده، ويسر له القول، وعلمه كيف يبدأ، وكيف يتابع، وكيف ينهي حديثه، وأعده لذلك إعداداً يصلح به أن يكون مربياً وموصياً، واختار له أنسب مراحل العمر في حياة الإنسان لتلك الوصايا، وأصلح له ولده ليسمع، وينقاد.

وإذا كان علماء التربية قد شغلوا بتلك الفترة (المراهقة) وأفاضوا في الحديث عن سماتها، واجتهدوا في تصوير مخاطرها، والتعرف على مشكلاتها، فإنا نقول لعلماء التربية المسلمين إذا كان غيركم قد أخذوا بالأسباب، وظنوها موصلة، والحق غير ذلك فمجتمعاتهم خربة، وضحايا المراهقة ذكوراً وإناثاً في ازدياد عندهم، حيث إنهم لا يملكون ما ملكتم من مصدر معصوم متمثل في القرآن الكريم والحديث الشريف، فمن العيب فينا أن نكون تبعاً، والله تعالى علمنا بقوله في محكم كتابه :

١- سورة الملك الآية (١٤)

٢- لقمان: هو لقمان بن باعوراء كان حكيماً ولم يكن نبياً، من سودان مصر وكان راعياً فرزقه الله العتق ورضي قوله ووصيته فقص أمره في القرآن؛ لنمسك بوصيته. وقال سعيد بن المسيب لأسود: "لا تحزن فإنه كان من خير الناس ثلاثة من السودان: بلال ومِهْجَع مولى عمر ولقمان".

قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيراً مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنْ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنْ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ (١٥) يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنْ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنْ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (١٦)[1]

ويقول جل شأنه:

قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ (٥٧) قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ (٥٨)[2]

وكم يعجب الباحث، ويفرح حين يأتي بأقوال من هنا أو من هناك، وأولى به أن يفرح ويسعد بما يفتح عليه الله به من دينه، فهو كما قال الله تعالى(**فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ**) ثم يكون ما بعد ذلك نافلة، وخبرات نأخذ منها ما يتفق وعقيدتنا وبيئتنا، وننفي عنا ما يسيء إلينا.

وإذا كانت تلك المرحلة خطيرة، تأكل الغيرة قلوب العلماء إشفاقاً على المراهقين، ورفقاً بهم ، فهل أعدوا لها المربي الكفء ؟ وهل وفروا له من الخبرة ما يعينه على أداء رسالته، فضلاً عن استعداده الفطري؟

وليس ذلك مطلباً ثانوياً، فالمربي يقتطع من فكره، وحسه، وخبرته، فضلاً عن إيمانه لينهض بمن يربيه ، ويفيض عليه مما انطوت عليه نفسه، فإذا كان فارغاً فماذا يعطي ؟

وقد آتى الله لقمان الحكمة، ولو نظرت إلى مطلع السورة لوجدت:

الم (١) تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ (٢) [3]

فالحكمة ضرورة للمربي خاصة في هذه المرحلة لأنه بها يكون فطناً عليماً بمواقع القول والفعل، خبيراً بحاجات من يربي، قادراً على أن يأتلف به لأنه لو كان غير ذلك ما نجح، و ربما كان هذا هو السر في فشل كثير

١- سورة المائدة الآيتان (١٥- ١٦) .

٢- سورة يونس الآيتان (٥٧- ٥٨)

٣- سورة لقمان الآيتان (١ – ٢) .

من المربين آباء أو غيرهم، وكان لقمان مثلاً أعلى للمربين الصادقين، انظر إليه وهو يؤثر هذا التعبير "يا بني" مع ما فيها من مودة، وتأكيد للصلة، وتوقير للعلاقة المقدسة بين الآباء والأبناء مفضلاً أسلوب النداء، مكرراً ذلك ثلاث مرات.

وإذا كان الشكر لله مظهر الحكمة الفريد، فمقتضى الشكر أن يرعى الوالد ولده، وهو من أغلى النعم وأعلاها، وأن يتولاه بالتربية في مطلع رجولته (المراهقة)، والحكماء المصلحون منذ بدء الخليقة يعطون تلك الفترة حقها، ويولونها من الاهتمام ما يعصم من مخاطرها، ويحقق سلامة عابريها من أبنائنا وبناتنا، وهكذا بدأ لقمان الحكيم فيما أتصور مع ولده بالعقيدة منذ اللحظة الأولى في مراهقته ليحسن بناؤه وتستقيم تربيته.

والبدء بالعقيدة هو الحق، فبها يستقيم الباطن، فيسلم الظاهر، وما تعبيرات الحواس غير استجابة لما اطمأنت إليه القلوب، وتعشقته النفوس، والتوحيد منطلق طيب، وهو أولى الوشائج وأقوى الروابط، يعرف به المؤمن ربه، ويوثق صلته به، وقد عودنا القرآن الكريم أن بدء البناء الإنساني إنما يكون بإخلاص العبودية لله تعالى **يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ** (٢١) [1]

ويقول جل شأنه: **وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ** (١٢٣) [2]

بل من أجلها كان خلقنا يقول جل جلاله **وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ** (٥٦) [3]

١- سورة البقرة الآية (٢١) .

٢- سورة هود الآية (١٢٣) .

٣- سورة الذاريات الآية (٥٦).

ولا تجد عظيماً إلا والعبادة منطلقه، وبها بدأ لقمان المربي..

يَا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ [1] لأن المربي إذا نجح في إخراج كل ما سوى الله من نفس المربى، طهره مع هذه من كل عوامل الانحراف، وأثبت مكانها في ظلال التوحيد كل دوافع الرقي، والسمو، فلا تستبد به شهوة، ولا تستعبده نزوة، ثم أوقفه على خطورة المخالفة **إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ** [2] وإذا كان المشرك غير عادل مع ربه، فهل يمكن أن يتوفر فيه العدل والرحمة مع نفسه، وبالتالي مع الحياة والأحياء؟ إننا مأمورون بالعدل في كل شيء أمراً مطلقاً: **إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنْ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ** (٩٠) [3]

ولعظم العدل في الكلمة خصها الله بقوله تعالى: **وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا** [4] فهل عدل الكافر ؟!

وتصور أننا نربي أبناءنا وبناتنا على العدل، ونأخذ أنفسنا به ماذا يكون الأثر في أقوالنا وأعمالنا وسلوكنا، بل جميع تقلباتنا؟

وفي ظلال العبادة يتحرك لقمان المربي من خلال نمط اجتماعي يكشف به عن صدق عبادة من يلتزمه، ونقاء توحيده، وصدوره عن أمر من وحده من خلال ما يأتي أو يذر.

وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ [5]

إذا كان بر الوالدين، والإحسان إليهما وصية من الله تعالى فالتزامه عبادة، والقيام واجب، والعمل بمقتضاه أمر لا بد منه، وخفض الولد

١- سورة لقمان الآية (١٣) .
٢- سورة لقمان الآية (١٣) .
٣- سورة النحل الآية (٩٠) .
٤- سورة الأنعام الآية (١٥٢) .
٥- سورة لقمان الآية (١٤) .

جناحيه لوالديه مدرجة إلى فلاحه ونجاح تربيته، لأنه سيكون معداً للقبول منهما، وأخذ ما حسن من سماتهما، واتباع ما يرضي اللّه من سلوكهما، ثم هو وفي بعهد اللّه الذي أخذه على كل ولد ببر والديه، حريص على أنه إذا كانت إقامة حياة اجتماعية مطلباً هاماً لأصحاب تلك المرحلة، فلتكن العلاقة الطيبة بالوالدين مفتتحها شكراً لهما بعد شكر اللّه عز وجل، واعتزازاً بعطائهما، ووفاءً لحقهما، واستكمالاً للعبادة التي يعتبر البر بالوالدين مظهراً من أجلى مظاهرها فالتمرد على الوالدين، والرغبة الشديدة في الخروج عليهما، والثورة عليهما حرصاً على إثبات المراهق ذاتيته وإبراز دوره كما يرى علماء التربية، وكما يشكو عامة الآباء والأمهات من المراهقين ذكوراً وإناثاً، وبالعقيدة تأتي معايير جديدة، فالابن مقر ببنوته لهما معترف بفضلهما يسمع منهما ويرى فإن خالف ذلك شيئاً مما استقر في نفسه كرشيد له رؤيته، وتصوره، وفقاً لقدراته الجديدة حاور في أدب، وعرض ما عنده في تواضع، فإما أن يقتنع فيضيف جديداً، أو يقنع، وهو في كل هذه كما علمه ربه:

إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاهُمَا فَلا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلاً كَرِيماً (٢٣) وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنْ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً (٢٤) [1]

إن شكرهما مقرونٌ بشكر اللّه عز وجل **أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ (١٤)** [2]

وإن ضلا أو كفرا، بل اجتهدا في إضلالك وحملاك على الشرك فتلك أمور لا تسقط حقهما في صحبة كريمة، بل كن نموذجاً للأدب،

١- سورة الإسراء الآيتان (٢٣- ٢٤).

٢- سورة لقمان الآية (١٤).

ومثلاً للتربية السليمة **وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفاً** [1]

لان كفرهما لا يسقط واجب الإحسان إليهما، ثم اختر قدوة يرتضيها الدين، وتزكيها لك العقيدة **وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ** [2] ويذكره بالآخرة لتنضبط موازينه، وتطفأ ثورته، ويستقيم على الحق، أمره **ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ** (١٥) [3]

وانظر كيف يجب أن نوثق دائماً علاقة من نربي بالله، ونزيده ما استطعنا معرفة به عصمة له، وإصلاحاً لظاهره وباطنه، ولقمان بما علمه الله تعالى يعرف ولده بالله، ويذكره بعلم الله المحيط الشامل، وقدرته جل شأنه، ودقة حسابه، وعدالة ميزانه ليكون على حذر في كل ما يأتي أو يذر حتى لا تنسيه بسطة الجسم، ووفرة الشباب ما ينبغي أن يكون عليه فيطغى **يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ** (١٦) [4]

"حبة من خردل صغيرة ضائعة لا وزن لها ولا قيمة **فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ** صلبة محشورة فيها لا تظهر، ولا يتوصل إليها (**أَوْ فِي السَّمَوَاتِ**) في ذلك الكيان الهائل الشاسع الذي يبدو فيه النجم الكبير ذو الجرم العظيم نقطة سابحة، أو ذرة تائهة، (**أَوْ فِي الأَرْضِ**) ضائعة في ثراها وحصاها لا تبين (**يَأْتِ بِهَا اللَّهُ**)، فعلمه يلاحقها، وقدرته لا تفلتها، **إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ**)" [5]

١- سورة لقمان الآية (١٥).

٢- سورة لقمان الآية (١٥).

٣- سورة لقمان الآية (١٥)

٤- سورة لقمان الآية (١٦)

٥- سيد قطب، في ظلال القرآن الكريم، جـ٥، ص (٢٧٨٩)، مرجع سابق .

ويمضي السياق في حكاية قول لقمان لابنه وهو يعظه، فإذا هو يتابع معه خطوات العقيدة بعد استقرارها في الضمير، بعد الإيمان بالله الذي لا شريك له، واليقين بالآخرة التي لا ريب فيها، والثقة بعدالة الجزاء حيث لا يفلت منه مثقال حبة من خردل، فأما الخطوة التالية فهي التوجه إلى الله تعالى بالصلاة (**يَا بُنَيَّ أَقِمْ الصَّلاةَ**) ففيها صلة بالله، واتصال بصالحي خلقه وتأثرٌ بهم، وتأثير فيهم، وهو لا يرضيه بأدائها أداءً يقف بالمصلي عند أقوالها، وأفعالها دون أن تمس وجدانه، أو تضيء بنورها قلبه، بل يدعوه إلى إقامتها إقامة يستقيم معها ظاهره وباطنه، ويصدر عنها في فعله وتركه، وتعرف آثارها فيه وأكرم بها من تربية !

ثم يدخل به في دائرة نورانية واسعة من التربية يضبط بها سلوكه، ويعين الآخرين على ضبط سلوكهم، فيدعوه إلى تحسس كل ما يعرض له، أو يمر بخاطره فإذا كان حسناً يرضاه الله ويرجى نفعه لفاعله ولغيره فليلزمه، وليدع الناس إليه وإن كان سوءاً يبغضه الله، ويتوقع ضرره به أو بغيره فليجتنبه، ولينه الناس عنه (**وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنْ الْمُنكَرِ**) أي ولاء حميد للجماعة كهذا الولاء الطيب الموجه؟ ولا تظن هذا المسلك الحميد سيكون موضع الإعجاب والتقدير بل سيكون فاتحة بلاء، وباب ضر، ودافع أذىً لأنك ستخالف في الناس أندادك وغيرهم هواهم وتصطدم مع شهواتهم ونزواتهم.

(**وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ**) وإياك والتعالي على الناس، والتطاول عليهم، ولو باسم قيادتهم إلى الخير، ودعوتهم إلى الرشاد، فما جاوزت الطفولة إلا لتكون رجلاً، والرجولة عطاء، وخير العطاء ما لم يصب صاحبه بكبر أو يقبحه بإعجاب ومنّ .

(**وَلا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ**) و هو تعبير عن مرض نفسي، وخلل شعوري فما كانت أطوار الإنسان إلا ترقياً به، ودفعاً به إلى إعمار الحياة والأحياء

ولا يكون ذلك إلا بالتلاحم والتفاعل معهم، وهيهات أن يحقق شيئاً من ذلك عجب أو غرور.

لا بد من علاج لتمايل المراهق وزهوه إعجاباً برشاقة جسمه، وتناسق عضلاته، وقوة خطوه، وأناقة ملبسه مستثيراً من يراه من بني جنسه أو بنات الجنس الآخر، وأي شيء أقوى وأنسب من ذلك العلاج القرآني من وصايا لقمان لابنه فيما حكى القرآن الكريم: (**وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ**)؟ "والقصد هنا من الاقتصاد وعدم الإسراف، وعدم إضاعة الطاقة في التبختر والتثني والاختيال" [1]، وهذا المرض الخبيث هو الذي أضاع مراهقينا وشبابنا، وأودى بكبارنا، والقاصد في مشيه ذو هدف يمضي إليه في بساطة وانطلاق، وهذا ما نريده فيمن نربيهم، لأنهم إن جعلوا لأنفسهم أهدافاً نظيفة ملأوا فراغهم، واستنفدوا نشاطهم في الحق الذي يحرصون عليه.

والثورة الجامحة، وكثرة الحوار بلا طائل، وربما كان بغير حق ولكنه كما يقولون صراع الأجيال، وإثبات المراهق وجوده ولو على حساب الحق خذ له من تلك الوصية (**وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ**) " والغض من الصوت فيه أدب، وثقة بالنفس، واطمئنان إلى صدق الحديث وقوته" [2]، وذلك أكمل سمات الناشئة، أما رفع الصوت فكثيراً ما ينسى ذلك الثائر وزن كلماته، وتحديد أهدافه، واستحضار حججه، بل يكشف عن شكه، وحمقه، وسوء تقديره، وهذا ما نرفضه لناشئتنا.

ولذا كانت النهاية لاذعة، مثيرة للضحك، داعية إلى السخرية (**إِنَّ أَنكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ**)

إن خصائص المراهقة ومشكلاتها وقفت عندها تلك الآيات الكريمات في إيجاز وشمول، وحددت العلاج في دقة وحكمة، فهلا وقف

١- سيد قطب، في ظلال القرآن، جـ٥، ص (٢٧٩٠)، مرجع سابق.

١- نفس المرجع السابق والصفحة.

عندها باحثو التربية، وكشفوا عن مكنوناتها واتخذوا منها نبراساً تستضيء به جهودهم التربوية ؟.

الذبيح إسماعيل :

إن بطل هذا الموقف العظيم العجيب في حياة البشرية كلها فيما يرى علماء التربية مراهق وفي المراهقة ثورة وتمرد وهياج على الكبار و تحدٍّ لكل قديم، ومع ذلك يعرض لنا القرآن الكريم نموذجاً عزيزاً فريداً في تاريخ البشرية عمر صاحبه أربعة عشرة عاماً حيث وهب لأبيه على رأس ست وثمانين سنة، وابتلي فيه أبوه على رأس المائة إنه إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام.

فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ (١٠١) فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنْ الصَّابِرِينَ (١٠٢) فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ (١٠٣) وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ (١٠٤) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٠٥) [1].

لقد كبر إسماعيل وشارك أباه سعيه، وقرت به عين أبيه، وإذا ببلاء لم يسبق بمثله، ولم يلحقه ما يقاربه يبتلى به الأب والابن يقول القرآن الكريم حكاية عن إبراهيم (**فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ**) .

إن الأب لم يأخذ ولده على غرة، وإنما يعرض عليه الأمر عرض المطمئن إلى قضاء الله، الواثق في حكمته، ولعل الله يجعل لولده، وقد تفتح شبابه، واشتد أزره مدخلاً إلى طاعة الله، وحسن رضاه، وصدق تسليم فيما قدره وقضاه، فإذا بالابن يقول كما حكى القرآن: (**قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنْ الصَّابِرِينَ**) أين فورة الشباب ؟ أين الحوار للإقناع أو الاقتناع ؟.

١- سورة الصافات الآيات (١٠١ - ١٠٥) .

إن الغلام عليه السلام، أكبر من هذا فهو مؤمن بالله، وابن خليل الله، عارف بعلاقة أبيه بربه.

إنه يقول له: "(**يَا أَبَتِ**) في مودة وقربى، فشبح الذبح لا يزعجه، ولا يفقده رشده، بل لا يفقده أدبه ومودته"[1] .

(**افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ**) أي عظمة كتلك؟

" إنه يتوسل إلى أبيه أن يفعل، موقناً أن الأمر من الله فليكن الامتثال أظهر، والتنفيذ أسرع.

إنه يقدم نفسه إلى الخطر دون مبالاة، ولم يظهر لشخصه ظلاً، ولا حجماً، ولا وزناً، ولم يأخذها بطولة، ولا شجاعة، ولا اندفاعاً، إنما أرجع الفضل كله لله إن هو أعانه على ما يطلب إليه، وأصبره على ما يراد به" [2] .

(**سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنْ الصَّابِرِينَ**) " يا للأدب مع الله، ويا لروعة الإيمان، ويا لنبل الطاعة، ويا لعظمة التسليم" [3] !

ومرة أخرى يرتفع نبل الطاعة، وعظمة الإيمان، وطمأنينة الرضى على كل ما تعارف عليه بنو الإنسان، فإبراهيم يكب ولده على جبينه، والغلام يستسلم، ويمر الأب سكينة ليذبح وحيده.

إنه الإسلام في حقيقته، ثقة وطاعة، وطمأنينة، ورضىً، وتسليم، وانقياد وهذه كلها لا يصنعها غير الإسلام.

وهنا يكون الجزاء الأوفى من الله تعالى.

(١٠٣) وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ (١٠٤) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٠٥) إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ (١٠٦) وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ (١٠٧) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخِرِينَ (١٠٨) سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ (١٠٩) [1]

١- سيد قطب، في ظلال القرآن، جـ٥ ص (٢٩٩٥)، مرجع سابق.

٢- نفس المرجع السابق والصفحة بتصرف.

٣- نفس المرجع السابق والجزء ص (٢٩٩٥- ٢٩٩٦) بتصرف .

وقد يقول قائل - مالنا معشر المربين- وإبراهيم وإسماعيل ؟

أليسا رسولين معصومين أعدا للطاعة المطلقة ؟

فنقول: هما وإن كانا كما يقول القائل أليسا بشرين ؟

ألم يجعل الله تعالى لنا في رسل الله أجمعين عليهم الصلاة والسلام أسوة ؟

لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (٦) [٢]

وحيرة البشر الآن تكمن في تربية المراهقين، ولن يكلف أب ذبح ولده، ولكنا نقول إذا سلمت التربية بدءًا، وكان المربي حكيماً منذ اللحظة الأولى، واحتوى من يربيه، وامتزجت روحا المربي، ومن يربي، أثمرت التربية، وزالت عن أولادنا تلك الأشباح، وتخلصوا من ضعفهم أمام عنفوان المراهقة.

محنة يوسف:

لا أظن مراهقاً عاش فتنة كتلك التي عاشها يوسف فهو في وفرة شبابه، واكتمال رجولته، وتمام شهوته، وقد امتشق قوامه، وتناسقت أعضاؤه، وبانت فتوته، مع جمال فائق، وبهاء آسر، وامرأة العزيز عبث بها الهوى، وجمحت بها الغريزة، مع نضرة الشباب، وغلبة الشهوة عليها، وتوقد الرغبة، فكانت جريئة سافرة، مالكة لكيدها مجاهرة، متهالكة على فتاها مكابرة، ولكن في حدود بيتها وبين أروقة قصرها، وبين يدي فتاها، أجج نيرانها جمال يوسف، وضاعف من غيظها صدوده، وأثارها ورعه، مع أنه فتاها، وينبغي فيما ترى أن يكون طوع إرادتها، تحركه حين تشتهيه، وتجده أنى تبتغيه، فما باله وقد أذلت له نفسها، ونزلت له عن

١- سورة الصافات الآيات (١٠٣ - ١٠٩) .

٢- سورة الممتحنة الآية (٦) .

كبريائها، وأضعفها ميلها إليه، ورغبتها فيه، فكشفت له عن مستور فتنها، ومكنون إغرائها، وهيأت لنزوتها جواً آمناً، ولما مَنَّتْ به نفسها سياجاً محكماً، وما كان ما حكاه القرآن الكريم فيما أتصور إلا بعد أن ضاق بها الأمر، واستنفدت ما لديها من حيل لإيقاع غلامها، فاستبدلت بالسر العلن، وبالتلميح التصريح.

وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتْ الأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (٢٣) [1]

وهذه الدعوة الصريحة، والمكاشفة المعلنة لا تكون أبداً إلا إذا اضطرت إليها المرأة اضطرارًا، فالأصل أن تكون المرأة مطلوبة لا طالبة، مرغوباً فيها لا راغبة متدنية في عرض نفسها، ونشر حالها، وهي سيدة القصر، وصاحبة الكلمة المطلقة.

(**وَرَاوَدَتْهُ**) إذاً هي البادئة، (**هُوَ فِي بَيْتِهَا**) فحرارة زوجها فاترة، وسطوته واهنة، وهي سيدته، وإن كان العرف أن يكون سيدها، ومع ذلك ضاعفت للفتى دواعي الأمن، وأظهرت له دوافع الطمأنينة (**وَغَلَّقَتْ الأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ**) شهوة على طبق من ذهب لمراهق في أوج الحاجة إليها، وهو أقدر ما يكون عليها، فلو تعرض غير يوسف من المراهقين لمعشار ما ابتلي به يوسف لاعتذرنا عنه ببشريته ونضج الجنس فيه تارة، ونغفل أن يوسف بشر فيه غريزته المتأججة، أو بضعفه أمام إغراء الأنوثة، ونسينا أن ما أحيط به يوسف وطواه القرآن فتنة تجل عن الوصف، أو نقول أكره وما عانى النذر اليسير من معاناة يوسف، وما تعرض لضغوط كتلك التي حيكت ليوسف.

١- سورة يوسف الآية (٢٣) .

ولكن غاب عن المربين أن أساس البناء مختلف، والأمر كما حكى القرآن الكريم: **أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنْ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ** (١٠٩) [1]

وقد أقام يعقوب عليه السلام بناء ولده على تقوى من الله ورضوان حين قال له كما حكى القرآن: **وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ** (٦) [2]

فكانت مواجهته لتلك المحنة معبرة عما أوتي في صغره:

مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ [3]

فبماذا غذونا أولادنا صغاراً حتى نأمل صلاحهم كباراً مراهقين فشباباً ؟ بل ماذا أصاب الآباء والمربون من تقوى الله ورضوانه حتى يشبعوا صغارهم، ثم يصعدوا بذلك الزاد الطيب إلى مراهقيهم فشبابهم ؟

إن استحضار المراهق عظمة الله تعالى لمواجهة هواه ودحر شيطانه لا يكون إلا بعد ثبات في عقيدته، ويقين في معرفته بالله، وحسن صلة به جل شأنه.

فهل هيأنا معشر المربين أولادنا ومن ولينا بمثل ذلك ؟ أم أن فاقد الشيء لا يعطيه ؟ ومن عجز عن تربية نفسه فهو عن تربية الآخرين أعجز.

وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ (٢٤) [4]

١- سورة التوبة الآية (١٠٩) .

٢- سورة يوسف الآية (٦) .

٣- سورة يوسف الآية (٢٣) .

٤- سورة يوسف الآية (٢٤) .

(وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ) "أي وتاللّه لقد همت المرأة للبطش به لعصيانه أمرها، وهي في نظرها سيدته وهو عبدها، وقد أذلت له نفسها بدعوتها الصريحة إلى نفسها بعد الاحتيال عليه بمراودته عن نفسه، ومن شأن المرأة أن تكون مراوَدَةً عن نفسها لا مراوِدَةً، حتى إن حماة الأنوف من كبراء الرجال ليطأطئون الرءوس لفقيرات حسان ربات جمال، ويبذلون لهن من الجاه والمال، بل إن الملوك ليذلون أنفسهم لمملوكاتهم وأزواجهم، ولكن هذا الفتى العبراني الخارق للطبيعة البشرية في حسنه وجماله، وفي جلاله وكماله قد عكس القضية، وخرق نظام الطبيعة والعوائد بين الجنسين، فأخرج المرأة من طبع أنوثتها في إدلالها وتمنعها، وهبط بالسيدة المالكة من عزة سيادتها وسلطانها، وأذلها لعبدها وخادمها، حتى إنها لتراوده عن نفسه في مخدع دارها، فيصدعنها علواً ونفاراً، ثم تصارحه فيزداد سمواً واستنكاراً، معتصماً باللّه، معتزاً بدينه وأمانته، مترفعاً عن خيانة سيده وسيدها.

إن هذا الاحتقار لا يطاق، ولا علاج لهذا الفاتن المتمرد إلا تذليله، والانتقام منه، هذا ما ثار في نفس المرأة المفتونة، وشرعت في تنفيذه أو كادت، بأن همت بالبطش به في ثورة غضبها، وهو انتقام معهود من مثلها، وممن دونها في كل زمان ومكان وكاد يرد صيالها بمثله وهو قوله تعالى: **وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ** [1].

فكان برهان ربه أن هذا ليس لك بمقام"[٢]

ويكفيك أن تسير مع النسق القرآني لتتابع قصة المراهق الفارّ من الفاحشة، والسيدة المفتونة المصرة على الإثم، المدفوعة بجحيم الشهوة.

١- سورة يوسف الآية (٢٤).

٢- محمد رشيد رضا، تفسير المنار، جـ١٢ ص (٢٧٧- ٢٧٨) بتصرف يسير، مرجع سابق.

وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءاً إِلاَّ أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٥) قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنْ الْكَاذِبِينَ (٢٦) وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنْ الصَّادِقِينَ (٢٧) فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ (٢٨) يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنْ الْخَاطِئِينَ (٢٩) [1]

إن يوسف بريء بإقرار الشاهد، وتصريح الزوج **(يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا)**، أما هي فاتهامها قائم من وجوه **(إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ)**، **(وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنْ الْخَاطِئِينَ)** ثم إقرارها **(أَنَا رَاوَدتُّهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنْ الصَّادِقِينَ)**

وليت الفتنة وقفت بيوسف عند هذا الحد، بل عظم البلاء، وأنى ينتهي وهما يعيشان تحت سقف واحد، والصلة بينهما دائمة؟ بل تخرج من حدود القصر لتملأ أجواء القصور المترفة، وتتناقلها سيدات مصر، وما أسرع ما ينتشر مثل هذا خاصة إذا تولت أفواه النساء إنماءه.

وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبّاً إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلالٍ مُبِينٍ (٣٠) [2]

وبم تكون الإجابة ؟ بتحكيمهن، وهي واثقة أن فيهن مثل ما فيها من الطموح الشهواني أو أشد، فالحديث لا يغني شيئاً، ولا يرد اتهاماً، ولا يقنع امرأة في تأثيم أنثى مثلها، وهي بهن أعلم، فليكن الجواب بإطلاعهن على سبب الفتنة **فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ**

١- سورة يوسف الآيات (٢٥ - ٢٩).

٢- سورة يوسف الآية (٣٠).

مِنْهُنَّ سِكِّيناً وَقَالَتْ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَراً إِنْ هَذَا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ [1]

" أي قلن تعجباً وتنزيهاً لله تعالى أن يكون خلق هذا الشخص العجيب في جماله وعفته من نوع البشر، وهو ما لم يعهد له في الناس مثل، ما هذا إلا ملك من الملائكة تمثل في هذه الصورة البديعة التي تدهش الأبصار، وتخلب الألباب" [2]

يالرحمة الله تعالى !

إنها لم تعد واحدة، بل صرن جمعاً، لقد تهيمن به، حتى جعلن يحززن أيديهن، ولا يعقلن، وذهبت عقولهن مما رأين.

صفوة من النساء، بل من علية نساء مصر، وربات قصورها، وزوجات مصر في أمورها، كلهن يرغبن في يوسف، وتتمنى كل واحدة منهن أن لو فازت به وهو كما هو، ويزيده الله ثباتاً ليظل قدوة لأمثاله ولداته ممن تحيط بهم الفتن، ويجبرون على الفاحشة.

وامرأة العزيز على ما هي فيه، بل زادت، وغاب عقلها، وطفحت شهوتها، واستبد بها سعارها فأعلنت بلا حياء ما حكاه القرآن الكريم:

قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونَ مِنَ الصَّاغِرِينَ [3]

ماذا قال يوسف ، وقد علم أن هذه المرأة الماكرة قد عيل صبرها، وهتكت سترها، وكاشفت نسوة كبار بلدها بما تسر وما تعلن من أمرها، بل تواطأن معها، وراودنه كما راودته، وهو بلاء لا راد له إلا الله، ولا عصمة منه إلا بتوفيقه؟

١- سورة يوسف الآية (٣١) .

٢- محمد رشيد رضا، تفسير المنار، جـ١٢ ص (٢٩٣- ٢٩٤)، مرجع سابق .

٣- سورة يوسف الآية (٣٢) .

لقد قال كما حكى القرآن الكريم:

قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنْ الْجَاهِلِينَ [1]

أرأيت كيف رد الأمر إلى اللّه ؟

لأنه ربي على هذا ونشأ عليه فلم يتحول عنه حتى في مرحلة الضياع، مرحلة المراهقة كما يرى علماء التربية، بل تلك حقيقتها وسمتها الغالبة.

فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ [2]

إن سعار الشهوة الذي جعل الكبار يلهثون وراء النساء يقبلون مواقع أقدامهن، ويلتمسون رضاهن، وفجع البشرية في أكثر مراهقيها، وشبابها، وأفقد كثيرات من المراهقات وقار العفة، وحولهن إلى باحثات عن اللذة، مستميتات في بلوغها يرينا القرآن الكريم كيف يواجه، وكيف يسلم منه أولادنا في مرحلة من أخطر مراحل العمر.

ولو فهم المربون آباء وغيرهم الدرس، ونقلوه مخلصين إلى من يربون من خلال عقيدة سليمة قوامها:

إيمان باللّه تعالى الذي يعلم السر وأخفى، واتقاء لمحارمه، ووقوف صادق عند حدوده، ثم عدل مع النفس، ووفاء بحقوق الآخرين، ولو فعلوا هذا لقرت عيون البشر بنجاة أبنائها وبناتها، وعلوهم على الرذيلة واستمساكهم بالفضيلة التي هي أخص خصائص الفطرة السليمة.

١- سورة يوسف الآية (٣٣).

٢- سورة يوسف الآية (٣٤).

الفصل الرابع :

التربية في مرحلة النضج

الإسلام و الشباب:

الشباب عطاء يثري الحياة، وينفع الأحياء، تدعمه طاقة خلاقة، وفكر مجدد، وقدرات متنوعة، وطموح يأبى الجمود، وتطلع إلى حضارة يرى فيها جهده، وتعرف بها آثاره.

" والإسلام حين يحرص على الشباب في تحقيق أهدافه، فإنما ينشد فيه جيلاً لديه السمات، وفيه المبادئ التي يعتز بها الإسلام مما يجعله قادراً على تحقيق صفة الانتماء للإسلام والالتزام بمبادئه، فترى فيه الحياة جيلاً مسلماً.

إن الشباب بالإسلام شيء، وبغير الإسلام لا شيء.

إن الشباب بالإسلام هو العطاء، وهو الخير، وهو البناء، وهو بغير الإسلام تعاسة وبلاء.

إن الشباب طاقة يسخرها الإسلام في عمارة الكون، بينما يسخرها الآخرون في إهلاك البشرية، ونشر الفساد في الأرض، ونزع الأمن منها.

إن المجتمعات البشرية اليوم مليئة بالشباب، ولكنه شباب فارغ تائه شارد، شباب انعدمت أخلاقه فهو بالأنعام أشبه، بل هم أضل، شباب جندته قوى الشر والطغيان، واحتوته دواعي الهدم والضياع.." [1]

أما الإسلام فإنه يربي الشباب ليكون الإسلام منطلقه في كل ما يأتي أو يذر، ودافعه في توجيه حركة الحياة، وباعثه في العمل على إسعاد البشرية ما استطاع إلى ذلك سبيلاً.

١- فتحي يكن، الشباب والتعبير، ص(١٥- ١٦)، بتصرف، مؤسسة الرسالة، ط١٦، بيروت - لبنان، سنة (١٤١٧هـ - ١٩٩٦م)

وقد أولاه القرآن عناية، وأوقفنا على كثير من قدراته، وضرب أمثلة رائعة ينبغي أن يكون للشباب فيها أسوة حسنة، وفصلت السنة الشريفة ذلك تفصيلاً مما يجعلنا نقول في ثقة إن منهج الإسلام للشباب شامل كامل، صالح لكل زمان ومكان ينظم الطاقات، ويوجه القدرات، ويحرك الجهود إلى أهداف سامية، وغايات نبيلة تتفق وخلافة الإنسان على الأرض ورسالته في الحياة.

مسؤولية الشباب في التربية:

إن مرحلة الشباب تختلف تماماً عن غيرها من المراحل، فالشاب شريك في تربية نفسه بل ينبغي أن يدرك أن العبء الأكبر في التربية يقع على عاتقه، بعد أن اكتملت فيه كل عناصر المربي، وإمكان قيامه بتربية غيره فتربية نفسه أولى وأحق، "فمتى انتهت مرحلة الطفولة، وأنجز الآباء والأمهات وظيفتهم في التربية والإعداد والتوجيه، وبلغ الطفل أشده، ونضج جسمه وعقله، وصار شاباً وفياً، ورجلاً سوياً، توزعت مسؤولية التربية بشأنه، فيبقى القليل على الآباء والأمهات في متابعة مسيرة التربية وتتحمل المدرسة والمعلمون والمجتمع قسطاً، ويتحمل الشاب نفسه القسط الأكبر من المسؤولية أمام الله تعالى، وأمام المجتمع والأمة، لذلك أولى الإسلام الرعاية الكاملة للشباب، وتوجه إليهم مباشرة، وليس عن طريق الوالدين، ليحملهم المسؤولية بأنفسهم، وبين لهم بعض الأحكام الخاصة بهم، وأرشدهم إلى الخير والفضيلة، وأخذ بيدهم إلى مسالك النور وحذرهم من شر الشيطان وشركه، شيطان الإنس والجن، وكشف لهم الثغرات الخطيرة التي تلقي بهم في الانحراف والفساد، وأهمها الغرائز والشهوات" [1]

١- أ.د. محمد الزحيلي، الإسلام وتربية الأطفال والشباب، ص (٧٤)، بتصرف، دار المكتبي، ط١، دمشق – سوريا، سنة (١٤١٨هـ - ١٩٩٨م).

وأهم ما ينبغي أن يشغل به الشباب في التربية العناية بتزكية نفسه عناية تفوق كل عناية، فيدفعها إلى الله دفعاً، ويرغبها في الطاعة، ويرغبها في الصلاح والإصلاح، وينأى بها عن مواطن الشبهات ويلزمها اجتناب المعاصي، إنه إن فعل هذا سلم له دينه، واستقامت على الحق دنياه، وكان من المفلحين.

قال تعالى : **وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (٨) قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا (١٠)** [١]

وليأخذ الشاب من نفسه لنفسه عبرة فإذا كان يعنى بجسمه، ويقدم له من الغذاء ما يصلحه، وييسر له من العلاج والوقاية ما يصونه، فقلبه ونفسه أولى وأحق بذلك، فبصلاحها يكون مؤمناً، وتزكو نفسه، ويعلو عند الله قدره، ولا أدل على عظمة قهر النفس وكسر شوكتها من قوله جل شأنه: **وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنْ الْهَوَى (٤٠) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى (٤١)** [٢]

وقيل: "إن السمع والبصر والشم كالطاقات (أي النوافذ) تنظر منها النفس"[٣]

وبسلامة القلب يكون العبد ربانياً لا يعي غير الحق، ولا يسعى إلا في بلوغه وإعلائه، فما بالك إذا التزم هذا في شبابه.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب"[٤]

١- سورة الشمس الآيات (٧ - ١٠)

٢- سورة النازعات الآيتان (٤٠ – ٤١) .

٣- الإمام النووي، شرح الأربعين النووية، حققه وأكمل شرحه وتعليقاته الشيخ عبد الله الأنصاري، ص (٥٠) إدارة إحياء التراث الإسلامي، بدون ط، الدوحة – قطر، بدون ت.

٤- البخاري (٢٣١/١ فتح) ، ومسلم (١٢٢٠/٣) .

وقيل: "القلب هو الملك فإذا صلح الراعي صلحت الرعية، وإذا فسد فسدت"[1] وصلاحه إنما يكون بحسن تربيته وسلامته من الأمراض الباطنة، كالغل والحقد والحسد والشح والبخل، وغير ذلك وإحلال الآداب السامية والقيم الفاضلة مكانها.

منهج القرآن في تربية الشباب:

١) **العقيدة** وبها يملأ الفراغ، وتسد منافذ الهوى، ويسلم مسار الشباب، وتحكمه تقوى الله تعالى، ودوام مراقبته، فهو يوقن تمام اليقين أن الله معه، (**وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ**) [2]، (**يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ**[3]

إن نضج الفتى أو الفتاة، واكتمال طاقاته الفاعلة، واستعار شهوته، وتوثب نفسه، ورؤيته لها، وحرصه على التفرد والاستقلال، والرغبة الجارفة في التغيير، وغير ذلك من القوى والتطلعات في حاجة إلى من يحكم مسارها، ولا أحد يملك ذلك غير الله تعالى (**عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ** ([4] (**ذَلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ** ([5] ، **هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ** (٢٢) [6] .

فاستشعار رقابته، واستحضار خشيته خير ضابط لسلوك العارف به، الموقن بإحاطته، في السر والعلن، في الخلوة والمخالطة، في النور والظلمة.

إن غياب العقيدة عند غير المسلمين أو المسلمين الذين نسوا الله غابت معه القيم الفاضلة و تعارف الناس على المنكر، وتظاهروا على الفاحشة

١- الإمام النووي، شرح الأربعين النووية، ص (٥٠)، مرجع سابق

٢- سورة الحديد الآية (٤).

٣- سورة غافر الآية (١٩).

٤- سورة الرعد الآية (٩).

٥- سورة السجدة الآية (٦) .

٦- سورة الحشر الآية (٢٢)

وناصروها، فصارت أجسامهم ومجتمعاتهم في عصر الحضارة والرقي مباءة الأمراض الفتاكة، والأوبئة التي لا مرد لها.

ومن هنا كانت العقيدة الأساس الأول في بناء الشباب، والعاصم الأكبر في صياغته، وتوجيهه وإعماله، وما خاف أعداؤنا فينا غير العقيدة، وما زلزل أركانهم إلا قول قائلنا: الله أكبر.

٢) **العبادة**: إن الجانب الروحي فطرة في حياة الإنسان، وما كان مجيء الشرائع به إلا إحياء لهذه الفطرة وتزكية لها (**فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ** (٣٠) [١]

ولا يغطي هذا الجانب الفطري في الإنسان عامة والشباب خاصة سوى العبادة، وهي صلة مباشرة بالله تعالى، تربي العابد على حب الله سبحانه، والإحساس بمعيته، والعمل الدائب الدائم ابتغاء مرضاته، والعبادة تعبير طيب يشمل كل التزام يرضى الله عنه، أو اجتناب نفر الله منه بدءاً بالعقيدة فالفرائض والنوافل، ثم كل عمل أريد به وجه الله تعالى يصلح لنا معاشنا، أو يطيب الله به معادنا.

يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ [٢]

إن العقيدة هي المطلب الأول، وكل ما جاء في ظلالها فهو عبادة، فإذا خرج يطلب مناخاً طيباً لدينه، وإقامة شرائعه، أو كسباً حلالاً يعف به نفسه وأهله، أو طلباً لعلم، أو غير ذلك من المقاصد النبيلة فهي عبادة مبرورة، ولا أدل على كون تقلباتنا الصادقة المخلصة عبادة من قوله جل

١- سورة الروم الآية (٣٠).

٢- سورة العنكبوت الآية (٥٦).

شأنه: **هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ (١٥)**[١]

إن العبادة تتسع لكل حركة أو سكون، أو يقظة أو نوم، أو سعي أو راحة، بل لكل أحوالنا ما اتجهنا بها إلى الله تعالى.

فماذا يكون شبابنا إذا ربوا عليها، وأشربوا حبها، وسخروا لها كل قواهم؟

وليتنا نرى شبابنا ممن قال فيهم الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم: "سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله... (ومنهم) وشاب نشأ في عبادة الله"[٢]

٣) **توجيه الطاقة الجسمية**: في هذه المرحلة تبلغ الطاقة الجسمية أوجها، يتمتع الشباب بقدرات هائلة، وتكون لهم إمكانات خارقة و تلك نعمة من كبريات نعم الله تعالى، إما أن تشكر فتربو ويباركها الله، وإما أن تجحد فتمحق بركتها، وتكون وبالاً على صاحبها، مصداق ذلك قوله تعالى: **وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ (٧)**[٣]

وبها ميز الله الأنبياء والمرسلين، وعباده المصطفين يقول تعالى عن طالوت: **وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكاً قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٢٤٧)**[٤]

فإن أحسنا توجيه هذه الطاقات، وتلك القدرات نحو الخير آتت أكلها بإذن ربها، ونفع الله بها صاحبها، وأفاد بها أمته وأعزها، وصارت

١- سورة الملك الآية (١٥).

٢- رواه البخاري {(٢/٥٨١- ٥٨٣)، (٥/٢٢)، (١٨/١٧٥- ١٧٦)، فتح}، ومسلم (٢/٧١٥).

٣- سورة إبراهيم الآية (٧)

١- سورة البقرة الآية (٢٤٧)

مرحلة الشباب مرحلة بناء، وموسم عطاء، وظهرت آثارها طيبة في سلمنا وجهادنا، وكان لنا ما وعد الله به، وإن أهملت، وحركتها شعارات الباطل ونداءاته الخاسرة كانت بواراً لصاحبها، ودماراً لأمته، بل كانت معاناة الإنسانية التي تعيش في عصر الحضارة كثيراً من آثارها، ولئن أسلمنا شبابنا لمثل تلك الدعوات فقد فرطنا في جنب الله، وأضعنا الأمانة، وكانت عاقبة أمرنا خسراً.

وأنى يكون منا ذلك وأمر الله تعالى قائم فينا؟

اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ (٣) [١]

وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (٤٠) **الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنْ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ** [٢]

وقوله جل شأنه: **وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمْ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ** (٥٥) [٣]

فتربية الشباب على منهج الله صمام أمان يدفع بكامل قواهم، وتامِّ طاقتهم في الخير، ويمسكها عن الشر، ويترفع بها عن الطغيان.

٤) **الارتقاء بتوجهاته النفسية**: "يرافق مرحلة الشباب عدة مظاهر تسيطر على حياة الشاب، وتميزه عن غيره، وهي سلاح ذو حدين، فمن ذلك الكبرياء والغرور، والزهو، وحب الظهور، وحب الاستقلال، والاعتماد على النفس، فيميل أحياناً إلى مخالفة التقاليد، ويحاول الخروج على المجتمع لإبراز شخصيته، وتأكيد وجوده، ولفت النظر إليه، أو يميل إلى ممارسة

١- سورة الأعراف الآية (٣).

٣- سورة الحج الآيتان (٤٠ - ٤١).

٣- سورة الزمر الآية (٥٥).

القوة المادية، مع الضحالة العلمية، والسطحية في معرفة الحقائق" [1]، وهنا تعمل التربية القرآنية عملها فتوجه تلك الطفرات إلى الحق والعدل، وتنأى بها عن الإثم والعدوان.

فالإسلام لا يرضى لشبابه أن يكونوا هملاً، شخصياتهم مفقودة، ووجودهم عدم، وإنما يحب لهم أن يعرفوا بالخير، ويشتهروا بالحق.

وهاك تربية القرآن تهدهد الكبرياء، وتطفئ بواعث الخيلاء، وتوقظ الطموح الطيب الحميد، **(لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ)** [2]

الكبر لا يصنع منك شيئاً آخر، ولا يضاعف من قدرتك، ولا يجمع لك ما يعجز عن جمعه التواضع.

وَلا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحاً إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً [3]

وَلا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحاً إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ [4]

إنما يعليك، ويرشدك، ويقربك من الله، ويحببك إليه التواضع في غير ضعف، وخفض الجناح في غير ذل.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ [5]

١- أ. د. محمد الزحيلي، الإسلام وتربية الأطفال والشباب، ص (٧٧- ٧٨) بتصرف يسير، مرجع سابق.

٣- سورة القصص الآية (٧٦).

٣- سورة الإسراء الآية (٣٧).

٤- سورة لقمان الآية (١٨).

٥- سورة المائدة الآية (٥٤).

ومسك ختام النبوة يقول كما علمه ربه: **قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ** [1]، أي تواضع كهذا؟

٥) **الميل إلى المرح:** قد يسيطر على الشاب اللهو والمرح، ويستهويه المزاح والهزل، فتراه يختلق النكات، ويفتعل المواقف ليثير مخالطيه، ويعرف فيهم بظرفه، وجمال مجلسه، فتبخل به التربية القرآنية أن يورد نفسه مورد الهلاك، ويلبسها الإثم فيما لا طائل تحته غير فقدان شخصيته، وإهدار فكره ووقته، لقد جعل الله تعالى لنا في رسول الله أسوة حسنة **لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً (٢١)** [2]

وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يمزح، ولا يقول إلا حقاً، وفي طليعة صفات المؤمنين الإعراض عن اللغو **قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (١) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ (٢) وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ (٣)** [3].

بل إن عظمة المؤمن في الإعراض عن اللغو **وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ لا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ** [4]

وكرامته في الترفع عنه، ومزايلة أسبابه، وتلك من سمات عباد الرحمن: **وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَاماً** [5]

فعاقل الشباب من يختار عبوديته لله تعالى على عبوديته لهواه ونزواته.

٦) **تطلعات الشباب**: "يتصف الشباب في هذه المرحلة بمجموعة من التطلعات والآمال الكبيرة، والأحلام العريضة، وللشباب حيوية ونشاط، وجموح عقلي متميز، لذلك كانت تلك المرحلة أهم المراحل وأخطرها فكراً

١- سورة فصلت الآية (٦).
٢- سورة الأحزاب الآية (٢١).
٣- سورة المؤمنون الآيات (١ - ٣).
٤- سورة القصص الآية (٥٥).
٥- سورة الفرقان الآية (٧٢).

وتعليماً، فهي مرحلة الجمع والتحصيل العلمي، واكتساب المعارف والخبرات" [1] .

ومن هنا يجب أن يأخذ الشباب أنفسهم بالولاء المطلق لله جل وعلا، ورسوله صلى الله عليه وسلم **وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمْ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ** [2] ، **مَنْ يُطِعْ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً** [3]

وفي ذلك عصمة لشبابنا مما يحيط بهم من فكر حاكه الكفر، ونمقه الحقد والخبث، وزانه الكبر والمكر، واستغل أعداء الإسلام العلم في إحكام صياغة مكرهم، وتنويع عرضه،متجهين إلى عقول الشباب في عصر تعددت فيه الوسائل الخسيسة والرخيصة، من قنوات فضائية وإنترنت، وكتب رخيصة هادمة، وصحافة مأجورة، وكُتَّاب تحركهم أصابع الشيطان تشكيكاً في العقيدة، وجرأة على شرع الله، وتجريحاً ماكراً لسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، وانتقاداً لقيم الإسلام، واتهاماً لمن اعتصموا به بالتخلف، ووصم أسسه ومبادئه المعصومة بالرجعية، لقد افتعلوا قضايا وهمية صاغها المتاجرون السفهاء، واستخفوا بها عقول كثير من الشباب، ونشروا فضائح زعموها حضارة وتطوراً وهم في واقعهم يعانون منها تحت مسمى الحرية، والفصل بين الدين والحياة، ونشر الإلحاد والزندقة، وإشاعة الفكر الشهواني واعتباره حضارة وتقدماً، والديمقراطية المشوهة والعولمة.

والحق أن الشباب المسلم إذا سلم بناؤه، وصلحت تربيته، وبرئ من الهوى لن يجد حقًّا إلا ما أشار إليه القرآن الكريم.

١- أ.د. محمد الزحيلي، الإسلام وتربية الأطفال والشباب، ص (٧٦ - ٧٧)، مرجع سابق

٢- سورة الأحزاب الآية (٣٦) .

٣- سورة النساء الآية (٨٠) .

يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَآمِنُوا خَيْراً لَكُمْ[1]

وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٥٣)[2]

وإذا شب شبابنا على ولاية اللّه للمؤمنين، وامتلاء قلوبهم وعقولهم وحياتهم بنور معرفته، وأدركوا تخطف الشياطين للكافرين، وإحاطتهم بظلمات بعضها فوق بعض لازدادوا استمساكاً بدينهم، واعتصاماً واعتزازاً بشرائعه، وسلامة من كل فكر سواه (**اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنْ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمْ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنْ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ**[3])

وما أكثر طواغيت عصرنا أشخاصاً، وأفكاراً، واختراعات، وانحرافات مما يجعل شباب الإسلام يقول ما علمه القرآن الكريم: **قُلْ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ**[4]

٧) **محاولة الظهور بمستوىً اجتماعي ومادي أعلى**، وذلك مجاراة لزملائه وزميلاته في الجامعة مثلاً مما يعرض الفتى أو الفتاة لافتراس شياطين الإنس، والإسراع بهم إلى هاوية الضياع والدمار.

فالإنسان طموح بفطرته، علوي التطلع بغريزته، لا ينظر إلى من دونه، وإنما تشخص نظراته عند من فاقوه جاهاً أو سلطاناً أو مالاً، فكيف به إذ كان شاباً ألقي في معترك يبرز فيه كل فتىً أو فتاة طاقاته، بل ما يزيد عنها، ويتقن الإعلان عنها في جهالة وغباء؟

١- سورة النساء الآية (١٧٠)

٢- سورة الأنعام الآية (١٥٣)

٣- سورة البقرة الآية (٢٥٧)

٤- سورة الأنعام الآية (٩١)

والشاب نفس فيها الفجور والتقوى مع تلك الغرائز الناضجة المشتعلة، وقد كشف القرآن الكريم تلك الحقيقة، وحذر من التدني إليها، أو الانبهار بشعاعها الكاذب، والتعامي عن حكمة الله في أقداره، وعدله في قضائه، فيقول جل شأنه **وَلا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى** [1]

وضرب لنا مثلاً لاختلال الرغبة حين يبعد الإنسان عن الله، واتزانها حين يعرف الإنسان ربه، ويملأ الإيمان قلبه ويحرك فكره، فيقول القرآن الكريم حاكياً حال قارون مصوراً موقف الضالين، والمهتدين منه: **فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (٧٩) وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً وَلا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الصَّابِرُونَ (٨٠)** [2]

وكان قضاء الله تعالى الذي أحق به الحق وأبطل الباطل **فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنْ الْمُنْتَصِرِينَ** [3]

وأفاق الغافلون، وذكروا الحق جل وعلا الذي خلق السموات والأرض بالحق، وأقام الحياة على الحق، فقالوا كما حكى القرآن عنهم:

وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ [4]

إن على شباب الإسلام فتياناً وفتيات أن يعلموا أن الميزان لا يعلو بسيارة فارهة، أو مظهر أنيق مبالغ فيه، أو بتدافع العظمة الكاذبة من

١- سورة طه الآية (١٣١)

٢- سورة القصص الآيتان (٧٩ - ٨٠)

٣- سورة القصص الآية (٨١).

٤- سورة القصص الآية (٨٢)

أحاديث مختلفة، إنما يفوق الوزن بعطاء تدعمه الصلة باللّه، وتسمو به التقوى.

إن بساطة محمد صلى اللّه عليه وسلم غير المخلة كانت من أسرار عظمته، فآمن به الفقراء الضعفاء، واهتدى بدعوته الأغنياء الأثرياء، وكان لهم جميعاً أسوة حسنة.

٨) **الطاقة الجنسية**: تبلغ تلك الطاقة أوجها، وتستوجب إطفاءها، وتتعالى صيحة الفطرة في اتخاذ زوج[1]، وذرية، ولكن قسوة الحياة، وإسراف البشر، وحمق التقاليد تجعل من ذلك عبئاً ينوء به الذكور والإناث، مما يعطل تحقيق تلك السنة، أو يسوف بها، ومحركات تلك الغريزة ظالمة مسعورة، فعل فيها التطور الآثم فعله، في أفلام، ومسلسلات، بل في عروض وقحة يأباها الطبع السليم، وتنفر منها الفطرة المستقيمة، ناهيك عن الصور، وقد تَعَرَّتْ من كل وقار، وغصت طرقات الناس، وأعمالهم، وأسواقهم بالكاسيات العاريات، المائلات، المميلات بلا حياء ولا حشمة، واستوردنا من الغرب ما نراه يزيد الوجه بتقاسيمه جمالاً، والجسم بمنعطفاته ما يضاعف فتنته وإغراءه، وحبب إلى الشباب التشبه بالنساء، وإلى النساء التشبه بالرجال، حتى إن الناظر ليحار في التفريق بين الذكر والأنثى، وقامت دعاوى الإثم والبهتان، تحت مسميات (الحب، والتعرف، والتحرر) وسالت أقلام الفجرة كذباً يشايع الرذائل، ويحقر الفضائل، ويمجد الفجور، ويسفه العفة.

كل هذا وغيره قد يستهوي من الشباب من عريت من الإسلام تربيته، وقامت في أحضان الشيطان نشأته، أما شباب الإسلام وإن أحاطت بهم النار، فقد اعتصموا باللّه وكتابه (**قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ**

1- الزوج: تطلق على الذكر والأنثى، كما نطق بذلك القرآن .

وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ (٣٠) وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوْ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الإِرْبَةِ مِنْ الرِّجَالِ أَوْ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٣١) [١]

إنه سياج الإسلام يوضحه القرآن الكريم ويفصله، ويضع حدوده، ويأبى تناسياً لها، أو تغافلاً عنها، حتى كان حفظ الفروج من أهم سمات الإيمان بعد أن أغلق الإسلام المنفذ الأقوى في إثارتها بغض البصر.

يقول جل شأنه (**وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (٥) إِلاَّ عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (٦) فَمَنْ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمْ الْعَادُونَ (٧)** [٢]

وانظر أين وضع الإسلام حفظ الفروج، ثم ماذا أعد لحافظي الفروج:

إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيراً وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً [٣]

لقد علم الإسلام شبابه أن المارة به أخته في الإيمان إن كانت مسلمة **(إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ)** [٤]

١- سورة النور الآيتان (٣٠ - ٣١)

٢- سورة المؤمنون الآيات (٥ - ٧)

٣- سورة الأحزاب الآية (٣٥)

٤- سورة الحجرات الآية (١٠)

فأي العقلاء يرضى الفجور بأخته ؟ أو حتى النظرة الآثمة ؟ وهي نسباً عرض لأخٍ مسلم، ولكل إنسان أعراضه، والمعلم المعصوم يحاور العقل، ويثير النخوة يجلس ذلك الشاب الثائر الفائر الراغب في الزنا..

"أتى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فقال: يا رسول اللّه ائذن لي في الزنا، فصاح الناس، فقال: "مه" فقال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم: "أقِروه ادن" فدنا حتى جلس بين يدي رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم، فقال له رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم :

"أتحبه لأمك ؟ " قال: لا، قال: "وكذلك الناس لا يحبونه لأمهاتهم"، "أتحبه لابنتك ؟ " قال: لا، قال: "وكذلك الناس لا يحبونه لبناتهم"، "أتحبه لأختك ؟ " قال: لا، قال: "وكذلك الناس لا يحبونه لأخواتهم"، "أتحبه لعمتك ؟ " قال: لا، قال: "وكذلك الناس لا يحبونه لعماتهم، "أتحبه لخالتك ؟ "قال: لا، قال: "وكذلك الناس لا يحبونه لخالاتهم"، فوضع رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يده على صدره وقال: "اللهم كفِّر ذنبه وطهِّر قلبه وحصِّن فرجه"[1]

هكذا تقوم التربية، وبمثل ذلك يكون بناء الشباب.

وإن كانت غير مسلمة؛ فالمسلم عرض الإسلام وكرامته، فأنى يفضحه أمام كافرة ؟

إن المنفذ الوحيد السليم الذي فرضه اللّه لعباده هو الزواج فإن تقاصرت الإمكانات فالعلاج كما وصف القرآن الكريم:

وَلْيَسْتَعْفِفْ الَّذِينَ لا يَجِدُونَ نِكَاحاً حَتَّى يُغْنِيَهُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ [2]

١- الطبراني، المعجم الكبير (١٦٣/٨)،تحقيق حمدي عبد المجيد السلفي، وزارة الأوقاف والشؤون الدينية، ط٢، بغداد – العراق، سنة (١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م). ورواه أحمد (٢٥٦/٥- ٢٥٧) .

٢- سورة النور الآية (٣٣).

والعبادة خير مسكن لتلك الشهوة حابس لها.. "يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج، فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء" [1]

ذلكم هو الإسلام، وتلك شريعته في نزاهتها، وطهارة الآخذين بها.

٩) **توجيه طاقات الشباب**: مرحلة الشباب أخطر مراحل الإنسان حيث الطاقات المتعددة، والقدرات المتنوعة، فقدرة هائلة في الجسم، ونضج باهر في العقل، وتطلع وطموح في النفس، وميل إلى تكوين حياة اجتماعية جديدة، وغير ذلك من الطاقات والقدرات التي يجب حفظها واستثمارها، وحسن توجيهها، وتقدير آثارها ومعطياتها، وتوفير الجو المناسب لها، واختيار العمل الملائم لقدرات كل شاب، وإعانته على إتقانه تيسيراً للكسب الحلال، وعوناً على افتتاح حياة منتجة مستقرة، وسداً لمنافذ الانحراف، وإحباطاً لكوامن الشر، وصيانة لنعمة تصان ولا تهدر، وتشكر ولا تكفر، ألا وهي تلك الطاقات التي عني القرآن الكريم بها، وحدث عنها، وسجل مواقف لحسن رعايتها، وصادق الاهتمام بها في الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام وعباد الله الصالحين، وما قاموا به من واجب الشكر لها.

فيقول جل شأنه عن ذي القرنين وقد مكن الله تعالى له في الأرض، وزكاه بمعرفة الأسباب الفاعلة: **إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَباً (٨٤) فَأَتْبَعَ سَبَباً (٨٥)** [2]

٣- تقدم تخريجه ص (١٢٤) رقم (٣).

١- سورة الكهف الآيتان (٨٤ - ٨٥)

وهو في وقفاته مع الله يشكر آلاءه، ويستعينه، ويذكر به، ويدعو إليه، يقول القرآن الكريم حاكياً عنه : **قَالَ مَا مَكَّنَنِي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْماً** [1]

وفي نهاية مطافه، وفي تمام العمل واكتماله، يذكر فضل ربه عليه، وأنه جل جلاله الفعال لما يريد، فيقول القرآن حاكياً عنه: **قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقّاً** [٢]

وبعد أن يعدد القرآن الكريم نعم الله تعالى على داود وأهله عليهم السلام يأمرهم بإعمال تلك النعم وشكره جل شأنه، فيقول تعالى:

اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْراً وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ [٣]

وموقف العبد الصالح من موسى بعد سقيه لابنتيه، ثم استدعاؤه فيه اعتراف بطاقاته عبرت عنها ابنته في قولها: **قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنْ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ (٢٦)** [٤]

وقول العبد الصالح توجيهاً لتلك الطاقة، وإشباعاً لحاجة من حاجات الشباب لا بد من إشباعها يقول القرآن الكريم حاكياً عن العبد الصالح: **قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَةَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْراً فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنْ الصَّالِحِينَ (٢٧)** [٥]

وكان جواب موسى عليه السلام فيه ما ينبغي أن يكون عليه الشباب من استجابة إذا أتيحت الفرصة المناسبة، ثم الصدق مع الله، ثم من

١- سورة الكهف الآية (٩٥)
٢- سورة الكهف الآية (٩٨)
٣- سورة سبأ الآية (١٣)
٤- سورة القصص الآية (٢٦)
٥- سورة القصص الآية (٢٧)

ولي العمل، بل مع العمل نفسه يقول القرآن حاكياً عن موسى عليه السلام: ﴿ **قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ** ﴾[1]

ومن هنا ندرك أن الشباب في أي أمة هو القطاع الأهم والأقدر والأحق بملء فراغاته، وتنشيط عطائه، ودعم طموحه، وإعمال كوامن الخير فيه، وإزهاق بواعث الشر، وثغرات الانحراف، وعظمة كل مجتمع إنما تقاس بمدى اهتمامه بالشباب، وتوجيهه لطاقاته، أما إغفال تلك القوى الخارقة للشباب وإهمالها فذلك هو الخسران المبين.

الشباب فيما بينهم:

وإذا كان المجتمع ببيئاته المتعددة مسئولاً عن الشباب فالشباب له دور في توجيه بعضه البعض دفعاً إلى عمل صالح، أو تحذيراً من التردي والسقوط، حيث الطبائع والاستعدادات مختلفة اختلاف القدرات والقوى، وروح الشباب واحدة، وميولهم متكافئة، وإن اختلفت الوسائل، وتفاوتت التوجهات، وهم أقرب إلى بعض، وحديث بعضهم إلى بعض أقرب وأوقع.

فنرى نموذج التعاون على البر والتقوى في التوجهات المؤمنة عند فتية الكهف والتي نقلتهم من الكفر الغامر الذي فيما يرى الناظر العادي لا فكاك منه إلى الإيمان الخالص الصادق، فيقول القرآن الكريم حاكياً عنهم الفرار بدينهم، والاعتصام به فيقول: ﴿ **نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى** ﴾[2]

ثم يحكي استمساكهم بالإيمان، وإقامتهم عليه رغم اجتماع قومهم على الكفر، وشرودهم عن الحق فيقول: ﴿ **وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهاً لَقَدْ قُلْنَا إِذاً شَطَطاً** (١٤) **هَؤُلاءِ قَوْمُنَا**

١- سورة القصص الآية (٢٨)

٢- سورة الكهف الآية (١٣)

اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْلا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً (١٥) [١]

إن تضافر قدرات هؤلاء الشباب، واتحاد منازعهم استبدلهم بالخوف أمناً، وبالاستسلام خروجاً وفراراً بعقيدتهم موقنين أن الله لن يخذلهم، وإن طغى الكفر، وتظاهر الكافرون، فجعلهم الله تعالى مثلاً راشداً للشباب إلى يوم القيامة.

وما كان ذلك الحوار القرآني بين ولدي آدم إلا صراعاً بين الخير والشر، والشكر والجحود في شابين يواجهان شريعة يذعن أحدهما لها، ويثور الآخر عليها، ومع ذلك لا يهمل الراشد النصيحة، ولا يتناسى حق الرحم، ويفعل الشر فعلته، ويعتصم الخير بالله موقناً أن ما عنده خير وأبقى، وتكون أول جناية قتل في تاريخ البشرية يقول ربنا جل وعلا في محكم كتابه حاكياً ذلك : **وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَاناً فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنْ الآخَرِ قَالَ لأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنْ الْمُتَّقِينَ (٢٧) لَئِنْ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (٢٨) إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ (٢٩) فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنْ الْخَاسِرِينَ (٣٠)** [٢]

وهكذا يمثل الشاب الصالح الصادق دور الداعية الجاد الصادق الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر النافر من الشر البريء من العدوان مع شقيقه، رجاء إصلاحه، ولكن إرادة الله تقتضي ما كان لحِكَمٍ يعلمها جل شأنه، وليكونا عظة وعبرة لتصارع الخير والشر في الحياة عامة، وفي الشباب خاصة .

١- سورة الكهف الآيتان (١٤ - ١٥)

٢- سورة المائدة الآيات (٢٧- ٣٠) .

إن سيطرة الشباب بعضهم على بعض أقوى، وتفهم الشاب لأخيه أوفر وأكبر فحبذا لو كان الدعاة منهم، وفيهم الإصلاح.

الشباب والكبار:

إن تعدد طاقات الشباب وتنوع قدراتهم أمر لا شك فيه، لكن التفاعل الطويل مع الحياة والأحياء، والخبرة العملية، والتجربة الواقعية، والإدراك العميق الواعي البصير لا تجده عندهم.

ومراحل الإنسان سلسلة متصلة الحلقات تدعم كل منها سابقتها، وتقوي لاحقتها، فالشباب في أمس الحاجة إلى الكهول والشيوخ، وهم بدورهم ملزمون بالتفاعل مع الشباب، وترشيد جهودهم، وتزويدهم بالخبرات والتجارب، والفكر الناضج المستوي، واحتوائهم بالحكمة، وتحصينهم بها دون استبداد، أو ترفع، وعلى الشباب أن يتقبلوا في حرص، ويتلقوا في تواضع، ويحكم ذلك إيمان بدور كل مرحلة، فلا نميع دور الشباب، ولا نهمل خبرات الشيوخ وتجاربهم وحكمتهم.

والقرآن الكريم يعرض لنا صور القبول والتفاعل من جانب، والرفض والتعالي من جانب آخر.

فموسى عليه السلام حين عرض على الرجل الصالح قصته لم يعدم النصح عنده، بل وجد نفسه أمام قلب ملئ حكمة، وفاض علماً بالحياة، وخبرة، وكان تواضع موسى أكبر عون له على الاستفادة من حكمة هذا الشيخ وخبرته، يقول القرآن الكريم حاكياً: **فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنْ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ** [1]

ثم كان ذلك العرض الذي أشرنا إليه آنفاً، والذي أثمر خيراً بتفاعل الشباب والشيوخ.

١- سورة القصص الآية (٢٥).

أما الجانب النافر الشارد مع حكمة المربي، وصدقه، وإخلاصه، فتمثل في موقف نوح من ولده، وموقف ولده منه:

يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ (٤٢) قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنْ الْمَاءِ قَالَ لا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلاَّ مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنْ الْمُغْرَقِينَ (٤٣)[1]

إن تفاعل المراحل ضروري لا مناص منه، على ألا يكون تنافر أو تعالٍ، وأن تتوفر الإيجابية، ويتحقق الإيمان بدور كل مرحلة وعدم انتقاص أي منها.

1- سورة هود الآيتان (٤٢ - ٤٣).

وخلاصة القول :

- شرعية التقاء الأبوين أرجى للتربية، وهذا ما أخذ به الإسلام، حتى لا تختلط الأنساب، ويكون الولد لأبيه أصلاً وواقعاً.
- الأسرة هي المحضن الطبيعي حيث العاطفة الصادقة، والحنان الفطري، والتضحية النابعة من القلب.
- الرضاعة تغذية وتربية؛ فمن خلالها تغرس المشاعر ويكون التقارب، وتقوى العلاقة الفطرية بين الأصل والفرع، وعزَّ أن يوجد هذا في الرضاعة الصناعية.
- أمومة خالدة، نموذج قرآني للأمومة في كمالها، مع صادق إيمانها بالله، وعظيم ثقتها به.
- الحضانة كما أقرها الإسلام رسالة ينبغي ألا تفوت من عانت، وتحملت المشاق واستودعها الله من العاطفة ما لا يعلم قدره، ويحيط بأسراره، وآثاره إلا الله.
- المهد مرحلة متميزة لها خصائصها، وآثارها التي تلازم المربى، وتظهر في سلوكه حتى آخر مراحل حياته .
- التربية رياضة لا ترويض؛ لأن الإنسان (موضوع التربية) مستخلف في الأرض مكرم من الله تعالى، فلا ينبغي أن نجمع بينه، وبين الحيوان الذي يُروَّض.
- المراهقة مرحلة خطرة من مراحل الإنسان، ولها أهميتها في بنائه، وبها يحكم له، أو عليه .
- مفهوم المراهقة، وخصائصها المميزة لها مدعومة بما يستأنس به لها من كتاب الله عز وجل .

- المنهج القرآني التربوي للمراهق، فيه كمال، وشمول ودقة؛ لأنه صنع اللّه الذي خلق الإنسان، وهو به أعلم .
- نماذج قرآنية لتربية المراهق:
  - وصايا لقمان، وهي جامعة تصلح أن تكون أساساً لتربية سليمة، تنظم علاقة الإنسان باللّه، ونفسه، والخلق، ثم الكون.
  - الذبيح إسماعيل، نموذج للانقياد الصادق للّه، والتزام أوامره، وإن خالفت النفس، وناقضت هواها.
  - محنة يوسف، عفة بالغة، وحصانة من الفتنة رغم استحكامها، وتقطع أسباب التغلب عليها، وفيها يتجلى عون اللّه تعالى للعبد المعتصم به.
- الإسلام والشباب، تقدير إلهي للشباب، وحسن رعاية له، وكريم توجيه له.
- مسؤولية الشباب في التربية، فهو شريك في تربية نفسه مسؤول عن ذلك أمام اللّه، ولذا يتجه الخطاب إليه مباشرة من اللّه تعالى، ورسوله صلى اللّه عليه وسلم .
- منهج القرآن في تربية الشباب منهج قويم يعده لدنيا صالحة مقبلة على اللّه تعالى، وآخرة راضية مرضية .
- الشباب فيما بينهم أقرب إلى بعض، وأعرف بلغة تخاطبهم، وأولى بالتناصح، فليتقاربوا ، وليتناصحوا.
- الشباب والكبار، في الشباب الطاقة، وفي الشيوخ الخبرة والحكمة وتفاعلهما أعون على إقامة حياة ناجحة سليمة.

الباب الثالث:

الإنسان والتربية في ضوء القرآن الكريم

الفصل الأول : التربية بين الإنسان وخالقه.

الفصل الثاني : التربية بين الإنسان ونفسه.

الفصل الثالث : التربية بين الإنسان ومن حوله من البشر.

الفصل الرابع : التربية بين الإنسان والكون.

الفصل الأول :

التربية بين الإنسان وخالقه

الدين فطرة :

والفطرة بذاتها تتجه إلى اللّه، عالمة بوجوده سبحانه، ومؤمنة بأنه إله واحد لا يوجد في الكون كله سواه

لقد خلق اللّه تعالى الإنسان عارفاً به، موحداً له، متجهاً إليه بفطرته شأنه شأن الوجود كله .

وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ (١٧٢) أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ (١٧٣) [1]

إنه الدين الخالص يقر به بنو آدم جميعاً، "فالذرية "المستكنة في ظهور بني آدم في عالم الغيب قبل أن تظهر إلى العالم المشهود تؤخذ في قبضة الخالق المربي، فيسألها: ألست بربكم ؟ فتعترف له سبحانه بالربوبية، وتقر له سبحانه بالعبودية، وتشهد له سبحانه بالوحدانية، وهي منثورة كالذر في قبضة الخالق العظيم" [2]

إنها الفطرة التي فطر اللّه الناس عليها، وأعدهم لحمل أمانتها، وكيفهم للعمل بمقتضاها، وهي منهج اللّه الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وهو العاصم من الأهواء المتفرقة، والشهوات المستبدة، والنزوات الآثمة.

١- سورة الأعراف الآيتان (١٧٢ - ١٧٣)

٢- سيد قطب، في ظلال القرآن، جـ٣ ، ص (١٣٩٢)، مرجع سابق.

فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٣٠) [١]

" وبهذا يربط الله تعالى بين فطرة النفس البشرية وطبيعة هذا الدين، وكلاهما من صنع الله، وكلاهما موافق لناموس الوجود، وكلاهما متناسق مع الآخر في طبيعته واتجاهه، والله الذي خلق القلب البشري هو الذي أنزل إليه هذا الدين، ليحكمه، ويصرفه، ويطب له من المرض، ويقومه من الانحراف، وهو أعلم بمن خلق وهو اللطيف الخبير، والفطرة ثابتة، والدين ثابت، فإذا انحرفت النفوس عن الفطرة لم يردها إليه إلا هذا الدين المتناسق مع الفطرة، فطرة البشر، وفطرة الوجود" [٢]

وليس هذا بعجيب فما الإنسان إلا جزء من هذا الوجود، وهو كله منقاد لله تعالى، مسبح بحمده.

" إن حقيقة التوحيد ليست مركوزة في فطرة الإنسان وحده، ولكنها مركوزة في فطرة هذا الوجود من حوله، وما الفطرة البشرية إلا قطاع من فطرة الوجود كله، موصولة به، غير منقطعة عنه، محكومة بذات الناموس الذي يحكمه، بينما هي تتلقى كذلك أصداءه، وإيقاعاته المعبرة عن تأثره واعترافه بتلك الحقيقة الكونية الكبيرة" [٣]

وهي مع كونها في الإنسان أزلاً هي معه منذ كان نطفة تنمو، وتظهر آثارها في حياته، وهي لا تظل خبيئة حتى يكتمل نضجه، ويحين تكليفه، وإنما يعبر عنها في سن مبكرة في صورة تساؤلات يلقي بها إلى والديه، أو يكاشف بها من يكبره، ويقف علماء التربية أمام هذه التساؤلات موقف الحريص المعد نفسه لاغتنام فرصة مواتية، ويطلبون من

١- سورة الروم الآية (٣٠)

٢- سيد قطب، في ظلال القرآن، جـ٥ ، ص (٢٧٦٦)، مرجع سابق .

٣- سيد قطب، في ظلال القرآن، جـ٥ ، ص (٢٧٦٧)، مرجع سابق .

المربي أن يكون حكيماً في جوابه، لا يضلل هذا الصغير، ولا يوقعه في حيرة، وإنما يشير إلى الحق في إطار يتناسب وإدراك هذا السائل، ويضيف إليه جديداً يتوافق مع قدراته العقلية، ويدعم فطرته، فالصغير يسأل: "من الذي رفع السماء ؟ لماذا كانت السماء زرقاء؟ أين تذهب الشمس في الليل؟ لماذا لا تظهر الشمس لنا في الليل؟ أين يذهب النور حين يأتي الظلام ؟ لماذا تلمع النجوم؟ أين تنتهي الأرض؟ لماذا كانت هذه الزهرة ذات رائحة والزهرة الأخرى ليس لها رائحة من أين جئت ؟ أين كنت قبل أن أجيء؟....إلخ

فما معنى هذه الأسئلة في الحقيقة وما دلالتها؟

إن دلالتها الحقيقية أن فطرة هذا الطفل قد بدأت تستيقظ، بدأت تتعرف على خالق السماوات والأرض من خلال مخلوقاته المشهودة المحسوسة، بدأت رويداً رويداً تتعرف على حقيقة الألوهية التي أشهدها الله عليها منذ خلقها، وبدا إدراكها لها ينمو كما تنمو البذرة الكامنة في باطن الأرض، حتى تترعرع وتخضر" [1]

فهي في حاجة إلى من يغذوها ويمدها بعوامل البقاء السليم الآمن من الآفات، البعيد عن الإهمال والتفريط.

وإذا كان الدين فطرة فصلاح الإنسان فيه، واستقراره لا يكون إلا به، وتفاعله مع الحياة والأحياء لا يكون إلا من خلاله، وأنسب الحالات لدعمه، وآكدها، وأعمقها أثراً في الإنسان في صغره، حين تكون النفس خالية قابلة لكل ما ينقش فيها، ولا يتحقق ذلك إلا في ظلال تربية مؤمنة تربطه بالله، وتنتزعه من كل ما سواه، وتهيئه لطاعته، وتنفره من مخالفته، وترعاه في يقظة وحرص، وتوجهه برحمة وحكمة لتظل الفطرة على استقامتها، والنفس على سلامتها.

١- محمد قطب، ركائز الإيمان، ص (١٠- ١١) بتصرف، مركز الدراسات والإعلام، دار إشبيليا، ط١، الرياض – المملكة العربية السعودية ، سنة (١٤١٧هـ - ١٩٩٧م).

ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٤٠) [١].

عبودية وعبادة:

الصلة بالله تعالى أساس متين، ومنطلق قويم لحياة آهلة بالتوفيق، عامرة بالهدى، مدعومة باليقين، لا يدركها وهن، ولا يكدرها هوىً، ولا يعبث بها زيغ، ولا يعتريها انحراف، ولا تعوقها غفلة، ولأنها حياة الله جل وعلا مصرفها، وهاديها، ووليها، وعاصمها، به وله جل شأنه قامت.

إنها صلة العبد في خضوعه وذلته لله جل جلاله في تفرده وعزته، وسلطانه وعظمته، في قهره وقدرته، تقدست أسماؤه، وتعالت صفاته.

هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ (٢٢) هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٢٣) هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٤) [٢].

صلة المخلوق في ضعفه وفقره وحاجته بالخالق في تفضله وإنعامه وقدرته **إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثاً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٥٤)** [٣]

إنها الصلة بالله **(اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا**

١- سورة يوسف الآية (٤٠) .

٢- سورة الحشر الآيات (٢٢ - ٢٤)

٣- سورة الأعراف الآية (٥٤)

خَلْفَهُمْ وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَلا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ (٢٥٥) [١]

الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى (٢) **وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى** (٣) **وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى** (٤) [٢]

الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنسَانِ مِنْ طِينٍ (٧) [٣]

يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ (١٩) [٤]

والخلق مغمورون في نعم الله لا يستغنون عن رحمته، ولا يخرجون عن سلطانه، ولا يرقون إلا بعبادته، ولا تقوم لهم قائمة إلا بعونه، ولا سلامة لهم إلا بهدايته، ولذا فرض على كل مسلم أن يقرأ في كل ركعة من ركعات صلاته فرضاً أو نفلاً (**بسم الله الرحمن الرحيم** (١) **الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ** (٢) **الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ** (٣) **مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ** (٤) **إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ** (٥) **اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ** (٦) **صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ** (٧) [٥] .

إنها كمال العبودية لله تعالى، وتمام الخضوع له جل شأنه، وصدق الخوف منه، وحسن عبادته، وطلب عونه، ورجاء هدايته.

إنها إقرار بفضله، ويقين بحوله وطوله، واعتصام بحبله، وإسلام الوجه له، والطمع في رضاه، والعمل ابتغاء وجهه، ولا يكون ذلك إلا إذا وعى الإنسان رسالته، وأدرك غايته، إنها العبادة لله تعالى.

١- سورة البقرة الآية (٢٥٥)

٢- سورة الأعلى الآيتان (٢ - ٣)

٣- سورة السجدة الآية (٧)

٤- سورة غافر الآية (١٩)

٥- سورة الفاتحة الآيات (٢- ٧)

وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ (٥٦) مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ (٥٧) إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ (٥٨)[1]

وبالعبادة تستقيم حياة العبد، وتتجلى عبوديته لله رب العالمين، والعبادة أوسع وأشمل من مجرد الشعائر، فما الشعائر في الحقيقة إلا جزء منها، فالتوجه إلى الله تعالى بكل حركة في الضمير، وكل نشاط في الجوارح، وكل تفاعل مع الحياة والأحياء عبادة.

إن انطلاق الإنسان في الحياة طلباً للحلال، واستخراجاً لكنوز الأرض، وانتفاعاً بخيراتها، أو قل إن حركة الضاربين في الأرض يبتغون من فضل الله استجابة لأمره، في بسيط الحرف أو معقدها لهي عبادة من أرقى العبادات.

هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ (١٥)[2]

إن الحركة في طلب الرزق تكليف شأنه شأن أي شعيرة من شعائر الإسلام يفتتح بتوحيده، وتفرده بالإنعام (**هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً**) ومع تيسيره الأسباب لكم حذار أن تشغلكم النعمة عن المنعم، أو تنسوا الله بالأسباب وهو مانحها والمسبب لها (**وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ**) وأتقنوا العمل، وتوجهوا به إلى الله لتلقوه على نور وهدىً (**وَإِلَيْهِ النُّشُورُ**).

وهو جل شأنه مع كل عامل يحصي عليه أعماله، ويكتب له أو عليه ملابسات ذلك العمل ليجده عنده، فيجازيه بها.

١- سورة الذاريات الآيات (٥٦ - ٥٨)

٢- سورة الملك الآية (١٥)

وَقُلْ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (١٠٥) [١] .

إن الإسلام دين ودنيا؛ فاستنبات الفلاح لأرضه، أو متابعة الراعي أنعامه، أو استخراج معدن من المعادن التي تحكم حركة العالم اليوم والتي صار حظ المسلمين فيها تافهاً وإن كانت عطاء أرضهم، أو إقامة مصنع، أو إعمار دار لتربية الأجيال وتعليمهم، أو أداء أي خدمة من الخدمات عبادة إذا اتجهت إلى الله خالصة، وبرئت من كل هوىً، بل جعلها الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم جهاداً فيقول: "العامل إذا استعمل فأخذ الحق ،وأعطى الحق كالمجاهد في سبيل الله حتى يرجع إلى بيته" [٢]

إن حركة الحياة المضبوطة بقانون الله، المنسجمة مع الفطرة، المتجهة إليه سبحانه عبادة، وإلا فكيف تتحقق الخلافة، وأنى يتسنى للإنسان إعمار الأرض على أسس نظيفة يرضاها الله تعالى ويباركها؟.

هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا (٣٩) [٣]

إن الخلافة في الأرض لا تستقيم إلا مع صلة وثيقة بالله الذي خلق الإنسان، وميزه، واستخلفه ..

(وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً) [٤]

ولا يكون ذلك إلا بإيمان يضبط موازين الأخذ من الكون والعطاء له، والتفاعل مع الآخرين، ونفعهم، والانتفاع منهم، والعدل مع النفس، فيجعل منها نفساً فاعلة منقادة لله، مستغرقة في طاعته، لا أمارة بالسوء

١- سورة التوبة الآية (١٠٥)

٢- الطبراني، المعجم الكبير، (٩٥/١)، مرجع سابق .

٣- سورة فاطر الآية (٣٩)

٤- سورة البقرة الآية (٣٠)

فاجرة، فتكون عمارة الأرض بالحق، وعلى الحق، ولا يتأتى ذلك إلا في ظلال معرفة تامة بالله تعالى.

وهاكم وصية صالح عليه السلام لقومه يحكيها لنا القرآن الكريم، ودعوة الأنبياء واحدة لا تفريق بينها .. (**وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُمْ مِنْ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ** (٦١) [1]

إنها الحضارة المعاصرة التي سبق بها الغرب، وبهر بها الشرق، وعاش على فتاتها، بعد أن طرح إسلامه، ولو كان مسلماً حقاً لعلم أن إسلامه دعاه إلى أن يعمل ويسبق، فاليد العليا خير من اليد السفلى.

إنها حضارة الإيمان فهي الحياة بكل صنوفها، وأشكالها مادياً ومعنوياً، وبعد أن غابت الإنسانية عن الله الخالق البارئ المصور وقد بدأت تلك الحضارة بمحمد (ﷺ)، وجعلها الله تعالى لكل معتصم بالله بعده

وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمْ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمْ الْفَاسِقُونَ) [2]

" إن الأمم إذا لم تنتعش برسالات السماء فهي جماهير من موتى القلوب، أو هي ملايين من الجثث الهامدة، وإن حركتها الغرائز السافلة.

١- سورة هود الآية (٦١)

٢- سورة النور الآية (٥٥)

ولذلك يقول الله تعالى: **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ** [1]

والأمم مهما ارتقت من الناحية النظرية أو الصناعية، فإن بعدها عن الله يزن لها من الجرائم ما تنحط به إلى الدرك الأسفل، وما تتعرض به لأوخم العواقب.

ولذلك ورد في الكتاب العزيز:

يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (٣١) وَمَنْ لا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُوْلَئِكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ (٣٢) [3]

وما قيمة عقل يصد عن الله ؟ ويستسيغ ذلك الصدود ؟

وأي خير للناس إذا حرموا السير مع وصايا ربهم وتوجيهاته ؟

إن الوحي الإلهي دواء لعلل، وإسعادُ من نَصَب **وَنُنَزِّلُ مِنْ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلاَّ خَسَاراً (٨٢)** [3]

فمتى يستغني العليل عن الشفاء، والشقي عن الرحمة ؟" [4]

١- سورة الأنفال الآية (٢٤)

٣- سورة الأحقاف الآيتان (٣١- ٣٢)

٣- سورة الإسراء الآية (٨٢)

٤- الشيخ محمد الغزالي، مع الله (دراسات في الدعوة والدعاة)، ص(١٩، ٢٠، ٢٥)، بتصرف، دار القلم، ط٤، دمشق- سوريا، بيروت –لبنان، سنة (١٤٢١هـ- ٢٠٠٠م).

معية الله تعالى:

والمسلم في تفاعله مع الحياة يوقن تمام اليقين أن الخلوة لن تتيسر له، وإن أحاط نفسه بأسوار عالية، وأسقف قوية عازلة، وغلق أبوابه ونوافذه، **وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ** (٤) [١]

وما دام الله معك فالحياء منه واجب، والخشية لازمة، والذين تعروا من الحياء، وحرموا خشية الله تعالى أضل من السوائم. (**وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِنْ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِهَا لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لا يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمْ الْغَافِلُونَ**) [٢]

والمؤمن في طاعته حريص على الإخلاص، جاد في طلب الإحسان رجاء أن يكون ممن قال الله تعالى فيهم **وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ**) [٣]

وتعلقاً بتلك المنزلة السامية التي علمها الرسول (ﷺ) أمته في حديث جبريل عليه السلام، عن عمر رضي الله عنه قال : (أي: جبريل) فأخبرني عن الإحسان قال: "أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك"[٤]

وأي رقابة كتلك الرقابة الجامعة في قوله تعالى:

وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُوداً إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ وَلا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلا أَكْبَرَ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (٦١) [٥]

١- سورة الحديد الآية (٤) .

٢- سورة الأعراف الآية (١٧٩) .

٣- سورة البقرة الآية (١٩٥) .

٤- رواه مسلم (٣٧/١) .

٥- سورة يونس الآية (٦١) .

وإذا كان ربنا وهو العليم الخبير يرى العمل، ويشهده، ويحصيه، ويحاسب عليه فالأجدر بالمؤمن أن يبلغ به ما استطاع من الإتقان، ويودعه من الجهد ما يجعله عملاً صالحاً يجني فاعله ومن حوله ثماره في الدنيا، ويلقى هو جزاء إحسانه في الآخرة.

فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً (١١٠) [1]

إن المجود لعمله، المتظاهر بحسن خدمته مشدوداً بهدف دنيوي، أو حرصاً على إرضاء فلان، أو مراعاة لحضوره على رأسه حين الأداء هو في نظر الإسلام مشرك بعبادة ربه، لأن الأصل في العبادة أن تكون لله، والعمل عبادة، والمؤمن إذا ألف الإحسان غاب الناس أم حضروا، عظم الحافز الدنيوي أم قل تصديقاً بوعد الله، واستجابة لداعي الإيمان جاد عطاؤه، وأحبه الله، وحببه إلى خلقه، وربما كان أسوة لغيره فنال مثل ثواب من تأسوا به "من سن في الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيء"[2]

فإن كان العمل سوءاً كان المؤمن أبعد الناس منه لأن اقتراف الآثام يتنافى مع التقوى وضياع التقوى به فوات خير عظيم .

فلا فلاح لفاقد التقوى

١- سورة الكهف الآية (١١٠)

٢- رواه مسلم (٧٠٥/٢) .

﴿ قُل لَّا يَسْتَوِي ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ ۚ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾ [1]

وفي فقدها حرمان من معية الله:

وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ [2]

وهي فاتحة كل خير فإن جاوزت عبداً أحاط به الشر وأحاطته الفتن، وضاق به الأمر.

وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ [3]

وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْراً [4]

إن فقدانها يقتضي الجهل المطبق الذي يفسد حياة الأفراد والجماعات بكل جوانبها.

وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٢٨٢) [5]

إن فقدانها فجور، والفجور كلمة أكبر من أن يحصى مدلولها، **فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (٨)** [6] وعاقبتها الدمار، انظر إلى تلك الموازنة القرآنية في عرض التقاة والعارين من التقوى

فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى (٥) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى (٦) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى (٧) وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى (٨) وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى (٩) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى (١٠) [7]

٣- سورة المائدة الآية (١٠٠)

١- سورة البقرة الآية (١٩٤)
٢- سورة الطلاق الآيتان (٢ - ٣)
٣- سورة الطلاق الآية (٤)
٤- سورة البقرة الآية (٢٨٢)
٥- سورة الشمس الآية (٨)
٦- سورة الليل الآيات (٥ - ١٠)

إن التقوى خشية اللّه تعالى والحياء منه ، وهو جل شأنه أحق أن يستحيا منه، والحياء خير كله، فكيف يكون من آمن بأن اللّه معه عارياً من الخشية، فارغاً من الحياء فهل نربي أنفسنا وأجيالنا على منهج اللّه وفيه الصلاح والفلاح، أم على منهج الغرب الفار من العقيدة، الجاحد لربه، وفيه الخسار والبوار؟

إن الأثر سيكون عظيماً، والثمر سيكون جنياً إذا ما ربينا أنفسنا وناشئينا على حب اللّه تعالى ورسوله (ﷺ)، وحب الخير للناس، ودفع الشر عنهم.

وغرسنا في نفوسهم حب اللّه تعالى لكل من يطيعه، فيؤدي الصلاة في أوقاتها، ويلتزم الصوم وآدابه، ويتخلق بأحسن الخلق.

كما يحب من يسعى إلى عمله نشيطاً دون بطء أو إهمال، ويخلص في أداء واجبه، متجهاً بذلك إلى اللّه، ونركز في وجدانهم أن اللّه معنا مطلع على سرنا وجهرنا، ويسجل علينا أعمالنا ويجازينا بها.

وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِراً وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً (٤٩)[1]

١- سورة الكهف الآية (٤٩)

الفصل الثاني:

التربية بين الإنسان ونفسه

الإنسان بين المادة والروح:

إن الله تعالى خلق الإنسان من أصلين طاهرين : فأصله الجسمي ماء وطين، وهما طاهران[١]، وأصله الروحي نفخة علوية[٢] وهو (الروح) فتميز في خلقه الجامع بين المادة والروح.

ويشير القرآن الكريم إلى هذين الأصلين الطاهرين في مواضع كثيرة من كتابه العزيز منها قوله تعالى: (**إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِنْ طِينٍ (٧١) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (٧٢)**)[٣] وقد كانت هذه النفخة الروحية الإلهية هي مناط التكريم الذي خص الله به الإنسان (الجسمي والروحي) مناط التكريم الذي خص الله به الإنسان فأنزله منزلة كريمة في الملأ الأعلى عند العوالم الروحية العلوية فهي مكانة أثارت تساؤل الملائكة المقربين، وتطاولت إليها نفوسهم فما أوتوها ، فإن الذي اختار الله تعالى له تلك المكانة العالية خلافة الله في الأرض، وخلقه في أحسن تقويم، وعلَّمَهُ، وجمع فيه بين المادة والروح، وأمر الملائكة بالسجود له هو الإنسان"[٤] :

١- حيث تقوم بالماء الطهارة (من وضوء وغسل) فإذا فقد الماء أو تعذر استعماله أغنى التيمم بالتراب عنهما قال تعالى: (يأيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق وامسحوا .....تشكرون) (سورة المائدة الآية (٦))، وقوله جل شأنه: (وأنزلنا من السماء ماء طهورا) سورة الفرقان الآية (٤٨).

٢- محمد عز الدين توفيق (دليل الأنفس بين القرآن الكريم والعلم الحديث) ،ص(٤٢٩)، دار السلام للطباعة والنشر، ط(٢)، القاهرة – مصر، ١٩٩٨م.

٣- سورة ص الآيتان (٧١ - ٧٢)

٤- د. يوسف القرضاوي، الإيمان والحياة، ص(٦٦)، بتصرف، مكتبة وهبة،ط(٣)، القاهرة – مصر، ١٩٧٣م.

(وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ (٣٠) وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ (٣١) قَالُوا سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٣٢) قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ (٣٣) [1]

وما تمرد إبليس إلا إعلام بكرامة هذا المخلوق، وحقد عليه، وحسد لمكانته، وكراهة لما أوتي، فطوح الغرور بإبليس، وخسف بمكانته الحسد، وكفر بالله، واتخذ موقف العداء الدائم المستمر لآدم وذريته، وجاهر بأول المعاصي، وأقبحها، وأضرها بالحياة والأحياء ألا وهي الحسد يقول ربنا جل وعلا:

فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (٧٣) إِلاَّ إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنْ الْكَافِرِينَ (٧٤) قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَاسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنْ الْعَالِينَ (٧٥) قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ (٧٦) قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ (٧٧) وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ (٧٨) قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (٧٩) قَالَ فَإِنَّكَ مِنْ الْمُنظَرِينَ (٨٠) إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ (٨١) قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢) إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلَصِينَ (٨٣) قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ (٨٤) لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٥) [2]

حاشا لله أن يكون هذا الحوار حول مخلوق تافه، أو أن يزال إبليس من مكانته، ويصب عليه غضب الله، وتحوطه لعنته لذنب صغير وأمام هذا العداء السافر يسّر الله للإنسان سبل الرشاد، وركز فيه معالم الهدى،

١- سورة البقرة الآيتان(٣٠ – ٣٣)

٢- سورة ص الآيات (٧٣ - ٨٥)

وأقر فيه الخير والتقى، وأودعه فطرة سليمة متناسبة في ميولها ونوازعها مع هذه الطهارة التي ميزت أصله: قال تعالى: (**وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ (١٧٢) أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ (١٧٣)** [1]

وقال جل شأنه: **فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٣٠)** [2]

فالإنسان إذا سلمت فطرته، واستقام عليها أمره مالت به إلى الحق، وحببت إليه الخير، ونأت به عن الباطل، وباعدت بينه وبين كل سوء، فهو يعرف ربه، ويركن إليه، وأظهر ما يتجلى ذلك عند الشدة ، وفي نزول البلاء الذي لا مرد له في مقدور الخلق وإن اجتمعوا ، فتراه يتجه بكليته إلى من أقرت له بالربوبية فطرته ينشد الفرج، ويأمل رفع البلاء وإن عقد الكفر لسانه، فظاهره وباطنه يذعن بذلك، ويقر به، قال تعالى: **هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (٢٢)** [3]

ودعم الله الفطرة بإرسال الرسل وأيدهم بالوحي قال تعالى: **إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُوراً (١٦٣) وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلاً لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيماً**

١- سورة الأعراف الآيتان (١٧٢ - ١٧٣)

٢- سورة الروم الآية (٣٠)

٣- سورة يونس الآية (٢٢)

(١٦٤) رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لأَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً (١٦٥) [١]

وتوالت عليه فيوضات رحمته تبصره بالخير ليلتزمه، وبالشر ليجتنبه، وترغبه في الطاعة، وتنفره من المعصية، وتذكره بمرجعه إلى الله، وسؤاله، وما أعد له من ثواب أو عقاب وهكذا كان الإنسان "محور الوجود كله، وهو سيد هذا الكون: فكل شيء في هذا الوجود مسخر له، قال تعالى: **هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٢٩)** [٢]

وقال تعالى: **وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (١٣)** [٣]

والديانات كلها جاءت من أجله، والوحي السماوي كله قد اتجه بالخطاب إليه. والقرآن الكريم كله يدور حوله، فكل ما في القرآن الكريم إما حديث عن الإنسان أو حديث إلى الإنسان، أم عن شيء يتعلق به بأي شكل من الأشكال"[٤]، وكرمه،ومكن له في الأرض وتفضل عليه، وفضله، قال تعالى **وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنْ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً (٧٠)** [٥] فإن سبق له من الله الهدى، واستجاب لداعي الإيمان، فسلم من الهوى قلبه، وبرئت من السوء نفسه، وسارع في الخيرات، وطهر من الآثام ظاهره وباطنه ملأت إشراقات

١- سورة النساء الآيات (١٦٣- ١٦٥)

٣- سورة البقرة الآية (٢٩)

٣- سورة الجاثية الآية (١٣)

٤- د. محمود حمدي زقزوق، الإنسان في التصور الإسلامي،ص(٥)، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، العدد ٧٣، ط(٢)، القاهرة – مصر، ٢٠٠١م

٥- سورة الإسراء الآية (٧٠)

الروح حياته، فتسعده، وتسعد به من حوله، وكان مثله كما قال ربنا:

(أَوَمَنْ كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٢٢) [١]

وطاب وطابت حياته الدنيا، ورفع الله ذكره في الآخرة **مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ (١٥)** [٢]

أما إذا تخطفه أعداؤه، (الشيطان) وقد حذره الله منه **يَا بَنِي آدَمَ لا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ (٢٧)** [٣]

وقال جل شأنه: **(إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوّاً إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ (٦)** [٤]

أو غلبه هواه فكان كما قال ربنا جل شأنه:

أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلا تَذَكَّرُونَ (٢٣) [٥]

أو غرته دنياه، وقد عرفنا الله بها، وحذرنا منها فقال جل شأنه:

يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ (٥) [٦]

١- سورة الأنعام الآية (١٢٢)
٢- سورة الجاثية الآية (١٥)
٣- سورة الأعراف الآية (٢٧)
٤- سورة فاطر الآية (٦)
٥- سورة الجاثية الآية (٢٣)
٦- سورة فاطر الآية (٥)

وكانت الطامة، أتبع نفسه هواها فاستمرأت السوء فكان كما قال ربنا جل وعلا حكاية عن امرأة العزيز: **وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ** (٥٣) [١]

ولكن رحمة الله تعالى التي وسعت كل شيء لا تزال بالعبد ما استهدف الإصلاح، وأناب إلى ربه، وطمع في عفوه، فأصلح مساره، وقوم سلوكه، وأحسن التوجه إلى الله تعالى، والنفس مسرح هذا كله، وبها يكون الترقي، ومنها يكون التسفل والتردي " لقد سما الإسلام بالإنسان، فاعترف به كله، روحه وجسده، عقله وقلبه، إرادته ووجدانه، غرائزه الهابطة، وأشواقه الصاعدة، لم يضع في عنقه غلاً، ولا في رجله قيداً، ولم يحرم عليه طيباً، ولم يغلق في وجهه باب خير، ولم يدعه للمتاجرين بالدين يتلاعبون به، بل خاطبه مباشراً"[٢]

يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ (٦) **الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ** (٧) **فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ** (٨) [٣]

يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلاقِيهِ (٦) [٤]

لقد جعل الله تعالى مصير الإنسان بيده، وجعل له خياراً في أمره حتى فيما يتعلق بصلته بربه جل وعلا **وَقُلْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَاراً أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقاً** (٢٩) [٥] فهو وحده الذي يستطيع أن يقرر مصيره بنفسه، واقتضت رحمة العلي الأعلى أن ييسر لهذا

١- سورة يوسف الآية (٥٣)

٢- د. يوسف القرضاوي، الإيمان والحياة، ص (٦٨)، مرجع سابق.

٣- سورة الانفطار الآيات (٦ - ٨)

٤- سورة الانشقاق الآية (٧)

٥- سورة الكهف الآية (٢٩)

المخلوق المكرم المستخلف في الأرض سبل الهداية، وطرائق مواجهة النفس، فعلمه ورشده، فقال جل شأنه:

وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (٨) قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا (١٠) [1]

٥- سورة الشمس الآيات (٧ - ١٠)

القرآن الكريم والنفس:

النفس البشرية سر من أسرار الله، وآية من آياته حارت فيها العقول، ووقف أمامها العلماء، وخاض فيها الفلاسفة والمفكرون على مر العصور قديمها وحديثها، وحظيت في العصر الحديث بجهود كبيرة "واهتمت المدنية الحديثة بذلك العلم اهتماماً بالغاً، وتجرد له علماء، وأنشئت له المعاهد، ووضعت النظريات، وألفت الكتب، حتى إذا ظن الناس أنهم وصلوا إلى معرفة النفس وفهم أسرارها وعقدها ومساربها، تبين لهم أن هذه النظريات، والآراء مازالت محاولات في أول الطريق، لم تصل بعد إلى المعرفة الصحيحة للنفس، ولا إلى درجة الحقائق العلمية الثابتة، ومعرفة النفس البشرية ضرورة لازمة لأية دعوة تخاطب هذه النفس، ولأي منهج يهدف إلى تربيتها، ولأي تشريع أو نظام يريد أن يقومها، وأي جهد في هذا السبيل بغير هذه المعرفة جهد ضائع، لأنه بني على جهل وأسس على ظن وشك.

ومنهج القرآن في التوجه إلى النفس متميز في طريقته، محيط بخصائصها، لا يتطرق إليه شك فيما يعرض من أحوالها، ولا فيما يراد منها أو لها، لأنه منهج العليم بأسرارها، الخبير بما يفسدها أو يزكيها، المطلع على مواطن القوة والضعف فيها[1]، ... **وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوْ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (١٣) أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١٤)**[2]

وكان شأن ذلك المنهج القويم في الحديث عنها، أو التوجه إليها علياً علو القرآن الكريم، يؤخذ منه، ولا يحاط به، ويتدبر فيه مع التسليم المطلق بكماله، وعجز العقول وإن اجتمعت عن الوقوف على حكمه وأسراره إلا بمقدار ما يسَّر الله تعالى لها، "ولم يفصل القرآن في تناوله للطبيعة الإنسانية بين ما هو جسمي وما هو نفسي فحين أطلق القرآن

١- محمد شديد، منهج القرآن في التربية، ص (٥٩ - ٦٠) بتصرف يسير، مرجع سابق.

٢- سورة الملك الآيتان(١٣- ١٤)

الكريم لفظ النفس، أكد في هذا الإطلاق على أنها هي والجسم مظهران لشيء واحد هو الإنسان قال تعالى: **وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ** (١٠٠) [١]

وقال سبحانه: **وَاتَّقُوا يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ** (٢٨١) [٢]

وقال جل شأنه: **يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ** (١١١) [٣] .

فلفظ (النفس) في الآيات الكريمة دل على الإنسان ككل أو الذات الإنسانية بعامة بعنصريها المادي والمعنوي. فالإيمان وجزاء الأعمال والمجادلة للسعي في الخلاص بالأعذار، كل ذلك نشاط كلي للإنسان باعتباره وحدة جسمية ونفسية متكاملة لا تتجزأ"[٤] وفي الحقيقة " ليس هناك نشاط جسمي خالص وليس هناك نشاط نفسي خالص، فكل نشاط جسمي يصحبه نشاط نفسي، ويرتبط به ارتباطاً وثيقاً، وكل نشاط نفسي هو في الوقت نفسه نشاط جسمي، وبعبارة أخرى: الإنسان حين يتأثر بالمؤثرات المختلفة فيستجيب لها لا تكون استجابته بجسمه فقط، ولا بنفسه فقط وإنما يستجيب لها ويتفاعل معها متأثراً بها، ومؤثراً فيها بأجمعه، أي بجسمه ونفسه في آنٍ واحد"[٥] .

١- سورة يونس الآية (١٠٠)

٢- سورة البقرة الآية (٢٨١)

٣- سورة النحل الآية (١١١)

٤- د. حسن إبراهيم عبد العال، مقدمة في فلسفة التربية الإسلامية – التربية والطبيعة الإنسانية،ص(٢٥١) دار عالم الكتب للنشر والتوزيع،الرياض- المملكة العربية السعودية، سنة (١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م).

٥- أحمد عزت راجح، أصول النفس، ص (٢٦) ، نقلاً عن د. حسن إبراهيم عبد العال،مقدمة في فلسفة التربية الإسلامية، ص (٢٥٢) بتصرف.

وبالتأمل الواعي البصير تتضح للباحث دقة هذا المنهج، وتفرده، ويقينه، وإصابته الهدف في إعجاز بليغ "فقد يبدو للإنسان أن الخوف مثلاً هو مظهر من مظاهر النفس في قوله تعالى : **فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى (٦٧) قُلْنَا لا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الأَعْلَى (٦٨)** [١] أو الحسد وهو مظهر من مظاهر النفس في قوله تعالى :

(وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسَداً مِنْ عِنْدِ أَنفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٠٩) [٢] أو الكبر وهو أيضاً مظهر من مظاهر النفس في قوله تعالى: **وَقَالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدْ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوّاً كَبِيراً (٢١)** [٣] .

وقد يبدو للإنسان أن هذه المظاهر وغيرها قد ارتبط بالنفس في القرآن الكريم كظواهر نفسية تخص النفس دون الجسم، غير أنه بالتأمل يرى أن هذه الظواهر تصدر عن الإنسان ككل لأنها في حقيقتها ذات أساس بيولوجي. وهي دائماً ما تكون مصحوبة بتغيرات جسمية وتوترات عضلية وغير ذلك من المظاهر . والتعبير عنها بظواهر نفسية إنما يكون من قبيل إطلاق الجانب الظاهر على غيره من الجوانب".[٤]

"وربما استدعانا كثرة ورود لفظ النفس في القرآن الكريم ودلالتها على الإنسان ككل إلى أن نقف على تقدير القرآن الكريم للجانب النفسي من سلوك الإنسان، وعلى المجالات التي تظهر فيها الحياة النفسية، وعلى قيمة الخبرة النفسية لهذا الإنسان الذي يستطيع أن يخلق لنفسه واقعاً

١- سورة طه الآيتان (٦٧- ٦٨)

٣- سورة البقرة الآية (١٠٩)

٣- سورة الفرقان الآية (٢١)

٤- د. حسن إبراهيم عبد العال،مقدمة في فلسفة التربية الإسلامية، ص (٢٥٢)، مرجع سابق

فكرياً بعيداً عن الحياة بعناصرها المادية، وهذه خاصية تميز الإنسان من غيره من الحيوان"[1] "فالجانب النفسي في حياة الحيوان ضيق إن لم يكن معدوماً. وإذا صادفتنا في الحيوان مظاهر نفسية أولية كالاستجابة للرعاية أو الإحباط. فلا شك أننا سنجد في تلك المظاهر صفة الوقتية والعيانية، بعبارة أخرى: الجانب النفسي في حياة الحيوان يعتبر قاصراً على مجالات ضيقة ولا يتعدى تلك المجالات ويلتزم بالزمان والمكان اللذين يتحقق فيهما المجال، أما الإنسان فحياته النفسية عريضة وقابلة لأن تظهر في أي مجال من مجالات نشاطه وأن تبقى على قوتها. بل وتنتقل من مجال لآخر حسب قوانين معلومة" وهذا ما حدا بالبعض إلى أن يعرف الإنسان بأنه " الكائن الذي يعيش عالماً من الخبرة النفسية دون الحيوية، ويستطيع أن يمارس الحياة النفسية بعيداً عن أصلها الحيوي"[2]

وتأتي النفس في القرآن الكريم دالة على معانٍ شتى، وقوىً متنوعة، مما يدعو المؤمن إلى الوقوف مع معطيات الآيات، والتدبر فيها، والتزود منها بما يقيم على الحق باطنه، ويصلح ظاهره، فتأتي مرادفة للقوة التي تشعر بالمشقة والتعب قال تعالى: **وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلاَّ بِشِقِّ الأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ** (٧)[3]

أو تأتي مرادفة للقوة التي تشعر بالحرج وينزل بها الضيق، فتهرع إلى الله تعالى طالبة العون، راجية الهدى، فتتسع لها رحمته، قال تعالى: **فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً** (٦٥)[4] وقال تعالى: **حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمْ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ**

١- نفس المرجع السابق، والصفحة.

٢- أحمد فائق ومحمود عبد القادر، مدخل إلى علم النفس العام،ص(١٢٣)، مكتبة الأنجلو المصرية، بدون ت

٣- سورة النحل الآية (٧)

٤- سورة النساء الآية (٦٥)

وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لا مَلْجَأَ مِنْ اللَّهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١١٨) [١]

أو تأتي مرادفة للقوة التي يطلب منها الصبر وعدم الضجر في مواجهة المواقف المختلفة، قال تعالى: **وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً** (٢٨) [٢]

كما توصف بالإخلاص، وحسن التوجه إلى الله تعالى بالعمل، مدعومة بصفة الثبات والتثبيت، قال تعالى: **وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ وَتَثْبِيتاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ** (٢٦٥) [٣]

أو تلك القوى التي يغلبها الهوى، ويعصف بها التخبط، مما يستدعي أن تردع وتزجر وترد إلى الحق الذي شردت عنه. قال تعالى: **إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ الْهُدَى** (٢٣) [٤]

وهي المدركة العالمة بالحق المتيقنة من سلامة مصدرة، ومع ذلك تنحرف عن الهدى كبراً وعلواً.. قال تعالى: **وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ** (١٤) [٥]

١- سورة التوبة الآية (١١٨)
٢- سورة الكهف الآية (٢٨)
٣- سورة البقرة الآية (٢٦٥)
٤- سورة النجم الآية (٢٣)
٥- سورة النمل الآية (١٤)

وهي كما تدرك وتعلم تصاب بالجهل فيما لم تؤهل للعلم به.

قال تعالى: **وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَداً وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ** (٣٤) [١]

وهي القادرة على إخفاء انفعالاتها ومشاعرها. قال تعالى:

يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنْ الأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمْ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (١٥٤) [٢]

وهي التي تنهي عن الهوى فتستجيب فيحسن الله مثوبتها. **وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنْ الْهَوَى** (٤٠) **فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى** (٤١) [٣]

وقد تأتي مرادفة للقوة التي يلحقها النوم، قال تعالى: **اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ** (٤٢) [٤]

كما تأتي مرادفة للقوة التي يلحقها الوفاة وتذوق الموت. قال تعالى: **(كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ** (٥٧) [٥]

وتأتي النفس في القرآن الكريم باعتبارها مريدة وفاعلة وكاسبة لهذه الأعمال قال تعالى **إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى** (١٥) [٦] و قال تعالى: **لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ** (٥١) [٧]

١- سورة لقمان الآية (٣٤)

٢- سورة آل عمران الآية (١٥٤)

٣- سورة النازعات الآيتان (٤٠- ٤١)

٤- سورة الزمر الآية (٤٢)

٥- سورة العنكبوت الآية (٥٧)

٦- سورة طه الآية (١٥)

٧- سورة إبراهيم الآية (٥١)

وهي المنعمة بالجنة، المدركة ما تشتهي، السعيدة بما أعد الله تعالى لعباده الصالحين.

قال تعالى: **وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ** (٣١)[1]

تباين النفوس:

وتختلف النفوس اختلاف عطاء الله لها، وتوفيقه إياها، وأظهر ما يكون ذلك في مدى تعلقها بالله، وانشغالها به عمن سواه، ومدى إقبالها على طاعته، وتلذذها في إتيان ما أمر، وبعدها عن معصيته، واجتنابها لما نهى عنه، ومدى خشيتها لله، ومراقبتها له، وإنابتها إليه، واستغفارها إياه، ورجائها مغفرته، وبكائها على التفريط في جنبه، فإذا غلبها ضعفها فزلت، أو عبث بها هواها فحادت عن الصراط المستقيم انكشف معدنها، وعرف قدرها، بتحديد موقفها مما جنت، وإحساسها بما أساءت.

وحديث القرآن الكريم عن النفوس كشف عن تعدد نعوتها، وتنوع صفاتها، وما كان ذلك إلا لتباين انقيادها لبارئها، واختلاف وقوفها عند أمره، وفرارها مما عنه نهى.

فشتان بين نفس سكنت تحت الأمر الإلهي، واستقامت عليه، وزايلها الاضطراب بمعارضة الشهوات، وثبتت في مواجهتها، ولم يجد الشيطان إليها سبيلاً، فاطمأنت إلى وعد ربها، وآثرت رضاه، وكان هواها تبعاً لما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم راجية رحمة ربها طامعة في ثوابه، وجلة من غضبه وعقابه، فتلك هي النفس المطمئنة الراضية عن الله، المرضية منه جل شأنه، التي شرفت بصدق العبودية، وحظيت بحسن المثوبة.

قال تعالى: **يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (٢٧) ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً**

٥- سورة فصلت الآية (٣١)

(٢٨) فَادْخُلِي فِي عِبَادِي (٢٩) وَادْخُلِي جَنَّتِي (٣٠) [١]

وهناك النفس التي تقهر الشيطان تارة، ويغلبها أخرى، وتعف عن الشهوات، وتنزه ساحتها منها مرات، وتتردى فيها مرة، ولكنها إن حادت رجعت، وإن مالت فرَّتْ إلى ربها، معترفة بقصورها، مسرفة في عتاب نفسها، جادة في لوم صاحبها، بكاءة على خطئها، صادقة في توبتها ورجوعها، فتلك هي النفس اللوامة التي أقسم الله بها في قوله تعالى: **وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ (٢)** [٢]

أما تلك التي استعبدها الهوى، وملكها الشيطان، وأغرقتها الشهوات، وأسلمت قيادها للنزوات، واستهوتها ظلمة المعاصي فهذه هي الأمارة بالسوء، قال تعالى حكاية عن امرأة العزيز[٣]: **وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ (٥٣)** [٤]

"لما فيها من دواعي الشهوات الجسمية، والأهواء النفسية، وبما ركب فيها من القوى والآلات لتحصيل اللذات، وما يوسوسه الشيطان، ويزينه لها من النزعات"[٥]

١- سورة الفجر الآيات (٢٧ - ٣٠)

٢- سورة القيامة الآية (٢)

٣- " وأرجح هذا القول لأن سياق الآيات في هذا الموضع من كلام امرأة العزيز بحضرة الملك، ولم يكن يوسف عليه السلام عندهم، بل بعد ذلك أحضره الملك" ابن كثير ج٢ ص (٤٨٢) واقرأ الآيات في صفاء قلب وإشراق روح **(قَالَتْ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ (٥١) ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ (٥٢) وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ (٥٣)** فأين يوسف من هذا القول وقد حكى القرآن الكريم قول الملك فيما بعد(**وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي**) وهذا القول هو الأليق بعفة يوسف وكرامته، وعصمته، وقد رجحه شيخ الإسلام ابن تيمة في الفتاوى ج(١٥) ص (٣٠ / ١٥٦) وتفسير ابن كثير، والماوردي، والمراغي، وفي الظلال ، والمنار، والله أعلى وأعلم.

٤- سورة يوسف الآية (٥٣)

٥- المراغي، تفسير المراغي، جـ٥ ص (٤)، مرجع سابق.

"وهذه أحوال تعتري النفس أكثر منها درجات تنزل النفس فيها بالتوالي، فمهما بلغت تزكية العبد لنفسه، فإنها تأمره بالسوء أحياناً، إذا غلبتها وساوس الشيطان، وتلومه عليه أخرى وتطمئن إلى العمل الصالح أحياناً، وتنفر منه أخرى.

نعم إن بعض هذه الأحوال أغلب في بعض النفوس منها في البعض الآخر، لكنها جميعاً أحوال لا تنفك عن النفس دائماً، وهمة العبد في تزكية نفسه إنما تتعلق بمجاهدتها حتى تكون في أغلب أحوالها زكية مطمئنة راضية." [1]

وإذا كانت النفس طيبة الأصل، صافية المنشأ، سليمة الفطرة، مشدودة إلى عهد الله وميثاقه فما عساها تفعل في مواجهة الأعراف الفاسدة، والتقاليد الضالة، وأحوال البيئة في بعدها عن الحق، واحتكامها إلى الهوى، ورجوعها إلى القوة واستهزائها بالضعف والضعفاء ونكرانها الأمانة، وأعلاها التوحيد، وشيوع المنكر فيها، وسيطرة الإثم والعدوان، وغير ذلك من نوازع الفساد، ودوافع الانحراف؟

أتظل قائمة على الحق فتقدس الأمانة بفطرتها، وترعى الحقوق بغريزتها، وتستقيم على ما برأها الله عليه دون إفراط أو تفريط؟

أم تراها تتحول فتنسى، وتغفل فتلهو، وتحوطها الشهوات فتستخف بالعهد، وتتجاهل الميثاق، وتقدم عليه نزواتها، وتضحى به في سبيل رغباتها؟ عن عياض بن حمار قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يقول الله إني خلقت عبادي حنفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم، وحرمتْ عليهم ما أحللتُ لهم" [2]

١- محمد عز الدين توفيق، دليل الأنفس بين القرآن الكريم والعلم الحديث ، ص (٤٣٢) ، مرجع سابق.

٢- رواه مسلم (٢١٩٧/٤).

وفي وقت كانت فيه الإنسانية أحوج ما تكون إلى الذرية لإعمار الأرض والنهوض بأعباء الخلافة، وقد قضت إرادة الله أزلاً أن يمتحن بنو آدم فيما أسبغ الله عليهم من نعمة، كما جرى القدر ألا يكونوا أمة واحدة، بل لا بد من التباين، وقد بدأ نظام الحياة يستكمل حينما تهيأت حواء لتستقبل أولادها، فتأنس بهم، وتسعد، وتقر عين آدم بمن يكونون عمار الأرض وزينتها، وكانت حواء تلد توأماً (ذكراً وأنثى) في كل حمل، فوضعت توأمين: قابيل وأخته، وهابيل وأخته، وقضت حكمة الله أن يزوج آدم كل فتىً من فتية توأم أخيه، وكانت توأم قابيل فائقة الجمال، وهي بشرع الله لهابيل، وكانت جميلة وضيئة بينما كانت توأم هابيل قبيحة دميمة، وهي لقابيل، وأسر آدم بمكنون صدره إلى ولديه، فثارت ثائرة قابيل، وغلبه الحرص والطمع، وترخص لشهواته، وانفلت من عقله زمام هواه، فحسد أخاه، ولم ينزل على حكم الله ، ورأى نفسه أحق بأخته[1].

"وقد كان الجمال الخلقي ومازال ريحاً هوجاء تتقاذف النفس البشرية، وقد توردها موارد الحتف والهلاك"[2] وقدم كل منهما قرباناً، لعل الله تعالى يجعل للأسرة الأولى مخرجاً مما عصف بها، فتقبل الله قربان هابيل، ورد على قابيل قربانه فجمحت نفسه، وتأججت ثورته، واشتغل حقده، فعمي عن أمر الله وجحد حق والده، وما كان رفيقاً بأمه "ولم تكن آصرة الأخوة شفيعة أمام ذلك الحقد المشتعل في صدر قابيل، ولم يكن مبعث الحنو والرحمة والعطف ليهدئ من ثورة هذا البركان الثائر،

١- الغريب أن نكاح المحارم دعوة تملأ الآن أوربا وأمريكا، وتعقد من أجل إحلالها لقاءات، ويروج لها بعض مفكرات الغرب ومفكريه مدعين أن قيام علاقة جنسية بين الأخ والأخت، أو الابن والأم ، أو الأب وابنته فيها دفء الأسرة واستقرارها، وهي في نظرهم وقاية للمجتمع من سعار الجنس وجحيمه، أو على الأقل تحجيم له، فهل كان قابيل داعيتها الأول؟

٢- محمد أحمد جاد المولى، قصص القرآن، دار الإيمان ،ص(١١)، ط٣ ، دمشق – سوريا ، بيروت – لبنان ، ١٩٨٤م

ولم تكن مخافة الله، ولا رعاية حقوق الأبوين رادعة لتلك النفس"[1] المتمردة، الأمارة بالسوء، وانطلقت اليد الآثمة لتقطع الرحم، ولترسي دعائم الحسد في قلوب البشر، ولتقتل نفساً بغير نفس، وشاء الله أن يكون القتيل مثلا أعلى لتزكية النفس، واطمئنانها إلى وعد الله، ورضاها عنه وبه.

ولا أجد أروع ولا أعظم ولا أبلغ من القرآن الكريم في تسجيل ذلك الحوار الخالد!

قال تعالى: **وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَاناً فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنْ الآخَرِ قَالَ لأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنْ الْمُتَّقِينَ (٢٧) لَئِنْ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (٢٨) إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ (٢٩) فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنْ الْخَاسِرِينَ (٣٠)** [2]

فنحن أمام نفسين قريبتي عهد باستخلاف آدم في الأرض، وسجود الملائكة له، وهو أبوهما المباشر، ونشأتهما بين يديه وتربيتهما على عينه، ولكن شتان بينهما فنفس هابيل مثل أعلى اتصالاً بالله، وصدقاً معه، وبراً بالوالدين، وصلة رحم، وفي المقابل شيطان لا عهد له ولا ذمة ثائر على الله وحكمه، طارح والديه وراء ظهره، قاطع رحمه، مؤثر شهوته على شرع الله تعالى ليكون مثل سوء أول للبشرية فهو أول عاقٍ وقاطع، وأول حاسد وقاتل، فلا عجب أن يكون من الأخسرين أعمالاً، الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً.

والنفس التي ثارت على منهج الله، وأبت إلا أن تلتزم غير شرعة ليس لها من الله إلا المهانة، فحين ضاق بجثة أخيه، ولا عهد له بموت ولا دفن يختار الله له معلماً يتناسب مع علوه واستكباره، وإيثار هواه على حكم

٣- نفس المرجع السابق، ص(١٣).

١- سورة المائدة الآيات (٢٧ - ٣٠)

اللّه تعالى : (**فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَاباً يَبْحَثُ فِي الأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْأَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْأَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنْ النَّادِمِينَ** (٣١) [١]

ويتوالى العطاء القرآني ليزداد الذين آمنوا إيمانا وقد مر بنا الحديث عن بائع نفسه للّه في يقين لم يسبقه إليه غيره، وباسط عنقه تحت سكين أبيه أبي الأنبياء إبراهيم عليهما السلام استجابة لأمر اللّه تعالى، وتصديقا بوحيه تعالى إلى أبيه: **قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنْ الصَّابِرِينَ** (١٠٢) [٢]

وجاءت خاتمة الأمم، وجاءت فيها نفوس لا يقدرها حق قدرها إلا من برأها واصطفاها، فعقدوا بينهم وبين اللّه تعالى صفقة رابحة.

إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنْ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمْ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنْ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمْ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١١١) [٣]

"إنها صفقة بين متبايعين، اللّه سبحانه هو المشتري، والمؤمن فيها هو البائع، فهي بيعة مع اللّه لا يبقى بعدها للمؤمن شيء في نفسه، ولا في ماله يحتجزه دون اللّه سبحانه، ودون جهاد في سبيله لتكون كلمة اللّه هي العليا، وليكون الدين كله للّه، فقد باع المؤمن للّه في هذه الصفقة نفسه، وماله مقابل ثمن محدد معلوم هو الجنة، وهو ثمن لا تَعْدِلُهُ السلعة، ولكنه فضل اللّه ومنه"[٤]

أي أنفس تلك؟ وأين توضع في تصانيف الأنفس؟

١- سورة المائدة الآية (٣١).

٢- سورة الصافات الآية (١٠٢).

٣- سورة التوبة الآية (١١١).

٤- سيد قطب، في ظلال القرآن، جـ(٣)، ص (١٧١٣ - ١٧١٤) ، مرجع سابق.

إنها نفوس أعدت لحمل خاتمة الرسالات، وتبليغ الإسلام دين الله إلى الناس كافة، ولو كلفهم ذلك الحياة الدنيا، فالآخرة خير وأبقى.

" ولن يكون البائعون غير صفوة مختارة، ذات صفات مميزة"[1]، بل إن الله تعالى اختار لتلك الأمة نفوساً سليمة الفطرة، طيبة المنزع، وزودها بحبه، وحب رسوله صلى الله عليه وسلم، فكانت معالم هدىً لكل راغب في السمو، حريص على تربية الأنفس على منهج الله.

عن عبد الله بن مسعود قال: كنت غلاماً يافعاً في غنم لعقبة بن أبي معيط أرعاها، فأتى النبي صلى الله عليه وسلم ومعه أبو بكر، فقال: يا غلام، هل معك من لبن؟ فقلت: نعم، ولكني مؤتمن! فقال: ائتني بشاة لم ينز عليها الفحل. فأتيته بعناق- أو جذعة- فاعتقلها رسول الله صلى الله عليه وسلم، فجعل يمسح الضرع ويدعو حتى أنزلت، فأتاه أبو بكر بصخرة فاحتلب فيها، ثم قال لأبي بكر: اشرب. فشرب أبو بكر، ثم شرب النبي صلى الله عليه وسلم بعده، ثم قال للضرع: اقلص. فقلص فعاد كما كان، ثم أتيت فقلت: يا رسول الله: علمني من هذا الكلام- أو من هذا القرآن – فمسح رأسي وقال: إنك غلام معلم. قال: فلقد أخذت منه سبعين سورة، ما نازعني فيها بشر". [2]

٢- نفس المرجع السابق ج(٣) ص (١٧١٤)

٣- عز الدين بن الأثير ،أسد الغابة في معرفة الصحابة، دار الفكر، جـ(٣)، ص(٢٨١)، بدون ط ، بيروت – لبنان، ١٩٧٠م .

النفس ومعرفة الله:

فطر اللّه النفس على معرفته، ووثق تلك المعرفة بتواصل نعمه، وأقام فينا، وفيما حولنا شواهد وحدانيته، ودلائل قدرته، ومعالم رحمته.

قال تعالى: **أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلا هُدًى وَلا كِتَابٍ مُنِيرٍ (٢٠)** [١]

وقال جل شأنه:

إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنْ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنْ الْحَيِّ ذَلِكُمْ اللَّهُ فَأَنَّا تُؤْفَكُونَ (٩٥) فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَناً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَاناً ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٩٦) وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٩٧) وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ (٩٨) وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِراً نُخْرِجُ مِنْهُ حَبّاً مُتَرَاكِباً وَمِنْ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهاً وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٩٩) [٢]

ولقد كانت معرفة المسلم بربه معرفة قائمة على الحق، ثابتة في القلب، متأصلة في النفس، يبسطها ربنا في إيجاز لا يعرف لغير القرآن، في إعجازه، وكماله، وإحاطته في عرض قرآني يسره للّه للذكر.

قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ (٢) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (٣) وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ (٤) [٣]

١- سورة لقمان الآية (٢٠)

٢- سورة الأنعام الآيات (٩٥ - ٩٩)

٣- سورة الإخلاص

"هذه الأحدية عقيدة للضمير، وتفسير للوجود، ومنهج للحياة.

إنها أحدية الوجود، فليس هناك حقيقة إلا حقيقته، وليس هناك وجود حقيقي إلا وجوده، وكل موجود آخر فإنما يستمد وجوده من ذلك الوجود الحقيقي، ويستمد حقيقته من تلك الحقيقة الذاتية.

وهي من ثم أحدية الفاعلية، فليس سواه فاعلاً لشيء، أو في شيء في هذا الوجود أصلاً، وهذه عقيدة في الضمير، وتفسير للوجود أيضاً. فإذا استقر هذا التفسير، ووضح هذا التصور، خلص القلب من كل غاشية، ومن كل شائبة، ومن كل تعلق بغير هذه الذات الواحدة، المتفردة بحقيقة الوجود، وحقيقة الفاعلية"[1]

إنه لم يغب شيء ينبغي أن تعرفه النفس عن بارئها إلا وتضمنته هذه السورة في آياتها الأربع، وليس في مقدور البشر مجتمعين من لدن نزول القرآن إلى يوم القيامة أن يحيطوا بها علماً، وكانت كما أخبر الصادق تعدل ثلث القرآن.

عن أبي سعيد الخدري أنه سمع رجلا يقرأ "قل هو اللّه أحد" يرددها، فلما أصبح جاء إلى النبي صلى اللّه عليه وسلم فذكر ذلك له، فقال: "والذي نفسي بيده إنها لتعدل ثلث القرآن"[2]

وتعهد هذه المعرفة أمر لازم لتقر النفس عليها، فلا تميل بها الأهواء، أو تنحرف بها النزوات وبقدر صدق العبد في معرفة نفسه تكون معرفته لربه، فقد قيل: "من عرف نفسه عرف ربه"[3] "من عرف نفسه بالعبودية عرف ربه بالربوبية، ومن عرف نفسه بالجهل عرف ربه بالعلم، ومن عرف نفسه بالعجز عرف ربه بالقدرة، ومن عرف نفسه بالفقر عرف ربه الغني،

١- سيد قطب، في ظلال القرآن، جـ٦، ص (٤٠٠٢) ، مرجع سابق.

2- رواه البخاري (٢٤٦/١٤ فتح).

٣- شيخ الإسلام أحمد بن تيمية (مجموع الفتاوى)، جمع ابن قاسم، إشراف الرئاسة العامة لشئون الحرمين الشريفين جـ٩ ص (٢٩٥)، مكتبة النهضة الحديثة، بدون ط، القاهرة – مصر، سنة (١٤٠٤هـ)

ومن عرف نفسه بالذل عرف ربه بالعز، وأمثال ذلك، لأن العبد ليس له من نفسه إلا العدم، وصفات النقص كلها ترجع إلى العدم، وأما الرب تعالى فله صفات الكمال، وهي من لوازم ذاته يمتنع انفكاكه عن صفات الكمال أزلاً وأبداً، ويمتنع عدمها لأنه واجب الوجود أزلاً وأبداً"[1]

ومعرفة الله تعالى تتدرج بالإنسان نحو الكمال، فتراه لله عبداً، وللخلق برداً وسلاماً بما وطأت المعرفة من خلقه، وما هذبت من طباعه "فإنه لو عرف ربه بصفات الكمال، ونعوت الجلال، وعرف نفسه بالنقائص والآفات لم يتكبر، ولم يغضب لها، ولم يحسد أحداً على ما آتاه الله فإن الحسد في الحقيقة نوع من معاداة الله، فإنه أي الحاسد يكره نعمة الله على عبده، وقد أحبها الله، ويحب زوالها عنه، والله يكره ذلك، فهو مضاد لله في قضائه، وقدره، ومحبته، وكراهيته" [2]

ولا يتوقع الشر من نفس عرفت ربها، فقدرته حق قدره، فكان عطاؤها للحياة والأحياء وفق منهج الله، محكوماً بشرعه، يراها حيث أمرها، ويفتقدها حيث نهاها سعيها ابتغاء وجهه، وكفها كراهةً لما كره.

"قال الأسود بن سالم: ركعتين أصليهما لله أحب إلي من الجنة بما فيها، فقيل له: أخطأت، فقال: دعونا من كلامكم، الجنة رضا نفسي، والركعتان رضا ربي، ورضا ربي أحب إلى من رضا نفسي"[3]

إن العبد على هذا الحال "يعرف رباً قد اجتمعت له صفات الكمال، ونعوت الجلال منزه عن المثال، بريء من النقائص والعيوب، له كل اسم حسن، وكل وصف كمال، فعال لما يريد، فوق كل شيء، ومع كل شيء، وقادر على كل شيء، ومقيم لكل شيء، آمرٌ، ناهٍ، متكلم

١- نفس المرجع السابق والجزء ص (٢٩٧)

٣- ابن قيم الجوزية ،الفوائد،تحقيق محمد عبد القادر الفاضلي، ص(١٩٥)، المكتبة العصرية، ط١ ، صيدا – بيروت، ١٩٩٨م .

٣- نفس المرجع السابق ص (٢١٩- ٢٢٠)

بكلماته الدينية والكونية، أكبر من كل شيء، وأجمل من كل شيء، أرحم الراحمين، وأقدر القادرين، وأحكم الحاكمين، القرآن أنزل لتعريف عباده به، وبصراطه الموصل إليه، وبحال السالكين بعد الوصول إليه "[1]

وها هي رحمة الله تدفعنا إليه دفعاً، وتهيئ لنا سبل المعرفة، وتيسر لنا طرائقها تثبيتاً للنفس، ووقاية لها، وإمداداً بمرجحات معرفة النفس لله رب العالمين يقول جل وعلا. :

سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٥٣) [2]

" إنه وعد الله لعباده بني الإنسان أن يطلعهم على شيء من خفايا هذا الكون، ومن خفايا أنفسهم على السواء، ولقد صدقهم الله وعده، فكشف لهم من آياته في الآفاق خلال القرون الأربعة عشر التي تلت هذا الوعد، وكشف لهم من آياته في أنفسهم، وما يزال يكشف في كل يوم جديداً، وسيظل إلى أن يرث الأرض ومن عليها ويتوالى ذلك.

ولقد تفتحت الآفاق للإنسان، وتفتحت مغاليق الأنفس بالقدر الذي شاء الله"[3] ليزداد الذين آمنوا إيمانا، ويؤوب إلى الله من أراد له الهدى من الشاردين عن الحق، ويزداد الظالمون رجساً إلى رجسهم، ويقيموا على عباده ما تفتح لهم طامسين الفطرة، تائهين عن المعرفة، والحق آتٍ لا محالة، رضي الضالون أم أبوا، فوعد الله ما يزال قائماً.. حتى يتبين لهم أنه الحق.

إن المعرفة بالله ميزان عدل، يوفر للروح صفاءها، ويصون تألقها وارتقاءها، ويحفظ للنفس فطرتها، ويخلصها من أوزار شهواتها، ويلبي حاجات الجسد في اتساق وانسجام مع الحق الذي أراده الله تعالى، وبعث به

٢- نفس المرجع السابق ص (٢٢٠)

٣- سورة فصلت الآية (٥٣)

١- سيد قطب، في ظلال القرآن، جـ٥ ص (٣١٣٠)، مرجع سابق.

رسله عليهم الصلاة والسلام، فيعلم العبد "أنه لا إله إلا الله، فيحبه، ويحمده لذاته، وكماله، ويعلم أنه لا محسن على الحقيقة بأصناف النعم الظاهرة والباطنة إلا هو، فيحبه لإحسانه، وإنعامه ويحمده على ذلك، فيحبه من الوجهين جميعاً.

وكما أنه ليس كمثله شيء فليس كمحبته محبة" [1]

ولقد كان السابقون الأولون من هذه الأمة أسعد البشر على الإطلاق مع ما كانوا فيه من ضيق الحال، وشظف العيش، وقلة المال لأنهم ما عاشوا لأبدانهم، ولا بها، وإنما عاشوا بالله ولله أرواحاً طاهرة، ونفوساً مطمئنة، وجسوماً تحيا في ظلال تلك الأرواح وهاتيك النفوس.

أما حضارة اليوم فقد "حاولت إسعاد الإنسان عن طريق المتعة الجسدية، وحسب أناس أن سعادتهم في توفر المال ورفاهية العيش والتوسع في مطلب الجسد وحاجاته من أساسيات وكماليات بحيث جعلته يظن أنه سينجو من تعاسة الحياة وسيقضي على الضيق والتبرم الذي يلازمه، والسأم والملل الذي يلاحقه ويطارده.

لقد سمعنا عن سكان أرقى دول العالم المتحضر اليوم الذين يعيشون في مستوىً اقتصادي يحسدون عليه، وهم في حالة من الرفاهية منقطعة النظير، ولا تكاد تجد بينهم فقيراً أو محتاجاً، وهم لا يخشون الفقر ولا يحسبون لعوادي الدهر أي حساب، فالدولة تضمن لكل مَنْ أصابته مصيبة أو حلت به كارثة إعانات كبيرة ومساعدات واسعة، ومع ذلك فهم ليسوا سعداء. كتب أحد محرري الصحف مقالاً بعنوان "أهل الجنة ليسوا سعداء"، ويقصد بأهل الجنة سكان السويد الذين يحيون حياة الترف والنعيم والرفاهية والتوسع في ملاذ الحياة، ورغم كل ذلك فإن الناس هناك يحيون

٢- ابن قيم الجوزية، الفوائد، ص (٢٢٣ - ٢٢٤)، مرجع سابق.

حياة القلق والاضطراب والتوتر والسخط والتبرم واليأس، فيلجأ البعض منهم إلى الانتحار تخلصاً من العذاب النفسي الذي لا ينفك عنه.

ولكن المسلم لا يقدم على هذه الجريمة في أي الحالات سواء أكان فقيراً معدماً، أم غنياً مترفاً، ولا يجرؤ على الانتحار بحال لأنه في حالة الفقر صابر، وفي حالة الغنى شاكر، ولِمَ ينتحر وهو يشعر بالسعادة والغبطة والاطمئنان ويحس بجمال الروح وصفاء النفس؟.

وهو يعتبر أن هذه الحياة قصيرة الأمد على امتدادها ضيقة على سعتها، وإنها فرصة للتزود من العمل الصالح والإكثار من فعل الخير، ليلقاه أمامه في الآخرة " [1]

إن ظلمة النفس، وشرودها عن الله، وتطلعها إلى منقذ سواه فيه هلاك البشرية، وضياعها، وإن بلغت بحضارتها عنان السماء، وارتقت بماديتها مراقٍ ما كان الإنسان ليتوقع الوصول إليها.

تزكية النفس:

قال تعالى: قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا (١٠) [2]

"لقد ربح وفاز من زكَّى نفسه، ونمَّاها حتى بلغت غاية ما هي مستعدة له من الكمال العقلي والعملي حتى تثمر بذلك الثمر الطيب لها ولمن حولها.

وخسر نفسه، وأوقعها في التهلكة من نقصها حقها بفعل المعاصي، ومجانبة البر والقربات، فإن من سلك سبيل الشر، وطاوع داعي الشهوة فقد فعل ما تفعل البهائم، وبذلك يكون قد أخفى عمل القوة العاقلة التي اختص بها الإنسان، واندرج في عداد الحيوان.

١- موسى محمد الأسود، منهج السلوك الإسلامي، ص(٣٢- ٣٣) يسير، بتصرف، دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع بيروت ط (١)، ١٩٩٦م .

٢- سورة الشمس (٩ - ١٠)

ولا شك أنه لا خيبة أعظم، ولا خسران أكبر من هذا المسخ الذي يجلبه الشخص لنفسه". [1]

" وهنالك إذن تبعة مترتبة على منح الإنسان هذه القوة الواعية القادرة على الاختيار والتوجيه، توجيه الاستعدادات الفطرية القابلة للنمو في حقل الخير، وفي حقل الشر سواء، فهي حرية تقابلها تبعة، وقدرة يقابلها تكليف، ومنحة يقابلها واجب.

ورحمة من الله تعالى بالإنسان لم يَدَعْهُ لاستعداد فطرته الإلهامي، ولا للقوة الواعية المالكة للتصرف، فأعانه بالرسالات التي تضع له الموازين الثابتة الدقيقة، تكشف له عن موجبات الإيمان، ودلائل الهدى في نفسه، وفي الآفاق من حوله، وتجلو عنه غواشي الهوى فيبصر الحق في صورته الصحيحة، وبذلك يتضح له الطريق وضوحاً كاشفاً لا غبش فيه، ولا شبهة، فتتصرف القوة الواعية حينئذ عن بصيرة، وإدراك لحقيقة الاتجاه الذي تختاره، وتسير فيه، وهذه في جملتها هي مشيئة الإنسان، وكل ما يتم في دائرتها فهو محقق لمشيئة الله، وقدره العام"[2]

والتوحيد أزكى ما تسمو به النفس، وتستقيم به أحوالها، وتحيا على نور ربها، حيث يخرج منها بالتوحيد كل ما سوى الله تبارك وتعالى، فتزكو في ذاتها، وتزكو الآثار الصادرة عنها، فيحسن عملها، ويسمو خلقها، ويرشد قولها، لأنها في ظلال التوحيد لن تعطي إلا خيراً، ويرينا القرآن الكريم ثمرة التوحيد، فإذا هي خير مطلق، والتزام تام مع الخالق جل وعلا، ومع الخلق لأن باعثها طيب ألا وهو حسن الصلة بالله، فلا بد أن يكون العطاء طيبا.

١- المراغي، تفسير المراغي، جـ ١٠ الجزء (٣٠) ص (١٦٨ ، ١٦٩)، مرجع سابق.

٢- سيد قطب، في ظلال القرآن، جـ٦ ص (٣٩١٨)، مرجع سابق.

قال تعالى مخاطباً رسوله r ، والخطاب لكل مؤمن: **إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدْ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ** [1]

وأي ثمرة للتوحيد كهذه الثمرة؟

بَلْ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنْ الشَّاكِرِينَ (٦٦) [2]

ويقول جل شأنه: **وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلاَةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ (٥)** [3]

وإخلاص العبادة يرقى بالمؤمن، فتراه سليم القلب، مطمئن النفس، طيب المظهر والمخبر.

قال بعض السلف "إن للحسنة لنوراً في القلب، وقوة في البدن، وضياءً في الوجه، وسعة في الرزق، ومحبة في قلوب الخلق" [4]

والعمل الصالح أعون على صلاح النفس، وأدعى لها إلى سلامة الانقياد لله، وحسن التأسي برسوله r ولذا وجب عند ميلها إلى المعصية ردها إلى الطاعة حتى لا تستمرئ السوء فتخزى، وترتكس.

قال تعالى: **وَمَنْ تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ** [5]

وقال جل جلاله: **إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا** [6]

وقال جل شأنه: **مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا** [7]

١- سورة الزمر الآية (٢)

٣- سورة الزمر الآية (٦٦)

٣- سورة البينة الآية (٥)

٤- شيخ الإسلام ابن تيمية، مجموع الفتاوى لابن تيمة، جـ ١٠ ص (٩٨)، مرجع سابق.

٥- سورة فاطر الآية (٥)

٦- سورة الإسراء الآية (٧)

٧- سورة فصلت الآية (٤٦)

وتتجلى رحمة الله تعالى بعباده المؤمنين بما يسر لهم من الهدى والشفاء والرحمة في كتابه العزيز: فقال جل شأنه: **قَدْ جَاءَكُمْ مِنْ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ (١٥) يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنْ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلامِ** (١)

وقال جل جلاله:

يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ (٥٧) (٢)

وقال تعالى: **وَنُنَزِّلُ مِنْ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلاَّ خَسَاراً (٨٢)** (٣)

ونرى ربنا جل وعلا يدعونا إلى أن يأخذ كل مؤمن منه ما تيسر له إصلاحاً للنفس، وتثبيتاً للعقيدة، وسداً لمنافذ الهوى.

قال تعالى: **فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَى وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ** (٤)

والخلوة أمكن للمؤمن في محاسبة النفس، وأمكن من إحصاء مفاتنها، وتعريفها بمخازيها بعيداً عن ضوضاء الحياة وزخرفها، وتذكيراً لها بخلوة القبر، والتجرد للحساب فيه، فيحصي عليها ما يَذْكُرُ لها من تفريط في جنب الله، وتجاوز لحدوده، واجتراءٍ على معصيته، موكلاً ما لا يَذْكُرُ إلى الله تعالى مستغفراً منه قبل أن يوقف بين يدي الله في يوم قال الله تعالى فيه: **يَوْمَ لا يَنْفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ (٨٨) إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٩)** (٥)

١- سورة المائدة الآية (١٥ - ١٦)
٢- سورة يونس الآية (٥٧)
٣- سورة الإسراء الآية (٨٢)
٤- سورة المزمل الآية (٢٠)
٥- سورة الشعراء الآيتان (٨٨ - ٨٩)

وعصمة لها من ذلك الموقف العصيب:

وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ (٥٥) أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنْ السَّاخِرِينَ (٥٦) أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنْ الْمُتَّقِينَ (٥٧) أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنْ الْمُحْسِنِينَ (٥٨) [١]

وهي التي فرض عليها أن تذكر ذلك اليوم سبع عشرة مرة في كل يوم فتردد في صلاتها إن الْتَزَمَتْ (**مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ**) [٢]

ومحبة الله تعالى أعظم ما تزكو به النفس (**وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبّاً لِلَّهِ**) [٣] لأنهم أعلم بالله تعالى وأعرف، والحب يتبع العلم، فجعل المؤمنون كل حبهم له وحده جل وعلا، وحبهم لله تعالى حب لا يستحقه غيره، ولا يليق بسواه، فهو حب يليق بجلاله، ويتعلق بكماله، ويقر بوحدانيته وربوبيته **الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى (٢) وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى (٣)** [٤]

الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ (٧٨) وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ (٧٩) وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ (٨٠) وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ (٨١) وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ (٨٢) [٥]

وحب رسول الله r من حب الله، ولا يقبل الله تعالى من الحب إلا ما كان خالصاً، وحبه جل شأنه يصرف النفس عما سواه، ويشغلها به، فتأتي ما يحب، وتفر مما يكره ابتغاء مرضاته، واطمئناناً بحبه، وشغلاً به عمن وعما سواه.

١- سورة الزمر الآيتان (٥٥ - ٥٨)

٢- سورة الفاتحة الآية (٤)

٣- سورة البقرة الآية (١٦٥)

٤- سورة الأعلى الآيتان (٢ - ٣)

٥- سورة الشعراء الآيات (٧٨ - ٨٢)

قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٢٤) [١]

وهاكم محبة ما بعدها محبة. **لا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمْ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُوْلَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمْ الْمُفْلِحُونَ (٢٢)** [٢]

وأظهر علامات حب الله تعالى اتباع رسوله r وحسن التأسي به .

قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمْ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٣١) [٣]

والتواضع للمؤمنين، وحسن التودد إليهم، والحرص على رضاهم لله في الله تطهير للنفس وتزكية لها:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٥٤) [٤]

فحب الله نبع الفضائل، ومنطلق العظائم، والنفس المشغولة به معطاءة مفضالة في سلمها وجهادها.

١- سورة التوبة الآية (٢٤)

٢- سورة المجادلة الآية (٢٢)

٣- سورة آل عمران الآية (٣١)

٤- سورة المائدة الآية (٥٤)

وذكر الله تعالى حصانة للنفس منها، وصيانة لها من هواها، ودرء للشيطان إنسياً أو جنياً ودحر لوساوسه.

الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ (٢٨) [١]

وهو إحياء للفطرة، وإقامة للنفس عليها، وإعمار لها بحب الله، وإنارة لها بالثناء عليه جل شأنه.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٩) فَإِذَا قُضِيَتْ الصَّلاةُ فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٠) [٢]

فالفلاح في ذكره، وباستدامته تطوع النفس لله، وتسعى حثيثاً إلى ما يرضيه، والذكر ميسور لأهله في حركتهم وسكونهم، في نطفهم وصمتهم في فراغهم وشغلهم، في اجتماعهم وانفرادهم، وفي سرهم وجهرهم، ولذا كانت دعوة الرحمن الرحيم (**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْراً كَثِيراً (٤١) وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً (٤٢)** [٣]

وهو غاية الشرف، وسبيل القرب من الله، والرضا عنه وبه

فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلا تَكْفُرُونِ (١٥٢) [٤]

أرأيت أعظم من أن تذكر فتذكر؟

والنفس التي تبلغ هذا نفس زكت فاطمأنت فرضيت عن الله ورضي الله عنها وتلك الأمور التي ذكرنا تحوط النفس فتعصمها من الزلل، وتمنعها من الزيغ، وتحوطها بحفظ الله وتنفي السوء عنها، ولكنها مع ذلك

١- سورة الرعد الآية (٢٨)

٢- سورة الجمعة الآيتان (٩ - ١٠)

٣- سورة الأحزاب الآيتان (٤١ - ٤٢)

٤- سورة البقرة الآية (١٥٢)

نفس بشر تنيب وترجع ، وتصيب وتخطئ، وتطيع وتعصي، فالإنسان خطاء، والنفس كما عَرَّفَنَا ربنا فيها الفجور وفيها التقوى.

فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (٨) [١]

والله رحمن رحيم، غفار كريم

وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنْ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ (٢٥) [٢]

والرجوع إليه بعد الذنب فضيلة، واستغفاره مكرمة **إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنْ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ (٢٠١)** [٣]

وعباد الرحمن مع علو شأنهم، ورفعة قدرهم يقول عنهم ربنا جل وعلا: **وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٣٥)** [٤]

وأي حافز أطمع في رحمة الله تعالى منذ ذلك النداء؟

قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٥٣) وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمْ الْعَذَابُ ثُمَّ لا تُنْصَرُونَ (٥٤) [٥]

ولذا كان الاستغفار لازماً في حياة المسلم يفتتح به يومه، ويختتمه، وينير به لحظات حياته، ويستقيل به من عثراته.

١- سورة الشمس الآية (٨)
٢- سورة الشورى الآية (٢٥)
٣- سورة الأعراف الآية (٢٠١)
٤- سورة آل عمران الآية (١٣٥)
٥- سورة الزمر الآيتان (٥٣ - ٥٤)

وهو دعوة الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام، يقول ربنا حاكياً عن هود عليه السلام: **وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ** (٥٢) [١]

وهذا شعيب عليه السلام يدعو قومه..

وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ (٩٠) [٢]

ونوح عليه السلام يعرف قومه أن الاستغفار فاتحة خير وبركة، ينزل الله به الغيث، ويوسع به الرزق، ويهب به البنين، وينبت الأرض .. **فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً** (١٠) **يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً** (١١) **وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَاراً** (١٢) [٣]

وها هو رسول الله r يدعو إلى الاستغفار، ويطمع في بركاته، وينوه بفضله، وهو ركنٌ أصيل في العقيدة، وأساس متين في الصلة بالله **الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ** (١) **أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ إِنَّنِي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ** (٢) **وَأَنْ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعاً حَسَناً إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ** (٣) [٤]

والاستغفار للمتقين كرامة وعلو منزلة، وللخطائين إصلاح للنفس، وتطهير وتزكية لها، وتكفير للذنوب والخطايا.

عن الأغر بن يسار المزني رضي الله عنه قال: قال رسول الله r "يا أيها الناس توبوا إلى الله واستغفروه فإني أتوب في اليوم إليه مائة مرة " [٥]

١- سورة هود الآية (٥٢)

٣- سورة هود الآية (٩٠)

٣- سورة نوح الآيات (١٠ - ١٢)

٤- سورة هود الآيات (١ - ٣)

٥- رواه مسلم (٤/٢٠٧٦).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله r يقول: "والله إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة"[1]

وتزكو النفس أيضاً بالإكثار من الطاعات، واتباع السيئات بالحسنات يقول ربنا جل وعلا: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ١١٤﴾

وعن أبي ذر جندب بن جنادة، وأبي عبد الرحمن معاذ بن جبل رضي الله عنهما عن رسول الله r : "اتق الله حيثما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن"[2]

وبعد هذا كله الإنسان إذا صلح منه القلب، وثبتت العقيدة، وخلص لله تعالى قصده كان أعرف بنفسه، وأدري بما يزكيها مستعيناً بما علمنا الله تعالى ورسوله r ، وأخذاً من كتاب الله عز وجل قال الله تعالى.

بَلْ الإِنسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ (١٤) [3]

١- البغوي، شرح السنة، (٥/٧٠)، مرجع سابق.

٢- رواه الترمذي، (٤/٣٥٥).

٣- سورة القيامة الآية (١٤)

الفصل الثالث:

التربية بين الإنسان ومن حوله

مجتمع الإسلام:

يقوم المجتمع في الإسلام على أسس سليمة صاغها الدين، وأتى بها الوحي وبينها الرسول الكريم r ، ووضحها، ورآها الناس واقعاً في رسول الله r ومن معه، وانطلقوا بها في أرض الله فاتحين تسبقهم مبادؤهم، وتحدث عنهم قبل الفتح سماتهم وفضائلهم، فاطمأنت إليهم الشعوب، وودت الأمم أن لو أزيل عنهم طغيان المستبدين، وسعدوا بجوار المسلمين، وأقام الإسلام علاقات طيبة تصون كيان الأسرة، وتوثق أواصر المجتمع على أساس من شرع الله لا يكاد ينفصل عن العقيدة، والفرائض، يقول جل جلاله: (**لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ** (١٧٧) [١]

"وهكذا تجمع آية واحدة بين أصول الاعتقاد الصحيح، وتكاليف النفس والمال، وتجعلها كلاً لا يتجزأ، ووحدة لا تنفصم، وتضع على هذا كله عنواناً واحداً هو (البر) أو (جماع الخير) أو هو (الإيمان) كما ورد في بعض الأثر، والحق أنها خلاصة كاملة للتصور الإسلامي، ولمبادئ المنهج الإسلامي المتكامل لا يستقيم بدونها إسلام"[٢]

١- سورة البقرة الآية (١٧٧)

١- سيد قطب، في ظلال القرآن ، جـ١ ص (١٦١)، مرجع سابق.

وباتباع هذه الأوامر كانت الأمة الإسلامية خير أمة أخرجت للناس في إيمانها، والتزام شرائعها، وتميزها في حربها وسلمها.

﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾

وبهذا لا بغيره مما يدعي الحاقدون على الإسلام.

بهذه المبادئ والقيم لا بغيرها دخلت آسيا وإفريقيا في دين الله أفواجاً، وقامت في أوربا دولة كانت مبعث النور، ومشرق الحضارة في عصور الظلمات والتخلف التي اجتاحت أوروبا، ودمرت فيها القيم الإنسانية، وأهدرت كرامة البشر، وتحول الأقوياء إلى وحوش كاسرة، وصار الضعفاء فرائس مباحة لا يصد عنهم، أو يحمي حرماتهم وازع من ضمير، أو دافع من خلق.

وعليها قامت دولة الإسلام الذي رضيه الله للإنسانية ديناً من لدن آدم إلى أن يقوم الناس لرب العالمين.

(إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الإِسْلامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلاَّ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمْ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (١٩) [1]

وهو الدين الذي بعث به الأنبياء والمرسلون.

وقال تعالى: **(وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنْ الْخَاسِرِينَ (٨٥)** [2]

بر الوالدين:

ولما كانت الأسرة نواة المجتمع، وخليته الأولى، ولبنته التي تشارك في بنائه وتسهم في صنع حضارته كان لا بد أن تقوم على أساس سليم سويٍّ

١- سورة آل عمران الآية (١٩)

٢- سورة آل عمران الآية (٨٥)

يودع القيم في أفرادها، وينظم العلاقة بين أعضائها، ويوفر لكل عضو حقوقه، ويذكره دائماً بواجباته.

وأصل هذه الأسرة أبوان، فضلهما بعد فضل الله تعالى، وشكرهما من شكره، وبرهما ضروري لقيام علاقة صحيحة بين الابن كمسلم وبين الله تعالى، ولذا جاء الإحسان إليهما بعد عبادة الله تعالى:

(وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً..)[1]

فإذا سبق القضاء بعبادته فتمام تلك العبادة، وكمالها بالإحسان إلى الوالدين، وقد أوصاه بهما في مواضع من القرآن الكريم.

فيقول تعالى: **(وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ (١٤))**[2]

فالوالدان سبب وجودك، وبهما كنت، وعليهما قامت حياتك، وقد ذللهما الله لك، وحببك إليهما، ولولا رحمته وفضله لألقتك الأم سقطاً، أو رمت بك رضيعاً، أو ملت حياتك طفلاً، وحرمك الأب سعيه، وضن عليك بجهده، وفَرَّغا عقلهما من رعايتك ولكنها رحمة الله تعالى بك.

ويذكرك بمنة الأم خاصة لما فيها من كبير المشقة، فقال:

(**حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلَى وَهْنٍ**)أي حملته، وهي في ضعف يتزايد بازدياد ثقل الحمل إلى حين الطلق.

ثم أردفها منة أخرى، وهي الشفقة، وحسن كفالته حين لا يملك لنفسه شيئا فقال:

(**وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ**) "أي فطامه من الرضاع بعد وضعه في عامين تقاسي فيهما الأم في رضاعه، وشئونه في تلك الحقبة جم المصاعب، والآلام

١- سورة الإسراء الآية (٢٣)

٣- سورة لقمان الآية (١٤)

التي لا يقدرها حق قدرها إلا العليم بها، من لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء، وقد وصى بالوالدين لكنه ذكر السبب في جانب الأم فحسب، لأن المشقة التي تلحقها أعظم، فقد حملته في بطنها ثقيلاً، ثم وضعته، وربته ليلاً ونهاراً"[1]

ومن هنا جاء الحديث الشريف:

"عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى رسول الله r فقال: يا رسول الله من أحق الناس بحسن صحابتي؟ قال: "أمك" قال: ثم من؟ قال: "أمك" قال: ثم من؟ قال: "أمك" قال: ثم من؟ قال: "أبوك" "[2]

وإذا كان للأم ثلاثة أمثال ما للأب من البر فذلك لتميز عطائها، وعظم شفقتها، وانفرادها بأمور ليس على الرجال عبء فيها، كالحمل، والوضع، والولادة ثم يجمع المولى جل وعلا بين شكره وشكر الوالدين فيقول جل شأنه:

(**أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ**) أي وعهدنا إليه أن اشكر لي على نعمي عليك، ولوالديك؛ لأنهما كانا السبب في وجودك، وإحسان تربيتك، وملاقاتهما ما لاقيا من المشقة حتى استحكمت قواك.

ويقول جل شأنه:

وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَاناً حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهاً وَوَضَعَتْهُ كُرْهاً وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاثُونَ شَهْراً حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنْ الْمُسْلِمِينَ (١٥) [3]

١- المراغي، تفسير المراغي، جـ (٧) ص (٨٢)، مرجع سابق.

٢- رواه البخاري (٢٦٥/١٦ فتح)، ومسلم (١٩٧٤/٤).

٣- سورة الأحقاف الآية (١٥)

وأوضح القرآن الكريم جوانب هذا البر، وكشف عن مستلزماته فعلاً وتركاً، قولاً وسلوكاً فقال جل شأنه:

إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاهُمَا فَلا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلاً كَرِيماً (٢٣) وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنْ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً (٢٤) [١]

إنه الأدب الكامل مع من أحسنا إليك، ولم تك شيئاً، وشقيا في رعايتك، وما أنت بمستطيع رد معشار ما قدما لك، "فإذا وصل الوالدان، أو أحدهما إلى حال الضعف والعجز، وصارا عندك في آخر العمر كما كنت عندهما في أوله، فأحْسِنْ إليهما، وعاملهما معاملة الشاكر لمن أنعم عليه، الوفي لمن ترفق به في ضعفه، ويتجلى ذلك في أمور:

- ألا تتأفف من شيء تراه منهما، أو من أحدهما مما يتأذى به الناس، ولكن اصبر عليهما كما صبرا عليك.
- ألا تنغص عليهما بكلام تزجرهما به، وفي هذا منع إظهار المخالفة، أو الضجر منهما قل أو كثر.
- أن تقول لهما قولاً حسناً مقروناً بالاحترام والتعظيم مما يقتضيه حسن الأدب.
- أن تتواضع لهما، وتتذلل، وتطيعهما فيما أمراك ما لم يكن معصية لله تعالى.
- أن تسأل الله تعالى شمولهما برحمته في الدنيا والآخرة كفاء رحمتهما لك في صغرك، وجميل شفقتهما عليك" [٢]

١- سورة الإسراء الآيتان (٢٣ - ٢٤)

٢- المراغي، تفسير المراغي، ج(٥) الجزء (١٥) ص (٣٥ - ٣٦)، مرجع سابق.

"عن أبي عبد الرحمن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: سألت النبي r : أي العمل أحب إلي الله تعالى؟ قال: "الصلاة على وقتها، قلت: ثم أي؟ قال: "بر الوالدين" قلت: ثم أي؟ قال: "الجهاد في سبيل الله" "[1]

فقد وضع الرسول r بر الوالدين بين الصلاة، وهي عماد الدين، وبين الجهاد وهو ذروة سنام هذا الدين، بل إن رسول الله r ليقدمه على الجهاد في سبيل الله، ويجعله لوناً من ألوان الجهاد المبرور.

"عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: أقبل رجل إلى نبي الله r فقال: جئت أبايعك على الهجرة والجهاد أبتغي الأجر من الله تعالى، قال: "فهل لك من والديك أحد حي" ؟ قال: نعم، بل كلاهما، قال: "فتبتغي الأجر من الله تعالى؟" قال: نعم، قال: "فارجع إلى والديك، فأحسن صحبتهما" [2]

إن الرغبة في الجهاد، والحرص عليه تتحققان ببر الوالدين، وملازمة خدمتهما، وحسن رعايتهما، والصبر عليهما، وإن عاش معهما في ظل ظليل، وماء نمير، وحياة ناعمة مترفة.

إن عظمة التربية تتجلى في النهج القويم الذي يأمر ببرهما، والإحسان إليهما، وطاعتهما، ما لم يأمرا بمعصية، أو يصران على الكفر ويدعوان إليه فيخالفا مع حفظ حقهما في البر والإحسان، وحسن المعاشرة.

قال تعالى: **وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفاً وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (١٥)**[3]

١- رواه مسلم (٩٠/١).

٢- رواه مسلم (١٩٧٥/٤).

٣- سورة لقمان الآية (١٥)

"وعن أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهما قالت: قدمت علي أمي، وهي مشركة في عهد رسول الله r ، فاستفتيت رسول الله r قلت: قدمت علي أمي وهي راغبة أفأصل أمي؟ قال: "نعم صلي أمك" "[1]

إن اختلاف العقيدة لا يدعو إلى الجحود، ولا يبيح العقوق، ولا يصرف الولد عن حقٍ لوالديه ألزمه الله تعالى به.

بل إن موت الأبوين كليهما، أو أحدهما لا يسقط حقهما في البر، ولا يضيع الوفاء لهما ابتغاء رضا الله وحسن مثوبته، وإن اختلف العمل.

"عن أبي أسيد مالك بن ربيعة الساعدي رضي الله عنه قال: بينما نحن جلوس عند رسول الله r إذ جاءه رجل من بني سلمة، فقال: يا رسول الله هل بقي من بر أبوي شيء أبرهما به بعد موتهما؟ فقال: "نعم الصلاة عليهما، والاستغفار لهما، وإنفاذ عهدهما من بعدهما، وصلة الرحم التي لا توصل إلا بهما، وإكرام صديقهما" "[2]

إن إقامة النفس على الوفاء لا يرتبط بحياة ولا موت لإنها استجابة لأمر الله الحي القيوم.

وقد أثمرت تلك التربية، وآتت أُكُلَهَا، فظهر أثرها في أصحاب رسول الله (r) والتابعين، ومن تبعهم بإحسان.

قال أبو بردة: أتيت المدينة فأتاني ابن عمر، قال: أتدري لم أتيتك ؟

قلت : لا ، قال إني سمعت رسول الله r يقول: "من أحب أن يصل أباه في قبره فليصل إخوان أبيه بعده.

٣- رواه البخاري (١٦/ ٢٨٠ فتح).

١- رواه أبو داود (٤/ ٣٣٦).

وإنه كان بين أبي (عمر)، وبين أبيك إخاء وود فأحببت أن أصل ذاك".[1] وكان عروة ابن الزبير يقول في صلاته، وهو ساجد: " اللهم اغفر للزبير بن العوام، وأسماء بنت أبي بكر "[2]

وإذا بلغ الوفاء هذه الدرجة عَبَّرَ عن نفس آمنت فحسن إيمانها، واستجابت لله فعزت، وعظم قدرها، وطاب عطاؤها بجميل طاعتها لله تعالى، ورسوله r وهذا شأن المؤمنين :

آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ (٢٨٥)[3]

وبر الوالدين يشد أزر الأسر، ويقوي روابط المودة، ويوجد مناخاً طيباً تنمو فيه الفضائل، وتزكو النفوس، وتسود قيم الإسلام، ويكون جنى المجتمع منها خيراً وبركة، ولا يكون ذلك إلا مع عقيدة سليمة ينمو الصغار في ظلالها، ويشبون في رحابها، فإذا دعوا إلى الله تعالى ورسوله r كانوا كما قال تعالى: **إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُوْلَئِكَ هُمْ الْمُفْلِحُونَ (٥١)**[4]

وتلك هي الحياة التي ضمنها الله تعالى للمسلمين، وضاعت من غيرهم ممن لا يدينون بدين الإسلام: **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ**

١- الإمام الهيثمي، موارد الظمآن، تحقيق محمد عبد الرحمن حمزة، ص(٤٩٨)، دار الكتب العلمية، بدون ط، بيروت – لبنان، بدون ت.

٢- الإمام الطرطوشي، بر الوالدين، تحقيق محمد عبد الحكيم القاضي، ص(٧٧)، مؤسسة الكتب الثقافية ط(١)، بيروت – لبنان، سنة (١٩٨٦م.

٣- سورة البقرة الآية (٢٨٥).

٤- سورة النور الآية (٥١)

إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٢٤) [٣]

إن التربية في الإسلام قائمة على الوفاء، والاعتراف بالفضل، والشكر لمن أحسن فضلاً عن توقير الكبير، والرفق به والتواضع له، والقرب منه، والإحسان إليه.

إن من حسنت تربيته الأولى، وأثمرت فيه خيراً طلع على المجتمع بعطاء طيب، ونفس راضية، وبصدر واسع كريم، وقلب مخبت رحيم، فكان مصدر خير، ومنبع بر، ويألف، وَيُؤْلَفُ، ويؤمن شره ومكره.

إن البر من أفضل الأعمال، وأحبها إلى الله تعالى لما فيه من مؤشرات الوفاء، والأدب، والصدق مع الله.

صـــلة الرحـــم:

الإسلام حريص على وحدة الجماعة، وتوثيق عرى المودة بينها، ونشر الألفة في قلوب أعضائها، حتى تتسق المشاعر، وتتلاقى الأفكار، فيكون العمل من أجل أهداف واحدة، يدعمها إيمان بالله تعالى، واتباع لرسوله r، وقد اعتبرت العلاقة الطيبة بالوالدين منطلقاً لعلاقات طيبة بينه وبين الآخرين داخل الأسرة وخارجها حتى تقوم الأمة المسلمة المؤمنة بربها العاملة بشرعه، الآخذة بمنهجه في أمورها الخاصة والعامة.

وأولى الناس بالصلة الكريمة الرحم: "والرحم: هي (منبت الولد) والرحم أسباب القرابة والرحم في الأصل: (منبت الولد) وقال الجوهري الرحم القرابة وقال ابن الأثير: ذوو الرحم هم الأقارب، ويقع على كل من يجمع بينك وبينه نسب.[٢]

١- سورة الأنفال الآية (٢٤)

٢- ابن منظور، لسان العرب، جـ(١٢)، ص(٢٣٢- ٢٣٣)، مرجع سابق.

"ويقع على كل من يجمع بينك وبينه نسب وإن بعد من جهة النساء والآباء".[1]

فإذا كان الترابط ضرورياً لبناء مجتمع قوي، فترابط ذوي القرابة، وانتشار الرحمة بينهم، وتماسكهم في الخير أعظم أمارات التوافق والانسجام بين أفراد الأسرة، وقد عني الإسلام بتلك الصلة، فجعل الله تعالى صلة الرحم من متممات التقوى وأمارات خشية الله تعالى، وحسن طاعته فقال جل شأنه:

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَتَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً (١) [2]

فبعد أن أمر جل وعلا بالتقوى عامة دعا إلى تقواه في القرابة فقال: (والأرحام) أي اتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام، فصلوها بالبر والإحسان، ولا تقطعوها.[3] كما جعل من سمات أولي الألباب، ومعالم خشيتهم لله تعالى صلة الرحم التي أمر تعالى بوصلها، والإحسان إليها فقال جل شأنه: **وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ (٢١)** [4]

وتبدأ صلة الرحم في الأسرة فيرحم الكبير الصغير، ويترفق به في النصح، ويلقنه في عطف ومودة حسن خلق، ويدفع عنه بحكمة كل خلق سوء، ويوجهه في رفق إذا أخطأ، ويتعود الصغير في رعاية والديه، وإخوته، وأخواته توقير الكبير، والإصغاء إليه، والاهتمام بنصحه، وقبول توجيهه،

١- سعيد حوى، الأساس في التفسير، جـ٢ ص (٩٨٧) بتصرف، مرجع سابق.

٢- سورة النساء الآية (١)

٣- المراغي، تفسير المراغي، مجلد (٢) ص(١٧٧)، مرجع سابق.

٤- سورة الرعد الآية (٢١)

ولو تصورنا أسرة على هذا النسق الرائع الطيب، فيها بر الوالدين، والإحسان إليهما، والتواصل بين الإخوة والأخوات، والترابط على أساس من المودة والحب والاحترام لن تمد تلك الأسرة المجتمع إلا بكل عنصر وصول ودود لا يألو جهداً في إسعاد أقاربه، والإحسان إليهم .

ولذلك ينبغي أن تكون العلاقات داخل الأسرة الواحدة تدريباً عملياً على صلة الرحم، فإذا امتدت إلى خارج الأسرة فروع منها تواصلت تلك الفروع فيما بينها، وانطلق الجميع بما عودوا من التعاون والتواد إلى التواصل مع الآخرين، بعدت أنسابهم أم قربت، وتنافسوا في ضروب المودة.

والرحم (القرابة) ذات مكانة سامية عند الله تعالى، فهو الرحمن الرحيم، والرحم من الرحمة.

عن أبي سلمة أن عبد الرحمن بن عوف عاد أبا الدرداء قال: يعني عبد الرحمن: سمعت رسول الله r يقول فيما يحكي عن ربه جل جلاله: " أنا الله، وأنا الرحمن، خلقت الرحم وشققت لها اسماً من اسمي، فمن وصلها وصلته، ومن قطعها قطعته" [1]

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله r : "إن الله تعالى خلق الخلق حتى إذا فرغ منهم قامت الرحم فقالت: هذا مقام العائذ بك من القطيعة. قال: نعم أما ترضين أن أصل من وصلك وأقطع من قطعك؟ قالت: بلى. قال فذلك لك. ثم قال رسول الله r : اقرءوا إن شئتم **فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ (٢٢) أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمْ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ (٢٣)**"[2]

وإذا كان الله تعالى قد أجارها، وأخذ على نفسه ذلك العهد الوثيق لها أفلا ينبغي أن نكون أوفياء لأرحامنا، بررة بأقاربنا؟

١- رواه الترمذي (٣١٥/٤).

٢- سورة محمد الآيتان (٢٢- ٢٣) .

ولعظم الرحم أنزلها الله خير منزلة، وجعل لها جواراً عنده.

عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله r : "الرحم معلقة بالعرش تقول: من وصلني وصله الله، ومن قطعني قطعه الله"[1]

وصلة الرحم تختلف باختلاف الأقارب، وتفاوت أحوالهم، فقد تكفي زيارة مجردة، أو مشفوعة بهدايا تسعدهم، ولا تكلفك ما لا تطيق، وقد تكون بتقديم العون مادياً أو معنوياً إذا كان الواصل ثَرِيًّا أو ذا جاه، فيصلهم بماله في غير مَنٍّ ولا أذىً، ويسعى في حاجاتهم حريصاً على أن يبلغ فيها، وهم أحق بالمعروف وأولى بالإحسان، فهم منه وهو منهم، ولذا كانوا أحق ببره وإحسانه عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي r قال: "الرحم شجنة من الرحمن، فقال: الله: من وصلك وصلته، ومن قطعك قطعته"[2]

وأي صلة كصلة الله تعالى لعبده، ونعوذ بالله من قطيعته.

وقد ربى الرسول r أصحابه على هذا المنهج الرباني ليكونوا مثلاً لتلك الأمة، وأسوة صالحة للمسلمين بعد رسول الله r .

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: "كان أبو طلحة أكثر الأنصار بالمدينة مالاً من نخل، وكان أحب أمواله بيرحاء، وكانت مستقبلة المسجد، وكان رسول الله r يدخلها، ويشرب من ماء فيها طيب، فلما نزلت هذه الآية (**لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ**)[3] قام أبو طلحة إلى رسول الله r فقال: يا رسول الله إن الله تبارك وتعالى يقول: (**لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ**)وإن أحب مالي إلى بيرحاء، وإنها صدقة لله تعالى، أرجو برها وذخرها عند الله تعالى، فضعها يا رسول الله حيث أراك الله. فقال رسول الله r : "بخ!، ذلك مال رابح، ذلك مال رابح، وقد سمعت ما

١- رواه مسلم (١٩٨١/٤).

٢- رواه البخاري (٢٨٦/١٦ فتح).

٣- سورة آل عمران الآية (٩٢).

قلت، وإني أرى أن تجعلها في الأقربين" فقال أبو طلحة أفعل يا رسول الله، فقسمها أبو طلحة في أقاربه وبني عمه". [1]

فلينظر الراغبون في التربية على منهج الله تعالى، ورسوله r كيف علم الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه أبا طلحة والأمة كلها كيف يحسنون توجيه معروفهم، ومن يقدمون إذا تيسر لهم البر. وإذا كان الزوجان في شرع الله نفساً واحدة فصلة كل منهما الآخر من أعظم القربات، والمعروف بينهما يرضى الله به، ويرضى عن فاعله، ويرحم به الأسرة التي آثرت هذا.

عن زينب الثقفية امرأة عبد الله بن مسعود رضي الله عنه وعنها: قال رسول الله r : "تصدقن يا معشر النساء ولو من حليكن" قالت: فرجعت إلى عبد الله ابن مسعود فقلت له: إنك رجل خفيف ذات اليد وإن رسول الله r قد أمرنا بالصدقة، فأته فاسأله، فإن كان ذلك يجزئ عنيٍّ وإلا صرفتها إلى غيركم. فقال عبد الله: بل ائتيه أنت، فانطلقت، فإذا امرأة من الأنصار بباب رسول الله r حاجتي حاجتها، وكان رسول الله r قد ألقيت عليه المهابة، فخرج علينا بلال، فقلنا له: ائت رسول الله r ، فأخبره أن امرأتين بالباب تسألانك: أتجزئ الصدقة عنهما على أزواجهما وعلى أيتام في حجورها ؟ ولا تخبره من نحن، فدخل بلال على رسول الله r ، فسأله فقال له رسول الله r "من هما؟" قال: امرأة من الأنصار وزينب. فقال رسول الله r "أي الزيانب هي ؟ قال: امرأة عبد الله، فقال رسول الله r :"لهما أجران: أجر القرابة وأجر الصدقة" [2]

إن فطنة زينب ومن لقيت عند رسول الله r جعلتهما يدركان ما للبيت القائم بشرع الله من حقوق على طرفيه (الزوج والزوجة) فقد جعل الله

١- رواه مسلم (٢/٦٩٣- ٦٩٤).

١- رواه مسلم (٢/٦٩٤- ٦٩٥).

بينهما مودة ورحمة، وذلك أدعى لاهتمام كل منهما بكفاية هذا البيت بما يحتاجه وإن كلف به الآخر، وذلك دون مَنٍّ أو أذى، وزادهما الرسول r والأمة حرصاً على ذلك بما كشف من مضاعفة الأجر حين قال: "لهما أجران: أجر القرابة وأجر الصدقة"

وصلة الرحم فوق ما يجني صاحبها من رضا الله تعالى ورسوله r خير وبركة على الوصول، وأهله، وذريته من بعده.

عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله r قال: "من أحب أن يبسط له في رزقه، وينسأ له في أثره، فليصل رحمه". [1]

أي ترغيب في الصلة أعظم من هذا؟

ولكنه الله الرحمن الرحيم، ورسوله الرءوف الرحيم، وتلك شريعة الله التي تأمر بالبر وتحسن مثوبته، وتنهى عن الإثم، وتفتح باب التوبة لمن ضلوا الطريق.

وقد يفاجأ الواصل بقطيعة من وصلهم، وهنا يظهر معدنه، ويتبين مدى أثر التربية فيه، لأنها إن كانت لله فقد وصلك الله بها، وإن كانت لغير الله فالله تعالى أغنى الشركاء عن الشرك، وأرفع الواصلين قدراً عند الله تعالى من وصل قاطعيه.

عن أنس رضي الله عنه أن رجلاً قال: يا رسول الله إن لي قرابة أصلهم ويقطعوني، وأحسن إليهم ويسيئون إلي، وأحلم عليهم ويجهلون علي، فقال: "لئن كنت كما قلت، فكأنما تسفهم الْمَلَّ، ولا يزال معك من الله ظهير عليهم ما دمت على ذلك"[2]

والتربية تقتضي أن يجعل الواصل عمله خالصاً لله تعالى تأدُّبًا بذلك الأدب القرآني العالي :

١- البخاري (٣ / ٣٤٨ فتح) ومسلم (٢٥٥٧) وأخرجه أبو داود (١٦٩٣)

٢- رواه مسلم (١٩٨٢/٤).

فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً (١١٠) [١]

فلا تكون الصلة رداً لأخرى سابقة، ولا مكافأة على جميل سبق به ذو الرحم، وإنما هي وقوف عند أمر الله تعالى، والتزام بمنهج الله تعالى.

عن النبي r قال: "ليس الواصل بالمكافئ ولكن الواصل الذي إذا قطعت رحمه وصلها" [٢]

وكفى الواصل الصدوق وصل الله تعالى له، وما أعده له من نعيم مقيم عنده جل وعلا.

عن أبي أيوب خالد بن زيد الأنصاري رضي الله عنه أن رجلاً قال: يا رسول الله أخبرني بعمل يدخلني الجنة، ويباعدني من النار. فقال النبي r : "تعبد الله، ولا تشرك به شيئاً، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصل الرحم". [٣]

والقطيعة بُعْدٌ عن الله تعالى، ومخالفة لصريح أمره، ومجافاةٌ لرسوله r ، وخروج على ما جاءنا به، وكفى القاطع زجرًا أن جعل الله تعالى القطيعة منه جل شأنه للقاطع، وقطع الرحم شؤم بصاحبه، ومن يلم به، وبعدٌ له من الله جل وعلا وضلال كبير ، بما يترتب عليه من فساد وما يستوجب من لعنة الله تعالى.

١- سورة الكهف الآية (١١٠)

٢- رواه البخاري (٢٩٣/١٦ فتح).

٣- رواه البخاري (٢٨/١٦ فتح).

قال تعالى: **فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ (٢٢) أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمْ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ (٢٣)** [٢]

وعقوبة الله تعالى، وغضبه أسرع إلى القاطع، وكفاهم خزياً وعاراً، وخيبة وخساراً أن جعل فعلهم من فعال الكافرين، قال تعالى: **إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلاً مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ (٢٦) الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ أُوْلَئِكَ هُمْ الْخَاسِرُونَ (٢٧)** [٣]

وعن أبي بكرة رضي الله عنه ، عن النبي r قال: "ما من ذنب أحرى أن يعجل الله لصاحبه العقوبة في الدنيا مع ما يدخر له في الآخرة من البغي وقطيعة الرحم "[١] وهو بعيد عن الجنة

عن محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه قال: سمعت رسول الله r يقول: "لا يدخل الجنة قاطع" [٢]

فهلا أخذنا أنفسنا وأهلينا، وأولادنا، ومن نعول بشرع الله، ودعونا غيرنا إلى ذلك ؟

أخوة الإيمان:

) يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (١٣)[٣]

١- سورة محمد الآيتان (٢٢- ٢٣).

٢- سورة البقرة (٢٦ - ٢٧)

٣- رواه الترمذي (٤/٦٦٤- ٦٦٥).

٤- رواه مسلم (٤/١٩٨١).

٥- سورة الحجرات الآية (١٣)

نداء لم تر الإنسانية مثله، ولم تسعد بمثل محتواه إلا في تلك الشريعة الغراء.

"يا أيها الناس المختلفون أجناساً وألواناً، المتفرقون شعوباً وقبائل. إنكم من أصل واحد، فلا تختلفوا ولا تتفرقوا ولا تتخاصموا ولا تذهبوا بدداً.

والذي يناديكم هذا النداء هو الذي خلقكم.. من ذكر وأنثى.. وهو يطلعكم على الغاية من جعلكم شعوبا وقبائل، إنها ليست التناحر والخصام، إنما هي التعارف والوئام، فأما اختلاف الألسنة والألوان، واختلاف الطباع والأخلاق، واختلاف المواهب والاستعدادات، فتنوع لا يقتضي النزاع والشقاق، بل يقتضي التعاون للنهوض بجميع التكاليف والوفاء بجميع الحاجات، وليس للون والجنس واللغة والوطن وسائر هذه المعاني من حساب في ميزان الله، إنما هنالك ميزان واحد تتحدد به القيم، ويعرف به فضل الناس: (**إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ**) والكريم حقاً هو الكريم عند الله.

وهكذا تسقط جميع الفوارق، وتسقط جميع القيم، ويرتفع ميزان واحد بقيمة واحدة، وإلى هذا الميزان يتحاكم البشر، وإلى هذه القيمة يرجع اختلاف البشر في الميزان.

وهكذا تتوارى جميع أسباب النزاع والخصومات في الأرض، وترخص جميع القيم التي يتكالب عليها الناس، ويظهر سبب ضخم واضح للألفة والتعارف: ألوهية الله للجميع، وخلقهم من أصل واحد، كما يرتفع لواء واحد يتسابق الجميع ليقفوا تحته: لواء التقوى في ظل الله. وهذا هو اللواء الذي رفعه الإسلام لينقذ البشرية من عقابيل العصبية للجنس، والعصبية للأرض، والعصبية للقبيلة، والعصبية للبيت، وكلها من الجاهلية

وإليها، وتتزيا بشتى الأزياء، وتسمى بشتى الأسماء، وكلها جاهلية عارية من الإسلام" [1]

"فالتعارف لا التنافر أساس العلائق بين البشر، وكل رابطة توطد هذا التعارف وتزيح من طريقه العوائق فهي رابطة يجب تدعيمها، والانتفاع بخصائصها. وليس الإسلام رابطة تجمع بين عدد أقل أو أكثر من الناس فحسب، ولكنه جملة الحقائق التي تقر الأوضاع الصحيحة بين الناس وربهم، ثم بين الناس أجمعين.

ومن ثم فأصحاب الإسلام وحملة رسالته يجب أن يستشعروا جلال العقيدة التي شرح الله بها صدورهم، وجمع عليها أمرهم، وأن يولوا التعارف عليها ما هو جدير به من عناية وإعزاز.. إنه تعارف يجدد ما درس من قرابة مشتركة بين الخلق، ويؤكد الأبوة المادية المنتهية إلى آدم بأبوة روحية ترجع إلى تعاليم الأديان الملخصة في رسالة الإسلام،وبذلك يصير الدين الخالص أساس أخوة وثيقة العرى، وتؤلف بين أتباعه في مشارق الأرض ومغاربها، وتجعل منهم، على اختلاف الأمكنة والأزمنة، وحدة راسخة الدعامة سامقة البناء، لا تنال منها العواصف الهوج.

وهذه الأخوة هي روح الإيمان الحي، ولباب المشاعر الرقيقة التي يكنها المسلم لإخوانه، حتى إنه ليحيا بهم ويحيا لهم، فكأنهم أغصان انبثقت من دوحة واحدة، أوروح واحد في أجسام متعددة "[2] وهي ثمرة العقيدة التي فطر الله الناس عليها، ولباب العهد الذي أخذه على بني آدم، ووثقه فيهم، وعليه أقام كل من رضي بالله تعالى رباً وبالإسلام ديناً، وبمحمد r نبياً ورسولاً، وعليها، ولها أُعِدَّ المسلم في ظلال أسرته بين يدي

١- سيد قطب، في ظلال القرآن، جـ(٦) ص(٣٣٤٨) بتصرف يسير، مرجع سابق.

٢- الشيخ محمد الغزالي، خلق المسلم، ص(٢٠٥- ٢٠٦) بتصرف، دار الكتب الحديثة،مكتبة المتنبي،ط(٤)، القاهرة – مصر، بغداد – العراق، ١٣٧٩هـ - ١٩٦٠م

والديه، ومن خلال صلته برَحِمِهِ، فإذا خرج إلى المجتمع، وصار أهلاً للتأثر به والتأثير فيه خرج بقلب سليم، لا يعرف الأثرة، لأنها لا توائم الأخوة، ولا تدعم التعارف، ولا تحيي روح الجماعة، وإنما تشعل نار الغرور والكبر، وتثير كوامن الحقد، وتبعث دواعي الفساد والشر.

"وقد حارب الإسلام هذه الأثرة الظالمة بالأخوة العادلة، وأفهم الإنسان أن الحياة ليست وقفاً عليه، وأنها لا تصلح به وحده، فليعلم أن هناك أناساً مثله، إن ذكر حقه عليهم ومصلحته عندهم فليذكر حقوقهم عليه ومصالحهم عنده، وتذكر ذلك يخلع المرء أثرته الصغيرة، ويجعله على الشعور بغيره حين يشعر بنفسه، فلا يتزيد ولا يفتات"[1]

ولعظمة تلك الأخوة أخوة الحب والسلام اللذان يملآن حياة العاملين بها، المتفاعلين مع الحياة والأحياء بمقتضاها ذكرها الله في كتابه العزيز، وجعلها سيما الإيمان والمؤمنين، فقال تعالى: (**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ**) [2]

أخوة قامت على الحق وبالحق، قامت على عقيدة ثابتة شامخة باقية، لا يميل بها الهوى، ولا تنحرف بها النزوات وهي أعظم وأقوى من كل ما يجتمع عليه الناس من علائق النسب، أو اللون، أو الجنس، أو الوطن، أو القومية، أو القارية، وغير ذلك مما تقام منه صروح، وتصاغ له روابط، وأهله كما قال جل شأنه: (**تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى**) [3] فلا يلبث أن ينهار، وينهار معه أهله.

أما أخوة الإيمان فقلب واحد تتقاسمه أمة، وروح واحد به يحيا الجميع، غايتهم واحدة، وهم وما ملكوا فداء تلك الغاية عن رضا وطواعية، بل عن رغبة واشتياق.

١- الشيخ محمد الغزالي: خلق المسلم ،ص (١٧١)، مرجع سابق.

٢- سورة الحجرات الآية (١٠)

٣- سورة الحشر الآية (١٤)

عن النعمان بن بشير قال: قال رسول الله r : "مثل المؤمنين في تراحمهم، وتوادهم، وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر"[١]

لا أظن عاقلاً يقول إن هناك إخاءً يداني ذلك الإخاء، فضلاً عن مماثلته. إنه إخاء يعلو كل المشكلات والعوائق، ويتحدى الكيد والحقد، لأنه إخاء بالله ولله (**وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ**) [٢]

إخاء يشد أزر الجماعة، ويفرغ على قلوب أفرادها سكوناً واطمئناناً.

عن أبي موسى، عن النبي r : "المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا" [٣]

لقد ذابت الفوارق، وامتزجت المشاعر، وتوحدت القوى.

عن علي (رضي الله عنه) عن النبي r : "المسلمون تتكافأ دماؤهم، ويسعى بذمتهم أدناهم، ويرد عليهم أقصاهم، وهم يد على من سواهم"[٤]

ليس بإمكان أي حضارة مزعومة مهما بلغت من الرقي أن تصل بأبنائها إلى معشار ما أقام الإسلام في أهله، وذلك لأن التربية في الإسلام منهج الله، وهو جل شأنه حق، ولا يشرع غير الحق.

أي حضارة تستطيع أن تقيم ما أقامه القرآن الكريم في أهله؟

لقد حولهم في سنوات معدودات إلى أمة لا نظير لها، وكانوا هملاً، لا رابط، ولا ضابط، وجعلهم إخوة وكانوا أعداءً، واستبدل بالأثرة الإيثار.

١- رواه مسلم (١٩٩٩/٤- ٢٠٠٠).

٢- سورة الأنعام الآية (١٨)

٣- رواه مسلم (١٩٩٩/٤).

٤- البغوي، شرح السنة، (١٧٢/١٠)، مرجع سابق.

وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٩) [١]

إن الترقي إلى مثل هذه الدرجة من صنع الله جل وعلا :

(وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنْ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٠٣) [٢]

فما قام الإخاء إلا بالله، وفي رحاب تلك العقيدة التي مَنَّ الله علينا بها، ولذا كان عطاؤه في الإسلام، وأثره بين المسلمين فوق ما يتصور البشر.

إنها أخوة لا سفه ولا حمق، ولا ملل منها ولا سأم، حاجة المسلم حاجة كل من علم بها من إخوانه المسلمين، لقد صار كل مسلم ستراً لأخيه حساً ومعنىً.

عن سالم عن أبيه أن رسول الله r قال: "المسلم أخو المسلم، لا يظلمه، ولا يشتمه، من كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته، ومن فرج عن مسلم كربة من كرب الدنيا فرج الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن ستر مسلما ستره الله يوم القيامة"[٣]

أخوة تواضع، لا تعالي فيها ولا غرور، أكرم المؤمنين عند الله أتقاهم، رُبُّوا على أدب أدبهم به ربهم جل وعلا: **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَومٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْراً مِنْهُمْ وَلا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْراً مِنْهُنَّ وَلا**

١- سورة الحشر الآية (٩)

٢- سورة آل عمران الآية (١٠٣)

٣- رواه مسلم (١٩٩٦/٤).

تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلا تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ بِئْسَ الاِسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُوْلَئِكَ هُمْ الظَّالِمُونَ (١١) [1]

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله r : "المسلم أخو المسلم لا يظلمه، ولا يخذله، ولا يحقره بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم، كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه"[2].

إن الأسس النظيفة التي قام عليها الإخاء في دين الله أقامت مجتمعا" سليما" نظيفا" لا يكدره سوء ظن، ولا تفسده نوازع الحقد، والكراهية، بل يحكم مساره الحب، ويجمع أهله الوفاق.

إنه المجتمع المتحاب بروح الله، الملتقي على شعائر الإسلام، حيث يقوم إخاء العقيدة مقام إخاء النسب، وربما ربت رابطة الإيمان على رابطة الدم..

إن أواصر الأخوة في الله هي التي جمعت أبناء الإسلام أول مرة، وأقامت دولته، ورفعت رايته، وعليها اعتمد الرسول r في تأسيس أمة صبرت، وصابرت، وجاهدت فأحسنت الجهاد، ثم خرجت بعد صراع طويل وهي رفيعة العماد، وطيدة الأركان، على حين ذاب أعداؤها، وهلكوا.

لقد حذر الله تلك الأمة أن تأخذها التوافه عن دين الله، أو تنأى بها عن منهجه فقال جل شأنه:

١- سورة الحجرات الآية (١١)

٢- رواه مسلم (١٩٨٦/٤).

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنْ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلا تَجَسَّسُوا وَلا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضاً أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ (١٢) [١]

وحذر الرسول r أمته من الرذائل التي تبدو للنظر القاصر تافهة الخطر، غير أنها لمن تدبر عواقبها تصدع القلوب، وتجفف عواطف الود.

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله r قال: "إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث، ولا تحسسوا، ولا تجسسوا، ولا تنافسوا، ولا تحاسدوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخواناً كما أمركم، المسلم أخو المسلم ، لا يظلمه، ولا يخذله، ولا يحقره، التقوى هاهنا" ويشير إلى صدره ((بحسب امرئ من الشر أن يحقره أخاه المسلم كل المسلم على المسلم حرام دمه، وعرضه، وماله، إن الله لا ينظر إلى أجسادكم ولا إلى صوركم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم"

وفي رواية: "لا تحاسدوا ولا تباغضوا، ولا تجسسوا، ولا تحسسوا ولا تناجشوا وكونوا عباد الله إخواناً" [٢]

وفي رواية: "لا تهاجروا، ولا يبع بعضكم على بيع بعض"[٣]

أي تربية كتلك التربية التي تنتزع سخائم النفوس، وتعيدها تقية، نقية، وفية رضية كما برأها الله تعالى؟

إن فرائض الإسلام، وقيمه، وحدوده تتلاقى لتخلق المجتمع الفاضل النقي الذي صنعه الإسلام، وصاغته شريعته.

إن المسلم الحق من ينشر الأمن، ويزرع السكينة، ويأنس إلى الناس، ويأنسون له.

١- سورة الحجرات الآية (١٢)

٢- رواه مسلم (١٩٨٦/٤).

٣- رواه مسلم (١٩٨٥/٤).

عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: قال رسول الله r : "المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه"[1]

إنه الذي يرى نعم الله تترى على عباده، فيسعد بها، ويحمد عليها، وكأنها سبقت إليه، ويتسع قلبه لمن حوله، وتسكن لديه آمالهم، فيرجو لهم ما يرجو لنفسه من نعم.

عن أنس أن رسول الله r قال: "لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه من الخير"[2]

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: قال رسول الله r : "من أحب أن يزحزح عن النار، ويدخل الجنة، فلتأته منيته، وهو يؤمن بالله واليوم الآخر، وليأت إلى الناس الذي يحب أن يؤتى إليه" [3]

إن نظرة المؤمن الذي خالط الإيمان شغاف قلبه ليست محدودة ولا قاصرة، فهو ينظر إلى الأمة ككيان متكامل، ينبغي ألا يغيب عنه، أو يعتزل حركته الدائبة، بل يعرف نفسه من خلاله، ويقيس قيمته من تفاعله مع هذا الكيان العظيم، وما يقدم إليه من جهد، وما يحمل له من مشاعر الحب والوفاء.

إن الحركة المسلمة الواعية تجعل مجتمع الإسلام في وصال دائم حتى لا يكاد الناظر يرى مؤمناً خالياً منفرداً عن أخٍ له في الله تعالى، وقد عني الإسلام بملء حياتنا بمثل ذلك حتى ترى في المسلمين صورة الجسد لا يستقل عضو منه عن سائره، ولا يقف عن التفاعل مع كل خلايا الجسم، وإلا كان ميتاً.

١- رواه أحمد (٢/٢٢٤).

٢- رواه مسلم (١/٦٧).

٣- رواه مسلم (٣/١٤٧٣).

إن التربية الرشيدة في ظل الإيمان تدعو الناس جميعاً إلى تواصل بريء من عبادة المادة،أو الكدح وراء المنافع الدنيوية، والرغبة في إشباع الأهواء والنزوات إنه اتصال في ظل الهدف الأسمى إنه مودة لله وفي الله.

إن الضوائق التي تعتصر البشر، والتي تنوعت مصادرها، وتفاقمت آثارها، ولم يجد المنكوبون بها إلا آهاتٍ مكبوتة لا يسعى في تفريجها إلا مؤمن أثمر فيه أدب الإسلام، وأعدته التربية لخوض الحياة على أساس سليم قويم مع الله تعالى، وخلقه جميعاً.

ومن هنا كانت دعوة القرآن الكريم:

وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلا تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ(٢)[1]

ويرسم الرسول r صورة طيبة تعبر عن صلة طيبة بالله، وكريم تأدب بأدبه جل شأنه فيما شرع لعباده من التعاون الذي به تعرف حقيقة الإيمان، ومدى تسخير نعم الله تعالى لإسعاف ذوي الحاجات، ورفع الحرج عمن أحاطتهم النوائب فآثر أكثرهم الصمت، ومنعهم الحياء من كشف أحوالهم عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي r قال: "من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن يسر على معسر يسر الله عليه في الدنيا والآخرة، ومن ستر مسلماً ستره الله في الدنيا والآخرة، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه"[2]

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي r قال: "لا يستر عبد عبداً في الدنيا إلا ستره الله يوم القيامة" [3]

١- سورة المائدة الآية (٢)

٢- رواه مسلم (٤/٢٠٧٤).

٣- رواه مسلم (٤/٢٠٠٢).

إنها تجارة رابحة مع الله جل وعلا حين يتواصل المؤمنون بعطاء الله تعالى لهم، ونعمه فيهم، فليقون من الله تعالى ذي الطول والإنعام، المتفضل أولاً وآخراً، يلقون بالإحسان إحساناً، وقد أخذ الله على نفسه العهد تكريماً للإحسان، وإعلاءً لمنزلة المحسنين عنده، فقال جل شأنه: **هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلاَّ الإِحْسَانُ** (٦٠) [١]

وقال جل جلاله: **إِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ** (١٢٠) [٢]، بل خصهم بمزيد فضله، وكريم عطائه، وسابغ رحمته فقال جل شأنه: **إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنْ الْمُحْسِنِينَ** (٥٦) [٣]، وشرفهم بحبه فقال تعالى: **وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ** (١٩٥) [٤]

شتان بين كربات الدنيا وكربات الآخرة، وتيسير عبد على معسر، وتيسير الله له في الدنيا والآخرة، وستر مسلم مسلماً حساً ومعنىً، وستر الله تعالى لعباده، وعون عبد ضعيف فقير لمثله، وعون الله القادر المقتدر لعباده، ولكنه الحق الذي وعد الله به عباده، وحببهم به في البر، وحبب البر إليهم قال تعالى: **وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَى** (٣٩) **وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى** (٤٠) **ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الأَوْفَى** (٤١) [٥]

إن الذين أقعدهم المرض أحوج ما يكونون إلى صلة كريمة تخفف من آلامهم، وتنسيهم شيئا من عنائهم، وتذكرهم أن ذكرهم في المجتمع قائم، وحقهم على إخوانهم لا يضيع، بل يكبر، ويعلو بمقدار ما يعانون من بلاء، ولذا كان ذلك الأمر الكريم من الرءوف الرحيم ﷺ .

١- سورة الرحمن (٦٠)
٢- سورة التوبة الآية (١٢٠)
٣- سورة الأعراف الآية (٥٦)
٤- سورة البقرة الآية (١٩٥)
٥- سورة النجم الآيات (٣٩ - ٤١)

عن أبي موسى رضي الله عنه قال: قال رسول الله r : "أطعموا الجائع وعودوا المريض، وفكوا العاني" [1]

إنها فضائل لا يرقى إليها إلا من صقل الإيمان روحه، وصفى قلبه، وخلص من الأوزار نفسه، وأقبل على الله ففاض خيراً لعباده.

وفعل الفضائل ليس منة، وإنما هو حق يعلو المؤمن بأدائه، وينحدر بالغفلة عنه، ونسيانه.

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله r قال:

"حقٌّ المسلم على المسلم خمس: رد السلام، وعيادة المريض، واتباع الجنائز، وإجابة الدعوة، وتشميت العاطس" [2]

ثم انظر إلى تلك الحفاوة الربانية، والعناية الإلهية بمن يذكرون مرضاهم عن ثوبان رضي الله عنه عن النبي r قال: "من عاد مريضا لم يزل في خرفة الجنة حتى يرجع" قيل يا رسول الله وما خرفة الجنة؟ قال: "جناها""[3]

وأي استقبال ذلك الذي يفوق تقدير البشر لأنه تدبير العلي العظيم، وتكريمه عباده الذين سعوا إليه في سعيهم إلى عيادة المرضى؟

عن علي رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله r يقول: "ما من مسلم يعود مسلماً غدوة إلا صلى عليه سبعون ألف ملك حتى يمشي،وإن عادة عشية إلا وكان له خريف الجنة" [4]

بل إن خطوات العائدين تعطر الأرض، وتطيب المسعى، وتجعل لهم عند الله تعالى وداً.

١- رواه أحمد (٢٣/٣).

٢- البغوي، شرح السنة، (٢١٤/٥)، مرجع سابق.

٣- رواه مسلم (١٩٨٩/٤).

٤- البغوي، شرح السنة، (٢١٧/٥- ٢١٨)، مرجع سابق.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله r : "من عاد مريضاً، أو زار أخاً له في الله ناداه منادٍ: بأن طبت، وطاب ممشاك، وتبوأت من الجنة منزلاً"[1]

ثم ما هذا العتاب الرباني لمن عرفوا فقصروا، وربوا فما أفادوا، ودعوا إلى الله فتباطأت خطاهم؟

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله r : "إن الله عز وجل يقول يوم القيامة: يا ابن آدم مرضت فلم تعدني! قال: يارب كيف أعودك وأنت رب العالمين؟ قال: أما علمت أن عبدي فلاناً مرض فلم تعده؟ أما علمت أنك لو عدته لوجدتني عنده؟ يا ابن آدم استطعمتك فلم تطعمني! قال: يارب كيف أطعمك وأنت رب العالمين؟ قال: أما علمت أنه استطعمك عبدي فلان فلم تطعمه؟ أما علمت أنك لو أطعمته لوجدت ذلك عندي؟ يا ابن آدم استسقيتك فلم تسقني. قال: يا رب كيف أسقيك وأنت رب العالمين؟ قال: استقاك عبدي فلان فلم تسقه، أما علمت أنك لو سقيته لوجدت ذلك عندي؟" [2]

إنه لون من التربية انفردنا به دون غيرنا تذكيراً للساهي، وإرشاداً للغافل إن المنعم جل وعلا يعتب على أسباب البشرية تقصيرهم، وقد أسبغ عليهم نعمة ظاهرة وباطنة، وجعلهم مستخلفين، فكان الأولى بهم أن يحفظوا عهده، ويؤدوا حق عباده عليهم.

إنه الله الذي قال عن نفسه جل شأنه: **قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيّاً فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلا يُطْعَمُ**.....). [3]

وقد امتن على قريش بعد أن دعوا إلى الله فأبوا، فقال جل شأنه: **فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ**

١- رواه الترمذي (٣٦٥/٤).

٢- رواه مسلم (١٩٩٠/٤).

٣- سورة الأنعام الآية (١٤)

هَذَا الْبَيْتِ (٣) الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ (٤) [١]

وأجرى ذلك الاعتراف الطيب الكريم على لسان خليله إبراهيم عليه السلام: (**الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ (٧٨) وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ (٧٩) وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ (٨٠) وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ (٨١) وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ (٨٢)** [٢]

ومع تفرده بالعزة والقدرة والملك يستحث عباده المؤمنين ليطلبوا بنعم الله عليهم مراتب العفو والغفران، والرقي والكمال عنده.

ويرينا الرسول الكريم، والمعلم المعصوم، والمربي المؤيد بالوحي ثمرة هذا اللون من العبادة وأثره الطيب على العائد والمعود.

عن أنس رضي الله عنه، قال: كان غلام يهودي يخدم النبي r ، فمرض فأتاه النبي r يعوده، فقعد عند رأسه فقال له : "أسلم" فنظر إلى أبيه وهو عنده، فقال: أطع أبا القاسم، فأسلم، فخرج النبي r وهو يقول: " الحمد لله الذي أنقذه من النار" [٣]

إن الإنسانية لفي أشد الحاجة إلى هذا النسق العالي من التربية، وأولى بذلك وأحق من اختار الله تعالى لهم الإسلام ديناً.

وخطوات يخطوها مسلم لزيارة مسلم ابتغاء مرضاة، لا سعيا وراء منفعة، أو حرصاً على بلوغ شيء من الدنيا عمل يؤكد أغلى وأعلى ثمار التربية، ويباركه ويبارك صانعه، ويحسن له مثوبته.

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي r : "أن رجلاً زار أخاً له في قرية أخرى، فأرصد الله على مدرجته ملكاً، فلما أتى عليه قال: أين تريد؟

١- سورة قريش الآيتان (٣ - ٤)

٢- سورة الشعراء الآيات (٧٨ : ٨٢)

٣- رواه أبو داود (١٨٥/٣).

٤- رواه مسلم (١٩٨٨/٤).

قال: أريد أخاً لي في هذه القرية، قال: هل لك عليه من نعمة تربها؟ قال: لا، غير أني أحببته في الله، قال: فإني رسول إليك بأن الله قد أحبك كما أحببته فيه".[٢]

إن العلاقات في الإسلام علاقات نظيفة، لم تلوثها شوائب الأهواء، ولم تعبث بها دواعي النزوات، وهي مبرأة من كل منزع خسيس، أو هدف رخيص، لأنها إن قامت ينبغي أن تقوم لله وفي الله، والله تعالى طيب لا يقبل إلا طيباً عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله r : "ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار"[١]

والحب في الله تعالى يؤصل الرحمة التي وصف الله تعالى نفسه بها، وألزمنا الإقرار بها سبع عشرة مرة في ركعات الفرائض، ثم ما يتلوها من النوافل كل يوم، فقال جل شأنه :[الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ][٢]

ووصف بها رسوله r فقال جل شأنه: **لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ** (١٢٨)[٣]

وجعلها أخص صفات حبيبه ومصطفاه ومن معه، فقال جل شأنه:

مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ [٤]

وتتجلى مظاهر الرحمة التي يدعو إليها الإسلام في مظاهر الحياة اليومية، وما يعرض فيها من أحداث يدعونا الله فيها إلى أن تتمثل فينا تلك الرحمة واثقين بالله تعالى مؤمنين بفضله، وهاك مشهد تربوي رائع على

١- رواه البخاري (١/ ١٥١ فتح)، ومسلم (١/ ٦٦).

٢- سورة الفاتحة الآية (٣).

٣- سورة التوبة الآية (١٢٨)

٤- سورة الفتح الآية (٢٩)

مائدة طعام المؤمن عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله r : "طعام الاثنين كافي الثلاثة، وطعام الثلاثة كافي الأربعة" [1]

وفي رواية لمسلم عن جابر رضي الله عنه عن النبي r قال: "طعام الواحد يكفي الاثنين، وطعام الاثنين يكفي الأربعة، وطعام الأربعة يكفي الثمانية" إنها دعوة إلى اتساع الصدور قبل المجالس، ورحابة النفوس قبل التلاقي على الموائد، واليقين التام بمعية الله تعالى للصالحين حتى في طعامهم.

أما ما ينافي الأدب، ويجافي التربية فالإسلام يبرأ منه، وينفر منه كل من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد .

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي r قال: "شر الطعام طعام الوليمة، يمنعها من يأتيها، ويدعى إليها من يأباها، ومن لم يجب الدعوة فقد عصى الله ورسوله" [2]

قد تعقد الولائم لمن هم في غنى عنها، ونرى في حضورهم شرفا، والحق غير ذلك، فزينة الموائد وبركتها، من يدعون إليها، وهم أشد احتياجا إليها، ورغبة في حضورها.

وأين نحن من ذلك الأدب السامي الذي تحلى به جماعة من أصحاب رسول الله r ؟

عن أبي موسى رضي الله عنه قال : قال رسول الله r : "إن الأشعريين إذا أرملوا في الغزو أو قل طعام عيالهم بالمدينة جمعوا ما كان عندهم في ثوب واحد ثم اقتسموا بينهم في إناء واحد بالسوية فهم مني وأنا منهم"[3] أي خلق هذا؟ وأي تربية أثمرت هذا السلوك الطيب؟ إنها أخلاق

١- البغوي، شرح السنة، (٣٢٠/١١)، مرجع سابق.

٢- رواه مسلم (١٦٣٠/٣).

٣- رواه مسلم (١٩٤٤/٤- ١٩٤٥).

المؤمنين ، وتربية محمد r ، وقد غابت عن عالم الحضارة وسيطر الحرص والشح والجشع .

بل قل لي أي أمة ترقت إلى ما ترقى به النبي الكريم r مع أمته، ولازمها ذلك ما دامت بالله معتصمة، وبشرعه قائمة. عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: بينما نحن في سفر مع النبي r إذ جاء رجل على راحلة له ، فجعل يصرف بصره يمينا وشمالا، فقال رسول الله r : "من كان معه فضل ظهر فليعد به على من لا ظهر له، ومن كان له فضل من زاد فليعد به على من لا زاد له" فذكر من أصناف المال ما ذكر حتى رأينا أنه لاحق لأحد منا في الفضل.[1]

إن حضارة الإنسان المعاصر عاجزة غاية العجز عن التزام مثل هذا، وغير قادرة على الأخذ باليسير منه، وذلك لأن الإسلام يربي النفوس، ويقيمها على الحق، ويشربها الخلق الكريم، فإذا هي تسرع إليه عن حب ورغبة، وتنفذه في صدق وإخلاص راجية أن تكون قد وقفت إلى بلوغ حد طيب من أدب الإسلام، وشرع الله في تربية المسلمين.

إن الذين يساقون بالقانون، أو يدفعون إلى السلوك الحسن دفعاً قد يفعلون وقلوبهم تقطر دماً شحاً، وبخلاً، وغيظاً لما أنفقوا مكرهين.

أما الإسلام فقد ربى هؤلاء الذين قال الله تعالى عنهم:

وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمْ الْمُفْلِحُونَ (٩) [2]

"وهذه صورة وضيئة صادقة يبرز أهم الملامح المميزة للأنصار هذه المجموعة التي تفردت بصفات، وبلغت إلى الآفاق، لولا أنها وقعت بالفعل

١- رواه مسلم (١٣٥٤/٣).

٢- سورة الحشر الآية (٩)

لحسبها الناس أحلاماً طائرة، ورؤى مجنحة، ومثلاً علياً قد صاغها خيال محلق"[1]

والأمر غير ذلك إنها تربية الإسلام، وتأديب الرسول الأكرم r أمته، وقد يمثل حياً واضحاً، وواقعاً محساً ملموساً في أصحابه رضوان الله عليهم أجمعين.

وكان مقتضى التربية الإسلامية أن يكون المسلم في فعاله وأقواله وسلوكه، برداً وسلاماً مع حوله، وقد عني بذلك عناية فائقة، وحث على التزام ما دعا إليه، وآيات القرآن الكريم في هذا الصدد لا حصر لها فهناك على سبيل المثال لا الحصر صفات المؤمنين في مطلع سورة (المؤمنون).

قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (١) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ (٢) وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ (٣) وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ (٤) وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (٥) إِلاَّ عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (٦) فَمَنْ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمْ الْعَادُونَ (٧) وَالَّذِينَ هُمْ لأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ (٨) وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (٩) أُوْلَئِكَ هُمْ الْوَارِثُونَ (١٠) الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١١)[2]

وفي سورة الأنفال قوله تعالى: **إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٢) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (٣) أُوْلَئِكَ هُمْ الْمُؤْمِنُونَ حَقّاً لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٤)** [3]

٢- سيد قطب، في ظلال القرآن ، جـ(٦) ، ص(٣٥٢٦) ، مرجع سابق.

١- سورة المؤمنون الآيات (١ - ١١)

٢- سورة الأنفال الآيات (٢ - ٤)

وصفات عباد الرحمن : **وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْناً وَإِذَا خَاطَبَهُمْ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاماً (٦٣) وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّداً وَقِيَاماً (٦٤) وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَاماً (٦٥) إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرّاً وَمُقَاماً (٦٦) وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَاماً (٦٧) وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَاماً (٦٨) يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَاناً (٦٩) إِلاَّ مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحاً فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً (٧٠) وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَاباً (٧١) وَالَّذِينَ لا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَاماً (٧٢) وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمّاً وَعُمْيَاناً (٧٣) وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً (٧٤) أُوْلَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلاماً (٧٥)** [1]

ثم صفات المتقين في مواقع كثيرة منها :

ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ (٢) الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (٣) وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (٤) أُوْلَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٥) [2]

وقوله تعالى: **وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (١٣٢) وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ (١٣٣) الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنْ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣٤) وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ**

١- سورة الأنفال (٦٣ - ٧٥)

٢- سورة البقرة (٢ - ٥)

الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٣٥) أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ (١٣٦) [1]

وقوله تعالى: **إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٥) آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ (١٦) كَانُوا قَلِيلاً مِنْ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ (١٧) وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (١٨) وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (١٩)** [2]

وهكذا في كثير من آيات القرآن الكريم ترى التربية القويمة التي تؤصل في المؤمن قيما فاضلة، وتجعل منه طاقة عطاء في الخير، وحصن وقاية من الشر، وقوة دفع طاردة للسوء وأهله، مقومة لمن سبق له الهدى منهم.

إن المؤمن الذي تثمره التربية الإسلامية فطرة قويمة، وقلب سليم، ونفس مطمئنة بالإيمان، وحب الإيمان، وحب الله تعالى، ورسوله r ، وفيض هدىً رحمة لمن آمن بالله واليوم الآخر، ولسان صدق في الدعوة إلى الله، وواقع عملي حي للإيمان بالله تعالى، محسنهم على رجاء وخشية، ومخطئهم على وجل وخوف وهاك نموذج من التربية القرآنية:

إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثاً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٥٤) ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (٥٥) وَلا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفاً وَطَمَعاً إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنْ الْمُحْسِنِينَ (٥٦) [3]

١- سورة آل عمران (١٣٢ - ١٣٦)

٢- سورة الذاريات الآيات (١٥ - ١٩)

٣- سورة الأعراف الآيات (٥٤ - ٥٦)

وإذا غلبت طبيعة البشر، ومال المؤمن عن الصراط المستقيم أدركه القرآن فقوم اعوجاجه، وأصلح انحرافه، ودعاه إلى عودة كريمة إلى رب كريم: **إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنْ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ (٢٠١)** [١]

وقوله تعالى: **وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٣٥)** [٢]

ثم ترى فضل الله ورحمته بهم في الآية التالية: **أُوْلَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ (١٣٦)** [٣]

وعلى هذا النسق الكريم كانت سيرة المؤمنين بعضهم مع بعض، وقام القرآن الكريم يزكيهم ويذكرهم، والسنة الشريفة تهديهم وتسددهم حتى بظل مجتمع الإسلام على بينة من ربه.

فحين يتحدث عن القلب يقول ربنا جل وعلا:

يَوْمَ لا يَنْفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ (٨٨) إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٩) [٤]

ويقول رسول الله r: "ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب"[٥] وعلمنا ما يصلحه، ويثبت سلامته:

إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (١٣) أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٤) [٦]

١- سورة الأعراف الآية (٢٠١)
٢- سورة آل عمران الآية (١٣٥)
٣- سورة آل عمران الآية (١٣٦)
٤- سورة الشعراء الآيتان (٨٨ - ٨٩)
٥- رواه مسلم (٣/١٢٢٠).
١- سورة الأحقاف الآيتان (١٣ - ١٤)

وعن أبي عمرو ، وقيل: أبي عمرة سفيان بن عبد الله رضي الله عنه قال: قلت يا رسول الله r قل لي في الإسلام قولا لا أسأل عنه أحدا غيرك قال: "قل آمنت بالله ثم استقم" [1]وجعل طمأنينته في الذكر.

قال تعالى: **الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ (٢٨)** [2]

وحياته في الاستجابة، وذكره لله جل شأنه:

قال تعالى: **(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٢٤)** [3]

وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه عن النبي r قال: "مثل الذي يذكر ربه والذي لا يذكره كمثل الحي والميت"[4]

وهو ملك الحواس وهي جنوده، فقوم القرآن الكريم هذه الجنود، وعمل على أصلاحها، وأولاها الرسول r بالغ عنايته، فنرى في القرآن الكريم: **قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ (٣٠)** [5]

ويقول جل شأنه إيقافا للمؤمن على خطورة الحواس، وأثرها البالغ في الإنسان: **(وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا)** [6]

(مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ (١٨) [7]

١- رواه مسلم (٦٥/١)، وفيه بدل غيرك "بعدك" وبدل "ثم استقم" "فاستقم"

٢- سورة الرعد الآية (٢٨)

٣- سورة الأنفال الآية (٢٤)

٤- رواه مسلم (٥٣٩/١).

٥- سورة النور الآية (٣٠)

٦- سورة الأنعام الآية (١٥٢)

٧- سورة ق الآية (١٨)

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله r قال: "من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت" [١]

وتلك وصيته r عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله ما النجاة؟ قال: "أمسك عليك لسانك، وليسعك بيتك، وابك على خطيئتك"[٢]

ويربي القرآن الكريم المؤمنين تربية سديدة واعية تجاه حواسهم حتى تكون لهم لا عليهم في الدنيا والآخرة، فيقول جل شأنه: **وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً** (٣٦) [٣]

ويلفت أنظارنا إلى عثرات الحواس عامة، واللسان خاصة حتى نكون على بينة من أمرنا فيقول جل وعلا: **وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ**[٤]

ويقول جل شأنه: **يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** (٢٤) **يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمْ اللَّهُ دِينَهُمْ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ** (٢٥) [٥]

ويورد تلك الحاجة بين البشر والجلود عامة في يوم الفصل قال تعالى: **حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** (٢٠) **وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ** (٢١) **وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلا أَبْصَارُكُمْ وَلا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لا يَعْلَمُ كَثِيراً مِمَّا تَعْمَلُونَ** (٢٢) **وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمْ الَّذِي ظَنَنتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنْ الْخَاسِرِينَ** (٢٣) [٦]

١- رواه مسلم (٦٨/١).

٢- رواه الترمذي (٦٠٥/٤).

٣- سورة الإسراء الآية (٣٦)

٤- سورة الهمزة الآية (١)

٥- سورة النور الآيتان (٢٤ - ٢٥)

٦- سورة فصلت الآيات (٢٠ - ٢٣)

وتجادل الحواس اللسان في الدنيا مخافة البوار والخسار في الدنيا والآخرة. عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي r قال: "إذا أصبح ابن آدم، فإن الأعضاء كلها تكفر اللسان، تقول: اتق الله فينا، فإن استقمت استقمنا وإن اعوججت اعوججنا" [1]

إن التربية في الإسلام تهدف إلى إصلاح المجتمع كله، ولن يكون ذلك إلا بإصلاح الفرد الذي من مجموعه يتكون المجتمع، وتتحدد معالمه، ولكي يكون الفرد سويا لا بد من إقامة ظاهره وباطنه على نهج الله،وتربيتهما على شريعته قال تعالى **فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ** (١١٢) [2]

وكفاهم عظة وتربية، وإصلاحاً، وإقامة على الحق، وبراءة من الضلال، ودحراً للباطل.

مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلاَّمٍ لِلْعَبِيدِ (٤٦) [3]

وقوله جل شأنه: **مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ** (١٥) [4]

وليتنا نقف عند قوله تعالى: **يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتاً لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ** (٦) **فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَه** (٧) **وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَه** (٨) [5]

أو نستشعر تلك الرقابة الدائمة الشاملة لنا ولأعمالنا.. **(أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلاثَةٍ إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ وَلا خَمْسَةٍ إِلاَّ**

١- رواه الترمذي (٤/٦٠٥- ٦٠٦).

٢- سورة هود الآية (١١٢)

٣- سورة فصلت الآية (٤٦)

٤- سورة الجاثية الآية (١٥)

٥ - سورة الزلزلة الآيات (٦ - ٨)

هُوَ سَادِسُهُمْ وَلا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلا أَكْثَرَ إِلاَّ هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٧) [١]

٤- سورة المجادلة الآية (٧)

الفصل الرابع:

التربية بين الإنسان والكون

القرآن والبيئة الكونية:

يتجلى من خلال مدارسة القرآن الكريم وتدبر آياته أن البيئة الكونية تحتل حيزاً كبيراً في التوجهات القرآنية التي تستهدف بناء الإنسان وتأهيله لإنجاز الغاية من وجوده ألا وهي الخلافة، قال تعالى:

وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً.....) [1]

وقد اعتبر القرآن الكريم عنصر الكون أساساً من عناصر البيئة الوجودية التي تحتضن الوجود الإنساني إلى جانب العنصرين المهمين: العنصر الغيبي، والعنصر الاجتماعي، قال تعالى:

وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ (٢٠) وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ (٢١) [2] قال تعالى: **أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ** [3]

وكما جاء الخطاب القرآني هادفا إلى تربية الإنسان تربية تؤدي إلى حسن التعامل مع الوجود الغيبي، ومع البيئة الاجتماعية، فإنه جاء أيضاً هادفاً إلى تربيته ليحسن التعامل مع البيئة الكونية بإرشاد من الله تعالى لتحقيق الغاية من وجوده، قال تعالى: **هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ (١٥)** [4]

١- سورة البقرة الآية (٣٠)

٢- سورة الذاريات الآيتان (٢٠ - ٢١)

٣- سورة الأعراف الآية (١٨٥)

٤- سورة الملك الآية (١٥)

وقال تعالى: **وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً** (١٢) [١]

حتى لنكاد نرى في كل تصوير قرآني الكون وآياته غرضا تربويا للإنسان يدعوه إلى تحقيق وجوده الروحي أو المادي، أو هما معا.

قال تعالى **وَأَنزَلْنَا مِنْ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجاً** (١٤) **لِنُخْرِجَ بِهِ حَبّاً وَنَبَاتاً** (١٥) **وَجَنَّاتٍ أَلْفَافاً** (١٦) [٢]

وقال تعالى: **خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُسَمًّى أَلا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ** (٥) [٣]

وقال تعالى: **وَالَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ الْفُلْكِ وَالأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ** (١٢) **لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ** (١٣) **وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ** (١٤) [٤]

وغير ذلك من الآيات التي تربط بين الكون من مختلف ظواهره، وبين الإنسان بجوانبه المختلفة، بحيث يمكن القول: إن تلك العناصر لم يرد ذكرها في القرآن الكريم إلا في سياق يكون فيه الإنسان محوراً لذلك السياق تربية له، وصقلاً لبنائه، وتفعيلاً لوجوده.

ومن هنا يمكننا القول بأن القرآن يشتمل على تربية كونية للإنسان، تعده نفسياً، وعقلياً، وروحياً، ومادياً للتوافق مع الكون،

١- سورة الإسراء الآية (١٢)

٢- سورة النبأ الآيات (١٣- ١٦)

٣- سورة الزمر الآية (٥)

٤- سورة الزخرف الآيات (١٢ - ١٤)

فيكون التفاعل الذي يحقق مصالح الإنسان ، ويصل به الغاية العظمى المنشودة له.

مقاصد التربية الكونية في القرآن الكريم:

وللتربية الكونية في القرآن الكريم مقاصد تختلف باختلاف الصور لتصل بالإنسان إلى المقصد العام للتربية، وتدور تلك الصور في عمومها على المداخل التي يكون منها للصورة الكونية دور في ترقية الإنسان إلى مرتبة رفعته وكماله:

١- ترقية الإنسان باستخدام العنصر الكوني وسيلة إلى الحقائق الغيبية كما قال تعالى: **إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنْ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (١٦٤)**[1]

يقول الطبري: "فهذه هي الآيات الدالة على أن اللّه سبحانه صانع غير مصنوع قادر لا يعجزه شيء عالم لا يخفى عليه شيء، حي لا تلحقه الآفات ولا تغيره الحادثات، ولا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء وهو السميع البصير. استشهد بحدوث هذه الأشياء على قدمه وأزليته وبما وسمها به من العجز والتسخير على كمال قدرته، وبما ضمنها من البدائع على عجائب خلقته. وفيها أيضا أوضح دلالة على أنه سبحانه المنان على عباده بفوائد النعم، المنعم عليهم بما لا يقدر غيره على الإنعام بمثله من جزيل القسم، فيعلم بذلك أنه سبحانه الإله الذي لا يستحق العبادة سواه. وفي هذه الآية أيضاً دلالة على وجوب النظر والاستدلال، وأن ذلك هو الطريق إلى معرفته وفيها البيان لما يجب فيه النظر وإبطال التقليد".[2]

١- سورة البقرة الآية (١٦٤)

٢- الإمام الطبري، تفسير الطبري، جـ(٢)، ص(٦١)، مرجع سابق.

٢- ترقية الإنسان باستعمال الصورة الكونية وسيلة تحقق الخير الاجتماعي، كما في قوله تعالى:

وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ وَتَثْبِيتاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢٦٥) [١]

"أي مثل المنفقين أموالهم ابتغاء رضوانه تعالى، وتمكيناً لأنفسهم في مراتب الإيمان والإحسان باطمئنانها حين البذل حتى يكون ذلك سجية لها، كمثل جنة جيدة التربة ملتفة الشجر، عظيمة الخصب، تنبت كثيراً من الغلات، نزل عليها مطر كثير فكان ثمرها مثلي ما كانت تغل، وإن لم يصبها الوابل فطل ومطر خفيف يكفيها لجودة تربتها وكرم منبتها وحسن موقعها، وهكذا كثير البر كثير الجود إن أصابه خير كثير أغدق ووسع في الإنفاق، وإن أصابه خير قليل أنفق بقدره، فخيره دائم، وبره لا ينقطع، ثم يقول: وقد هدانا الله بهذا إلى أن نقصد بأعمالنا طلب رضاه وتزكية نفوسنا وتطهيرها من الشوائب التي تعوقها عن الكمال كالبخل والمبالغة في حب المال، فإن نحن فعلنا ذلك جوزينا خير الجزاء" [٢]

٣- ترقية الإرادة الإنسانية بدفعها إلى مواقع الفعل المؤثر الذي يسيطر على الطبيعة، ويسخرها لمصلحة الإنسان، كما في قوله تعالى:

هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ (١٥) [٣]

يقول الشيخ المراغي: " أي إن ربكم هو الذي سخر لكم الأرض وذللها لكم، فجعلها قرة ساكنة، لا تميد ولا تضطرب بما جعل فيها من

١- سورة البقرة الآية (٢٦٥)

٢- المراغي، تفسير المراغي، جـ (٢) ص (٣٦ - ٣٧) ، مرجع سابق.

٣- سورة الملك الآية (١٥)

الجبال، وأوجد فيها من العيون، لسقيكم وسقي أنعامكم وزروعكم وثماركم، وسلك فيها السبل، فسافروا حيث شئتم من أقطارها، وترددوا في أرجائها، لأنواع المكاسب والتجارات، وكلوا مما أوجده لكم فيها بفضله من واسع الأرزاق والسعي في الأرزاق لا ينافي التوكل على الله.

ثم ينتقل رحمه الله تعالى إلى صورة كونية في الحديث الشريف تصل بالإنسان إلى نفس الغاية.

روى أحمد عن عمر بن الخطاب أنه سمع رسول الله r يقول: "لو أنكم توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير، تغدو خماصاً، وتروح بطاناً" فأثبت لها غدواً ورواحاً لطلب الرزق مع توكلها على الله عز وجل وهو المسخر الميسر المسبب "[1].

وهكذا نرى تلك المقاصد تسهم إسهاماً واضحاً في بناء المؤمن، وترشيد توجهاته، والترقي بها نحو الكمال.

عقدية التربية الكونية في القرآن الكريم :

يقول جل شأنه:

قُلْ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ (١٠١) [2]

إن تطواف العاقل بنظرات فاحصة مدركة فيما حوله من بديع الصنع، وعظيم الخلق، وبالغ الإتقان، وباهر الإبداع، وغاية الإحكام لهذا الكون مع تباين أجزائه، وتنوع مظاهره، وتعدد دلائله ومعطياته، تدفعه إلى الإقرار بوجود إله واحد أحد، خلق فسوى، وقدر فهدى.

يقول الطبري: "بين سبحانه ما يزيد في تنبيه القوم وإرشادهم فقال: (قل) يا محمد لمن يسألك عن الآيات (انظروا ماذا في السموات والأرض) من

١- المراغي، تفسير المراغي، حـ (٢٩) ص (١٥)، مرجع سابق.

٢- سورة يونس الآية (١٠١).

الدلائل والعبر من اختلاف الليل والنهار ومجاري النجوم والأفلاك، وما خلق من الجبال والبحار، وأنبت من الأشجار والثمار، وأخرج من أنواع الحيوانات، فإن النظر في أفرادها وجملتها يدعو إلى الإيمان، وإلى معرفة الصانع، ووحدانيته، وعلمه وقدرته، وحكمته"[1]

إن هذا الكون الفسيح بما فيه من " طبيعة حية" شاملة الحيوان والطير، عدا الإنسان، أو "طبيعة صامته" من أرض وجبال وسماء ونجوم وبحار وأنهار، وينابيع وجنات، ورعد وبرق، مضافاً إليها " الطبيعة الصناعية" وهي ما كان من صنع الإنسان كالقرى، والقصور، والآبار، والديار، وغير ذلك ليحدث عن الله، ويدفع إلى الإيمان به، وصدق العبودية له جل شأنه، وتمام الخضوع لسلطانه.

وقد تفرد القرآن الكريم "بالتربية الكونية التي تتدرج ضمن إطار عقدي جاء محدداً للحقيقة الوجودية العامة، مبيناً ضمنها حقيقة الإنسان، وقيمته، ووظيفته وعلاقته بالكون، وبما وراء الكون، ولذلك فقد جاءت هذه التربية تمثل بعداً من أبعاد العقيدة الإسلامية سواء في المبدأ الذي انطلقت منه، وظلّ يدفعها، ويوجه خطاها، في الغاية التي هدفت إليها، وظلت ترسم مناهجها، وتحدد مسارها، فهي تربية عقدية المبدأ أو الغاية" [2]

(١) عقدية المبدأ:

لا يشك عاقل في ضرورة الإيمان بالوجود الإلهي، وهو وجود حقيقي كامل، أزلي أبدي يختلف تماما عن الوجود الخلقي، فهو وجود ناقص، محدث، فانٍ، وهو أثر من آثار الوجود الإلهي الحق.

٢- الإمام الطبري، تفسير الطبري، جـ (١١) ص (١٠٥)، مرجع سابق.

١- د.عبد المجيد النجار، مباحث في منهجية الفكر الإسلامي، ٢٠٠٣/٧/٣م إنترنت

والإنسان والكون عنصران من عناصر الوجود الخلقي كلاهما مخلوق لله تعالى، محكوم بسلطانه، موجه بتدبيره وإرادته (**اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ** (٦٢) [١]

فقد تساوى الإنسان والكون مخلوقين لله خاضعين لسلطانه، مسيرين بإرادته، وإن افترق الإنسان والكون فخضوع ما سوى الإنسان قهري قسري، أما الإنسان فإرادي اختياري.

(أَلَمْ تَرَى أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنْ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُهِنْ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ (١٨) [٢]

يقول الشيخ المراغي: " ألم تعلم أيها المخاطب أن هذه الخلائق – ومعها كثير من الناس- مسخرة لقدرة بارئها، وجبروت منشئها، منقادة لإرادته طوعاً أو كرهاً، فهي مفتقرة في وجودها وبقائها إليه، فهو الذي أنشأها ورتبها، وأكمل وجودها على النحو الذي أراده والحكمة التي قدرها لها في البقاء، بينما كثير من الناس لا يسجدون، فاستحقوا بذلك العذاب" [٣]

وهنا افترق الإنسان عن سائر المخلوقات ما بين مؤمن وكافر، وطائعٍ وعاصٍ، وقد اتجهت إليه التربية الكونية القرآنية تحقق له الانسجام والتوافق مع حركة الكون الدائبة الطائعة المهتدية، المتجهة إلى الله تعالى، وما ذلك إلا جزء من معنى الأمانة التي حملها الإنسان.

إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً (٧٢)

١- سورة الزمر الآية (٦٢)

٢- سورة الحج الآية (١٨)

٣- المراغي، تفسير المراغي، جـ (١٧) ص (١٠٠) بتصرف يسير، مرجع سابق.

إن التربية الكونية تجعل مسار الإنسان منسجماً مع الفطرة، قائماً على العهد الذي أخذه الله على بني آدم جميعاً؛ فالكون بما فيه مخلوق شأنه شأن الإنسان، والعبادة لا تكون إلا للخالق، وهذه الكائنات، وما يحوطها من مظاهر كونية أيا كان حجمها، أو علت قوتها ما هي إلا آيات لله تعالى خلقها، وسخرها، وانقادت له طائعة، وعلى الإنسان أن ينال حظه منها بمقدار ما تيسر له (**هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً**) [1]

اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنْ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمْ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمْ الأَنهَارَ (٣٢) وَسَخَّرَ لَكُمْ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ (٣٣) وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ (٣٤)

لم يعد البحر رهيباً مهاباً، تنسج حوله الأساطير كما زعم القدماء، وما كانت الشمس، أو القمر، أو النجوم أو غير ذلك أهلاً لأن تعبد فهي مخلوقة محدثة مسخرة، يسيرها، ويحكم عطاءها الخلاق العليم.

) اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمْ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢) وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (١٣)

"إن هذا المنطق العقدي للتربية الكونية في القرآن الكريم ظل موجهاً مستديماً لهذه التربية، ومشكلاً لبنيتها الأساسية، وهو ما يبدو واضحاً فيما تصدر، أو تحتم به الإرشادات التربوية القرآنية من تنبيه إلى الإطار العقدي الذي تدرج فيه تلك الإرشادات، إشارة إلى أن ما سيحصل

١- سورة البقرة الآية (٢٩)

للإنسان من ترقية تربوية إزاء الكون ينبغي أن يحصل معه شعور متنام بالقَيُّومية الإلهية، متمثلة في الإيمان بالتفرد الإلهي في الذات والفعل والقهر"[1]

قال تعالى: **تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً** (٤٤)[2]

أو متمثلة في الإيمان بتفضل الله على عباده، وعنايته بهم كما في قوله تعالى: **وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً** (١٢)[3]

عقدية الغاية:

(وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً)[4]

" إن الله تعالى خلق أجناس الوجود يخدم بعضها بعضاً، وكلها تخدم الإنسان، فالجماد خلقه الله تعالى ليخدم أجناس الوجود كلها، وهي الحيوان والنبات والإنسان فالجماد في خدمة الكون كله، ثم يأتي بعد ذلك النبات، وهو يخدم الحيوان والإنسان، فيعطيهما مقومات الحياة من الطعام وغيره، ثم خلق الحيوان الذي يتغذى على النبات، فجعل الجماد والنبات في خدمة الحيوان، ثم خلق الإنسان، وجعل كل ما في هذا الكون من جماد، ونبات، وحيوان مسخراً له.

فالله تعالى خلق الكون كله في نظام بديع متكامل لخدمة الإنسان، وإعطائه مقومات الحياة" [5]

١- د. عبد المجيد النجار، مباحث في منهجية الفكر الإسلامي، (مرجع سابق، (إنترنت)

٢- سورة الإسراء الآية (٤٤)

٣- سورة الإسراء الآية (١٢)

٤- سورة البقرة الآية (٣٠)

٥- الشيخ الشعراوي (معجزة القرآن) مكتبة التراث الإسلامي القاهرة الكتاب الثالث ص(١٠٨)

" والمشيئة العليا تريد أن تسلم لهذا الكائن الجديد في الوجود زمام هذه الأرض، وتطلق فيها يده، وتكل إليه إبراز مشيئة الخالق في الإبداع والتكوين، والتحليل والتركيب، والتحوير والتبديل، وكشف ما في هذه الأرض من قوىً وطاقات، وكنوز وخامات، وتسخير هذا كله- بإذن الله- في المهمة الضخمة التي وكلها الله إليه.

وإذن فقد وهب هذا الكائن الجديد من الطاقات الكامنة، والاستعدادات المذخورة كفاء ما في هذه الأرض من قوى وطاقات، وكنوز وخامات، ووهب من القوى الخفية ما يحقق المشيئة الإلهية.

وإذن فهي منزلة عظيمة، منزلة هذا الإنسان في نظام هذا الوجود على هذه الأرض الفسيحة، وهو التكريم الذي أراده له خالقه الكريم. "[1]

" وقد جعل الله تعالى علم آدم بالأسماء، وعجز الملائكة عن ذلك علامة على أهلية النوع البشري لخلافته في الأرض دون الملائكة لأن الخلافة في الأرض هي خلافة الله تعالى في القيام بما أراده من العمران بجميع أحواله وشعبه، بمعنى أن الله ناط بالنوع البشري إتمام مراده من العالم فكان تصرف هذا النوع في الأرض قائماً مقام مباشرة قدرة الله تعالى بجميع الأعمال التي يقوم بها البشر، ولا شك أن هذه الخلافة لا تتقوم إلا بالعلم أعني اكتساب المجهول عن المعلوم، وتحقيق المناسبة بين الأشياء ومواقعها، ومقاراناتها، وهو العلم الاكتسابي الذي يدرك به الإنسان الخير والشر، ويستطيع به فعل الخير، وفعل الشر كل في موضعه، ولا يصلح لهذا العلم إلا القوة الناطقة، وهي قوة التفكير، التي أجلى مظاهرها معرفة

١- سيد قطب، في ظلال القرآن ، حـ (١) ص (١٠٨).، مرجع سابق.

أسماء الأشياء، وأسماء خصائصها، والتي تستطيع أن تصدر الأضداد من الأفعال، لأن تلك القوة هي لا تنحصر متعلقاتها، ولا تقف معلوماتها"[1]

"ومهمة الخلافة إنما هي الحاكمية على الأرض وما فيها، حاكمية يتصرف فيها الإنسان تصرفاً يفضي إلى عمارتها، وتوجيه مسيرتها نحو الله تعالى تحقيقاً للعبودية التي هي غاية الخلق **وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ (٥٦)**"[2]

وهذه الحاكمية الإنسانية في الأرض ليست حاكمية الأصالة، وإنما هي تفويض ومنحة في نطاق التنفيذ للمراد الإلهي، وذلك هو معنى استخلاف الله عباده، ولكي يقوى الإنسان على تحقيق هذه المهمة هيئ في طبيعته تهيئة مخصوصة، وكان بها قادراً على الاتصال بخالقه ليأخذ منه أوامر الاستخلاف، وذلك بمقدار ما ركب فيه من عنصر الروح، وقادراً من جهة أخرى على تنفيذ مقتضيات الاستخلاف بمباشرة المادة الكونية، وذلك بمقتضى ما ركب فيه من عنصر المادة.

وبهذه التركيبة التي اقتضاها المراد الإلهي في وظيفة الاستخلاف اكتسب الإنسان الرفعة، وعظمة الشأن في منظومة الموجودات الكونية، وكانت تلك حقيقة عقدية أساسية فيما جاء به القرآن الكريم من شرح للإنسان، وبيان لمنزلته في الوجود" .[3]

قال تعالى: (**وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنْ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً**)[4]

١- الشيخ محمد الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، المجلد (١)، جـ(١)، ص(٤١٨- ٤١٩)، الدار التونسية للنشر، بدون ط، تونس، ١٩٨٤م .

٢- سورة الذاريات الآية (٥٦)

٣- د. عبد المجيد النجار، مباحث في منهجية الفكر الإسلامي، الإنترنت ، مرجع سابق.

٤- سورة الإسراء الآية (٧٠)

تربية كونية قرآنية متميزة:

كان الهدف الأسمى للتربية الكونية عند التربويين من غير المسلمين، أو المسلمين الذين لم يأخذوا أنفسهم في أبحاثهم بما ورثنا ديننا الحنيف العمل على تحقيق لون من التوافق والانسجام بين الإنسان والبيئة المحيطة به، والانتفاع بخصائصها، والبعد عن العبث بها، أو سوء استغلالها، ووضعت نظريات قديماً وحديثاً تخطط لبلوغ هذا الهدف، وتتفنن في وسائل الوصول إليه موقنة أن بلوغه، أو القرب منه سيحقق للإنسان منافع، ويعقد وفاق سلام بين الطبيعة بكل مكوناتها وظواهرها بما انطوت عليه من خير، وما كمن فيها من عطاء، وبين الإنسان بما لديه من قدرات، وماله من حاجات، حتى الذين كتبوا عن الكون كتبوا عن الكون كتابة علمية مجردة لم يجاوزوا التفسيرات العلمية المتاحة، تأييداً ومساندة، أو معارضة ومخالفة.

أضف إلى ذلك امتلاء الفكر القديم بالخرافات والأساطير المفسرة للطبيعة كقوة يؤمل فيها الخير، ويرجى منها المؤازرة في بلوغه أو الإصابة منه، أو قوة هائلة تقذف بالشر، وتدعم وسائله ودوافعه، واتقاؤه لا يكون إلا بخرافات وأوهام صاغها الضلال، وروج لها الجهل والتخلف، حتى عبدت الطبيعة، واشتقت منها آلهة للخير، وأخرى للشر، وقد يثور الصراع بين الآلهة المزعومة، ويكون الغلب لبعضها على بعض.

ونتيجة لاتصال الأمم وتأثر بعضها ببعض ظهر أثر ذلك الزيف في كتابي العهدين القديم والجديد (التوراة والإنجيل المحرفين).

فقد "جاء العبرانيون والعالم مليء بالعقائد والأفكار المختلفة، فكان البابليون والمجوس والمصريون القدماء والهنود القدماء واليونان، يؤلهون عناصر الطبيعة، وبخاصة السماوية منها كالشمس والقمر والزهرة، وكانت المجوس تدين بإلهين، إله النور وإله الظلام، وتصورهما متصارعين

متنافرين، هذا يخلق وذاك يبيد. وكانت هناك عقائد أخرى متباينة في أنحاء شتى من الأرض، وكان من الطبيعي أن يتأثر العبرانيون وهم أكثر الناس قابلية للتقليد بشيء من تلك المفاهيم الوثنية التي كانت تظهر في شعائر القوم التعبدية ومعاملاتهم وسلوكهم في مجال الحياة، ومن هنا فإن الباحث الموضوعي إذا أحاط بظروف الملابسات والظروف الفكرية التي مرت على العبرانيين لم تأخذه الحيرة من تناقض ما في العهد القديم، فالمفهومات التي تضمنها عن الطبيعة مثلا يمكن أن يكون كثير منها مستقىً من مصادر أجنبية لا علاقة لها بالوحي، فمثلاً في المزمور التاسع والثمانين (يارب إله الجنود من مثلك قوي، وحقك من حولك، أنت متسلط على كبرياء البحر عند ارتفاع الحجة، وأنت تسكنها)[1]

أين هذا بما فيه من عبارات ومعان لا يليق أن يضمها كتاب مقدس، أو يحدث بها وحي من حديث القرآن الكريم عن البحر كآية احتوت آيات تحدث كلها عن خالق عظيم؟

قال تعالى: **وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْماً طَرِيّاً وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٤)**[2]

فقد كشفت الآية عن بعض آيات الله في البحر كمصدر لغذاء محبب متميز لا وجود له في البر، ومصدر لثروات نادرة، وطريق ميسر للمواصلات والتنقل لمسافات متفاوتة لأغراض شتى مما يستوجب ذكر خالقه ومسخره وشكره على ما أسبغ علينا من نعم.

أين هذا النسق القرآني الرائع المعجز، المقرب البحر إلى نفوس البشر، المعرف بأنعمه جل شأنه فيه، المرغب لهم في عقد وفاق مع هذا الكائن العجيب وحسن استغلاله لنترقى بذلك في معرفة الله والإيمان، ثم

١- د. كاصد ياسر الزيدي، الطبيعة في القرآن الكريم، دار الرشيد، بغداد، ص (١١٥:١٠٩) بتصرف كبير

٢- سورة النحل الآية (١٤)

الشكر له جل شأنه، وحسن الثناء عليه.. أين هذا من (إله الجنود) ، (وأنت متسلط)، (كبرياء البحر) مما يلمس فيه القارئ سوء أدب مع الله، وجهل بعلاقة الإنسان بالكون، واتخاذ موقف عداء مع آيات الله التي ينبغي أن تصلنا بالخلاق العليم جل جلاله؟

"إن هذا الإطار العقدي للتربية مبدأ وغاية يعطي لهذه التربية مفهوماً مغايراً لما ألفناه في المذاهب التربوية الوضعية، إذ كل هذه المذاهب تحصر الجدلية في العملية التربوية بين عنصري الإنسان والبيئة الكونية، وتجعل من تحقيق السيطرة الإنسانية على الطبيعة عبر الصراع معها أفقاً أعلى للتربية الكونية، وهدفاً نهائياً لها، في حين اتجهت التوجيهات القرآنية إلى رسم إطار أوسع للتربية الكونية وتحديد هدف أبعد وأعمق، فقد جعلت الجدلية فيها دائرة بين عناصر ثلاثة يتوسط فيها الإنسان وجوداً إلهياً غيبياً يبث منه التعاليم على سبيل الاستخلاف، ومادة كونية يفعل فيها بإرادة حرة فيجدها مستجيبة مسخرة. وفي هذا الإطار تتجه الحركة التربوية إلى أفق بعيد هو تحقيق الخضوع والعبادة لله تعالى عبر التفاعل مع الكون والسيطرة عليه".[1]

منهج قرآني تربوي كوني:

التربية الكونية في القرآن الكريم تربية لها غايتها الكبرى، وهدفها الأسمى، لأنها تربية بناء عقدي سليم، قوي متين يحوط المسلم بسياج حصين يحفظه من عوادي الزيغ، ومسوِّلات الانحراف، بناء شامل متكامل ينقيه من دوافع السوء، ويخلصه من رواسب الهوى، ويقيمه على الحق ويعده له في كل المواقع، وشتى البيئات، ومختلف الظروف والأحوال، ويعرفه بالبيئة المحيطة به حيها، وجمادها، ويوقفه على حقيقة صلته بها، ومسئوليته نحوها، إنها ليست غريبة منه، ولا مناهضة له، أو حاقدة له، وآسفة لوجوده، فقد خلقها الله تعالى له، وأبدعها من أجله، وذللها لذلك

١- د. عبد المجيد النجار، مباحث في منهجية الفكر الإسلامي ، مرجع سابق.

الوثيق الصلة بها في خلقه، وحياته، والذي لا يكتمل وجوده إلا بها، ولا تتم رسالته إلا بتفاعله معها، والإفادة منها.

اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمْ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢) [1]

وكلما عظم الهدف، وسمت الغاية كان الإعداد له، والتخطيط لبلوغه أعظم وأسمى ، لأن المنهج في التربية لا يقل في خطورته عن الغاية العظمى التي من أجلها كانت التربية، بل اعتبر التربويون دفة المنهج وشموله وتكامله سمات ضرورية تحدد قيمة المنهج، ومدى إمكاناته في إعداد المربي، وتكييفه وتهيئته نفسياً، وفكرياً، و إدارياً للتدرج نحو الغاية، والعمل الدؤوب الخلاق المبدع الهادف لبلوغها.

وقد فاقت طريقة القرآن الكريم التربوية بما انطوت عليه من إعداد مستمر، وإثارة هادفة منظمة، ومتابعة دقيقة شاملة تحقق التوافق والانسجام بين الإنسان (موضوع التربية) والكون، ذلك الشريك الذي لا غنى للإنسان عنه، والانقياد له جل شأنه، والعمل بمقتضى ما شرع لنا من منهج قويم، يخدم هذه الغاية، ويمهد الطريق إليها، وييسر إدراكها، حتى يتسنى للإنسان المستخلف من الله تعالى إتقان التعامل مع الكون، والتفاعل مع هذه الموجودات من خلال رؤية صائبة، حدد القرآن الكريم مسارها، وأوضح مراميها، ويسر انتهاجها، حتى تحقق الخلافة التي من أجلها كان الإنسان، وبها كان شرفه، وتميزه، وتكريمه.

ولم يترك القرآن الكريم الإنسان هملاً، ولم يكله إلى فكره فقط في التعامل مع الكون، حتى لا يميل به الشطط، ولا ينحرف به الهوى، أو يستسلم لضعفه فيضل طريقه، وتنحرف عن الطريق المستقيم خطاه.

1- سورة الجاثية الآية (١٢)

وقد سلك القرآن الكريم في إعداد الإنسان للتعامل مع الكون، والتفاعل معه منهجاً تربوياً رئيساً، وانتهى إلى نسق تربوي يأخذ بالإنسان إلى مجال الإعداد المتكامل الذي يصل به إلى الغاية المنشودة في يسر، ويمسكه بالهدى في يقين، وقد تمثل هذا المنهج القرآني في أسس نحاول استبانتها ما استطعنا وما توفيقي إلا بالله.

١) الإعداد النفسي للتعامل مع الكون:

إن اتصال الإنسان بالكون ينبغي أن ينطلق على أساس عقدي صحيح، يضبط فكره، ويجمع عليه أمره، ويذكره بالله الذي خلق ذلك الكون فأحسن خلقه، ثم خلق الإنسان خليفة الله في الأرض في أحسن تقويم، وجعل الاتصال بينهما أمراً محتوماً لتقوم الخلافة، وتعمر الأرض، وينهض الإنسان بأعباء رسالته العظمى، غير أنه عند انقطاع الوحي، وبعد عهد الإنسان بالرسالات تمخض اتصال الإنسان بالكون عن مشكلة نفسية، هي الشعور بعظمة الكون، وجبروته إزاء حناكة الإنسان وضعفه، وقد ظل هذا الشعور أزماناً طويلة محدداً أساسياً لعلاقة الإنسان بالكون، حيث أدى به أحياناً إلى انهزامية تردد فيها بين الخوف من صولة الكون وبطشه، وبين الرجاء في منّه وعطائه، فاتخذ آلهة من موجودات استعظمها رجاء الأمن والخير عندها، وقد أدى به أحياناً إلى موقف عدائي انتهى إلى الصراع لقهر موجودات كونية، وكان لوضعه الانهزامي والعدائي انعكاس مباشر على الحياة الإنسانية، حيث أدى الانهزام إلى السلبية، والتخلف الحضاري، بينما خلف العداء شموخاً وصراعات مع بعض معالم الكون ولم يكن في مقدور الإنسان مهما ارتقى فكره أن يضع حلاً لتلك المشكلة، أو يقدر لنفسه النهج القويم الذي ينقذه من هذا التردي، وهو صانعه، ولم تصلح الكتب السابقة للقرآن الكريم ما أفسده الإنسان، فقد عبث بها زيغ الإنسان وضلاله الفكري، وحرفتها يداه، فلما جاء الإسلام

حرص التصور الإسلامي، على أن يمنحنا معادلة حيوية ومنطقية لا خلل فيها ولا اضطراب.. إننا ما دمنا قد خلقنا تشتبك فينا قوى الروح والمادة، فإن لنا أن ننطلق في نشاطاتنا وممارستنا من نقطة التوازن التي لا تجنح ولا تنحرف ولا تميل.. التوازن الذي ينتفي فيه الصراع، ويتحول الجهد الإنساني الدائم إلى سعيٍ خلاق من أجل التوحد والتكامل والانسجام.. وإنه ما دامت قوى الكون من جهة أخرى قد سخرت لمهمتنا الأرضية تسخيراً، فإن علاقتنا بها ليست أبداً علاقة صراع وتناقض واقتتال، ولا علاقة خنوع وخضوع وإذلال، إنما هي محاولة الكشف والتنقيب والاندماج للوصول إلى أكبر قدر ممكن من التفاهم بين الإنسان وبين الكون، بعد الكشف عن سننه ونواميسه الطبيعية.

إن اكتشاف الفضاء في المنظور الإسلامي ليس(غزواً) كما يراه الغربيون، وكما شاع في وسائل الإعلام العالمية، وتردد على ألسنة الناس علماء أو غيرهم ولكنه فهم وتوغل ووفاق.. إن القمر ليس خصماً يغزى، ولكنه كائن مسخر بأمر الله تعالى. [1]

وقد عمد القرآن الكريم إلى معالجة تلك المشكلة النفسية إزاء الكون، واعتبر أن قيام علاقة صحيحة لا يكون إلا بتسوية الحواجز النفسية، وشعور الإنسان بالتواصل بينه وبين الكون، وقد رسم من خطوط العلاقة بين الإنسان والكون ما يؤدي إلى الشعور بوشائج القربى والتوافق والتواصل من جهة، ثم الشعور بالرفعة، والتميز والاستعلاء لعمارة الأرض وقيام الخلافة من جهة أخرى ،وقد ركز القرآن الكريم على حقائق أساسية جعلها السبيل إلى تأسيس هذا الشعور، وتعميقه، وتعهده لإقامة علاقة سوية هادفة بين الإنسان والكون، لم يتح للإنسان مثلها من قبل،

1- أ.د. عماد الدين خليل، حول إعادة تشكيل العقل المسلم ، ص (١٢٨- ١٢٩) بتصرف، مطابع الدوحة الحديثة، ط١، الدوحة – قطر.

وليس في مقدور البشر مهما أوتوا من علم، أو أقاموا من حضارة أن يخططوا لها هذا التخطيط المحكم الدقيق السليم المبرأ من الهوى، البعيد عن آفات البشر ونقائصهم، الخبير بقدرات البشر الجسمية والنفسية، العليم بما يصلحهم.

وسأحاول ما استطعت عرض ما أمكن عن هذه الحقائق.

(أ) الوحدة بين الإنسان والكون.

يقول جل شأنه: **(أَلَمْ تَرَى أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ (٤١) وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ (٤٢)**[1]

فتلك صورة متكاملة تشمل عنصري الوجود المحدث (الإنسان والكون) وموقفهما من الله جل جلاله طاعة وانقياداً، وتسليماً وخضوعاً، وينقلها القرآن الكريم في آيات محكمات منها هاتان الآيتان، فيخاطبنا ربنا بالأولى ويذكرنا بوحدة المصير في الثانية رحمة وفضلاً " ألم تعلم بالدليل أن الله ينزهه آناً فآناً في ذاته وصفاته وأفعاله جميع ما في السموات والأرض من العقلاء وغيرهم، تنزيهاً تفهمه أرباب العقول السليمة، إذ كل المخلوقات في وجودها وبقائها دالة على وجود خالق لها متصف بصفات الكمال منزه عن صفات النقص، وخص التنزيه بالذكر مع دلالة ما فيهما.على اتصافه بجميع أوصاف الكمال، من جراء أن سياق الكلام لتقبيح شأن الكفار الذين أخلوا بالتنزيه، فجعلوا الجمادات شركاء له سبحانه، ونسبوا له اتخاذ الولد إلى نحو أولئك، تعالى ربنا عما يقول الكافرون علواً كبيراً.

1- سورة النور الآيتان (٤١ - ٤٢)

كما ذكر الطير مع دخولها في جملة ما في الأرض، من قبل أنها غير مستقرة فيها، ولاستقلالها ببديع الصنع وإنبائها عن كمال قدرة خالقها ولطف تدبير مبدعها، فإن منح تلك الأجرام الثقيلة الوسائل التي تتمكن بها من الوقوف في الجو وتتحرك كيف تشاء، وإرشادها إلى طريق استعمالها بالقبض والبسط والتحريك يميناً وشمالاً حجة واضحة الدلالة على كمال قدرة الصانع المجيد، وحكمة المبدئ المعيد". [1]

(**كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ**)"أي كل مصل منهم ومسبح قد علم الله صلاته وتسبيحه، لا يخفى عليه شيء من أفعالهم طاعتها ومعصيتها، وعلمه محيط بها ومجازيهم عليها.

وقد يكون المعنى إن كل مصل ومسبح يعلم ما يجب عليه من الصلاة والتسبيح اللذين كلف بهما، وليس بالبعيد أن يلهم الله الطير دعاءه وتسبيحه كما ألهمها سائر العلوم الدقيقة التي لا يكاد العقلاء يهتدون إليها.

انظر إلى النحل كيف تبني بيوتها السداسية الأشكال التي لا يتمكن من بنائها فطاحل المهندسين إلا بدقيق الآلات، وإلى العنكبوت كيف تفعل الحيل اللطيفة لاصطياد الذباب (**وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ**) أي أن لله تعالى ملك السموات والأرض وهو الحاكم المتصرف فيهما إيجاداً وإعداماً بدءاً وإعادة، وإليه وحده مصيركم ومعادكم، فيوفيكم أجور أعمالكم التي عملتموها في الدنيا، فأحسنوا عبادته، واجتهدوا في طاعته، وقدموا لأنفسكم صالح الأعمال"[2]

ومعنى التسبيح هاهنا الدلالة على توحيد الله وعدله وأنه لا شريك له في الإلهية، وجرى ذلك مجرى التسبيح باللفظ وربما يكون التسبيح من

1- المراغي، تفسير المراغي، جـ(١٨) ص (١١٥)، مرجع سابق.

2- المرجع السابق والجزء ص (١١٦)

طريق الدلالة أقوى لأنه يؤدي إلى العلم (**وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ**) أي ليس شيء من الموجودات إلا ويسبح بحمد الله تعالى من جهة خلقته إذ كل موجود سوى القديم حادث يدعو إلى تعظيمه لحاجته إلى صانع غير مصنوع صنعه أو صنع من صنعه، فهو يدعو إلى تثبيت قديم غني بنفسه عن كل شيء سواه، ولا يجوز عليه ما يجوز على المحدثات، وقيل إن معناه وما من شيء من الأحياء إلا يسبح بحمده على الحسن، وقيل إن كل شيء على العموم من الوحوش والطيور والجمادات يسبح الله تعالى حتى صرير الباب وخرير الماء عن إبراهيم وجماعة (**وَلَكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ**) أي لا تعملون تسبيح هذه الأشياء حيث لا تنظروا فيها فتعلموا كيف دلالتها على توحيده (**إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً**) يمهلكم ولا يعاجلكم بالعقوبة على كفركم (غفوراً) لكم إذا تبتم وأنبتم إليه" [1]

إن عناصر الوجود المحدث من سماء وأرض، ومن فيهما من ملك، وإنس، وجن، وحيوان، وطير مستأنس أو مفترس، أو حشرات أو غير ذلك مما دق أو عظم، أظهره الله لنا، أو أخفاه عنا ينزه الله تعالى ويمجده بلغة يعلمها من خلقه، وسواه، وألهمه، وعلمه جل جلاله وعظم شأنه، وقد يمن الله تعالى بتلك اللغة على من يشاء من عباده **وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلاً يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ** (١٠) [2]

فقد شاء الله تعالى أن يوقفنا على معلم من معالم قدرته جعله معجزة لواحد من رسله عليهم الصلاة والسلام، " ولم يكن الموافق له في التأويب منحصراً في الجبال والطير، ولكن ذكر الجبال، لأن الصخور للجمود، والطيور للنفور تستبعد منهما الموافقة، فإذا وافقه هذه الأشياء فغيرها أولى،

1- الإمام الطبري، تفسير الطبري، جـ(١٥)، ص(٥٣).

2- سورة سبأ الآية (١٠)

ثم إن من الناس من لم يوافقه، وهم القاسية قلوبهم التي هي أشد قسوة من الحجارة"[1]

يقول صاحب الظلال رحمه الله تعالى: "ثم يرسم السياق للكون كله بما فيه ومن فيه مشهدا فريداً، تحت عرش الله، يتوجه كله إلى الله، يسبح له ويجد الوسيلة إليه: " (**تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً** (٤٤)

وهو تعبير تنبض به كل ذرة في هذا الكون الكبير، وتنتفض روحاً حية تسبح الله، فإذا الكون كله حركة وحياة، وإذا الوجود كله تسبيحة واحدة شجية رخية، ترتفع في جلال إلى الخالق الواحد الكبير المتعال.

وإنه لمشهد كوني فريد، حين يتصور القلب، كل حصاة وكل حجر، كل حبة وكل ورقة، كل زهرة وكل ثمرة، وكل نبتة وكل شجرة، كل حشرة وكل زاحفة، كل حيوان وكل إنسان، كل دابة على الأرض وكل سابحة في الماء والهواء .. ومعها سكان السماء.. كلها تسبح الله وتتوجه إليه في علاه .

وإن الوجدان ليرتعش وهو يستشعر الحياة تدب في كل ما حوله مما يراه ومما لا يراه، وكلما همت يده أن تلمس شيئاً، وكلما همت رجله أن تطأ شيئاً.. سمعه يسبح لله، وينبض بالحياة.

(**وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ**) يسبح بطريقته ولغته (**وَلَكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ**) لا تفقهونه لأنكم محجوبون بصفاقة الطين، ولأنكم لم تتسمعوا بقلوبكم، ولم توجهوها إلى أسرار الوجود الخفية، وإلى النواميس التي تنجذب إليها كل ذرة في هذا الكون الكبير، وتتوجه بها إلى خالق النواميس، ومدير هذا الكون الكبير.

1- الإمام الرازي، التفسير الكبير، جـ(١٥)، ص(٢٤٦).

وحين تشف الروح وتصفو فتتسمع لكل متحرك أو ساكن وهو ينبض بالروح ويتوجه بالتسبيح، فإنها تتهيأ للاتصال بالملأ الأعلى، وتدرك من أسرار هذا الوجود ما لا يدركه الغافلون، الذين تحول صفاقة الطين بين قلوبهم وبين الحياة الخفية السارية في ضمير هذا الوجود، النابضة في كل متحرك وساكن، وفي كل شيء في هذا الوجود.

(**إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً**) ذكر الحلم هنا والغفران بمناسبة ما يبدو من البشر من تقصير في ظل الموكب الكوني المسبح بحمد الله، بينما البشر في جحود وفيهم من يشرك بالله، ومن ينسب له البنات، ومن يغفل عن حمده وتسبيحه، والبشر أولى من كل شيء في هذا الكون بالتسبيح والتحميد والمعرفة والتوحيد، ولولا حلم الله وغفرانه لأخذ البشر أخذ عزيز مقتدر، ولكنه يمهلهم ويذكرهم ويعظمهم ويزجرهم (**إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً**).

الإنسان والكون وما من سواهما يمثلان الوجود المخلوق المدبر، المحدث الفقير إلى الخالق الموجود، الواحد الماجد، فالإنسان والكون كلاهما ينتسبان إلى طرف واحد، ويتساويان في اعتبار المربوبية لله رب العالمين.

ولتساويهما في المربوبية تنشأ مظاهر متنوعة للوحدة بين الإنسان المكرم المستخلف، وبين الكون المذلل المسخر منها وحدة المبدأ أو الخضوع لله عز وجل **ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (١٠٢) لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١٠٣)**[1]

1- سورة الأنعام (١٠٢- ١٠٣)

ووحدة المصير فالخلق كله يتحرك إلى النهاية المحتومة، وهي الرجوع إليه جل جلاله(.... **وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ**) [1]

ثم تلك الأطوار التي يتقلب فيها الخلق بين بدئه ونهايته في صوره المختلفة فوحدة التكوين قائمة، فما الإنسان إلى بضعة من هذا الكون، وحاوٍ لجميع عناصره (**وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ** (٨٨) [2]

ألم يخلق من تراب **وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ** (٢٠) ؟[3]

وقوله جل شأنه.. **هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخاً وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلاً مُسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ** (٦٧) [4]

وشارك الأحياء جميعاً في سر حياتهم . **أَوَلَمْ يَرَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقاً فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنْ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلا يُؤْمِنُونَ** (٣٠) [5]

أي خلقنا من الماء كل حيوان كقوله تعالى: **وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** (٤٥) [6] وذلك لأنه أعظم مواده، أو لفرط

1- سورة المائدة الآية (١٨)

٢- سورة النمل الآية (٨٨)

٣- سورة الروم الآية (٢٠)

٤- سورة غافر الآية (٦٧)

٥- سورة الأنبياء الآية (٣٠)

٦- سورة النور الآية (٤٥)

احتياجه إليه، وانتفاعه به، أو بسبب منه لا بد له من ذلك) أو هذه وغيرها مجتمعة.

وإذ كانت آية (يس) قد أشارت إلى وحدة الكيفية الوجودية، وهي الزوجية في الإنسان، فهي سنة الله تعالى في خلقه جميعا **سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ** (٣٦) [١]

وقوله جل شأنه:

الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ مَهْداً وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً وَأَنزَلَ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى (٥٣) [٢]

كما يقول جل شأنه **وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ** (٤٩) [٣]

ثم وحدة الحركة التي تلف الكون كله، وإن بدا بعضه للنظر العابر ثابتا، مع التغير المصاحب لتلك الحركة، والمعطي لكل طور سماته في حياة ذلك المخلوق المتحرك ففي عالم الأقمار يقول ربنا جل وعلا: (**وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ** (٣٩) **لا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ** (٤٠) [٤]

وفي عالم الجمادات الأرضية يقول تعالى: **وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ** (٨٨) [٥]

١- سورة يس الآية (٣٦)

٢- سورة طه الآية (٥٣)

٣- سورة الذاريات الآية (٤٩)

٤- سورة يس الآيتان (٣٩ - ٤٠)

٥- سورة النمل الآية (٨٨)

وفي عالم النبات: **أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً مُخْتَلِفاً أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَاماً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لأُوْلِي الأَلْبَابِ** (٢١)[١]

ثم يأتي دور الإنسان موضوع التربية، فيقول عنه القرآن الكريم: **يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنْ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ** (٥) **ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِ الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** (٦)[٢]

وقوله جل شأنه: **مَا لَكُمْ لا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَاراً** (١٣) **وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَاراً** (١٤)[٣]

إن هذه الحركة كقانون موحد يشمل الإنسان والكون جميعاً، تزداد وحدتها متانة وتأكداً لما ينضاف إلى وحدة قانونها وحدة مصدرها، فالله تعالى هو المصدر الوحيد الذي يحرك الموجودات كلها ويسوقها بإرادة من البداية إلى النهاية، وقد كانت هذه الحقيقة حجة مهمة استعملها إبراهيم الخليل في البرهان الإلهي استدلالاً بانتساب الحركة الكونية إلى الله على انتساب الحركة الإنسانية إليه أيضاً وهو ما يتضمنه قوله تعالى: **أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي**

١- سورة الزمر الآية (٢١)

٢- سورة الحج الآيتان (٥ - ٦)

٣- سورة نوح الآيتان (١٣ - ١٤)

يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنْ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنْ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٢٥٨) [١]

وصدق اللّه عز وجل حيث يقول: **وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ** (٨٣) [٢]

1- سورة البقرة الآية (٢٥٨)

2- سورة الأنعام الآية (٨٣)

خلاصة القول:

إذا كان الدين فطرة فالفطرة بكليتها تتجه إلى الله تعالى، فالتواؤم والتوافق بين الدين والفطرة أمر يقره الطبع السليم، وفي الدين صلاح الإنسان في دينه، وسلامته في دنياه، وما العبادة إلا صلة بالله تصوغ الإنسان خير صياغة، وتورثه فلاحاً في تفاعله مع الحياة، وتعاونه مع الأحياء وقد كان هذا نهج الرسل عليهم الصلاة والسلام مع أممهم توج بنهج خاتمهم (ﷺ) في دعوة الناس إلى الله تعالى لقد ورث أمته تقوى الله في السر والعلن فأحسنوا العمل أدباً مع الله، ويقيناً بمعيته لهم.

والإنسان مادة وروح، وبذا كانت كرامته، ولو خلي وفطرته لاستقام على الحق، وسلم من آفات الهوى، والنفس سر من أسرار الله أكبرها القرآن وأولاها اهتماماً عظيماً، محيطاً بخصائصها ناصحاً لها، وتختلف النفوس باختلاف عطاء الله لها، وتوفيقه، تعالى إياها، وقد فطرها الله على معرفته، معرفة قائمة على الحق ثابتة في القلب، ودعا إلى تزكيتها، والتوحيد أزكى ما تسمو به، والعمل الصالح أعون على صلاحها، والخلوة أمكن في محاسبتها، والعودة الدائمة إلى الله نورها وهداها.

ومجتمع الإسلام صاغ الله تعالى أسسه فميزه وميز أهله، وقامت بين أعضائه علاقات نظيفة براً للوالدين، وصلة للرحم، وأخوة إيمان، ثابتة ثباته، معطاءة عطاءه، تزرع الخير، وتقتلع الشر اقتلاعاً.

والكون كتاب مفتوح، عامر بآيات الله تعالى شاهد بعظمته، فيه تربية مختلفة المقاصد، تؤصل في المؤمن الإيمان بالغيب، وتيسره للخير، وترقى بإرادته، والكون مصدر إمداد لعقيدة المؤمن، يزيده بالله صلة، وللنفس إصلاحاً، وتطيب غايته، وأينما اتجه المؤمن رأى من آيات الله ما

يدعم إيمانه، ويدفعه إلى اللّه دفعاً، حتى تميز القرآن الكريم بمنهج تربوي كوني، يصله بالكون كآيات محسوسة، ويتأمله كمخلوق شاهد على عظمة اللّه، محدث بكماله، داعٍ إلى حسن عبادته فتتوثق الصلة، ويخلص التوجه إليه سبحانه.

الباب الرابع :

معالم الفكر التربوي في ضوء القرآن الكريم

- **الفصل الأول :** النظرة الواقعية لفطرة الإنسان.
- **الفصل الثاني:** التوجيه العلمي.
- **الفصل الثالث:** المرونـــــــة.
- **الفصل الرابع :** الوضوح.

الفصل الأول:

النظرة الواقعية للفطرة

من أقوال علماء اللغة والمفسرين:

جاء في كتاب المعجم الوسيط: "الفطرة ": صدقة الفطر، والخلقة التي يكون عليها كل موجود أول خلقه، والطبيعة السليمة لم تشب بعيب .

قال تعالى : (**فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ**)[1]

والفطرة السليمة في اصطلاح الفلاسفة :استعداد لإصابة الحكم والتمييز بين الحق والباطل .

والفطرية : القول بأن الأفكار والمبادئ جبلِّية وموجودة في النفس قبل التجربة والتلقين".[2]

ومن هذا يتبين أن الفطرة هي الخلقة أو الطبيعة السليمة لم تشب بعيب بدليل الآية الكريمة : (**فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا**)

ويقول ابن منظور : " الفطرة : ما فطر الله عليه الخلق من المعرفة به، وقد فطره يفطره ، بالضم فطراً أي خلقه.

ويقول الفراء في قوله تعالى (**فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ**) قال: نصبه على الفعل .

وقال أبو الهيثم : (الفطرة ، الخلقة التي يخلق عليها المولود في بطن أمه قال : وقوله تعالى:)**إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ**) [3] أي خلقني،

وكذلك قوله تعالى : (**وَمَا لِيَ لا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي**) [1] ثم يقول: "وقول النبي (ﷺ) : "كل مولود يولد على الفطرة "[2] يعني الخلقة التي فطر عليها في الرحم من سعادة أو شقاوة فإذا والداه يهوديان هوداه في حكم الدنيا ، أو

١- سورة الروم الآية (٣٠) .

٢- المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، إشراف عبد السلام هارون، جـ(٢)، ص(٧٠١)، دار إحياء التراث العربي، بدون ط، بيروت – لبنان، بدون ت .

٣- سورة الزخرف آية (٢٧) .

نصرانيان نصراه في الحكم ، أو مجوسيان مجساه في الحكم، وكان حكمه حكم أبويه حتى يعبِّر عنه لسانه ، فإن مات قبل بلوغه مات على ما سبق له من الفطرة التي فطر عليها فهذه فطرت المولود "[٣] . وقال : وقيل "فطر كل إنسان على معرفته بأن الله رب كل شئ وخالقه والله أعلم ". وقال : وقد يقال كل مولود يولد على الفطرة التي فطر الله عليها بني آدم حين أخرجهم من صلب آدم كما قال تعالى : (**وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا**) [٤]

قال ابن عباس رضي الله عنهما ما كنت أدري ما (**فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ**) [٥] حتى أتاني أعرابيان يختصمان في بئر ، فقال أحدهما : "أنا فطرتها أي ابتدأت حفرها" [٦].

قال القرطبي "قال المروزي : كان أحمد بن حنبل يذهب إلى هذا القول ، ثم تركه ، قال أبو عمر في كتاب(التمهيد) له : ما رسمه مالك في موطئه، وذكر في باب القدر فيه من الآثار ما يدل على أن مذهبه في ذلك نحو هذا " والله أعلم .

ومما احتجوا به ما روي عن كعب القرظي في قوله تعالى:)**فَرِيقاً هَدَى وَفَرِيقاً حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ**) [١] قال : من ابتدأ الله خلقه للضلالة صيره إلى الضلالة ، وإن عمل بأعمال الهدى ومن ابتدأ الله خلقه على الهدى صيره إلى

١- سورة يس الآية (٢٢)

٢- تقدم تخريجه ص (٥٤)، رقم (٥).

٣- ابن منظور،لسان العرب، جـ(٥)، ص (٥٦)، مرجع سابق .

٤- سورة الأعراف الآية (١٧٢) .

٥- سورة فاطر آية (١) .

٦- ابن منظور، لسان العرب، جـ(٥)، ص(٥٦)، مرجع سابق.

وابن منظور هو الإمام محمد بن مكرم الأنصاري الأفريقي المصري كان عارفاً بالنحو واللغة والتاريخ والكتابة وله مؤلفات متعددة منها لسان العرب، توفي سنة(٧١١هـ).

الهدى وإن عمل بأعمال الضلالة، ابتدأ الله خلق إبليس على الضلالة، وعمل بأعمال السعادة مع الملائكة، ثم رده الله إلى ما ابتدأ عليه خلقه قال: ﴿وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾[٢]، قلت : (أي القرطبي): وجاء معناه مرفوعاً من حديث عائشة رضي الله عنها قالت : " دُعي رسول الله r إلى جنازة غلام من الأنصار، فقلت : يا رسول الله طوبى لهذا عصفور من عصافير الجنة، لم يعمل السوء، ولم يدركه.

قال :" أو غير ذلك يا عائشة ؟ إن الله خلق للجنة أهلاً خلقهم لها وهم في أصلاب آبائهم، وخلق للنار أهلاً خلقهم لها وهم في أصلاب آبائهم[٣] "

وأخرج أبو عيسى الترمذي عن عبد الله بن عمرو قال : خرج علينا رسول الله r وفي يده كتابان، فقال: " أتدرون ما هذان الكتابان " ؟ فقلنا: يا رسول الله: إلا أن تخبرنا، فقال للذي في يده اليمنى: " هذا كتاب من رب العالمين فيه أسماء أهل الجنة وأسماء آبائهم، وقبائلهم، ثم أجمل على آخرهم، فلا يزاد فيهم، ولا ينقص منهم أبداً....."[٤].

١- سورة الأعراف الآية (٣٠).

٢- سورة البقرة الآية (٣٤).

٣- ابن ماجه، السنن(١٨/١)، مرجع سابق.

٤- الترمذي(٤٤٩/٤).

ويستطرد القرطبي فيقول : " وقالت فرقة : ليس المراد بقوله تعالى: (**فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا**)[1]، ولا بقوله r : "كل مولود يولد على الفطرة "[2]

العموم ، وإنما المراد بالناس : (المؤمنون) لو فطر الجميع على الإسلام لما كفر أحد "[3]

وقال ابن الأثير في قوله r :" كل مولود يولد على الفطرة "[4] قال : الفطر الابتداء والاختراع، والمعنى أنه يولد على نوع من الجبلة والطبع المتهيىء لقبول الدين ،فلو ترك عليها لاستمر على لزومها، ولم يفارقها إلى غيرها، وإنما يعدل عنها من يعدل لآفة من آفات البشر والتقليد ، ثم مثل لذلك بأولاد اليهود والنصارى في اتباعهم لآبائهم، والميل إلى أديانهم عن مقتضى الفطرة السليمة .

وقيل معناه: كل مولود يولد على معرفة الله، والإقرار به، فلا تجد أحداً إلا وهو يقر بأن له صانعاً، وإن سماه بغير اسمه، ولو عبد معه غيره"[5]

ولقد ذكر الله تعالى لفظ (الفطرة) في القرآن الكريم في آية واحدة فقط هي الآية رقم (٣٠) من سورة الروم في قوله تعالى: (**فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ**)

أما لفظ فطر وفطركم وفطرنا وفطرني وفطرهن ويتفطرن وانفطرت وفاطر وفطور ومنفطر فقد ذكرت كل لفظة من هذه الألفاظ

١- سورة الروم الآية (٣٠) .

٢- تقدم تخريجه، ص(٥٩)، رقم (١).

٣- الإمام القرطبي، الجامع لأحكام القرآن ، جـ(٥)، ص(٢٥- ٢٦) بتصرف، مرجع سابق.

والإمام القرطبي: هو أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي أحد العلماء العباد الصالحين، وكان فقيهاً مفسراً ، وهو أحد علماء المالكية المشهورين بالتأليف، له مؤلفات كثيرة أشهرها الجامع لأحكام القرآن والتذكرة بأمور الآخرة، توفي سنة (٦٧١هـ).

٤- سبق تخريجه، ص (٥٩)، رقم (١).

٥- ابن منظور، لسان العرب، جـ(٥)، ص (٥٨) بتصرف، مرجع سابق.

مرة واحدة في القرآن كله عدا لفظة (فطر) مرتين (ويتفطرن) مرتين و (فطرني) ثلاث مرات و(فاطر) ست مرات.[1]

وباستقراء معاني هذه الألفاظ من معاجم اللغة تبين أن الفطرة في كلام العرب هي: (البداءة) والفاطر: المبتدئ.

وقد احتجوا بما روي عن ابن عباس أنه قال: "لم أكن أدري ما فاطر السموات والأرض حتى أتى أعرابيان يختصمان في بئر ، فقال أحدهما : أنا فطرتها أي : ابتدأتها"[2] .

ونحن هنا لا يعنينا أن نقف أمام كل هذه الألفاظ لنعرف مدلولاتها وإنما فقط معرفة ما تعنيه كلمة (فطرت) التي جاءت في آية "الروم" والتي ذكرت في بعض أحاديث رسول الله r حتى نتمكن بعد ذلك من معرفة واقعية هذه الفطرة. ولسلامة البحث لابد أن نقف بين يدي علماء التفسير وشراح الحديث مستنيرين بما هداهم الله إليه:

مع علماء التفسير:يقول الإمام الطبري :"يقول تعالى ذكره: فسدد وجهك نحو الوجه الذي وجهك إليه ربك بالحمد لطاعته، وهي الدين حنيفاً يقول مستقيماً لدينه وطاعته (**فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ**)

قال ابن زيد في قوله: "فطرت الله" الإسلام مذ خلقهم الله من آدم جميعاً يقرون بذلك، وقرأ :(**وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ**)[1] قال :فهذا قول الله تعالى:)**كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ**(.[2]

١- محمد فؤاد عبد الباقي، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، ص(٥٢٢- ٥٢٣)، دار الشعب، بدون ط، القاهرة – مصر، سنة (١٣٧٨هـ).

٢- ابن منظور، لسان العرب، جـ(٥)، ص(٥٨)، مرجع سابق.

١- سورة الأعراف الآية (١٧٢).

٢- سورة البقرة الآية (٢١٣).

وعن يزيد بن أبي مريم قال: مر عمر بمعاذ بن جبل ، فقال : ما قوام هذه الأمة ؟ قال معاذ:" ثلاث وهن المنجيات: الإخلاص وهو الفطرة التي فطر الناس عليها والصلاة وهي الملة والطاعة وهي العصمة، قال عمر: صدقت". وقوله: " لا تبديل لخلق الله " يقول لا تغيير لدين الله ، أي لا يصلح ذلك ، ولا ينبغي أن يفعل، وقال عكرمة : "لا تبديل لخلق الله" قال: إنما هو الدين ، وقرأ : " لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم"

وعن عكرمة أيضاً "فطرت الله التي فطر الناس عليها " الإسلام

وعن قتادة " لا تبديل لخلق الله" قال: لدين الله

وعن الضحاك : "لا تبديل لخلق الله" قال: لدين الله

يقول الطبري: "وقوله " ذلك الدين القيم " يقول تعالى ذكره : إن إقامتك وجهك للدين حنيفاً غير مغير ، ولا مبدل هو الدين القيم، يعني المستقيم الذي لا عوج فيه عن الاستقامة من الحنيفية إلى اليهودية والنصرانية، وغير ذلك من البدع والضلالات المحدثة.

"ولكن أكثر الناس لا يعلمون" أن الدين الذي أمرتك به يا محمد بقولي: "فأقم وجهك للدين حنيفاً" هو الدين الحق دون سائر الأديان".[1]

ويقول الإمام ابن كثير: "يقول تعالى : فسدد وجهك واستمر على الدين الذي شرعه الله لك من الحنيفية ملة إبراهيم الذي هداك الله لها وكملها لك غاية الكمال وأنت مع ذلك لازم فطرتك السليمة التي فطر الله الخلق عليها فإنه تعالى فطر خلقه على معرفته وتوحيده وأنه لا إله غيره . وفي الحديث، "إني خلقت عبادي حنفاء كلهم وإنهم أتتهم الشياطين فأضلتهم

١- الإمام الطبري، تفسير الطبري، المجلد (١٠)، جـ(٢١)، ص(٢٦- ٢٧)، دار المعرفة ط٣، بيروت – لبنان، سنة (١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م).

٢- رواه أحمد (١٦٢/٤).

عن دينهم "[٢]، وأن الله تعالى فطر خلقه على الإسلام ثم طرأ على بعضهم الأديان الفاسدة كاليهودية والنصرانية والمجوسية .

وقوله تعالى: (**لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ**) قال بعضهم: معناه لا تبدلوا خلق الله فتغيروا الناس عن فطرتهم التي فطر الله عليها فيكون خبراً بمعنى الطلب كقوله تعالى: (**وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِناً**) [٣] وهو معنى حسن صحيح ، وقال آخرون هو خبر على بابه ومعناه أنه تعالى ساوى بين خلقه كلهم في الفطرة على الجبلة المستقيمة لا يولد أحد إلا على ذلك ولا تفاوت بين الناس في ذلك . ولهذا قال ابن عباس وإبراهيم النخعى وسعيد بن جبير ومجاهد وعكرمه وقتادة والضحاك وابن زيد في قوله(**لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ**) أي لدين الله ، وقال البخاري قوله: (**لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ**) لدين الله خلق الأولين دين الأولين، الدين والفطرة الإسلام .

عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " ما من مولود يولد إلا على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء"[١] ثم يقول: (**فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ**) [٢]

عن الأسود بن سريع قال : "أتيت رسول الله r وغزوت معه فأصبت ظهراً فقاتل الناس يومئذ حتى قتلوا الولدان فبلغ ذلك رسول الله r فقال: "ما بال أقوام جاوزهم القتل اليوم حتى قتلوا الذرية ؟ ، فقال رجل يا رسول الله إنما هم أبناء المشركين فقال، ألا إنما خياركم أبناء المشركين ، ثم قال: ألا لا تقتلوا ذرية ،قال: "كل نسمة تولد على الفطرة حتى يعرب عنها لسانها فأبواها يهودانها أوينصرانها"[٣]. وعن جابر بن عبد الله قال : قال رسول r : " كل مولود يولد على الفطرة حتى يعرب عنه لسانه فإذا عرب

عنه لسانه إما شاكراً وإما كفوراً"[٤] ، وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله r سئل عن أولاد المشركين فقال: " الله أعلم بما كانوا عاملين إذا خلقهم"[٥]. وعن ابن عباس قال: أتى علي زمان وأنا أقول: أولاد المسلمين مع المسلمين وأولاد المشركين مع المشركين حتى حدثني فلان عن فلان أن رسول الله r سئل عن أولاد المشركين فقال " الله أعلم بما كانوا عاملين " قال فلقيت الرجل فأخبرني فأمسكت عن قولي"[٦] ،وعن عياض بن حمار أن رسول الله r خطب ذات يوم فقال في خطبته: "إن ربي عز وجل أمرني أن أعلمكم ما جهلتم مما علمني في يومي هذا : كل مال نحلته عبادي حلال .وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم ، وإنهم أتتهم الشياطين فأضلتهم عن دينهم وحرمت عليهم ما أحللت لهم ، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطاناً ، ثم إن الله عز وجل نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب، وقال إنما بعثتك لأبتليك وأبتلي بك وأنزلت عليك كتاباً لا يغسله الماء تقرؤه نائماً ويقظاناً ثم إن الله أمرني أن أحرق قريشاً فقلت: يا رب إذاً يثلغوا رأسي فيدعوه خبزاً قال: استخرجهم كما استخرجوك فاغزهم نغزك وأنفق عليهم فسننفق عليك وابعث جنداً نبعث خمسة مثله وقاتل بمن أطاعك من عصاك قال: وأهل الجنة ثلاثة ذو سلطان مقسط متصدق موفق ورجل رحيم رقيق القلب لكل ذي قربى مسلم ورجل فقير عفيف متصدق، وأهل النار خمسة : الضعيف الذي لا زبر له الذين هم فيكم تبعا لا يبتغون أهلا ولا مالاً ، والخائن الذي لا يخفي عليه طمع وإن

١- تقدم تخريجه ص (٥٩)، رقم (١).

٢- سورة الروم الآية (٣٠).

٣- رواه أحمد (٤٣٥/٣).

٤- رواه أحمد (٣٥٣/٣).

٥- رواه أحمد (٢١٥/١ ، ٣٢٩)، والبخاري (٥٢٠/٤فتح)، ومسلم (٢٠٤٨/٤).

٦- الإمام ابن حجر العسقلاني، فتح الباري، (٥٢٠/٤)، مرجع سابق.

دق إلا خانه ،ورجل لا يصبح ولا يمسي إلا وهو يخادعك عن أهلك ومالك وذكر البخل والكذب والشنظير الفاحش"[1]

وقوله تعالى: (ذلك الدين القيم) أي التمسك بالشريعة والفطرة السليمة هو الدين القيم المستقيم (ولكن أكثر الناس لا يعلمون) أي فهذا لا يعرفه أكثر الناس فهم عنه ناكبون كما قال تعالى: **)وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ)** [2]

وقال تعالى: **)وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ)** [1] " [2]

ويقول الإمام الرازي: ""فطرت اللّه " الزم فطرت اللّه: وهي التوحيد ، فإن اللّه فطر الناس عليه حيث أخذهم من ظهر آدم وسألهم (**أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ**) [3] فقالوا: بلى، وقوله تعالى : "لا تبديل لخلق اللّه " أي الوحدانية مترسخة فيهم، لا تغيير لها حتى إن سألتهم من خلق السموات والأرض يقولون: اللّه، لكن الإيمان الفطري غير كاف، ويحتمل أن يقال: خلق اللّه الخلق لعبادته، وهم كلهم عبيده ، "لا تبديل لخلق اللّه" أي ليس كونهم عبيداً مثل كون المملوك عبداً لإنسان، فإنه ينتقل عنه إلى غيره، ويخرج عن ملكه بالعتق، بل لا خروج للخلق عن العبادة والعبودية.

١- رواه أحمد (١٦٢/٤).

٢- سورة يوسف الآية (١٠٣) .

١- سورة الأنعام الآية (١١٦) .

٢- ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٤٣٢/٣- ٤٣٣)، بتصرف، مرجع سابق .

والإمام ابن كثير هو الإمام الحافظ عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير ، كان قدوة العلماء والحفاظ وعمدة أهل المعاني والألفاظ، أخذ عن ابن تيمية وفتن بحبه، له مؤلفات عديدة أشهرها تفسير القرآن العظيم، توفي سنة (٧٧٤هـ).

٣- سورة الأعراف الآية (١٧٢).

٤- الإمام الرازي، التفسير الكبير، (١٢٠/٣- ١٢١)، بتصرف، مرجع سابق .والإمام الرازي: هو الإمام أبو عبد الله محمد بن عمر الرازي جمع كثيراً من العلوم ونبغ فيها كان إماماً في التفسير والعلوم العقلية والعربية له مؤلفات عديدة منها التفسير الكبير، توفي سنة (٦٣٩هـ).

ثم قال تعالى : ("ذلك الدين القيم" الذي لاعوج فيه "ولكن أكثر الناس لا يعلمون " أن ذلك هو الدين المستقيم.")[٤]

ويقول الإمام الزمخشري: (" فطرت اللّه " أي الزموا فطرت اللّه ، أو عليكم فطرت اللّه ، والمعنى أنه خلقهم قابلين للتوحيد ودين الإسلام غير نائين عنه، ولا منكرين له بكونه مجاوباً للعقل، مساوقاً للنظر الصحيح حتى لو تركوا لما اختاروا عليه ديناً آخر ،ومن غوى منهم فبإغواء شياطين الإنس والجن .

" لا تبديل لخلق اللّه " أي ما ينبغي أن تبدل تلك الفطرة أو تغير)[١] .

ويقول الإمام الألوسي: (فسر الكثير "الفطرة" هنا بقابلية الحق والتهيؤ لإدراكه، وقالوا: معنى لزومها: الجريان على موجبها ،وعدم الإخلال به وإتباع الهوى، وتسويل شياطين الإنس والجن ووصفها بقوله تعالى :" التي فطر الناس عليها" لتأكيد وجوب امتثال الأمر . وعن عكرمة : تفسيرها بدين الإسلام . وفي الخبر ما يدل عليه ، أخرج ابن مردويه عن حماد بن عمر الصفار قال: سألت قتادة عن قوله تعالى :" فطرت اللّه التي فطر الناس عليها " قال حدثني أنس بن مالك رضي اللّه عنه قال : قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم::"فطرت اللّه التي فطر الناس عليها دين اللّه تعالى "

والمراد بفطرهم على دين الإسلام خلقهم قابلين له، غير نائين عنه، ولا منكرين له،لكونه مجاوباً للعقل ، مساوقاً للنظر الصحيح حتى لو تركوا لما اختاروا عليه دينا آخر، ففي الصحيحين عن أبى هريرة قال:

قال رسول اللّه (ﷺ)"ما من مولودٍ يولد إلا يولد على الفطرة " الحديث والمراد بالناس على التفسيرين: جميعهم.

١- الزمخشري، الكشاف(٢٢٢/٣)، بتصرف، مرجع سابق ، والإمام الزمخشري: هو الإمام أبو القاسم محمود ابن عمر الخوارزمي كان عالماً في التفسير والبلاغة وكان متبحراً في اللغة العربية، صاحب التفسير المشهور بالكشاف، لقب بجار اللّه، له مصنفات عديدة أشهرها تفسير الكشاف، توفي سنة (٥٣٨هـ).

وزعم بعضهم أن المراد بهم على التفسير الثاني "المؤمنون" وليس بشيء، واستشكل الاستغراق بأنه ورد في الغلام الذي قتله الخضر عليه السلام أنه طبع على الكفر، وأجيب بأنه معنى ذلك انه لوُ قدِّرَ أنه عاش يصير كافراً بإضلال غيره له ، أو بآفة من الآفات البشرية [1] ، وذلك لا ينافي الفطرة على دين الإسلام بمعنى خلقه متهيئا له مستعداً لقبوله.

وقيل فطرة اللّه: العهد المأخوذ على بني آدم، ومعنى فطرهم على ذلك على ما قيل :خلقهم مركوزاً فيهم معرفته تعالى كما أشير إليه بقوله تعالى: (**وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ**) [2] وقوله سبحانه : (**لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ**) تعليل للأمر بلزوم فطرته تعالى، أو لوجوب الامتثال به، فالمراد بخلق اللّه فطرته المذكورة، والمعنى لا صحة، ولا استقامة لتبديل فطرت اللّه تعالى بالإخلال بموجبها، وعدم ترتيب مقتضاها عليها باتباع الهوى، وقبول وسوسة الشياطين، وقيل: المعنى لا يقدر أحد أن يغير خلق اللّه سبحانه، وفطرته عز وجل،فلا بد من حمل التبديل على نفس الفطرة بإزالتها رأساً، ووضع فطرة أخرى مكانها غير مصححة لقبول الحق، والتمكن من إدراكه ضرورة.

"ذلك " إشارة إلى الدين المأمور بإقامة الوجه له، أو إلى لزوم فطرة اللّه تعالى" .[3]

١- رواه مسلم (٢٠٥٠/٤) عن أبي بن كعب رضي اللّه عنه قال: قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم: "إن الغلام الذي قتله الخضر طبع كافراً ولو عاش لأرهق أبويه طغياناً وكفرا"

٢- سورة لقمان الآية (٢٥).

٣- الإمام الألوسي، روح المعاني، ج(٢١)، ص(٤٠- ٤١)، دار إحياء التراث العربي، ط٤، القاهرة – مصر، بيروت – لبنان، سنة (١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م)، والإمام الألوسي: هو الإمام أبو الثناء شهاب الدين السيد محمود الألوسي البغدادي جمع كثيراً من العلوم حتى أصبح علامة المنقول والمعقول له مؤلفات عديدة منها تفسيره روح المعاني، توفي سنة (١٢٧٠هـ).

وآثر الإمام السيوطي التفسير بالمأثور كعادته فأتحفنا بشيء من الحديث والمأثور كما يلي: "أخرج الفريابى وابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد رضي اللّه عنه في قوله "فطرت اللّه التي فطر الناس عليها" قال: الدين الإسلام (**لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ**) قال : لدين اللّه .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر عن عكرمة رضي اللّه عنه في قوله: (**فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ**) [1] قال:الإسلام

وأخرج ابن أبي حاتم عن الضحاك في قوله: (**فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا**) [1] قال دين اللّه الذي فطر خلقه عليه

وأخرج الحكيم الترمذي في نوادر الأصول عن مكحول رضي اللّه عنه . أن الفطرة معرفة اللّه .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي اللّه عنهما في قوله (**لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ**) قال : دين اللّه (ذلك الدين القيم) قال : القضاء القيم.

وأخرج ابن مردويه عن حماد ابن عمر الصفار قال : سألت قتادة رضي اللّه عنه عن قوله (**فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا**) فقال : حدثني أنس بن مالك رضي اللّه عنه قال : قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم: "(فطرت اللّه التي فطر الناس عليها) قال : دين اللّه "

وأخرج ابن جرير عن معاذ بن جبل رضي اللّه عنه . أن عمر رضي اللّه عنه قال له : ما قوام هذه الأمة ؟ قال : ثلاث وهن المنجيات . الإخلاص : وهو الفطرة التي فطر الناس عليها . والصلاة : وهي الملة والطاعة : وهي العصمة. فقال عمر رضي اللّه عنه : صدقت.

١- سورة الروم الآية (٣٠).

وأخرج ابن جرير عن سعيد بن جبير رضي الله عنه (لا تبديل لخلق الله) قال : لدين الله .

وأخرج ابن جرير عن عكرمة وقتادة والضحاك وإبراهيم وابن زيد. مثله.

وأخرج البخاري ومسلم وابن ا لمنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن أبى هريرة .رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " ما من مولود إلا يولد على الفطرة،فأبواه يهودانه،وينصرانه، ويمجسانه ، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها جدعاء ؟" ثم يقول أبو هريرة رضي الله عنه:اقرءوا إن شئتم ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾

وأخرج مالك وأبو داود وابن مردويه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:" كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه، وينصرانه ، كما تنتج الإبل من بهيمة جمعاء هل تحس من جدعاء؟" قالوا: يا رسول الله أفرأيت من يموت وهو صغير ؟ قال : الله أعلم بما كانوا عاملين"[1] .

وأخرج عبد الرزاق وابن أبي شيبة وأحمد والنسائي والحاكم وصححه وابن مردويه عن الأسود بن سريع رضي الله عنه " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث سرية إلى خيبر فقاتلوا المشركين، فانتهى بهم القتل إلى الذرية، فلما جاؤا قال النبي صلى الله عليه وسلم: "ما حملكم على قتل الذرية ؟" قالوا: يا رسول الله إنما كانوا أولاد المشركين قال : وهل خياركم إلا أولاد المشركين ؟ والذي نفسي بيده ما من نسمة تولد إلا على الفطرة حتى يعرب عنها لسانها"[1].

١- تقدم تخريجه، ص(٥٩)، رقم (١).

١- الإمام السيوطي، الدر المنثور في التفسير بالمأثور، جـ(٦)، ص(٢٩٢- ٤٩٤)، دار الفكر، ط(١)، بيروت – لبنان، سنة (١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م)، والإمام السيوطي هو الحافظ جلال الدين أبو الفضل عبد الرحمن بن أبي

ويقول الشيخ المراغي: "(فأقم وجهك للدين حنيفا) أي فسدد وجهك نحو الوجه الذي وجهك إليه ربك لطاعته ، وهو الدين القيم ، دين الفطرة، ومِلْ عن الضلال إلى الهدى (فطرت اللّه التي فطرت الناس عليها)أي: الزموا خلقة اللّه التي خلق الناس عليها ، فقد جعلهم بفطرتهم جانحين للتوحيد وموقنين به ، لكونه موافقاً لما يهدي إليه العقل، ويرشد إليه صحيح النظر، كما ورد في الحديث الذي رواه البخاري ومسلم:"كل مولود يولد على الفطرة حتى يكون أبواه هما اللذان يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه كما تنتج البهيمة جمعاء (مستوية لم يذهب من بدنها شئ) هل تحسون فيها من جدعاء ؟" (مقطوعة الأذن والأنف).

ثم علل وجوب الامتثال بقوله : (لا تبديل لخلق اللّه) أي لا ينبغي أن تبدل فطرة اللّه أو تغير، و هذا خبر في معنى النهي كأنه قيل: لا تبدلوا دين اللّه بالشرك.

بيان هذا أن العقل الإنساني كصحيفة بيضاء، قابلة لنقش ما يراد أن يكتب فيها،كالأرض تقبل كل ما يغرس فيها، فهي تنبت حنظلاً وفاكهة، ودواءً وسماً، والنفس ترد عليها الديانات والمعارف فتقبلها ، والخير أغلب عليها من الشر ، كما أن أغلب نبات الأرض يصلح للرعي، والقليل منه سم لا ينتفع به، ولا تتغير بالآراء الفاسدة إلا بمعلم يعلمها ذلك كالأبوين اليهوديين أو النصرانيين، ولو ترك الطفل وشأنه لعرف أن الإله واحد ولم يسقه عقله إلى غير ذلك، فإن البهيمة لا تجدع إلا بمن يجدع من الخارج، هكذا صحيفة العقل لا تغير إلا بمؤثر خارجي يضلها بعد علم . (ذلك الدين القيم) أي ذلك الذي أمرتكم به من التوحيد هو الدين الحق الذي لاعوج فيه ولا انحراف .

بكر بن محمد السيوطي كان أعلم أهل زمانه، بالحديث وعلوم القرآن والعربية وكان آية في سرعة التأليف،له مؤلفات شهيرة منها الجامع الصغير والدر المنثور، توفي سنة (٩١١هـ).

(ولكن أكثر الناس لا يعلمون) ذلك لعدم تدبيرهم في البراهين الواضحة الدالة عليه.، ولو علموا ذلك حق العلم لاتبعوه ، وما صدوا الناس عن الاقتباس من نوره وما سدلوا الحجب التي تحجب عنهم ضياءه".[1]

من أقوال شراح الحديث

جاء في الفتح:

وأشهر الأقوال أن المراد بالفطرة الإسلام

قال ابن عبد البر وهو المعروف عند عامة السلف ، وأجمع أهل العلم بالتأويل على أن المراد بقوله تعالى: (**فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ**)[1] الإسلام واحتجوا بقول أبي هريرة في آخر الحديث "اقرءوا إن شئتم " (**فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا**)وبحديث عياض بن حمار عن النبي صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه "إني خلقت عبادي حنفاء كلهم وإنهم أتتهم الشياطين فأضلتهم عن دينهم "[2]

وقد رواه غيره فزاد فيه "حنفاء مسلمين" ورجحه بعض المتأخرين بقوله تعالى: (**فِطْرَتَ اللَّهِ**)؛ لأنها إضافة مدح، وقد أمر نبيه بلزومها فعلم أنها الإسلام"[1]

" أدلة تثبت أن الفطرة هي الإسلام :

قال الطيبي: ذكر هذه الأدلة عقب هذا الحديث يقوي ما أوله حماد بن سلمة من أوجه .

١- سورة الروم الآية (٣٠)

٢- تقدم تخريجه ص(٣٥٣) رقم (٢).

١- الإمام ابن حجر العسقلاني، فتح الباري، (٥٢٢/٤- ٥٢٣ فتح)، مرجع سابق .

أحدها : أن التعريف في قوله على الفطرة أشار إلى معهود وهو قوله تعالى: (**فِطْرَتَ اللَّهِ**) ومعنى المأمور في قوله : "فأقم وجهك" أي اثبت على العهد القديم .

ثانيها: ورود الرواية بلفظ الملة بدل الفطرة والدين في قوله "للدين حنيفا" هو عين الملة قال تعالى: (**دِيناً قِيَماً مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً**) ويؤيده حديث عياض المتقدم .

ثالثها : التشبيه بالمحسوس المعاين ليفيد أن ظهوره يقع في البيان مبلغ هذا المحسوس.

قال: والمراد تمكن الناس من الهدى في أصل الجبلَّة والتهيؤ لقبول الدين فلو ترك المرء عليها لاستمر على لزومها ولم يفارقها إلى غيرها لأن حسن هذا الدين ثابت في النفوس، وإنما يعدل عنه لآفة من الآفات البشرية كالتقليد.

وإلى هذا مال القرطبي في "المفهم" فقال : " المعنى أن الله خلق قلوب بني آدم مؤهلة لقبول الحق كما خلق أعينهم وأسماعهم قابلة للمرئيات والمسموعات، فما دامت باقية على ذلك القبول وعلى تلك الأهلية أدركت الحق ودين الإسلام هو الدين الحق ".

وقد دل على هذا المعنى بقية الحديث حيث قال :"كما تنتج البهيمة" يعني أن البهيمة تلد الولد كامل الخلقة فلو ترك كذلك كان بريئا من العيب لكنهم تصرفوا فيه بقطع أذنه مثلا فخرج عن الأصل ، وهو تشبيه واقع ووجهه واضح والله أعلم .

وقال ابن القيم : "ليس المراد بقوله: "يولد على الفطرة " أنه خرج من بطن أمه يعلم الدين لأن الله يقول:)**وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا**

تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) [1] ولكن المراد أن فطرته مقتضية لمعرفة دين الإسلام ومحبته، فنفس الفطرة تستلزم الإقرار والمحبة .

وليس المراد مجرد قبول الفطرة لذلك؛ لأنه لا يتغير بتهويد الأبوين مثلاً بحيث يخرجان الفطرة عن القبول وإنما المراد أن كل مولود يولد على إقراره بالربوبية فلو خلي وعدم المعارض لم يعدل عن ذلك إلى غيره كما أنه يولد على محبة ما يلائم بدنه من ارتضاع اللبن حتى يصرفه عنه الصارف.

ومن ثم شبهت الفطرة باللبن ، بل كانت إياه في الرؤيا ويؤيد المذهب الصحيح أن قوله: فأبواه يهودانه إلخ ليس فيه لوجود الفطرة شرط بل ذكر ما يمنع موجب كحصول اليهودية مثلاً متوقف على أشياء خارجة عن الفطرة بخلاف الإسلام .

وقال ابن القيم : سبب اختلاف العلماء في معنى الفطرة في هذا الحديث أن القدرية كانوا يحتجون به على أن الكفر والمعصية ليسا بقضاء الله بل مما ابتدأ الناس إحداثه ، فحاول جماعة من العلماء مخالفتهم بتأويل الفطرة على غير معنى الإسلام، ولا حاجة لذلك؛ لأن الآثار المنقولة عن السلف تدل على أنهم لم يفهموا من لفظ الفطرة إلا الإسلام ولا يلزم من حملها على ذلك موافقة مذهب القدرية لأن قوله : فأبواه يهودانه الخ محمول على أن ذلك يقع بتقدير الله تعالى ..

ومن ثم احتج عليهم مالك بقوله في آخر الحديث :"الله أعلم بما كانوا عاملين"[1] [2].

١- سورة النحل الآية (٧٨) .

١- مالك، الموطأ، ص(١٦٠)، والترمذي(٤/٤٤٧).

٢- الإمام ابن حجر، فتح الباري، (٤/ ٥٢٤- ٥٢٦) بتصرف، مرجع سابق.

ويقول الإمام النووي بعد أن ذكر بعض الآراء، "وقيل معناه: كل مولود يولد على معرفة الله تعالى، والإقرار به، فليس أحد يولد إلا ويقر بأن له صانعاً، وإن سماه بغير اسمه، أو عبد معه غيره ، والأصح أن معناه أن كل مولود يولد متهيئاً للإسلام، فمن كان أبواه، أو أحدهما مسلماً استمر على الإسلام في أحكام الآخرة والدنيا، وإن كان أبواه كافرين جرى عليه حكمهما في أحكام الدنيا، وهذا معنى "يهودانه وينصرانه ويمجسانه"، أي: يحكم له بحكمهما في الدنيا، فإن بلغ استمر عليه حكم الكفر ودينهما، فإن كانت سبقت له سعادة أسلم، وإلا مات على كفره، وإن مات قبل بلوغه فالأصح أنه من أهل الجنة والجواب عن حديث "الله أعلم بما كانوا عاملين" أنه ليس فيه تصريح بأنهم في النار، وحقيقة لفظ الله أعلم بما كانوا يعملون لو بلغوا، ولم يبلغوا إذ التكليف لا يكون إلا بالبلوغ ، وأما غلام الخضر فيجب تأويله قطعاً؛ لأن أبويه كانا مؤمنين فيكون هو مسلماً فيتأول على أن معناه أن الله أعلم أنه لو بلغ لكان كافراً، لا أنه كافر في الحال، ولا يجري عليه في الحال أحكام الكفار والله أعلم".[1]

ويقول ابن الأثير بعد إيراد روايات من حديث: "ما من مولود إلا يولد على الفطرة"

"ومعنى هذا الحديث : أن المولود يولد على نوع من الجبلة، وهي فطرت الله تعالى، وكونه متهيئاً لقبول الحقيقة طبعاً وطوعاً، ولو خلّته شياطين الإنس والجن وما يختار، لم يختر إلا إياها، وضرب لذلك -

---

١- الإمام النووي، صحيح مسلم بشرح النووي، مجلد ٦، جزء١٦، ص(٢٠٨) بتصرف، المطبعة المصرية، بدون ط، القاهرة – مصر، بدون ت، والإمام النووي هو: الإمام الحافظ شيخ الإسلام محيي الدين أبو زكريا يحيى بن شرف بن مري الخزامي الحواربي الشافعي ، صاحب التصانيف البارعة الشهيرة، منها شرح صحيح الإمام مسلم ، ورياض الصالحين ، والأذكار ، والأربعين النووية، والتبيان في آداب حملة القرآن ، توفي سنة (٦٧٦هـ).

الجمعاء والجدعاء- مثلاً، يعني أن البهيمة تولد سوية الأطراف ، سليمة من الجدع ونحوه ، لولا الناس وتعرضهم إليها ، لبقيت كما ولدت سليمة .

وقوله "اللّه أعلم بما كانوا عاملين " إشارة إلى تعلق المثوبة والعقوبة بالعمل".[٢]

٢- ابن الأثير، جامع الأصول في أحاديث الرسول، تحقيق عبد القادر الأرناؤوط، ج١، ص(٢٧١، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ط(٢)، بيروت – لبنان ، سنة(١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م) . والإمام ابن الأثير هو : الإمام مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد: ابن الأثير الجزري، له تصانيف كثيرة منها، غريب الحديث وجامع الأصول توفي سنة (٦٠٦هـ).

رأي الباحث:

والذي أميل إليه أن الفطرة هي الإسلام؛ لتظاهر أقوال السلف على ذلك حتى كاد يكون شبه إجماع، وتدعم آيات القرآن الكريم وأحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك، فالله تعالى يقول: (**إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْأِسْلامُ**)[1] وقال جل شأنه : (**وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْأِسْلامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ**)[2] وجعله دين البشر عامة ، وبعث به رسله عليهم الصلاة والسلام وقال تعالى حكاية عن أهل الكتاب (**وَقَالُوا كُونُوا هُوداً أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ**)[3]

وملة إبراهيم هي الإسلام ، وقال جل شأنه: (**مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيّاً وَلا نَصْرَانِيّاً وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفاً مُسْلِماً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ**)[4] وهو الملة التي أمرنا الله تعالى باتباعها قال تعالى : (**قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ**)[5] وها هو رد السحرة على فرعون حين هددهم فحكى القرآن عنهم (**وَمَا تَنْقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ**)[6]

١- سورة آل عمران الآية (١٩) .

٢- سورة آل عمران الآية (٨٥) .

٣- سورة البقرة الآية (١٣٥).

٤- سورة آل عمران الآية (٦٧) .

٥- سورة آل عمران الآية (٩٥) .

٦- سورة الأعراف الآية (١٢٦) .

ويقول الله تعالى مخاطباً رسوله ومصطفاه r : (**قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِيناً قِيَماً مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنْ الْمُشْرِكِينَ (١٦١) قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ (١٦٣)**) [1] والله تعالى يقول: (**فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ**) [2] فأي دين يستحق ذلك كله غير الإسلام؟ وإذا كان ذلك الدين هو الفطرة فالفطرة هي الإسلام .

وما القول بأن الفطرة هي الخلقة التي خلق عليها الناس، فقد جعلهم بفطرتهم جانحين للتوحيد مهيئين له موقنين به، ببعيد عن معنى الإسلام .

وإذا كان الإسلام هو إسلام الوجه لله تعالى فالله تعالى يقول :)**وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً**) [3]

الفطرة والعقيدة السليمة:

خلق الله تعالى الإنسان لعبادته، وطبعه على معرفته، وهيأ له أسباب الترقي في تلك المعرفة "والعقيدة الإسلامية واضحة في تقبلها، مبسطة في مفهومها وحقيقتها، سهلة الإدراك لأنه لا تعقيد فيها ولا لبس ولا غموض، بل هي من الجلاء والظهور بحيث يستطيع أن يستوعبها من له أدنى قسط من التعقل والإدراك وأقل حظ من الفطنة والذكاء؛ لأنها أمر فطري يتغلغل في أعماق كل إنسان ويسري في كيانه.

١- سورة الأنعام الآيات (١٦٠- ١٦٣).

٢- سورة الروم الآية (٣٠) .

٣- سورة النساء الآية (١٢٥) .

فلقد خلق الله تعالى بني آدم وفطرهم على معرفته وتوحيده، وطبعهم على الاستعداد للإيمان والهدى وجبلهم على العقيدة الصحيحة وهيأهم لقبولها بالتفكر والنظر في السموات والأرض. قال تعالى: ﴿**أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ**﴾ [1] وقال جل شأنه: ﴿**قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ**﴾ [2] وقد أخذ الله الإقرار والاعتراف من بني آدم وهم في أصلاب آبائهم بما أظهره سبحانه من آيات بينات على ربوبيته ووحدانيته ، وأكد هذا العهد والميثاق إيقاظا وتذكيراً على لسان الأنبياء والمرسلين حتى لا يكون لأحد حجة بالغفلة وتقليد الآباء والرؤساء. وقال الله تعالى : **وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ (١٧٢) أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ (١٧٣) وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (١٧٤)** [3] أي: لقد بين الله تعالى هداية بني آدم بوضوح الأدلة في الكائنات بعد أن بينها عن طريق الرسل والكتب فقال : واذكر أيها النبي للناس حين أخرج ربك من أصلاب بني آدم نسلهم وما يتوالدون جيلاً بعد جيل، ثم أظهر لهم دلائل وحدانيته في الموجودات، وركز فيهم عقولاً وبصائر يتمكنون بها من معرفتنا، والاستدلال بها على التوحيد والربوبية بعد أن أشهدهم على أنفسهم وقال لهم: ألست بربكم ؟ قالوا : بلى أنت ربنا شهدنا بذلك على أنفسنا واعترفنا. ثم أرسلنا الرسل بالعلم والأدلة والمعجزات الباهرة، قال تعالى :

١- سورة الروم الآية (٨) .

٢- سورة يونس الآية (١٠١) .

٣- سورة الأعراف الآيات (١٧٢- ١٧٤) .

(**رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً**) [1]، ولئلا تقولوا يوم القيامة: إنا كنا عن هذا التوحيد غافلين لا نعرفه، أو تقولوا: إنما أشرك آباؤنا من قبلنا وكنا ذرية لهم فاقتدينا بهم، أفتعاقبنا يا رب بما فعل المبطلون من آبائنا وتؤاخذنا بعقيدة الشرك الذي جرونا إليه؟ فلا حجة لكم. وبمثل ذلك البيان الحكيم يوضح المولى لبني آدم الدلائل على وحدانية الله تعالى ليرجعوا عن مخالفتهم وتقليد المبطلين الضالين الذين عموا وصموا عن هذا الإقرار والعهد".[2]

وهي أي الفطرة، الخلقة والمراد بها في أشهر الأقوال : الإسلام، "قال ابن عبد البر، وهو المعروف عند عامة السلف، وأجمع عليه أهل العلم بالتأويل على أن المراد بقوله تعالى : (**فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ**) الإسلام".[3]

قال النووي: "كما" أي: يُهود الوالدان المولود بعد أن خلق على الفطرة، تشبيها بالبهيمة التي جدعت بعد سلامتها" [4]

١- سورة النساء آية (١٦٥) .

٢- محمد سليمان فرج، الفطرة ووظائفها في الإسلام، ص(١٣١ – ١٣٢)، رسالة ماجستير، كلية أصول الدين، جامعة الأزهر، مطابع البيان التجارية، بدون ط، دبي الإمارات، بدون ت.

٣- الإمام ابن حجر العسقلاني، فتح الباري (٥٢٢/٤)، مرجع سابق.

٤- الإمام النووي، صحيح مسلم بشرح النووي، مجلد (٦)، جـ(١٦)، ص(٢٠٩)، مرجع سابق.

الفطرة حق:

إن الفطرة في الإنسان مع تباين العقائد، وتعتيم البيئات لضمير أجيالها محدثة عن نفسها، مؤكدة وجودها، شاهدة بأن لها توجهاً واحداً لا ثاني له، وأن ملجأها في الشدائد وملاذها في الكربات لا شريك له قادر مقتدر يدعى في الليل وفي النهار، في البحر والجو والبر؛ لأنه وحده الذي يملك هذا الكون بمن فيه وما فيه، ويصرفه وفق إرادته، والتدبر في آيات العنكبوت وغيرها أعظم دليل على معرفة الفطرة لبارئها وأن الإنكار ما هو إلا أثر من آثار بيئات السوء، وهو مع سيطرته غير قادر على إطفاء ذلك النور الإلهي نور الفطرة، قال تعالى : **وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّا يُؤْفَكُونَ (٦١) اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٦٢) وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ (٦٣) وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٦٤) فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ (٦٥)** (١)

إن الآيات الساطعة، والبراهين القاطعة الدالة على الله لا تنكرها الفطرة، ولا يأباها العقل البعيد عن العبث البريء من التلوث، وذلك قائم في كل عصر ثابت في كل بيئة ، وان تناهت في الضلال، صادر عن الإنسان، وإن لم يحسن التعبير عنه، ولم يتح للسانه أن يشرف به.

إن راكب البحر مع تطور العصر، وتنوع معطيات العلم حين يحوطه الخطر، ويتمكن منه الخوف، ويرى الضياع رأي العين يتطلع إلى منقذ، يحس من أعماقه أنه وحده القادر على ذلك، تنطق بذلك حاله، وإن عجز

١- سورة العنكبوت الآيات (٦١- ٦٥)

لسانه، وشل منطقه، وراكب الجو إذا اضطرب ميزان الحياة، وعجزت القوى عن تدبير وسائل النجاة، وتألق شبح الموت ألا تنطق بالرجاء حال القائد والمقود؟ ألا يبرأ الجميع من حولهم وقوتهم؟ فبأي قوة يستغيثون؟ أليس شأنهم شأن ما قال الله تعالى فيه: **أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ** (٧٩) [١]

وهذه القلوب المترقبة للشفاء، الطامعة في عودة العافية، الملحة في طلب السلامة، مؤمنة أو كافرة هي ومن حولها ممن ترجو هذا ؟ وفيمن تأمله ؟ أفي الطبيب، وقد يكون هو مريضاً عاجزاً عن شفاء نفسه؟ إنها تتجه إلى من قال عنه إبراهيم عليه السلام كما حكى القرآن الكريم : (**وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ**) [٢]

فهو وحده الذي ييسر الدواء إذا أراد، ويجعل العافية تسري في أوصال من يئس من العيش، وملَّ البقاء، إن الفطرة تعرف مسارها الصحيح، وتدرك أنَّى تلقي بأحمالها، وإن زيف الضلال العقول، وأفسد التوجيهات وصدق الله تعالى إذ يقول:)**هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ**) [١]

إن الفطرة التي استيقظت، في الشدة، واستفاقت وصححت مسارها عند نزول البلاء لا تلبث مؤثرات السوء أن تلوي زمامها بعد رفع البلاء، وتعمي عليها، وتقهرها فيطفو الطغيان، ويقود الضلال، ويكون الكفر والضياع. يقول ربنا جل وعلا عقب الآية السابقة: **فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي**

١- سورة النحل الآية (٧٩).

٢- سورة الشعراء الآية (٨٠).

١- سورة يونس الآية (٢٢).

الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٣) [٢]

"الفطرة التي فطر الله الناس عليها هي ذلك الشعور الذاتي الذي ينبع من أعماق النفس لهذا الوجود إلهاً واحداً يسيطر على كل شيء ويدبر بمشيئته كل أمر.

وقد سئل الإمام جعفر الصادق: عن (الله) فقال: ألم تركب البحر ؟ قال: بلى: قال: فهل حدث لك مرة أن هاجت بك الريح عاصفة؟ قال: نعم وانقطع أملك من الملاحين ووسائل النجاة؟ قال: نعم. قال: فهل خطر ببالك، وانقدح في نفسك أن هناك من يستطيع أن ينجيك إن شاء؟ قال: نعم. قال جعفر: فذلك هو (الله).[٣] إن تلك المحاور العقلية استنطقت الفطرة، واستلهمت الفكرة السليمة، فكان الوصول إلى الحق ميسوراً، وعملت الفطرة عملها، وأقرت ما طبعت عليه.

"وقد سئل أعرابي: كيف عرفت الله؟ فقال بفطرته: البعرة تدل على البعير وأثر السير يدل على المسير فكيف بسماء ذات أبراج وأرض ذات فجاج أما تدل على الصانع العليم القدير؟!. ويقول ابن عطاء: (إلهي كيف يستدل عليك بما هو في وجوده مفتقر إليك؟ أيكون لغيرك من الظهور ما ليس لك حتى يكون المظهر لك؟ متى غبت حتى تحتاج إلى دليل عليك ؟ ومتى بعدت حتى تكون الآثار هي التي توصل إليك؟"[١]

فالفطرة المركوزة في ضمير الإنسان تعرف الله تعالى، وتتجه بكليتها إليه متناسية تلك القيود التي تفرضها البيئة، أو يحكم بها الهوى أو يوسوس بها الشيطان، وهاهو (ديكارت) أبو الفلسفة الحديثة كما يقولون يقول: "إني مع شعوري بنقص في ذاتي أحس في الوقت نفسه بوجود

٣- الشيخ حسن أيوب، تبسيط العقائد الإسلامية ، ص(٢٣)، ط(٢)، سنة (١٩٧٧م).

١- نفس المرجع السابق ص (١٣٤).

ذات كاملة وأراني (مضطراً)[٢] إلى اعتقادي بأن هذا الشعور قد غرسته في ذاتي تلك الذات الكاملة المتحلية بجميع صفات الكمال وهي الله"[٣] وما من محرك لهؤلاء الفارين إلى الإسلام صباح مساء على مستوى العالم إلا الفطرة، ثم ما يسر الله تعالى لهم من دوافع الهدى.

الإسلام والفطرة:

وأياً ما كان الأمر فهناك علاقة وثيقة، وقربى وشيجة بين الفطرة والإسلام، فإذا كان الإسلام هو الدين الذي تعهده الله بالرعاية والخلود إلى يوم البعث، فإنه لابد وأن يكون مواكباً لفطرة الإنسان؛ لأن من يخرج على هذه الفطرة، ويختلف عنها لابد أن يسقط، ويلفظه الواقع، ويجافيه كافة البشر؛ لأن فطرة الإنسان هي أساس تكوينه الروحي والمادي .

والفطرة من صنع الله كما قال عز وجل: ﴿ **فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ** ﴾

وقد خلقنا جل شأنه جميعا على الفطرة نقاء، وحسنا، وسلامة، خلقنا على المحجة البيضاء التي بعث بها رسله عليهم الصلاة والسلام وترك رسول الله r أمته عليها، ليلها كنهارها لا يزيغ عنا إلا هالك.

وقال رسول الله r : "كل مولود يولد على الفطرة "[١] والفطرة كما أشار القرآن الكريم هي الدين القيم.

وإذا كانت الفطرة ديناً فإنها دين الله عز وجل، والدين كما أعلمنا ربنا الإسلام قال تعالى: ﴿ **إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلامُ** ﴾ [٢]

والإسلام دين البساطة واليسر، دين الحنيفية السمحاء، والمتسق مع ما جبل عليه الناس، وهو الدين المعين لبني الإنسان على ما خلقوا له، لا

٢- تعبير خاص بديكارت محسوب عليه.

٣- نفس المرجع السابق ص(٢٢) .

١- تقدم تخريجه، ص(٥٩)، رقم (١).

حاجة فيه لتزييف الطبيعة والافتيات عليها، ولذا كان دين الخلود إلى أن يرث اللّه الأرض ومن عليها، لا حاجة فيه لتزييف الطبيعة والافتيات عليها".[٣] ويؤكد ابن تيمية "أن الفطرة نقية صافية، وأن طبيعة الإنسان تظل كذلك بفطرة نقية صافية، على شرط تطهير البيئة من كل ما يلوث هذه الفطرة، وإزاحة المعوقات أمام انطلاقة هذه الفطرة، وبذلك تلعب التربية الصحيحة دوراً هاماً في توكيد هذه الفطرة، وإمدادها بما يلزم لكي تساير طبيعة الإنسان".[١]

وبتدبر الآيات السابقة لآية الفطرة في سورة الروم يتجلى لنا سبقها بجولات في رحاب الكون ومشاهده، وآيات اللّه تعالى فيه وغوص في أغوار النفس وأعماقها، وتَقَصٍّ لكثير من أحوال البشر، وما سخر اللّه تعالى لهم، وما أفاض عليهم من نعمه، وما أسبغ عليهم من رحمته وفضله، وما يسر لهم من المعايش؛ ليعمروا الأرض، وليحفظوا عهد اللّه معهم، وحقه فيهم، ويخلصوا العبادة له جل شأنه، فهو وحده المستحق لذلك، قال جل جلاله: ﴿**أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لا يَخْلُقُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ**﴾ [٢]

وقال تعالى: ﴿**تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً**﴾ [٣]

والفطرة تنسجم مع هذا الإذعان وذلك الإنقياد ، وهي ثابتة لا تتغير إلا بمؤثر خارجي.

٢- سورة آل عمران الآية (١٩).

٣- الإمام ابن تيمية، الإيمان، ص(١١٦)، دار الشعوب، بدون ط، القاهرة – مصر، ١٩٥٤م.

١- توفيق محمد سبع، واقعية المنهج الإسلامي، ص(٨٣)، المطابع الأميرية، القاهرة – مصر، سنة (١٩٧٣م).

٢- سورة النحل الآية (١٧).

٣- سورة الإسراء الآية (٤٤).

عوائق الفطرة :

"إذا كانت الفطرة واحدة غذاؤها ودواؤها معا في تلك المشاهد التي عرضها القرآن الكريم في سياق متتابع فإن هناك من العوائق ما يحول بين الفطرة، والارتشاف من نبع الهداية، وتشير الآية الكريمة في أعقاب هذه المشاهد إلى أخطر هذه العوائق، بل ملاكها، والممكن لها، قال تعالى: ﴿**بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ**﴾ [1]

ولهذه الآية إيقاع خاص بعد آيات النظر والتدبر، وهي تشير إلى عوائق الفطرة أبلغ إشارة". [2]

وتكمن العوائق البالغة الخطورة في الأهواء البشرية، بقوتها، وتنوعها، وإغرائها، وتسلطها، فتأتي على الخصائص النظيفة للفطرة، وتشوه جمالها، وتلوثها بأدران المادة، وتنأى بها عن العقيدة الصحيحة؛ لترتكس بها في أوحال الشهوات والنزوات.

النشـــــأة :

يقول ابن تيمية في كتاب الإيمان: "إن فطرة المشركين قد فسدت نتيجة لظروف النشأة، فلم يفهموا ولو فهموا لم يعلموا لأن الله تعالى نفى عنهم صحة القوة العلمية والعملية، وقال في شأنهم: **أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً** ﴾ [3]

وقال عز وجل أيضاً: ﴿**وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَعْقِلُونَ**﴾ [4]

١- سورة الروم الآية (٢٩).

٢- توفيق محمد سبع، واقعية المنهج القرآني، ص(٩٥- ٩٦)، مرجع سابق.

٣- سورة الفرقان الآية (٤٤).

٤- سورة البقرة الآية (١٧١).

واللّه تعالى لا يخلق أقواماً وينشئهم للنار، وإنما يحاسبهم على سعيهم وكسبهم، فمن زكى عن نفسه، ونقى فطرته، وطهر بيئته فقد أفلح، ومن أوبق نفسه، ولوث فطرته فقد خاب، فقال تعالى: (**فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ**) [1]

وقال تعالى:)**وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدىً وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ**([2]

وإذا كانت النشأة ذات أثر بالغ على الفطرة تثبيتاً وزيادة هدىً، أو ضلالاً وانحرافاً فإن اللّه تعالى أشاد بالبيئة النظيفة، وزكى أثرها حيث يقول عن مريم عليها السلام: (**فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتاً حَسَناً وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا**)[3]

ويقول جل شأنه: (**وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ**) [4]

ويؤكد الرسول r الدور الكبير، والأثر البالغ للأبوين في قوله r : "فأبواه يهودانه أو ينصرانه "[5]

فدورهما كبير في بقاء الفطرة على نقائها، ودعمها بما يحفظ صفاءها، ويحميها من كل ما يلوثها، ولن يكون ذلك إلا إذا فهما هما الإسلام، وسلمت منهما العقيدة، وأدركا قيمة الفطرة، وأثر الرعاية لها.

"فالناس جميعاً يعترفون باللّه بفطرتهم، فالفطرة في ذاتها سليمة، ولا يكاد يوجد فوق الأرض مخلوق لا ينطوي على شيء من الشوق الروحاني، أو شعور باطنٍ منه بأن هناك قوة عليا يتوجه إليها بفطرته، وهذه الفطرة

١- سورة الصف الآية (٥).

٢- سورة محمد الآية (١٧).

٣- سورة آل عمران آية (٣٧).

٤- سورة الطور الآية (٢١).

٥- تقدم تخريجه، ص(٥٩)، رقم (١).

السليمة يتراكم عليها الصدأ في كثير من الأحيان بسبب الاتجاهات المادية، وقلة الثقافة الروحية، ولكن الفطرة تتغلب على الصدأ أحياناً تحت تأثير منظر رائع، أو نجاح خارق، أو هزيمة قوي أمام ضعيف، أو ما شابه ذلك، فإذا بالوجدان يتيقظ، وإذا بالفطرة تعود، وإذا بالإنسان الذي كان ضالاً يهتف منزهاً ربه، خارجاً من حوله وقوته إلى حول الله وقوته، وتفيض فطرته على لسانه سبحان الله. لا حول ولا قوة إلا بالله".[1]

سوء اختيار الصديق:

وإذا كان للبيئة أثرها في الفطرة سلباً أو إيجاباً فخلطاء الرجل تأثيرهم أشد، استقامة على الحق، ودعماً لدوافعه، ورعاية لعوامل ظهوره وقيامه، أو ميلاً إلى الباطل، وتحكيماً للهوى، وانغماساً في الشهوات والنزوات، ولذا كان الاحتراس في اختيار الجليس والصديق، والترفع عن الهوى في إقامة الإخاء أمرين لازمين دعا إليهما القرآن، وحث عليهما الرسول ﷺ .

قال تعالى: **الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ (٦٧) يَا عِبَادِ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ (٦٨)**[2]

"فكل صداقة أو خلة لغير الله تعالى فإنها تنقلب في ذلك اليوم إلى عداوة إلا ما كانت في الله وفي سبيله، فإنها تبقى في الدنيا والآخرة"[3]، فضلاً عما يشرف الله تعالى به المتحابين فيه يوم القيامة، وقال ابن عباس ومجاهد وقتادة رضي الله عنهم: " صارت كل خلة عداوة يوم القيامة إلا المتقين"[1]

١- إسماعيل عبد الفتاح الكافي، الفطرة وقيمة العمل في الإسلام، ص(١٥- ١٦) سلسلة (دعوة الحق) العدد (٩٤)، رابطة العالم الإسلامي – مكة المكرمة، السعودية، عام ١٤١٠هـ – ١٩٨٩م.

٢- سورة الزخرف الآيتان (٦٧- ٦٨).

٣- المراغي، تفسير المراغي، جـ(٢٥)، ص(١٠٧)، مرجع سابق.

١- الإمام ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج(٤)، ص (١٣٥)، مرجع سابق.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله r : "الرجل على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل"[٢]

"أي فلينظر أحدكم بعين بصيرته إلى أمور من يريد صداقته وأحواله، فمن رآه ورضي دينه صادقه، ومن سخط دينه فليجتنبه".[٣]

إن حماية الفطرة تقتضي ألا يكون احتكاك إلا بصالح، ولا يتم التصاق إلا بمهتد يطيع، ويدل على الطاعة، ويفر من المعصية ودواعيها، ويعين صاحبه على مثل ذلك.

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي r قال:

"لا تصحب إلا مؤمناً ولا يأكل طعامك إلا تقي"[٤]

والرؤوف الرحيم r يأبى أن تمس الفطرة بسوء، أو تتعرض لإساءة أو تشويه؛ لتظل تلك الأمة على المحجة البيضاء.

عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن النبي r قال:" إنما مثل الجليس الصالح والجليس السوء كحامل المسك، ونافخ الكير، فحامل المسك ؛ إما أن يحذيك، وإما أن تبتاع منه، وإما أن تجد منه ريحاً طيبة، ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك، وإما أن تجد منه ريحاً خبيثة"[٥]

إن تلك العظمة تتمثل في حرص الرسول r على أمته، ورأفته ورحمته بها، ولذا فهو يضع الضدين أمام بصر المؤمن وبصيرته ليكون على بينة من أمره حتى لا تزل به القدم.

ومن لهذا غير الرسول الكريم r ؟، والذي قال الله تعالى فيه: (**فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ**) [١]

٢- رواه أبو داود (٢٥٩/٤).

٣- الإمام ابن علان، دليل الفالحين، جـ(٢)، ص(٢٣٣)، دار الفكر ، بدون ط، بيروت – لبنان، بدون ت.

٤- أخرجه أحمد (٣٨/٣).

٥- رواه مسلم (٢٠٢٦/٤).

الإعلام:

والإعلام في تطوره عدوان على الفطرة في كثير من جوانبه بما يعرض من صور للخلاعة والمجون وفيما يبث عبر القنوات الفضائية وغيرها، وما يسجله في صفحات الإنترنت، أو مسموع الإذاعات ، وتسجيلات من أقامهم الشيطان حرباً للفطرة، فضلاً عن عدوانهم على عقيدة المسلم والمسلمة، ثم تلك الصور ذات الألوان الزاهية والفتنة البالغة لمتبرجات، أو قل كاسيات عاريات مائلات مميلات، ثم الكتب الرخيصة، والمقالات العفنة السقيمة، والأشعار القاصرة، وأغاني أو غيرها.

إن مواجهة الفطرة لمثل ذلك أمر بالغ الصعوبة، وصمودها في وجه هذا الطوفان جهاد كبير قل من يقوى للعلو فوقه، أو النجاة من شرره

قال تعالى:)**يَا بَنِي آدَمَ لا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ**([٢]

والشيطان يلبس لكل عصر لباسه، ويقيم في كل جماعة ما يصلح لإغوائهم، ويسرع في ضياعهم.

ولو صلح الإعلام لكان خير عون للفطرة، وأكبر دافع لاستمرارها وبقائها، وأقوى عاصم لها.

التربية:

مع امتداد رقعة التعليم، وتنوع مدارسه، واختلاف انتماءات المعلمين والمعلمات، ولين الدين عند أكثر القائمين على التربية فضلاً عن كفر بعضهم صارت التربية آفة الآفات، فالطالب يتناوله معلمون إن أمنا أحدهم في دينه، وتوقعنا خيراً في سلامة عقيدته، آلمنا مروق الآخرين، وسوء علاقة كثير منهم بالله، وعدم اكتراثهم بالمخالفة لشرعه، فعلى سبيل المثال، هل تتوقع أن يحارب معلم مدخن التدخين ويعصم من يربيهم من الوقوع فيه؟

لا، إن فاقد الشيء لا يعطيه، والعاجز عن وقاية نفسه كيف يقي غيره؟ أضف إلى ذلك ما لوحظ على كثير من المعلمين من مخالفات يراها بعضهم هينة، وهي عند الله عظيمة.

وكيف تربى الفتاة على الاحتشام، ومعلمتها تبالغ في صبغ وجهها، وتتألق في إظهار فتنتها، وتملأ رائحة عطرها الطريق؟

بل قد تُدرِّس متبرجة في بعض البلاد التي تتيح الاختلاط في التعليم، وهي على أسوأ حال من التبرج لمراهقين، ولا تستحي من الله.

وإذا كان حال الأمة كما قال جل وعلا: ﴿**كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ**﴾ [1]

أفلا ينبغي أن تكون مؤسسات التربية منطلق هذه السمات؟

ولكن أنى يتسنى لنا ذلك مع رقة الدين، وفساد الخلق؟

المجتمع:

لقد دخل على الناس ما ظنوه تقدماً، وهو غاية التخلف والانحطاط، واستمرءوا المخالفة والجرأة على الدين تحت شعار الحضارة والرقي، وما هي إلا تسفل وانحطاط، فشاع المنكر، وتعارف الناس على الباطل، فصار خروج النساء متبرجات في كثير من بلاد الإسلام أمراً مباحاً، بل تشجع عليه الدعوات الآثمة ممن نسبوا إلى الإسلام اسماً وتعرَّوْا منه واقعاً وسلوكاً، حتى أصبحت بعض بلاد الإسلام أسبق إلى (موضة) الأزياء من مبتكريها، ومبدعاتها في بلاد غير مسلمة، وأصبح الاختلاط، واللقاء المنفرد أمراً يدعو إليه التحضر، ومسايرة روح العصر، وحرب الجمود والتخلف في زعم من اختل ميزانهم، ورقت ضوابطهم، وانقطعت بالدين صلتهم، وغُزِي شبابنا في فكره، وحورب في عقيدته، فأصبح فاقداً هويته

١- سورة آل عمران الآية (١١٠).

في قيمه، وتوجهاته، وسلوكه، ويبحث عن أحدث الأزياء، وأبدع قصات الشعر، وآخر ما وصل إليه شكل الحذاء، حتى يعييك في كثير من الأحيان التمييز بين الفتى والفتاة، وكأنه قد غاب عنا أن قوام الحياة ذكر وأنثى.

قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى﴾ [1]

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال:" لعن رسول الله (ﷺ) المتخنثين من الرجال، والمترجلات من النساء"[2]

إن الإسلام يحب أن تظل الفطرة على ما فطر الله الناس عليها، وقد ابتدأ خلقهم ذكوراً وإناثاً، ولكل نوع دوره ورسالته، فلا ينبغي أن يكون في صفوف المسلمين رجالٌ نساء، ونساء رجالٌ.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: "لعن رسول الله المتشبهين من الرجال بالنساء، والمتشبهات من النساء بالرجال"[1]

ويبرز هنا دور الأبوين في دعم تميز النوعين في الملبس، والتفاعل مع الحياة حتى لا تشب أجيالٌ لا يعرف رجالهم من نسائهم.

١- سورة الليل الآية (٣).

٢- رواه البخاري (١٧٨/١٦ فتح).

١- نفس المرجع السابق.

الفصل الثاني :

التوجيه العلمي

ضرورة العلم :

خلافة الإنسان في الأرض حق لا ريب فيه. قال تعالى:

هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٢٩) وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ (٣٠) وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ (٣١) قَالُوا سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٣٢) قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ (٣٣) [١]

لقد أظهر الله تعالى رسالة آدم وذريته في كلمات معدودات

(إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً)

وهو أمر سبقت به إرادته، واقتضته حكمته، فهو جل شأنه كما قال عن نفسه جل وعلا:

(وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ) [٢]

وهو جل شأنه أعلم بأنه لا يصلح لهذه الرسالة، ولا ينهض بأعبائها، ويصل بها إلى الغاية المرجوة من بين سائر خلقه غير آدم وذريته.

(أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ) [٣]

١- سورة البقرة الآيات (٢٩- ٣٣) .

٢- سورة القصص الآية (٦٨) .

١- سورة الملك الآية (١٤).

ولذا جعلها له، وأعلم بها ملائكته، وأراهم شيئاً مما أفاض على هذا المخلوق المجتبى، ليحمل العبء، ويؤدي الرسالة التي اختير من أجلها، .. "إنها المشيئة العليا تريد أن تسلم لهذا الكائن الجديد في الوجود، زمام هذه الأرض. وتطلق فيها يده، وتكل إليه إبراز مشيئة الخالق في الإبداع والتكوين، والتحليل والتركيب. والتحوير والتبديل، وكشف ما في هذه الأرض من قوىً وطاقات، وكنوز وخامات، وتسخير هذا كله بإذن الله في المهمة الضخمة التي وكلها الله إليه.

وإذاً فقد وهب هذا الكائن الجديد من الطاقات الكامنة. والاستعدادات المذخورة كفاء ما في هذه الأرض من قوىً وطاقات، وكنوز وخامات، ووهب من القوى الخفية ما يحقق المشيئة الإلهية.

وإذاً فهنالك وحدة أو تناسق بين النواميس التي تحكم الأرض وتحكم الكون كله والنواميس التي تحكم هذا المخلوق وقواه وطاقاته، كي لا يقع التصادم بين هذه النواميس وتلك، وكي لا تتحطم طاقة الإنسان على صخرة الكون الضخمة.

وإذاً فهي منزلة عظيمة، منزلة هذا الإنسان. في نظام الوجود على هذه الأرض الفسيحة. وهو التكريم الذي شاءه له خالقه الكريم"[٢].

فليحمل الرسالة مطمئناً موقناً أن الله الذي خلقه، واختاره هيأ له الأسباب،ومهد له سبل التعايش مع هذا الكون العظيم، والتفاعل أخذاً وعطاءً، وتطويراً وإنماءً، وأودع فيه هو من الخصائص ما يميزه، ومن القدرات والطاقات ما لم يتم لغيره، فسبحان الله الخلاق العليم.

"لقد خفيت عليهم المشيئة العليا. في بناء هذه الأرض وعمارتها. وفي تنمية الحياة وتنويعها، وفي تحقيق إرادة الخالق وناموس الوجود في تطويرها وترقيتها وتعديلها، على يد خليفة الله في أرضه. هذا الذي قد يفسد أحياناً،

٢- سيد قطب، في ظلال القرآن، مجلد (١)، جـ(١)، ص(٥٦)، مرجع سابق.

وقد يسفك الدماء أحياناً، ليتم من وراء هذا الشر الجزئي الظاهر خير أكبر وأشمل، خير النمو الدائم، والرقي الدائم، خير الحركة الهادمة البانية، خير المحاولة التي لا تكف، والتطلع الذي لا يقف، والتغيير والتطوير في هذا الملك الكبير.

عندئذ جاءهم القرار من العليم بكل شيء، والخبير بمصائر الأمور:

(قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ)

إنه التكريم في أعلى صوره، لهذا المخلوق الذي يفسد في الأرض ويسفك الدماء، ولكنه وهب من الأسرار ما يرفعه على الملائكة، لقد وهب سر المعرفة، كما وهب سر الإرادة المستقلة التي تختار الطريق.. إن ازدواج طبيعته، وقدرته على تحكيم إرادته في شق طريقه، واضطلاعه بأمانة الهداية إلى الله بمحاولته الخاصة.. إن هذا كله بعض أسرار تكريمه. ولقد سجد الملائكة امتثالاً للأمر العلوي الجليل"[1]

إن هذا الإنسان المحدود ظاهره فيما يُرى، خلق الله تعالى ذلك الكون الفسيح أرضه وسماءه، حيه وجماده، كنوزه ونباته، ماءه ويابسه :

(اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ)[1] **(هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً)**[2]

وسخره جل وعلا لذلك المخلوق، وطوعه له، ويسر له الانتفاع به، والتأثير فيه، حتى تستقيم له حياته، ويستقر على الأرض عيشه، ويعمرها ويستقبل على بساطته فيما يبدو فيوض نعم الله تعالى.

١- نفس المرجع السابق والمجلد ، ص(٥٧)، بتصرف.

(أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلا هُدىً وَلا كِتَابٍ مُنِيرٍ)[3]

اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنْ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمْ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمْ الأَنهَارَ (٣٢) وَسَخَّرَ لَكُمْ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ (٣٣) وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ (٣٤)[4]

ولكي يتم دوره، ويكمل مهمته منَّ عليه بالعقل، واستنهض ذلك العقل لتدبر آيات الله تعالى، والتفكر فيها.

إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُولِي الأَلْبَابِ (١٩٠) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (١٩١)[1]

وما دام الخلاق العليم كما قال عن نفسه: (الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْأِنْسَانِ مِنْ طِينٍ)[2]

ولابد أن يكون حظ الإنسان من هذا الإحسان كبيرا (لَقَدْ خَلَقْنَا الْأِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ)[1]

١- سورة الزمر الآية (٦٢).
٢- سورة البقرة الآية (٢٩).
٣- سورة لقمان الآية (٢٠).
٤- سورة إبراهيم الآيات (٣٢- ٣٤).
١- سورة آل عمران الآيتان(١٩٠- ١٩١).
٢- سورة السجدة الآية (٧) .
٣- سورة التين الآية (٤).

وما أعظم أن يعايش الإنسان تلك الآيات الباهرة، فتسري فيه إيماناً باللّه، ويقيناً بقدرته، وإقراراً بعظمته.

اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُسَمًّى يُدَبِّرُ الأَمْرَ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ (٢) وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَاراً وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٣) وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٤) [٢]

وجعل العلم دليل هذا العقل، وهاديه، ونوره، يبصر به الحق، ويقف به على خصائص تلك الآيات، ويشهد معطياتها، ويدرك عظمة البارئ جل وعلا فيها، فيقول جل شأنه: (**عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ**) [٣]

وبه يتفاضل الخلق : (**قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ**) [٤]

وما نبت خير منذ كانت البشرية إلا والعلم باعثه ومحركه وما كان شر إلا والجهل مسعره وإنك لترى العلم كل العلم في موقف هابيل بما آتاه اللّه من حكمة، وما ألزمه من تقوى، وما ثبته عليه من يقين، بينما كان مطلع الشر و فاتحته في قابيل حتى يمتاز العالم من الجاهل.

إن النظرة الفاحصة المتأنية تريك أن الصراع بين الشقيقين ما هو إلا صراع بين العلم والجهل، علم تتصل أسبابه باللّه تعالى الذي

٤- سورة الرعد الآيات (٢- ٤).

١- سورة العلق الآية (٥).

٢- سورة الزمر الآية (٩).

٣- سورة فاطر الآية (٢٨).

(عَلَّمَ الْأِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ)

فحقت له خشية الله تعالى : (إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ)[٣]

فشرع الله تعالى هو موضع الخلاف، وحدوده الذي ألزم البشرية الناشئة في مطلع حياتها، وفي حياة أبي البشر آدم عليه السلام هي مثار النزاع، وهابيل ينظر إلى القضية نظرة العارف بالله، المقيم لحدوده، الطارح لهواه، وإن كانت المقسومة له كزوجة فيها من الأنوثة ما يجعلها في عرف أولى الهوى جديرة بالإصرار عليها، والقتال دونها، فهي جميلة بارعة الجمال، وربما كان فيها من الصفات ما يرجحها كأنثى وشريكة حياة بارعة الجمال، وإن كان القرآن الكريم لم يصرح بشيء من ذلك ، لأنه ليس المقصود الأصلي لمن يتقون الله تعالى، وقد رُدّ الأمر إلى الله فشرع لكل الالتزام بما قسم له.

وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنْ الآخَرِ قَالَ لأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنْ الْمُتَّقِينَ (٢٧) لَئِنْ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (٢٨)[١]

إنها حياة محكومة بمنهج الله تعالى، قائمة على شرعه ، وأنى لقابيل وقد امتلأ شراً وازداد عن الله بعداً أن يدرك ذلك ؟.

أما هابيل فهو مع الله تعالى حيث أمره، ويرى المخالفة إثماً وبوراً

قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنْ الْمُتَّقِينَ)

إن علاقات مجتمع الإيمان، وارتباطاته لابد أن تقوم على أساس من شرع الله تعالى، حتى لا تعبث بها الأهواء، وتلهو بها نزعات الشيطان، وتحركها إمارة النفس.

(إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنْ الْمُتَّقِينَ)

١- سورة المائدة الآيتان (٢٧ –٢٨) .

إنه غير مادح نفسه، ولا عائب أخاه، وإنما هو مذكر يعظ نفسه، ويدعو غيره إلى الله تعالى، عساه يعود إلى الحق، ويهتدي إلى صراط الله العزيز الحميد.

إن الإثارة لم تحرك منه ساكناً، ولم تدفعه إلى رد الإساءة بمثلها، والكيل لأخيه مما اكتال له، ولكن الإيمان عصمة لأهله حتى في أحرج الأوقات، وفي مواجهة أشد الأزمات، إنه غير خائف من طغيان أخيه فهو موقن أن الأمور بالمقادير، وأن تقوى الله تعالى خير وأبقى

(لَئِنْ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (٢٨)

إن صارفه عن المواجهة ليس عجزاً عنها، ولا قصوراً في دفع قابيل وشره، ولكنه الإيمان بالله تعالى الذي شرع، وخضوعاً لحكمة الذي أمره لنسير عليه، ونمتلئ خوفاً منه وخشية له،

إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ [1]

إنها ليست مقالة الشامت، ولا ضوضاء المحرض على المعصية، ولكنه لا يزال ملتزما طريق الدعوة إلى الله تعالى، لعل الخير يجد له منفذاً إلى قلب شقيقه، ويرده خوف الله إلى صوابه، فيقلع عن غيه، ويرضى بالله، ويرعى حق الرحم، ولا يكون عرضة لغضب الله تعالى وسخطه، ولكن أنى يكون ذلك، والشيطان باسط سلطانه، والنفس مقيمة على هواها، والجهل أعماه حتى عن الله الذي خلقه؟

(فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنْ الْخَاسِرِينَ) [2]

١- سورة المائدة الآية (٢٩)

١- سورة المائدة الآية (٣٠)

٢- سيد قطب، في ظلال القرآن، المجلد (٢) جـ (٦)، ص (٨٧٧)، مرجع سابق.

٣- سورة المائدة الآية (٣١).

إن ظلمات النفس الفاجرة الأمارة بالسوء، والهوى المعرض عن الحق، المصروف عن الله تعالى، وسلطان الشهوة العارم حالت بينه وبين قبول الموعظة، والخشوع لذكر الله تعالى، والخوف منه جل شأنه، فأوقع الجهل المشعل لنار الحسد، أول وأبشع جريمة، وقدم للبشرية أسوأ النماذج لقطع الرحم.

(فَأَصْبَحَ مِنْ الْخَاسِرِينَ)

"خسر نفسه، فأوردها موارد الهلاك ، وخسر أخاه، ففقد الناصر والرفيق، وخسر دنياه فما تهنأ للقاتل حياة، وخسر آخرته، فباء بإثمه الأول، وإثمه الأخير"[٢]

لقد أخذته العزة بالإثم، وصرفه الشيطان عن كل دوافع الخير، وتمكنت منه بواعث الشر، وحرم معرفة الله، فما رأى غير نفسه وهواه، وفوجئ بأخيه جثة هامدة لا حراك بها، يسري فيها العفن، ويسرع إليها النتن، وتلك صورة لا عهد للإنسانية البادئة بها،فلا بد له من معلم يناسبه، ويؤكد حقارته، ويلزمه الاعتراف بغبائه وجهله، حيث من معلم الخير، الداعي إلى الله شقيقه هابيل، فماذا عسى أن يكون معلمه؟

فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَاباً يَبْحَثُ فِي الأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْأَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْأَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنْ النَّادِمِينَ [٣]

فليتعلم ذلك الجاهل الطاغية الذي رفض الانصياع لأمر الله، وإجابة داعيه، وليكن الدرس على يد معلم يفضح غباءه، ويري العالمين شناعة جهله، ولم يأت ذلك المعلم متطوعاً، وإنما بعثه الله تعالى الذي أقام من أخيه هابيل واعظاً له فأبى، إن معلمه الثاني، ومعرفه بعد فوات الأوان هو الغراب.

إننا أمام درس عملي ينفذه طائر قد ينفر بعض الناس منه، إنه الغراب، والمخالف لله والجريء على حدوده ، وإن كان آدميا أدنى منه منزلة، وأحط قدراً، قال تعالى:

﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِنْ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِهَا لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لا يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمْ الْغَافِلُونَ ﴾ (١٧٩) [1]

إن المعلم الغراب لقن أول قاتل ، ومن اقتفى أثره إلى يوم الدين، درسا لا ينسى، لأن كوامن النفس الأمارة بالسوء حالت بينها وبين السماع لمعلم تقي نقي من بني آدم، فكان هذا المعلم جزاء وفاقا لإعراضها، وبالغ إصرارها على المعصية، واستمساكها بالباطل.

وهكذا نرى أن الله جلت قدرته قد يقيم للبشر معلمين ليسوا من بني جنسهم، ولم يكلفوا مما كلف به آدم عليه السلام وذريته.

ومع درس جديد، ورسول من رسل الله عليهم الصلاة والسلام رفع إلى الله تعالى تلك الدعوة، وفتحت لها أبواب السماء، وآتاه الله فوق ما يتطلع إليه

﴿ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكاً لا يَنْبَغِي لأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ (٣٥) فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ (٣٦) وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ (٣٧) وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الأَصْفَادِ (٣٨) هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٩) [2]

إنه سليمان عليه السلام رسول مَلِك، ومع ذلك فالعلي الأعلى يجري خطوات هذا الدرس الوقائي على لسان حشرة، لا يكاد لها وزن حسي، ولا قيمة ذات بال ، وكثيراً ما نسعى لإبادة الآلاف، أو الملايين منها، ولنترك القرآن الكريم يحدث:

١- سورة الأعراف الآية (١٧٩)

١- سورة ص الآيات (٣٥ - ٣٩).

وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنْ الْجِنِّ وَالإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (١٧) حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِي النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (١٨) [١]

وفضلاً عما آتاه اللّه تعالى وأباه من علم لا يحيط به إلا مانحه، ولا يعلم حقيقته إلا العليم الخبير، فهو القائل جل شأنه:

(وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْماً وَقَالا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ [٢]

وحدث بنعمة اللّه شكراً، وذكرنا ما شرفه ربه به تعبداً، وأسمع من حوله لعلهم يقتدون به في ذكر نعم اللّه عليهم أدباً وشكراً.

(وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ (١٦) [٣]

لقد جمع اللّه تعالى له بين الرسالة والعلم والمُلْك، ويتحرك ذلك الموكب الحافل، إنه حشد رائع عظيم حشر فيه جنود اختلفت أجناسهم، وتباينت لغاتهم، وتفاوتت قدراتهم وخصائصهم، ووحدهم الولاء والأمر لعبده سليمان عليه السلام فلم شعثهم، ورتب خطوهم ، وضم صفوفهم، وأحسن إدارة شؤونهم سلما أو حرباً، انفراداً، واجتماعاً.

(وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنْ الْجِنِّ وَالإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ) [٤]

موكب يحفه فيه الإنس والجن، وتظله الطيور دون أن يتجاوز عضو موقعه، أو يقصر في شيء من مهامه، وهو عليه السلام يحصي على كلٍّ

٢- سورة النمل الآيات (١٧ - ١٨).

٣- سورة النمل الآية (١٥).

١- سورة النمل الآية (١٦).

٢- سورة النمل الآية (١٧) .

عمله، وينتقد في خبرة سلوكه، وأنى لموكب كهذا أن يحس بما يقع تحت أقدامه من دقيق الحشرات؟

ولكن الخلاق العليم أعطى كل شيء خلقه، وأودع فيه ما يستشعر به الخطر، وعلمه ما يدفع به المكروه، وجعل له لغة تفاهم واتصال

(وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ (٣٨)[1]

ولكل أمة تنظيمها الدقيق المحكم، ولكل عضو دوره ومسؤولياته، لا يقصر فيها، ولا يني عن النهوض بها، ويقترب موكب سليمان عليه السلام من وادٍ، عرف بوادي النمل لكثافة سكانه وترى إحدى القيادات الخطر يوشك أن يدهم أمتها، ويبيد جموعها، دون أن تحس الأقدام شيئاً، أو يرى السائرون آثار عدوان، وهنا يحدثنا القرآن الكريم حكاية عن تلك الزعيمة المسؤولة:

(حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِي النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (١٨) [2]

فيما أرى ليت الإنسان يتعلم بصرف النظر عن معلمه، وإن كان هذا المعلم مع ضآلته معلماً لا مكر فيه، ولا خداع، ليس بملول، ولا معطل لوظائفه، ولا مهمل لدوره.

إنه معلم كأنظف ما يكون المعلم التزاماً، وإيماناً بالواجب، وحرصاً عليه.

والدرس عميق بالغ الأثر، عظيم الغاية، وإلا ما كان له هذا المردود من سليمان عليه السلام كما حكى القرآن الكريم:

٣- سورة الأنعام الآية (٣٨).

١- سورة النمل الآية (١٨).

فَتَبَسَّمَ ضَاحِكاً مِنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ (١٩) [1]

إن يقظة الراعي، وغيرته على رعيته فيهما أمان الرعية، وضمان سلامتها ومن حقها عليه الإخلاص لأمانته، والقيام على حراستها، وصيانة حرماتها، وحملها على ما ينفعها، وتبصيرها بما يخشى عليها منه.

مواجهة كل أمر بما يناسبه مع السرعة حتى لا تفوت فرصة، ودقة التعبير حتى لا يختلط الأمر .

والعبارة مع إيجازها علمت كل راعٍ فطن حُسنْ مخاطبة الرعية عند توقع الخطر، فأمرت، وحذرت، واعتذرت عن سليمان وجنوده، وذلك أدعى لليقظة، والتصرف السريع.

وهنا ترى الثقة المتبادلة بين الراعي والرعية، والتي تجعلهم يسمعون فيطيعون، ولقد انقاد النمل موقناً صدق الراعي، متحاشياً الهلاك إن قصر في واجب السمع والطاعة.

وإذا كانت كل "نملة عالمة تمام العلم بما عليها من واجبات قائمة بعملها حق القيام بكل قوة وإتقان"[1] فما كان له الصدارة من هذه الجماعة، أعرف بواجبه، وأتقن لدوره، وأحرص على الوفاء بمسؤولياته.

إن مملكة النمل التي ألمح القرآن الكريم إلى طرف يسير منها تستلزم من الإنسان دراسة واعية، ولا يعيب الإنسان أن يتتلمذ على تلك الأمة، فهي من خلق اللّه، ظهرت فيها دلائل قدرته، وآيات عظمته، "فإنها تفعل فعل الملوك، وتدبر، وتسوس كما يسوس الحكام، فالنمل يتخذ

٢- سورة النمل الآية (١٩).

١- الشيخ طنطاوي جوهري، تفسير الجواهر، جـ(١٣)، ص(١٦٠)، دار الفكر، بدون ط، بيروت – لبنان، بدون ت

٢- نفس المرجع السابق والجزء ص (١٣٧).

القرى تحت الأرض، ولبيوتها أروقة ودهاليز، وغرفات ذوات أطباق ومنعطفات، تملأ بعضها حبوباً وذخائر وقوتاً للشتاء، وتجعل بعض بيوتها منخفضاً مصوباً تجري إليه المياه، وبعضها يكون حولها مرتفعاً لئلا يجري إليه ماء المطر"[٢]

إنه مجتمع يسوده التعاون، ويحكمه التواد، فلو عجزت نملة عن حمل شيء مرغوب فيه لا تلبث أن تستدعي جماعتها فترى حشداً هائلاً، يكابد، ويتعب، ويتحمل المشاق لبلوغ حاجته، ونقل ما يرغب في نقله، ولعلنا رأينا اتحاد جماعة النمل في الفرار من الخطر، وذلك أبلغ، وأدل على قدرة الله (**الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى**)[١]

فهل وعى العقلاء عامة، والمسلمون خاصة شيئاً من هذا الدرس ؟

إن العمل المتقن الجاد، والبناء المنسق المدعوم، والادخار المحكم المقنن، والجندية البصيرة الواعية، والسياسة الحكيمة الرشيدة، والولاء الخالص، والتعاون البناء، والخضوع لرأي الجماعة وصالحها، فضلاً عن صدق الراعي ويقظته، وغير ذلك مما يصعب الإحاطة به دروس وعاها مجتمع النمل، ولم تستغرق من القرآن الكريم سوى كلمات معدودات.

ومع درس آخر من طائر جميل تميل إليه النفس، وتشتهي العين النظر إليه، اقترن اسمه باسم نبي الله سليمان عليه السلام في حشد حاشد ، وحشر كامل ، وقد أخذت كل فئة من الجند موقعها، وعرف كل جندي دوره، وإن تباينت أجناس الجند، وتنوعت مهامهم، فهم لفيف من الجن والإنس والطير سخرت لسليمان عليه السلام، وأحاط علما بها، وما شغلته كثرتها عن تفقد أحوال أفرادها، وتبين مدى التزامهم.

١- سورة طه الآية (٥٠).

وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنْ الْغَائِبِينَ [1]

حسن سياسة، ورشاد في تدبير شؤون الرعية، ومتابعة يقظة لا تفريط فيها ولا غلو، والبدء بحسن الظن، ثم الحزم إذا وجدت المخالفة، وتعمد إتيانها.

إن سليمان عليه السلام مع ما أوتي من النبوة والعلم والمُلك ليس بجبار في الأرض، وإنما هو عبد الله صقله الوحي، وصفَّته النبوة، وملأته خشية الله تعالى، وحين لم تقع عينه على الهدهد لم يبدأ باتهامه ، ولم يشرع في رميه بالمخالفة وإنما قال كما حكى القرآن الكريم:

مَا لِيَ لا أَرَى الْهُدْهُدَ [1]

" في هذه الآية دليل على تفقد الإمام أحوال رعيته، والمحافظة عليهم فانظر إلى الهدهد مع صغره، كيف لم يخف على سليمان حاله، فكيف بعظام المُلك !!؟... فما ظنك بوالٍ تذهب على يديه البُلْدان، وتضيع الرعية، ويضيع الرعيان" [2].

"والظاهر أن قوله عليه السلام ذلك مبني على أنه ظن حضوره ومنع مانع له من رؤيته، أي : عدم رؤيتي إياه مع حضوره، لأي سبب، أو ساتر أم لغيره، ثم لاح له أنه غائب، فأضرب عن ذلك ، وقال:

أَمْ كَانَ مِنْ الْغَائِبِينَ [1]

كأنه يسأل عن صحة ما لاح له"[3].

٢- سورة النمل الآية (٢٠)

١- سورة النمل الآية (٢٠).

٢- الإمام القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، جـ(١٣)، ص(١٧٨)،، مرجع سابق.

٣- الإمام الألوسي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، جـ(١٩)، ص(١٨٢)، بتصرف، مرجع سابق.

حتى في حال التهديد بالعقاب لازمته الحكمة، وفتح له الباب ليقدم ما لديه من أعذار إذا وجدت ، وله ما يشاء لإثبات ما لديه.

(لأعَذِّبَنَّهُ عَذَاباً شَدِيداً أَوْ لأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ) [1]

وقد اجتمع لسليمان عليه السلام أمران يقر بهما الحكم، وترسخ قوائم المُلك ألا وهما: العدل والحزم، حتى يطمئن الضعيف، ويحاسب المهمل المسيء، وينزل العقاب المناسب بمن يستحقه إذا توافرت أسباب الإدانة، فإذا ما صدقت أدلة البراءة، وقامت شواهد الصدق كان العفو أسبق.

ويأتي المعلم الهدهد، ولم يمض من الوقت غير قليل، ويقف شجاعاً في أدب، ويفاخر في تواضع بسبق لم يصل إليه غيره حتى ولو كان سيده وقائده رسول اللّه سليمان بن داود عليهما السلام ويقول قوله الواثق:

(أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ)

أي علماً ومعرفة وحفظته من جميع جهاته، وابتدأ كلامه بذلك لترويجه عنده عليه السلام، وترغيبه في الإصغاء إلى اعتذاره، واستمالة قلبه نحو قبوله، فإن النفس للاعتذار عن أمر بديع أقبل، و إلى تلقي ما لا تعلمه أميل ، وأيد ذلك بقوله:

(وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ) [2]

"إن اللّه تعالى ألهم الهدهد، فكافح سليمان بهذا الكلام على ما أوتي من فضل النبوة والحكمة والعلوم الجمة، والإحاطة بالمعلومات الكثيرة ابتلاءً له في علمه، وتنبيهاً على أن في أدنى خلقه وأضعفه من أحاط علماً بما لم يحط به، ليتحاقر إليه نفسه ، ويصغر إليه علمه، ويكون لطفاً به في ترك الإعجاب، الذي هو فتنة العلماء، وأعظم بها فتنة!!"[3].

١- سورة النمل الآية (٢١).

٢- سورة النمل الآية (٢٢).

١- الإمام الألوسي، روح المعاني، جـ(١٩)، ص(١٨٦)، مرجع سابق.

وإن كان سليمان عليه السلام أبعد ما يكون عن تلك الصفات الذميمة، والعلل المعيبة، بما زكاه الله تعالى، وأقامه على صراطه المستقيم، فكانت له نزاهة الرسل عليهم الصلاة والسلام وسلامتهم من الدنس، وكأني بالهدهد يعلم كل من يرى في نفسه عظمة، أو يظن لها تميزاً، فيرى الناس دونه علماً وإدراكاً، وفيهم دون شك من هم فوقه.

(وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ)

يا لقدرة الله تعالى! كم بين اليمن وأقاصي الشام من مسافة؟ وكم يحتاج قاطعها من زمن؟

وأي طاقة تلك التي تعين هذا الطائر المحدود الحجم على اجتياز الفيافي ، والسهول والبحار حتى يصل إلى سبأ ، ويعود بذلك النبأ اليقين؟

إنها قدرة الله تعالى التي تسخر من تشاء لما يشاء وفق إرادته جل شأنه وحكمته جل جلاله وهي الأسباب لما اختار، وما علينا إلا أن نقف في أدب لنتعلم من هذا الطائر الضئيل الدأب والجد لنصل إلى الغايات ما دامت مرموقة طيبة.

ولا يترك المعلم الهدهد الهدف حتى يحيط به علماً، ويستقصي جوانبه، ويحصي معالمه، ويملأ ذاكرته بما يلقي كاشف الأضواء على حال الذين ساقته الأقدار إليهم، وعرفته بأحوالهم.

(إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ)[1]

سلطان تام، وسيطرة كاملة، وبراعة في ولاية أمور الناس، مما يجعل مواجهتها صعبة، والتغلب عليها شاقاً في أعراف البشر، أضف إلى ذلك

(وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ)

١- سورة النمل الآية (٢٣) .

" إن قوائم الملك ثابتة قوية، وأسبابه متوافرة، ودواعي الاستقرار والتميز بينه واضحه، ودلائل عظمتها ظاهرة.

(وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ)

مما يوحي بتمكنها، وقدرتها الخارقة، لكنها وإن اجتمعت لها الدنيا فقد ضاع منها الدين، وإن ملكت ولاء شعبها، فصلتها باللّه مبتورة.

وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمْ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنْ السَّبِيلِ فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ (٢٤) أَلاَّ يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ (٢٥) [1]

"والهدهد إلى هذه اللحظة يقف موقف المذنب، الذي لم يقض الملك في أمره بعد، فهو يلمح في ختام النبأ الذي يقصه، إلى اللّه الملك القهار، رب الجميع، صاحب العرش العظيم، الذي لا تقاس إلى عروض البشر، ذلك كي يطامن الملك من عظمته الإنسانية أمام هذه العظمة الإلهية:

(اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (٢٦) [2]

فيلمس قلب سليمان في سياق التعقيب على صنع الملكة وقومها بهذه الإشارة الخفية! ونجد أنفسنا أمام هدهد عجيب . صاحب إدراك وذكاء وإيمان، وبراعة في عرض النبأ، ويقظة إلى طبيعة موقفه، وتلميح وإيماء أريب، فهو يدرك أن هذه ملكة وأن هؤلاء رعية، ويدرك أنهم يسجدون للشمس من دون اللّه ، ويدرك أن السجود لا يكون إلا للّه الذي يخرج الخبء في السماوات والأرض ، وأنه هو رب العرش العظيم .. وما هكذا تدرك الهداهد، إنما هو هدهد خاص أوتي هذا الإدراك الخاص، على سبيل الخارقة التي تخالف المألوف.

٢- سورة النمل الآيتان (٢٤- ٢٥).

٣- سورة النمل الآية (٢٦)

ولا يتسرع سليمان في تصديقه أو تكذيبه، ولا يستخفه النبأ العظيم الذي جاءه به، إنما يأخذ في تجربته، للتأكد من صحته شأن النبي العادل والملك الحازم".[1]

(قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٢٧) اذْهَب بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهِ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ (٢٨) [2]

والهدهد يعي الدرس، ويحصي ما يلقى عليه لينفذه كما أراد مرسله عليه السلام دون زيادة أو نقصان، فهو يلقي الكتاب أولاً كما أمر، ثم يتولى ثانياً أدباً وحسن تصرف، بحيث يراها ومن معها دون أن يروه، ويظل الكتاب سراً حتى يصل إلى الملكة ، وتفض خاتمه، وتعلن ما فيه لخاصتها ومستشاريها، والهدهد في مأمن من عيونهم يحصي بدقة ، ويسجل ما يدور بإتقان، وذلك شأن السفير ويعود الهدهد إلى سليمان عليه السلام حاملا تفاصيل ما حدث، مستقصياً ما كان بينها وبين خاصتها من حوار، فقد كان إلقاء كتاب بهذه الصورة مفاجأة، خاصة أنها على الأرجح لم تعلم ملقيه، ومع ذلك توفي الكتاب حقه، فهو كريم لكرامة مرسله، ومحتواه، وختمه والاعتناء به، ومرسله غني عن التعريف ، ومحتواه مخالف لما هم عليه من دين ، فضلاً عما فيه من حزم واستعلاء، وقد كانت بارعة في نقل أثر الكتاب إلى وجهاء قومها، وهي ترفض الحرب، وتؤثر السلم غير أنها لا تصرح بذلك، وإنما تكتفي بالتلميح، وتمهد لصرف رجالها عنه في عرض بارع للكتاب، وتعريف بطبائع الملوك الفاتحين، وتعلن خوض تجربة مع سليمان، فتبتلي معدنه وتتعرف مراميه من خلال هدية، يحدد الرد عليها سمات سليمان، ويكشف عن طبائعه، فتعامله بما يتفق وتوجهاته، كل

١- سيد قطب، في ظلال القرآن، مجلد (٥)، جـ(١٩) ص (٢٦٣٩)، مرجع سابق.

٢- سورة النمل الآيتان (٢٧- ٢٨)

ذلك والهدهد قابع في موقعه لا تغيب عنه كلمة، ولا تخطئ عيناه إشارة وينفض المجلس ويعود الهدهد المفوض بما حكاه القرآن الكريم:

(قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلأ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ (٢٩) إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٣٠) أَلاَّ تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ (٣١) قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلأ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْراً حَتَّى تَشْهَدُونِ (٣٢) قَالُوا نَحْنُ أُوْلُوا قُوَّةٍ وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ (٣٣) قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ (٣٤) وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ (٣٥) [١]

وتمر الأحداث حتى يصل الأمر إلى ذلك الإعلان الإيماني الملكي الذي دانت به الملكة ورعيتها كما حكى القرآن الكريم:

قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ [٢]

أليس الهدهد هو المحرك، والباعث لتلك الدعوة السريعة النشيطة إلى الله تعالى، وله الدور الأكبر في تعاقب أحداثها؟

وصدق الله تعالى إذ يقول:

وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ (٤٣) [٣]

١- سورة النمل الآيات (٢٩ - ٣٥)

١- سورة النمل الآية (٤٤)

٢- سورة العنكبوت الآية (٤٣)

الإيمان والعلم:

الإيمان علم معصوم المصادر، منزه الأصول والفروع، مبرأ من الهوى، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، به بعث الله تعالى رسله وأنبياءه عليهم الصلاة والسلام وجعلهم مبلغين عنه، يقول القرآن الكريم حاكياً عن إبراهيم عليه السلام مخاطباً أباه: **يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنْ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطاً سَوِيّاً** (٤٣) [١]

وتضرع إلى الله جل جلاله أن يجعل ذلك العلم ممتداً في عقبه، كما حكى القرآن الكريم:)**رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**) [٢]

ويبشر يعقوب ولده يوسف عليهما السلام فيقول كما حكى القرآن الكريم: (**وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ**) [٣]

وكل ما خالف الإيمان فهو جهل وجاهلية.

ففي لسان العرب: "الجاهلية زمن الفترة ولا إسلام، وقالوا: الجاهلية الجهلاء فبالغوا" [٤]

وفي المعجم الوسيط: "الجاهلية: ما كان عليه العرب قبل الإسلام من الجهالة والضلالة، وفي القرآن الكريم: (**وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى**) [١] [٢]. وأي جهل كفر العبد بالله تعالى، وجحوده نعمه؟!.

١- سورة مريم الآية (٤٣).
٢- سورة البقرة الآية (١٢٩).
٣- سورة يوسف الآية (٦).
٤- ابن منظور، لسان العرب، جـ (١١)، ص(١٣٣)، مرجع سابق.
١- سورة الأحزاب الآية (٣٣) .
٢- المعجم الوسيط، جـ(١)، ص(١٣٣)، مرجع سابق.
٣- سورة يوسف الآية (١٠١).

ويذكر يوسف عليه السلام فضل ربه عليه، وقد أتم نعمته. (**رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ**) [٣]

وحين خرج قارون ذات يوم على قومه في زينة عظيمة، وموكب حافل، يحفه الخدم والحشم انقسم الناس إلى فريقين فريق غيب الجهل عقله، وطمس الهوى بصيرته، فلم يتمثل غير الدنيا، ونعيمها الزائل، فتمنوا أن يكون لهم ما لقارون، مأخوذين بما هو فيه من بسطة الرزق، ورغد العيش، وفريق ملأ الإيمان قلوبهم، وحببه الله تعالى إليهم، وزينه في قلوبهم، فآثروا الآخرة على الأولى، ودعوا أولئك لذلك لعلهم يهتدون، ويصور القرآن الكريم هذا المشهد، وموقف الناس منه فيقول جل شأنه: (**فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (٧٩) وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً وَلا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الصَّابِرُونَ (٨٠)**[٤]

وما أعظم تعبير القرآن الكريم عن فريق المؤمنين بقوله: (**وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ**) واختار ربنا جل وعلا وصف الجهل للمشركين حين حاولوا صرفه عن الحق الذي بعثه الله تعالى به، ودعا الناس إليه، فقال جل شأنه مخاطباً رسوله r : **قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونَنِي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ (٦٤)** [١]

جهل الكفر وغباء الكافرين:

ويتلاقى الإيمان والكفر، ويكاشف العلم الجهل بغية العودة إلى ما ركزه الله تعالى في ضمائر بني آدم أزلاً، وفطرهم عليه، وأشهدهم على

١- سورة الزمر الاية (٦٤).

أنفسهم. **(فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ)** [٢]

إن فطرة إبراهيم عليه السلام تنكر تصورات الجاهلية الماثلة في الأصنام، والكواكب والنجوم التي عكف عليها قومه، ولئن كانت بصائرهم قد طمست، وقلوبهم قد عميت، وضمائرهم قد ماتت، وعقولهم قد أظلمت، فآثروا العمى على الهدى، والجهل على العلم فإن فطرة إبراهيم عليه السلام رحبة يقظة طموح، سليمة من الآفات، مبرأة من الانحرافات.

والإله الذي يعبد، ويتوجه إليه العباد في السراء والضراء، والذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى، لا يمكن أن يكون حجراً أو كوكباً، أو نجماً، وهل تغني هذه المخلوقات عن نفسها؟!، فهي لا تسمع، ولا تبصر، ولا تغني عن عابدها شيئاً، وهي لا تخلق فضلاً عن كونها منحوتة بيد عابدها، أو مسخرة مأمورة من خلاق عليم، وذلك الذي استقر في وجدان إبراهيم هو الإله الحق، والذي حدث عنه القرآن الكريم: **(قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنْ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنْ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنْ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ (٣١) فَذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ (٣٢)** [١]

وبهذه الفطرة حاج إبراهيم عليه السلام أباه وقومه، وصدع بالحق فيهم غير مبالٍ برابطة أبوة أو قرابة أو غير ذلك، فالحق أعلى وأكبر، والعقيدة فوق كل الروابط، ولو قدر لأبيه وقومه أن يروا ما رأى، ويسلموا

٢- سورة الروم الآية (٣٠).

١- سورة يونس الآيتان (٣١- ٣٢).

٢- سورة الروم الآية (٥٩).

٣- سورة الأنعام الآية (٧٤).

٤- سورة الأنعام الآية (٧٥).

بما علم لسابقوه إلى عبادة العلي الأعلى. ﴿**كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ**﴾ [٢]

وحاج إبراهيم عليه السلام أباه وقومه، فكان شديد اللهجة، قاسي التعبير، فلا وقار لأبوة، ولا عشيرة مع الكفر. ﴿**وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَاماً آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ**﴾ [٣]

"واستحق إبراهيم عليه السلام بصفاء فطرته، وخلوصها للحق أن يكشف الله لبصيرته عن الأسرار الكامنة في الكون، والدلائل الموحية بالهدى في الوجود ﴿**وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ**﴾ [٤]

وهذا هو طريق الفطرة البديهي العميق. وعي لا يطمسه الركام، وبصر يلحظ ما في الكون من عجائب صنع الله، وتدبر يتبع المشاهد حتى تنطق له بسرها المكنون، وهداية من الله جزاءً على الجهاد فيه.

وكذلك سار إبراهيم عليه السلام وفي هذا الطريق وجد الله، وجده في إدراكه ووعيه، بعد أن كان يجده فحسب في فطرته وضميره، ووجد حقيقة الألوهية في الوعي والإدراك مطابقة لما استكن منها في الفطرة والضمير.

فلنتابع رحلة الحق الشائقة مع فطرة إبراهيم الصادقة، إنها رحلة هائلة، وإن كانت تبدو هينة ميسرة، رحلة من نقطة الإيمان الفطري إلى نقطة الإيمان الواعي، الإيمان الذي يقوم عليه التكليف بالفرائض والشرائع، والذي لا يكل الله سبحانه وتعالى جمهرة الناس فيه إلى عقولهم وحدها، فبينه لهم في رسالات الرسل عليهم الصلاة والسلام ويجعل الرسالة

لا الفطرة ولا العقل البشري هي حجته عليهم، وهي مناط الحساب والجزاء، عدلاً منه، وفضلاً، ورحمة، وخبرة بحقيقة الإنسان وعلماً". [1]

(**وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ**) [2] "أي: نريه ذلك ليكون عالماً موقناً". [3] (**فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ**) [4] "قال قتادة: علم أن ربه دائم لا يزول" [1] (**فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ**) [2]

ويوفقني لإصابة الحق في توحيده: (**لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ**) "أي من القوم الذين أخطأوا الحق في ذلك فلم يصيبوا الهدى، وعبدوا غير الله" [3] (**فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ**) [4]

(**هَذَا أَكْبَرُ**) "أي: هذا أكبر من الكوكب والقمر" [5] (**يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ**) إني برئ من كل شريك تدعونه لله، وتضيفونه إلى شركته، وتعبدونه معه، لا أعبد سوى الله شيئاً، ولا أدعو غيره إلهاً". [6]

١- سيد قطب، في ظلال القرآن، المجلد (٢)، جـ(٧)، ص(١١٣٩)، مرجع سابق.
٢- سورة الأنعام الآية (٧٥).
٣- الإمام ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، جـ(٣)، ص(٢٨٤)،مرجع سابق.
٤- سورة الأنعام الآية (٧٦).
١- الإمام الطبري، تفسير الطبري، جـ(١١)، ص(٤٨٠)، مرجع سابق.
٢- سورة الأنعام الآية (٧٧).
٣- الإمام الطبري، تفسير الطبري، جـ(١١)، ص(٤٨٦)، مرجع سابق.
٤- سورة الأنعام الآية (٧٨).
٥- نفس المرجع السابق والصفحة .
٦- نفس المرجع السابق.
٧- سورة الأنعام الآية (٧٩).

وهذا يصل بهم إلى الحق الذي ينبغي أن يأخذ كل عاقل نفسه، ويقيم أمره عليه، جاعلاً اللّه وحده لا شريك له وجهته مقراً بوحدانيته، منزهاً له جل شأنه عن كل ما يليق به. (**إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفاً وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ**) (٧)

فشهد شهادة الحق، وصدع بها في قومه، فالعبادة للّه تعالى وحده، ولا انحراف بها إلى شرك، يقيناً جازماً لا تردد فيه.

"والحق أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام كان في هذا المقام مناظراً لقومه، مبيناً لهم بطلان ما كانوا عليه من عبادة الهياكل والأصنام، فبين في المقام الأول مع أبيه خطأهم في عبادة الأصنام الأرضية، التي هي على صورة الملائكة السماوية، ليشفعوا لهم إلى الخالق العظيم الذي هم عند أنفسهم أحقر من أن يعبدوه، وإنما يتوسلون إليه بعبادة ملائكته، ليشفعوا لهم عنده في الرزق والنصر، وغير ذلك مما يحتاجون إليه، وبين في هذا المقام خطأهم وضلالهم في عبادة الهياكل، وهي الكواكب السيارة السبعة المتحيرة، وهي: القمر، وعطارد، والزهرة، والشمس، والمريخ، والمشترى، وزحل. وأشهدهن إضاءة وأشرقهن عندهم الشمس، ثم القمر، ثم الزهرة. فبين أولاً أن هذه الزهرة لا تصلح للإلهية؛ لأنها مسخرة مقدرة بسير معين، لا تزيغ عنه يميناً ولا شمالاً، ولا تملك لنفسها تصرفاً، بل هي جرم من الأجرام خلقها اللّه منيرة، لما له في ذلك من الحكم العظيمة، وهي تطلع من المشرق، ثم تسير فيما بينه وبين المغرب حتى تغيب عن الأبصار فيه، ثم تبدو في الليلة القابلة على هذا المنوال. ومثل هذه لا تصلح للإلهية. ثم انتقل إلى القمر فبين مثل ما تقدم في النجم. ثم انتقل إلى الشمس كذلك: فلما انتفت الألوهية عن هذه الأجرام الثلاثة التي هي أنور ما تقع عليه الأبصار، وتحقق ذلك بالدليل القاطع قال(**يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ**)،أي:أنا برئ من عبادتهن وموالاتهن، فإن كانت آلهة فكيدوني بها جميعاً ثم لا تنظرون(**إِنِّي**

وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفاً وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ)[1] أي: إنما أعبد خالق الأشياء ومخترعها ومسخرها ومقدرها ومدبرها، الذي بيده ملكوت كل شيء، وخالق كل شيء وربه ومليكه وإلهه، كما قال تعالى:)**إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثاً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ**)[2] وكيف يجوز أن يكون إبراهيم ناظرا في هذا المقام، وهو الذي قال الله في حقه: **وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ (٥١) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ (٥٢)**[3]

وقال تعالى: **إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً لِلَّهِ حَنِيفاً وَلَمْ يَكُنْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٢٠) شَاكِراً لِأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (١٢١) وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (١٢٢) ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٢٣)**[4] وقال تعالى:)**قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِيناً قِيَماً مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ**)[5]

وما أعظم ذلك الختام الكريم ينهي به الخليل عليه السلام محاجة قومه: **وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئاً وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ (٨٠) وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ وَلا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ**

١- سورة الأنعام الآية (٧٩).

٢- سورة الأعراف الآية (٥٤).

٣- سورة الأنبياء الآيتان (٥١- ٥٢).

٤- سورة النحل الآيات (١٢٠- ١٢٣).

٥- سورة الأنعام الآية (١٦١).

سُلْطَاناً فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٨١) الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ (٨٢) [١]

وزاده شرفاً وقدراً منة اللّه تعالى عليه في قوله جل شأنه: **وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (٨٣)** [٢]

حجة بالغة:

وإذا كان العلم نوراً كما قيل فما بالك إذا كان الإيمان باللّه تعالى هو مصدر ذلك العلم، وموجهه، والمحدد لأهدافه وغاياته؟.

لابد أنه سيكون نوراً لا يأفل، وهدىً لا يغيب، وحجة باقية، وبياناً دافقاً، وقد كان هذا شأن أنبياء اللّه ورسله عامة، والخليل إبراهيم خاصة عليهم الصلاة والسلام، وها هو القرآن الكريم يعرض علينا قصة ملك أنعم اللّه عليه بالملك، ومد له في سلطانه، وأسبغ عليه من نعمه، فكان حاله كما حكى القرآن الكريم: **إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَى (٦) أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى (٧)** [٣]

"فاستبدل بالإيمان الكفر، وبالشكر الجحود، وتحدى المنعم بنعمه، وجعل من نفسه طاغوتاً يلزم الناس الخضوع له، وتسليم الحاكمية إليه، فلم ير في نفسه عبداً مقهوراً، يجوع ويعطش، وينام ويمرض، ويكفي حاجاته بغيره، وسياق القرآن الكريم منهج إيماني تربوي يربي المعلم، ويغدو المتعلم، ويمد الأمة بزاد صادق محكم شامل في التربية استحال أن يجده الباحثون عند غير اللطيف الخبير، فيقول سبحانه وتعالى: **(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٢٥٨) أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ**

١- سورة الأنعام الآيات (٨٠- ٨٢).

٢- سورة الأنعام الآية (٨٣).

٣- سورة العلق الآيتان (٦- ٧).

خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْماً فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٥٩) [١]

"والمطلع(**أَلَمْ تَرَ**) أعظم لفظاً وتعبيراً، ومعنىً وتصويراً، ففيه إنكار واستنكار،فالفعلة منكرة حقاً: أن يأتي الحجاج والجدال بسبب النعمة والعطاء، وأن يدعي عبد لنفسه ما هو من اختصاص الرب، وأن يستقل حاكم يحكم الناس بهواه دون أن يستمد قانونه من اللّه".[٢]

لقد طمست البصيرة، وطبع على القلب، وعمي عن مظاهر قدرة اللّه تعالى فيه، وفيمن حوله، فما رأى رحمة اللّه تمتد بمقومات في ذاته، وتدبر له رغد العيش، وليونة الحياة، فسأل إبراهيم من ربك؟

إنه لا يرى في إبراهيم خضوعاً كذلك الذي يراه في سواد الناس الذين أظلمهم، فاستطال وسأل ذلك السؤال، فأجاب إبراهيم عليه السلام بما علمه ربه: (**رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ**) ولكن أنى لغبي طبع اللّه على قلبه، وجعل على بصره غشاوة أن يفهم مقصود إبراهيم عليه السلام؟

إن هذا الجاهل الجاحد يرى الإحياء والإماتة بآثارهما، فاعتقد كبراً وجهلاً أن له دخلاً فيهما، وأنه حين يعفو عن إنسان، ويرفع عنه سيفه الظالم الطاغي المغرور يكون قد أحياه، وحين يقتل يكون قد أمات.

"وما كان إبراهيم ليعني من الإحياء والإماتة إلا إنشاء هاتين الحقيقتين إنشاء، فذلك عمل الرب المتفرد الذي لا يشاركه فيه أحد من خلقه"[١]

١- سورة البقرة الآيتان (٢٥٨- ٢٥٩) .

٢- سيد قطب، في ظلال القرآن ، المجلد (١)، جـ(٣)، ص(٢٩٧)، مرجع سابق.

١- نفس المرجع السابق، والمجلد والجزء، ص(٢٩٨).

٢- سورة الملك الآيتان (١- ٢)

٢- سورة البقرة الآية (١٨).

ولذلك من كبرى آياته: **تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١) الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ (٢)** [٢]

فجعلهما الله تعالى في مقدمة آيات ملكه وقدرته، ولكن أنى يفهم المحجوب عن الله، المحروم من نعمته ذلك؟

لقد حدث عنه عماه وضلاله فقال كما حكى القرآن الكريم: (أنا أحيي وأميت)إن إبراهيم عليه السلام أمام نموذج بشري سدت عنه منافذ المعرفة بالله، وأغلقت في وجهه طرائق العلم، فلا سبيل إلى إفحامه إلا بآية كونية محسة لا سبيل إلى إنكارها فكان ما حكى القرآن الكريم: **(قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنْ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنْ الْمَغْرِبِ**)إن وقع المفاجأة شديد، والسؤال لا جواب له غير الانقياد والتسليم، ولكن أولياء الشيطان (**صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَرْجِعُونَ**) [٣]

والمجادل في ذاته من أعتى الشياطين، فلن تكون نهاية حواره غير ما صور القرآن **فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ**)

ولعل سائلاً يسأل وأين مكانة خاتم الأنبياء المبعوث للناس كافة؟ والجواب ميسور إن مكانته فوق المكانات، ورتبته أعلى الرتب، وروافده في القرآن الكريم أعظم من أن تحصى، فضلا عن السنة المشرفة، فالله تعالى يقول لرسوله r : (**وَلا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيراً**) [١]

والعيب في الناس مع كل نبي أو رسول، وفي سجل كل أمة من الأمم، وهم مع رسول الله r أشد عناداً، وأكثر عدداً، فقد تصدى لإبراهيم عليه السلام نموذج واحد، ولموسى فرعون استغرق جزءاً كبيراً من عمره وعمر رسالته، أما محمد r فما أكثر فراعنة أمته، وأمثال نمروذ لا

١- سورة الفرقان الآية (٣٣).

٢- سورة الإسراء الآية (٨٩).

٣- سورة الزمر الآية (٢٧).

يحصون عدداً في معارضيه على مر العصور،أليس من فراعنة هذه الأمة أبو لهب وزوجه، وأبو جهل، وأمية بن خلف، وعقبة بن أبي معيط، والوليد بن المغيرة، وغيرهم من المشركين، وأهل الكتاب وكان شأن أكثرهم كما حكى القرآن الكريم: ﴿**وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُوراً**﴾ [٢]

وكم أيقظت هذه الأمثال من فطر، وحررت من عقول، وفعلت من هداية، وأعادت إلى الله تعالى كثيراً من الشاردين عنه، قال جل شأنه: ﴿**وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ**﴾ [٣]

ويقول جل جلاله: ﴿**وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ**﴾ [١]

وعطاء الله تعالى لحبيبه ومصطفاه فوق كل عطاء، وإمداده له أعظم وأقوى من كل إمداد، لايحيط به، ولا يشمله، ويصدق في بيانه غير القرآن الكريم: ﴿**وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً**﴾ [٢]

أليس محمد r دعوة أبيه إبراهيم عليهما الصلاة والسلام: ﴿**رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**﴾ [٣]

إذاً بقي دور الأمة لتقيم حياتها على أساس من العلم الخالص، المتصلة أسبابه بالله، القائم على الحق وله، المبرأ من الهوى، الداعي إلى الهدى وإلى صراط الله العزيز الحميد، لا يعرف ذووه الملل، ولا يضعف

١- سورة العنكبوت الآية (٤٣).

مبلغوه عن مواجهة الباطل، ولا ييأس أهله من روح اللّه.لقد افتتحت رسالات السماء بالعلم: (**وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا**) [٤]

واختتمت بالعلم، فكان أول ما نزل: **اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ** (١) **خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ** (٢) **اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ** (٣) **الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ** (٤) **عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ** (٥) [١]

وكما امتن اللّه تعالى على رسوله r بالعلم فقال: (**وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً**) [٢]

ودعاه إلى طلب المزيد من العلم، فقال جل شأنه لرسوله r : **وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنْ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْراً** (١١٣) **فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً** (١١٤) [٣]

امتن على أمته الخاتمة، فقال جل وعلا: (**فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالاً أَوْ رُكْبَاناً فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ**) [٤]

وجعل مفتاح العلم في هذه الأمة التقوى، فقال جل شأنه: (**وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ**) [٥]

١- سورة العلق الايات (١- ٥).
٢- سورة النساء الآية (١١٣) .
٣- سورة طه الآيتان (١١٣- ١١٤).
٤- سورة البقرة الآية (٢٣٩).
٥- سورة البقرة الآية (٢٨٢).
٦- سورة الشمس الآيتان (٧- ٨).

والمهتمون بالتربية أولى الناس بالأخذ بأسباب العلم في أنفسهم ومع من يربون، فإن رأوا التغاير في النفوس ذكروا أن الله تعالى صرح بهذا التغاير، فقال تعالى: (**وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (٨)**)[٦]

وجعل النفوس ألواناً فمنها المطمئنة، قال تعالى: **يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (٢٧) ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً (٢٨)** [١]

واللوامة التي ذكرها الله تعالى بقوله: (**وَلا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ**)[٢]

والأمارة بالسوء قال سبحانه وتعالى حكاية عن امرأة العزيز:)**وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ**)[٣]

وعرفنا بطبيعة الإنسان وجدله، فقال جل شأنه: (**وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْأِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً**)[٤]

وابتلي الرسول r بكثير من هذا مما لا مجال لسرده.

والمربون معرضون لمواجهة هذه الأصناف من المتربين في ميدان عملهم، وقد يثقل المعلم بتلك الألوان البشرية مجتمعة في صف واحد، وقد تبتلى الإدارة المدرسية بالتقاء هذه المشارب في صفوف أبنائها وبناتها، فإن تناست هؤلاء، وقالوا(العملية التعليمية منهج) فقد خابوا، وخسروا، وفرطوا، وإن ثبتهم الله على الحق، وأدركوا أن التربية أولاً، ثم التعليم، فقد يسر الله تعالى لهم أسبابها، وعرَّف بطبائع البشر، ومناهج تربيتهم، ويسر لهم عوامل البلوغ فيها، ولا شئ يسبق العلم في ذلك وأصدق العلم ما كان من كتاب الله وسنة رسوله r .

١- سورة الفجر الآيتان (٢٧- ٢٨).

٢- سورة القيامة الآية (٢) .

٣- سورة يوسف الآية (٥٣).

٤- سورة الكهف الآية (٥٤).

الفصل الثالث:

المرونـــــــــة

المرونة لغة واصطلاحاً:

جاء في المعجم الوسيط:"(مرن) الشيء؛ مرانة ومرونة : لان في صلابة .

و(أمرن) الرجل بالقول: لينه، و(مرن) الشيء: ألانه، و(تمرن) الشيء صار ليناً"[١]

وفي ترتيب القاموس المحيط: "(مرن) مرانة، مرونة، ومروناً: لان في صلابة، ومرنته تمريناً : لينته، ومرن على الشيء، مروناً ومرانة : تعوده"[٢]

"(مرن) يمرن مرانة ومرونة وهو: لين في صلابة، و(مرنته): ألنته وصلبته، و(مرن) الشيء يمرن مروناً: إذا استمر، وهو لين في صلابة، و(مرنت) يد فلان على العمل أي: صلبت، واستمرت، والمرانة: اللين، والتمرين: التليين، و(مرن) الشيء يمرن مروناً إذا لان، (ورمح مارن) أي صلب لين".[٣]

ومن مراجعة تلك الأقوال في المعاجم الثلاثة نرى أن المعنى يدور بين ثلاثة أوصاف (الاستمرارية، واللين، والصلابة)، وهي سمات ضرورية للتربية الناجحة يحفز على تواصل العطاء التربوي، ووسطيته، واعتداله، فلا غلو، ولا شطط، مما ينفر المربَّى، ويصرفه عن المربي ويبغض إليه التربية، ولا تفريط تذوب معه الضوابط، وتضيع القيم .

وأعظم صور هذا العطاء الوسط الذي يأوي إليه النافر ويأنس به الشارد ويذكر به الغافل، وينشط له النؤوم تمثل في النبي الغانم r وأجمله

١- المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، جـ(٢)، ص(٨٧٢) مرجع سابق.

٢- الظاهر أحمد الزاوي، ترتيب القاموس المحيط، ج(٤) ص(٢٣٣)، باب الميم، الدار العربية للكتاب، ط(٣)، بيروت – لبنان، ١٩٨٠م.

٣- ابن منظور، لسان العرب، المجلد (١٣)، ص(٤٠٣) باب النون، مرجع سابق.

القرآن في كلمات معدودات: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ [1]

وجعل الرسول r المرونة الصادقة سمة صاحب القوامة في الأسرة وراعيها ألا وهو الزوج باعتبار أن الأسرة أولى لبنات المجتمع، وبسلامته تكون سلامة المجتمع.

عن أبى هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله r : " استوصوا بالنساء خيراً ، فان المرأة خلقت من ضلع ، وإن أعوج ما في الضلع أعلاه، فإن ذهبت تقيمه كسرته، وإن تركته لم يزل أعوج ، فاستوصوا بالنساء خيراً"[2]

إن الانتفاع بالمرأة الحلال أمر لا فكاك منه، ولا غناء للرجل عنها، حيث لا تقوم الحياة، ولا تعمر الأرض إلا بها، وفيها ما فيها مما عرفنا الله تعالى في كتابه الكريم أو سنة نبيه (r)، فإما أن يواجه الرجل هذا، ويغلب الحكمة ويتذرع بالصبر، فينال من خيرها، ويحصد من برها، ويكون له فيها كما أعلمنا ربنا جل وعلا السكن والمودة والرحمة في ظلال أسرة مؤمنة تقوم على شرع الله، وتقوى من خلال عقيدتها، وتعطي أطيب الثمر في رحاب علاقتها الطيبة بالله تعالى:

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [1]

وما كانت حياة رسول الله r مع نسائه غير دروس حق ومعالم هدىً على طريق الأسرة المسلمة.

١- سورة آل عمران الآية (١٥٩) .

٢- محمد ناصر الدين الألباني، في صحيح الجامع الصغير، وزيادته ، إشراف زهير الشاويش، جـ(١)، ص(٢٢٦)، المكتب الإسلامي، ط(٣)، بيروت - لبنان، دمشق – سوريا، سنة (١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م).

١- سورة الروم الآية (٢١)

فالغلو في الحساب والإسراف في المؤاخذة لا يقيمان بيتاً، ولا يصلحان عوجاً وإنما يقوضان الأسرة، ويزيدان العوج ويؤججان التنافر، ويحققان القيم الفاضلة وأعلاها السكن والمودة والرحمة.

أما المقصود بالمرونة اصطلاحاً فقد تعددت معانيها: فقد تعني قابلية الشيء للتغيير، وقيل هي أيسر الحلول من البدائل المتاحة.

أو هي التراجع عن الأمر المتخذ عند تبين قصوره، أو إيجاد قرار أفضل وأرى أنه لا مانع من أن تجمع المرونة السمات المشار إليها في التعاريف السابقة، فالله تعالى يقول: (**وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلاً مَيْسُوراً**)[٢]فقد ذكر الله تعالى في آيات سابقة بر الوالدين، ثم أتبعه بذكر الإحسان إلى القرابة وصلة الأرحام ولكن هؤلاء قد يتطلعون إلى عطاء ليس في مقدور الراغب في الصلة، مع حرصه الشديد على صلة رحمه، فيفتح الله تعالى أفقاً آخر ينال به الأجر، ويحسن إلى ذوي قرابته ، وذلك من خلال تلك الآية الكريمة.

أي: وإذا سألك أقاربك ومَنْ أمرناك بإعطائهم، وليس عندك شئ، وأعرضت عنهم لفقد النفقة "فقل لهم قولاً ميسوراً " أي عدهم وعداً بسهولة ولين: إذا جاء رزق الله فسنصلكم إن شاء الله"[١] فدعوة المسلم إلى المرونة واضحة بينة فالفقر قائم والرغبة في الصلة ملحة فلابد من الوصول إلى بديل يستر الفقر، ويصادف رضاً وقبولاً من الطالبين، ولاشيء أفضل من كلمة طيبة يدفعها حب الله تعالى، والحرص على طاعته، كذلك المرونة التربوية التي يحتاجها المربي في كل لحظة يقضيها بين أبنائه، فما أكثر المثيرات كإهمال في واجب أو إخلال بنظام الحصة، أو لهو وتشاغل عن الدرس، غير ذلك مما يثير المربي، ويدعوه إلى التفكير في أقسى العقوبات، ولكنه

٢- سورة الإسراء الآية (٢٨).

١- الإمام ابن كثير، تفسير القرآن الكريم، جـ(٥)، ص(٦٦)، مرجع سابق.

لا يلبث أن يثوب إلى رشده ويستبدل بما افترض من عقاب نصيحة هادفة أو كلمة تحذير لا صرح فيها..

ووقفة أخرى مع أمر لا تخلو منه حياة البشر، فقد أباح اللّه تعالى الدَّيْن خالياً من شبهة الربا قضاءً لحاجات الناس، وتيسيراً على المعدمين، وكثيراً ما يحين الأجل، والمدين عاجز عن الوفاء فيرسم القرآن الكريم خطة كريمة للعلاج فيقول: ﴿**وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ**﴾ [٢] لقد حان وقت السداد، ووجب على المدين إسعاف الدائن بالوفاء، لكن أنى له ذلك ؟ فيرينا العلي الأعلى مرونة التشريع الإسلامي، ودعوته جل وعلا إلى توثيق أواصر الرحمة والحب والتعاون على البر والتقوى، فيضع البدائل مفاضلاً بينها، مرغباً في أعلاها وأسماها، "فيأمر تعالى بالصبر على المعسر الذي لا يجد وفاءً فيقول: "وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة " لا كما كان أهل الجاهلية، يقول أحدهم لمدينه: إذا حل عليه الدين : إما أن تقضي، وإما أن تُرْبي.

ثم يندب إلى الوضع عنه، ويعد على ذلك الخير والثواب الجزيل، فقال تعالى: "وأن تصدقوا خير لكم إن كنتم تعلمون" أي : وإن تتركوا رأس المال بالكلية، وتضعوه عن المدين"[١] خير لكم وأعظم مثوبة عند اللّه تعالى.

ويدعو الرسول r والمؤمنين إلى أن يتخلقوا بهذا الخلق فتثمر دعوته ونراه واقعاً عملياً في أصحابه رضوان اللّه عليهم أجمعين.

عن أبي قتادة رضي اللّه عنه أنه طلب غريماً له فتوارى عنه، ثم وجده فقال: إني معسر، فقال: آللّه ؟ قال : آللّه ، قال فإني سمعت رسول اللّه

٢- سورة البقرة الآية (٢٨٠).

١- الإمام ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، جـ(١)، ص(٤٩١)، مرجع سابق.

r يقول "من سره أن ينجيه الله من كرب يوم القيامة فلينفس عن معسر، أو يضع عنه".[٢]

وعن حذيفة رضي الله عنه قال: قال رسول الله r : "تلقت الملائكة روح رجل ممن كان قبلكم، فقالوا : أعملت من الخير شيئاً؟ قال: لا قالوا: تذكر، قال : كنت أداين الناس فآمر فتياني أن ينظروا المعسر، ويتجوزوا عن الموسر، قال الله عز وجل : تجوزوا عنه"[٣] وهذه قمة المرونة "إن المعسر في الإسلام لا يطارد من صاحب الدين أو من القانون والمحاكم إنما ينظر حتى يوسر. ثم إن المجتمع المسلم لا يترك هذا المعسر وعليه دين. فالله يدعو صاحب الدين أن يتصدق بدينه. إن تطوع بهذا الخير وهو خير لنفسه كما هو خير للمدين وهو خير للجماعة كُلها ولحياتها المتكافلة"[٤]. على أن النصوص الأخرى تجعل لهذا المدين المعسر حظا من مصارف الزكاة ليؤدي دينه وييسر حياته...

وتتجلى في عظمة مرونة رسول الله r في صلح الحديبية، وهو العزيز بعزة الله، والقوي بقوته، المؤيد بنصر، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله.

لقد "استقبل رسول الله r مفاوض قريش، وهو أرغب ما يكون في موادعة القوم، وإن كان قادراً على تحكيم السيف، وإنزال خصومه على منطقهم الذي آثروه منذ صدوه عن البيت، وتكلم سهيل، فأطال، وعرض

٢- رواه مسلم (١١٩٦/٢)

٣- البغوي، شرح السنة، جـ(٨)، ص(١٩٧)، مرجع سابق.

٤- سيد قطب، في ظلال القرآن، المجلد(١)، ص(٣٣٣)، مرجع سابق.

الشروط التي يتم في نطاقها الصلح، ووافق عليها النبي r ، ولم يبق إلا أن تسجل في وثيقة يمضيها الفريقان".[1]

وحدثت في معسكر المسلمين دهشة عامة للطريقة التي سلكها رسول الله r مع أوليائه، ومع أعدائه، فأما مع أعدائه، فقد ذهب في ملاينتهم إلى حدود بعيدة، وأولى به أن يقسو عليهم وأما مع أصحابه فإنه على غير ما ألفوا منه لم يستشرهم في هذا الاتفاق المقترح، مع أنه في شؤون الحرب والسلم التي سلفت كان يرجع إليهم، وربما ينزل على رأيهم وهو كاره له، لكنه اليوم ينفرد بالعمل ويقر ما يكرهون، على غير ضرورة ملحة. إنه الدرس العملي الذي يلقنه الرسول القائد r أمته فرادى أو مجتمعين في المرونة حتى يكونوا على بينة من أمرهم في كل أمر يعرض لهم دون أن يحيفوا على الدين أن يمسوا منهجاً لله بما لا ينبغي أن يكون من مسلم، ولكن غياب الحكمة عن الصحابة، وحبهم لله تعالى ورسوله r ، وإخلاصهم لدين الله أوقعهم في حيرة عبرت عنها ثورة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ثم إباء علي بن أبى طالب كرم الله وجهه المحو من الكتاب .

"عن أبي وائل قال : قام سهل بن حنيف يوم صفين فقال أيها الناس اتهموا أنفسكم : لقد كنا مع رسول الله r يوم الحديبية ولو نرى قتالاً لقاتلنا. وذلك في الصلح الذي كان بين رسول الله r وبين المشركين، فجاء عمر بن الخطاب، فأتى رسول الله r فقال يا رسول الله: ألسنا على حق وهم على باطل؟ قال: بلى قال: أليس قتلانا في الجنة وقتلاهم في النار ؟ قال: بلى قال: ففيم نعطى الدنية في ديننا ،ونرجع ولما يحكم الله بيننا وبينهم؟ فقال "يا ابن الخطاب! إني رسول الله . ولن يضيعني الله أبداً " قال : فانطلق عمر فلم يصبر متغيظاً فأتى أبا بكر فقال: يا أبا بكر ألسنا على حق وهم

١- الشيخ محمد الغزالي، فقه السيرة، عني بنشره الشيخ عبد الله الأنصاري، ص(٣٤٤)، مطابع الدوحة الحديث، بدون ط، الدوحة – قطر، بدون ت.

على باطل؟ قال: بلى قال: أليس قتلانا في الجنة وقتلاهم في النار؟ قال: بلى . قال: فعلام نعطي الدنية في ديننا ونرجع ولما يحكم الله بيننا وبينهم ؟ فقال: يا ابن الخطاب إنه رسول الله ولن يضيعه الله أبداً. قال: فنزل القرآن على رسول الله r بالفتح. فأرسل إلى عمر فأقرأه إياه: فقال: يا رسول الله! أو فتح هو ؟ قال : نعم فطابت نفسه ورجع". [1]

واستدعى الرسول r علياً ليكتب :

"عن أنس، أن قريشاً صالحوا النبي r فيهم سهيل بن عمرو فقال النبي r : لعلي "اكتب بسم الله الرحمن الرحيم ". فقال سهيل : أما باسم الله، فما ندري ما بسم الله الرحمن الرحيم ولكن اكتب ما نعرف: باسمك اللهم. فقال: اكتب من محمد رسول الله" قالوا لو علمنا انك رسول الله لاتبعناك. ولكن اكتب اسمك واسم أبيك. فقال النبي r : "اكتب من محمد بن عبد الله " فاشترطوا على النبي r أن من جاء منكم لم نرده عليكم . ومن جاءكم منا رددتموه علينا . فقالوا : يا رسول الله ! أنكتب هذا ؟ قال : " نعم . إنه من ذهب منا إليهم، فأبعده الله ، ومن جاءنا منهم سيجعل الله له فرجاً ومخرجاً".[1]

وفي رواية عن البراء رضي الله عنه "فأمر علياً أن يمحيها، فقال علي: لا والله لا أمحيها، فقال رسول الله r : "أرني مكانها" فأراه مكانها، فمحاها وكتب "ابن عبد الله" فأقام بها ثلاثة أيام، فلما أن كان يوم الثالث قالوا لعلي هذا أخر يوم من شرط صاحبك، فأمره فليخرج، فاخبره بذلك، فقال: "نعم" فخرج"[2] .

١- رواه مسلم (١٤١١/٣- ١٤١٢).

١- رواه مسلم (١٤١١/٣).

٢- رواه مسلم (١٤١٠/٣).

وقد صدق الله تعالى ورسوله r ، وكان الصلح فتحاً ونزلت على رسول الله r : حين منصرفه من الحديدية سورة الفتح، ومطلعها: **إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً (١) لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطاً مُسْتَقِيماً (٢) وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْراً عَزِيزاً (٣)** [٣] " روي عن ابن مسعود رضي الله عنه وغيره أنه قال: إنكم تعدون الفتح فتح مكة، ونحن نعد الفتح صلح الحديبية وقال الأعمش عن أبى سفيان عن جابر قال : ما كنا نعد الفتح إلا يوم الحديبية"[٤].

وهكذا ترى الإنسانية فضلاً عن صحابة رسول الله r ، والمؤمنين جميعاً كيف تساس الأمور وأن التربية المعصومة، التي لا يتسرب إليها ريب، ولا يأتيها الباطل إنما هي التربية الإسلامية بمصدريها كتاب الله وسنة نبيه r ، وأن منهجها أصدق المناهج وأنها هي التي بنت خير أمة أخرجت للناس فأحسنت بناءهم أفراداً وجماعات ، في السلم وفي الحرب، وما المرونة إلا جزء يسير في هذه التربية وإن كان خطير المأتى خطير الأثر.

يسر الإسلام :

إن شريعة الله تعالى الخاتمة قائمة في أصولها وفروعها على الرحمة **)لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْراً كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلا تُحَمِّلْنَا مَا لا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلانَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ)** [١]

ودلائل ذلك بينة واضحة فيما فرض علينا ، ففي الطهارة بعد أن بين لنا سبحانه الوضوء، وشيئا مما يوجب الغسل، وقد يمنع من استعمال الماء

٣- سورة الفتح الآيات (١- ٣) .

٤- الإمام ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، جـ(٧)، ص(٣٠٧)، مرجع سابق.

مانع فيجعل الله تعالى الصعيد الطيب عوضا عنه. **(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُؤُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُباً فَاطَّهَّرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيداً طَيِّباً فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)** [1]

"التطهر حالة واجبة للقاء الله تعالى، وهو يتم في الوضوء والغسل جسماً وروحاً فأما في التيمم فيتم التطهر الأخير منه ويجزئ في التطهر عند عدم وجود الماء أو عندما يكون هناك ضرر في استعمال الماء ذلك أن الله سبحانه لا يريد أن يعنت الناس ويحملهم الحرج والمشقة بالتكاليف إنما يريد أن يطهرهم ، وأن ينعم عليهم بهذه الطهارة وأن يقودهم إلى الشكر على النعمة، ليضاعفها لهم ،ويزيدهم منها، فهو الرفق والفضل والواقعية في هذا المنهج اليسير"[2]

"ويقودنا الحديث عن التيمم للصلاة عند تعذر الطهارة بالوضوء أو الغسل، أو ضررهما إلى لفتة أخرى عن الصلاة ذاتها عن حرص المنهج الإسلامي على إقامة الصلاة وإزالة كل عائق يمنع منها، فهو بالإضافة إلى الأحكام الأخرى كالصلاة عند الخوف والصلاة في حالة المرض من قعود أو استلقاء حسب الإمكان، كل هذه الأحكام تكشف الحرص البالغ على إقامة الصلاة، وتبين إلى أي حد يعتمد المنهج على هذه العبادة لتحقيق أغراضه التربوية في النفس البشرية، إذ يجعل من لقاء الله تعالى والوقوف بين يديه وسيلة عميقة الأثر لا يفرط فيها في أدق الظروف، وإخراجها، ولا

١- سورة المائدة الآية (٦) .

٢- سيد قطب، في ظلال القرآن، المجلد(٢)، جـ(٦)، ص(٨٥٠)، مرجع سابق.

يجعل عقبة من العقبات تحول بين المسلم وبين هذا الوقوف وهذا اللقاء، لقاء العبد بربه، وعدم انقطاعه عنه لسبب من الأسباب، إنها نداوة القلب واسترواح الظل ، وبشاشة اللقاء .

وليس الوضوء والغسل مجرد تنظيف، وإنما هي محاولة مزدوجة لتوحيد نظافة الجسم وطهارة الروح في عمل واحد، وفي عبادة واحدة يتوجه فيها المؤمن إلى ربه، وجانب التطهر الروحي أقوى، لأنه عند تعذر استخدام الماء يستعاض بالتيمم الذي لا يحقق إلا هذا الشطر الأقوى، وذلك كله فضلاً عن أن هذا الدين منهج عام ليواجه جميع الحالات وجميع البيئات، وجميع الأطوار، بنظام واحد ثابت فتتحقق حكمته في جميع الحالات والبيئات والأطوار، في صورة من الصور بمعنىً من المعاني، ولا تبطل هذه الحكمة ، أو تتخلف في أية حال".[1]

والصلاة عبادة لابد منها تصل المؤمن باللّه تعالى، وهي نوره، وعدته في سلمه وحربه، تجعله أهلاً لعون اللّه تعالى ومدده، وتيسر له هداه ونصره، وجماعة المؤمنين أشد ما تكون احتياجاً إليها في ساح الجهاد، ومنازلة أعداء اللّه، ولكن أنَّى يكون لهم أداؤها بما شرع اللّه تعالى فيها، ومكر العدو قائم، ومفاجأته متوقعة، وبيئة الحرب مختلفة تماماً عن بيئة السلم ؟.

لكن اللّه تعالى القائل جل قدره: ﴿**لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا**﴾[2]

والقائل جل شأنه: ﴿**مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ**﴾[3]

والقائل جل جلاله: ﴿**هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ**﴾[4]

١- سيد قطب، في ظلال القرآن، ص(٨٥١)، بتصرف، مرجع سابق .

٢- سورة البقرة الآية (٢٨٦) .

٣- سورة المائدة الآية (٦).

٤- سورة الحج الآية (٧٨).

جعل للحرب صلاته المعروفة بصلاة الخوف بينها الله تعالى تبييناً كيفيتها وأداء المجاهدين لها، وما يلزمهم حين أدائها، فضلاً منه ورحمة، وتيسيراً على المجاهدين في سبيله، وإسراعاً بالطمأنينة إليهم، وتثبيتاً لقلوبهم، فيقول عز من قائل: **وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلاَةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِن وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً وَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُمْ مَّرْضَى أَن تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا (١٠٢) فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلاَةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ إِنَّ الصَّلاَةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا (١٠٣)**[1]

يا لرحمة الله! إن الصلاة إذا كانت صلة بين العبد وربه، ومواصلة من الله تعالى لعباده فأولى المؤمنين بذلك، وأشدهم احتياجاً إليها المجاهدون في سبيل الله المنازلون لأعدائه، وإذا كانت نوراً فحاجة المقاتل إلى هذا النور أقوى وأشد، وما كان الله الرحمن الرحيم ليحرمهم هذا النور، أو يؤجل لهم تلك الصلة، بل ميزهم، وكرمهم، وأسرع إليهم برحمته، وشرع لهم ما يشرف به إلا من وقف موقفهم.

وحين فرض ربنا جل وعلا الصيام، فأصل مشروعيته فيها رفق الإسلام ويسره، ورحمة الله بعباده، حيث جعله "أياماً معدودات" فلم يفرضه الدهر كله، ولا أكثر؛ تخفيفاً منه ورحمة، بل خفف عن المريض والمسافر.

قال تعالى: (**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٨٣) أَيَّاماً مَّعْدُودَاتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْراً فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ وَأَن**

١- سورة النساء الآيتان(١٠٢- ١٠٣).

تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (١٨٤) شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنْ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمْ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمْ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمْ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٨٥) [1]

وأعيد ذكر رخصة الإفطار؛ لئلا يظن أن صوم هذا الشهر محتم لا تتناوله رخصة، أو تتناوله لكنها غير محمودة، ثم أعقب ذلك التشريع القويم بقوله جل شأنه : (**يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمْ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمْ الْعُسْرَ**) [2]

أي يريد الله تعالى في هذه الرخصة في الصيام ، وفي كل ما شرعه لكم من الأحكام أن يجعل دينكم يسراً لا عسر فيه .

وهذه هي القاعدة الكبرى في تكاليف هذه العقيدة كلها، فهي ميسرة لا عسر فيها، وهي توحي للقلب الذي يتذوقها بالسهولة واليسر في أخذ الحياة كلها، وتطبع نفس المسلم بطابع خاص من السماحة التي لا تكلف فيها ولا تعقيد، سماحة تؤدى معها كل التكاليف، وكل الفرائض، وكل نشاط الحياة الجادة، وكأنما هي مسيل الحياة الجادة، وكأنما هي مسيل الماء الجاري، ونمو الشجرة الصاعدة في طمأنينة وثقة ورضاء، مع الشعور الدائم برحمة الله وإرادته، اليسر لا العسر بعباده المؤمنين.

وقد جعل الصوم للمريض والمسافر في أيام أخر؛ لكي يتمكن المضطر من إكمال عدة أيام الشهر، فلا يضيع عليه أجرها :"ولتكملوا العدة" والصوم على هذا نعمة تستحق التكبير والشكر: ﴿وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾﴾

١- سورة البقرة الآيات (١٨٣- ١٨٥).

٢- سورة البقرة الآية (١٨٥) .

فهذه غاية من غايات الفريضة..أن يشعر الذين آمنوا بقيمة الهدى الذي يسره الله لهم، وهم يجدون هذا في أنفسهم في فترة الصيام أكثر من كل فترة، وهم مكفوفو القلب عن التفكير في المعصية، ومكفوفو الجوارح عن إتيانه، وهم شاعرون بالهدى ملموساً محسوساً، ليكبروا الله على هذه الهداية، وليشكروه على هذه النعمة، ولتفيء قلوبهم إليه بهذه الطاعة، كما قال في مطلع الحديث عن الصيام: "لعلكم تتقون"

"وهكذا تبدو منة الله في هذا التكليف الذي يبدو شاقاً على الأبدان والنفوس، وتتجلى الغاية التربوية منه، والإعداد من ورائه للدور العظيم الذي أخرجت هذه الأمة لتؤديه، أداءً تحرسه التقوى، ورقابة الله، وحساسية الضمير"[1] كل ذلك وقد امتلأت نفس المؤمنين أن الإسلام يسر لا عسر فيه، يقدر قدرات المؤمنين وطاقاتهم فيما يفرض عليهم، أو يشرع لهم، حتى يروا جميعاً مع تفاوت أحوالهم، وتباين قدراتهم أنهم أمام الله تعالى سواء أكرمهم أتقاهم.)**لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلا عَلَى الْمَرْضَى وَلا عَلَى الَّذِينَ لا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ**)[1]

يالرحمة الله تعالى! إن الذي عوقه المرض، أو أصاب العطب إحدى حواسه، أو قصرت به قدراته المادية، يجبره دين الله تعالى بصدقه ويرفعه بإخلاصه ويميزه بتقواه فالله ما أراد بالطاعة إعنات عباده، أو يزيدهم رهقاً.) **وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ**) [2] (**لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ**

١- سيد قطب، في ظلال القرآن، المجلد (١)، جـ(٢)، ص(١٧٢)، مرجع سابق.

١- سورة التوبة الآية (٩١).

بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُمْ مَفَاتِحَهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعاً أَوْ أَشْتَاتاً فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتاً فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٣)

إن هذا الأصل الثابت الأصيل في دين الله تعالى يحكم مسار الحياة والأحياء ماداموا قد آمنوا بالله رباً، وبالإسلام ديناً وبمحمد r نبياً ورسولاً

(يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفاً) (٤)

إن الحج مثلا ركن من أركان الإسلام :

عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله r قال:"بني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وحج البيت، وصوم رمضان "(٥)

غير أن هذا الركن يختلف عن غيره من الأركان، فله متطلباته المالية، والبدنية، والنفسية وغير ذلك، حتى يخرج الحاج من بلده وأهله وماله طيب القلب، رضي النفس مقبلاً على الخالق، مدبراً عن الخلق، شغوفاً بتلك العبادة، مأخوذاً بمناسكها معرضاً عن الدنيا ومتاعها، ولذالكم لا يفرضها ربنا جل وعلا إلا على المستطيع الذي تؤهله قدراته لتحمل أعباء هذه العبادة، فيقول ربنا جل وعلا:

(وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً) (١)

والحج تجمُّع له مغزاه، فهو مؤتمر المسلمين كل عام في موعد لا يخطئه، إنه موعد سبقت به إرادة الله تعالى، وأحكمته قدرته، يدور مع فصول السنة كلها، وترى فيه جميع الأجواء، عند أول بيت وضع للناس، لأداء مناسك مخصوصة، قد تغيب عنا حكمةُ كثير منها، ولكنها العبادة الخالصة، وكمال العبودية لله تعالى، فيه تغسل النفوس، وتزكو القلوب والأرواح، ويخرج الحاج من ذنوبه كيوم ولدته أمه، فهي ضرورة لكل

مؤمن، ومع ذلك نرى الرحمن الرحيم يعفي ذوي الأعذار منها، ولا ينقص إيمانهم مثقال ذرة ما دام الإخلاص قائماً، والرغبة في أداء الحج عند الاستطاعة صادقة، وجعل الحج فريضة مرة واحدة في العمر.

عن أبي هريرة رضى الله عنه قال: خطبنا رسول الله r فقال: "يأيها الناس إن الله قد فرض عليكم الحج فحجوا" فقال رجل: أكل عام يا رسول الله؟ فسكت، حتى قالها ثلاثاً، فقال رسول الله r :"لو قلت نعم لوجبت، ولما استطعتم " ثم قال: "ذروني ما تركتكم، فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم ، واختلافهم على أنبيائهم ، فإذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم، وإذا نهيتكم عن شيء فدعوه"[1]

أرأيت كيف كان الإسلام رفيقاً بأهله، حريصاً عليهم، رحيماً بهم؟ لا يكلفهم ما يغلبهم؛ لأنه دين الفطرة، وهو الدين الخاتم للناس كافة. (**إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْأِسْلامُ**) [2] (**وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْأِسْلامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ**) [3] وهو دين الحنيفية السمحة. (**فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً**) [4] (**مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيّاً وَلا نَصْرَانِيّاً وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفاً مُسْلِماً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ**) [5]

"ومن أسمائه جل شأنه: (الرفيق) في أفعاله، وشرعه، ومن تأمل ما احتوى عليه شرعه من الرفق، وشَرْع الأحكام شيئاً بعد شئ، وجريانها على وجه السداد واليسر، ومناسبة العباد، وما في خلقه من الحكمة إذ خلق الخلق أطواراً، ونقلهم من حالة إلى أخرى بحكم وأسرار لا تحيط بها العقول، وهو تعالى يحب من عباده أهل الرفق، ويعطي على الرفق مالا يعطي على العنف، وييسر على من جرى على ما يحبه أموره كلها، والرفق من العبد لا ينافي الحزم، فيكون رفيقاً في أموره متأنياً، ومع ذلك لا يفوت الفرص إذا سنحت، ولا يهملها إذا عرضت" [6]

١- رواه مسلم (٢/٩٧٥).

٢- سورة آل عمران الآية (١٩) .

٣- سورة آل عمران الآية (٨٥) .

٤- سورة الروم الآية (٣٠) .

٥- سورة آل عمران الآية (٦٧) .

٦- الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي، تحقيق أشرف عبد المقصود، ص (١٩١- ١٩٢)، توضيح الكافية الشافية، ص (١٢٣)، مكتبة أضواء السلف، ط(١)،الرياض – السعودية، سنة (١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م).

مرونة يزكيها الوحي :

يعرفنا العلي الأعلى بحبيبه ومصطفاه فيقول جل جلاله: (**فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ**) [1]

"قال قتادة : أي والله طهره من الفظاظة والغلظة، وجعله قريباً، رحيماً رؤوفاً بالمؤمنين" .[2]

ويقول الإمام الطبري : "فبرحمة الله يا محمد ورأفته بك وبمن آمن بك من أصحابك "لنت لهم" لتبَّاعك وأصحابك، فسهلت لهم خلائقك، وحسنت لهم أخلاقك، حتى احتملت أذى من نالك منهم أذاه، وعفوت عن ذي الجرم منهم جرمه، وأغضيت عن كثير ممن لو جفوت به، وأغلظت عليه لتركك، ففارقك، ولم يتبعك، ولا ما بعثت به من الرحمة، ولكن الله رحمهم، ورحمك معهم، فبرحمة من الله لنت لهم r ".[3]

""فاعف عنهم"أي فتجاوز يا محمد عن تباعك وأصحابك من المؤمنين بك، وبما جئت به من عندي. ما نالك من أذاهم، ومكروه في نفسك "واستغفر لهم" وادع ربك لهم بالمغفرة لما أتوا من جرم، واستحقوا عليه عقوبة منه.

وقال بعضهم: أمر الله نبيه r بقوله:(**وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ**) بمشاورة أصحابه في مكايد الحرب، وعند لقاء العدو تطييباً منه بذلك أنفسهم، وتألفاً لهم على دينهم، وليروا أنه يسمع منهم، ويستعين بهم، وإن كان الله عز وجل قد أغناه بتدبيره له أموره، وسياسته إياه، وتقويمه أسبابه عنهم"[1]

١- سورة آل عمران الآية (١٥٩)

٢- الإمام السيوطي، الدرر المنثور في التفسير بالمأثور، جـ(٢)،ص(٣٥٨)، مرجع سابق.

٣- الإمام الطبري، تفسير الطبري، تحقيق محمود محمد شاكر، جـ(٧)،ص(٣٤١)، مرجع سابق.

١- نفس المرجع السابق والمجلد ص(٣٤٣)، بتصرف.

"وقال آخرون: بل أمره بذلك في ذلك ليبين له الرأي وأصوب الأمور في التدبير، لما علم في المشورة تعالى ذكره من الفضل ".[٢]

"إنها رحمة من الله التي نالته، ونالتهم، فجعلته r رحيماً بهم، ليناً معهم، ولو كان فظاً غليظ القلب ما تألفت حوله القلوب، ولا تجمعت حوله المشاعر، فالناس في حاجةٍ إلى كنفٍ رحيم، وإلى رعاية فائقة، وإلى بشاشة سمحة، وإلى ود يسعهم، وحلم لا يضيق بجهلهم وضعفهم ونقصهم في حاجة إلى قلب كبير يعطيهم ولا يحتاج منهم إلى عطاء ويحمل همومهم، ولا يعنتهم بهمه، ويجدون عنده دائماً الاهتمام والرعاية والعطف والسماحة، والود والرضا، وهكذا كان قلب رسول الله r ، وهكذا كانت حياته مع الناس، ما غضب لنفسه قط، ولا ضاق صدره بضعفهم البشري، ولا احتجز لنفسه شيئاً من أعراض هذه الحياة ، بل أعطاهم كل ما ملكت يداه في سماحة ندية، وسعهم حلمه وبره، وعطفه ووده الكريم، وما من واحد منهم عاشره، أو رآه إلا امتلأ قلبه بحبه، نتيجة لما أفاض عليه r من نفسه الكبيرة الرحيبة".[٣]

وبتأمل تلك الشمائل، وتدبر آثارها الطيبة، وفعلها المبارك في مسار الدعوة، ونجاحها في صناعة أمة أصدق وصف لها قول الحق جل وعلا :

)وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً)[١]

وقوله جل جلاله: (**كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ**)[٢]

٢- نفس المرجع السابق والمجلد ص (٣٤٣- ٣٤٤)، بتصرف .

٣- سيد قطب، في ظلال القرآن، المجلد(١)، جـ(٤)، ص(٥٠٠- ٥٠١)، مرجع سابق.

١- سورة البقرة الآية (١٤٣) .

يمكننا أن نقرر في يقين أن ما اشتملت عليه من خلائق حميدة تمثلت كاملة في رسول الله r وجعل منها النبي الخاتم r دعائم بناء هذه الأمة، وأرسى عليها شرائع الله تعالى له وللمسلمين من بعده إلى يوم القيامة، ضرورية في تربية سليمة المنهج نظيفة الغاية، تستهدف الإنسان والمجتمع، فالفظ الغليظ لا يصلح مربياً، لخلوه من وسائل الجذب، التي تجمع الناس حوله، وتمنحه حبهم وثقتهم، فضلاً عمن هم في طور البناء، والتربية.

إنما الأمر بخلاف ذلك، فاللين في غير تفريط، والسهولة في غير تهاون يسرعان إلى قلب من تُربِّى فإذا هو شغوف بك، حريص على صحبتك، مقدر لك، مفاخر بمجالستك، تواق إلى رؤيتك، حفي بعلمك وخلقك ..

وإذا كان الله تعالى الرحمن الرحيم، وتلك التي نرددها في صلواتنا، ونوقن بها تمام اليقين، وركزها الرسول r في ضمير كل مؤمن..

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي r قال :"لما قضى الله الخلق كتب كتاباً، فهو عنده فوق العرش: إن رحمتي سبقت غضبي" [٣]

فأولى بنا ونحن عباده أن نكون رحماء، وأن ننزه ساحات التربية عن العنف، ونخليها من الغلظة.

وإذا كانت أسوتنا المعصومة في رسول الله r ،وقد نعته ربه بقوله جل شأنه:)**وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ**([١]

فجعل فيه من الخلق ما لم يجتمع لغيره من الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين فضلاً عن خلق الله جميعاً، فمرجع الخلق الكريم هو ذلكم النبي الخاتم؛ ولذا أقام الله أمته وأرسى قواعد دولته في أعوام، وبقيت، وتخلد الى يوم القيامة .

٢- سورة آل عمران الآية (١١٠) .

٣- البغوي، شرح السنة، جـ(٤)، ص(٣٧٦)، مرجع سابق.

١- سورة القلم الآية (٤) .

ويحدثنا الله تعالى عن بعض خصائص ذي الخلق العظيم فيقول جل شأنه: (**لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ**) [٢]

ويرينا من نفسه النموذج العالي للتربية، والنسق الرفيع لبناء البشر، مع تباين طباعهم، وتغاير أخلاقهم، وتعدد بيئاتهم، وفظاظة كثير منهم وغلظه، ولا يلبث أحدهم أن تراه سميعاً مطيعاً له، مضحياً بالنفس والنفيس ابتغاء وجه الله تعالى . فعمر بن الخطاب رضي الله عنه الذي قال فيه رسول الله r : "والذي نفسي بيده ما لقيك الشيطان قط سالكاً فجاً إلا سلك فجاً غير فجك" [٣]

"كان عند المبعث شديداً على المسلمين، ثم أسلم فكان إسلامه فتحاً على المسلمين، وفرجاً لهم من الضيق، قال عبد الله بن مسعود : وما عبدنا الله جهرة حتى أسلم عمر" .[١]

وما خرج يوم خرج راغباً في الإسلام، ولا طالباً برسول الله r ، بل عدواً مجاهراً بعداوته مصراً على قتل رسول الله r وما لبث أن حوله الله تعالى إلى ما صار إليه.

إن غلظة قلوب كثير من العرب، وشدتهم، وفرط قسوتهم لم يحل بين رسول الله r وبين امتلاك قلوبهم، وتأليف أرواحهم، وصياغتهم صياغة يعتز بها الإسلام، ويفاخر المؤمنون به، الآخذون أنفسهم وما ولوا بمنهج تربيته الكريم المعصوم .

"عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: بعث النبي r خيلاً قبل نجد، فجاءت برجل من بني حنيفة يقال له ثمامة بن أثال، فربطوه بسارية من

٢- سورة التوبة الآية (١٢٨) .

٣- رواه مسلم (٤/١٨٦٤) .

١- الإمام ابن حجر العسقلاني، الإصابة في تمييز الصحابة، جـ(٢)، ص(٥١٨)، ط(١)،سنة (١٣٢٨هـ).

سواري المسجد، فخرج النبي r فقال: "ماذا عندك يا ثمامة؟" فقال: عندي خير يا محمد إن تقتل تقتل ذا دم، وإن تنعم تنعم على شاكر. وإن كنت تريد المال فسل منه ما شئت . فترك حتى كان الغد، ثم قال له :"ماذا عندك يا ثمامة؟" قال : ما قلت لك : إن تنعم تنعم على شاكر. فتركه حتى كان بعد الغد، فقال: "ما عندك يا ثمامة؟" قال: ما قلت لك. فقال :"أطلقوا ثمامة". فانطلق إلى نخل قريب من المسجد فاغتسل ثم دخل المسجد فقال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله. يا محمد، والله ما كان على الأرض وجه أبغض إليّ من وجهك، فقد أصبح وجهك أحب الوجوه إليّ . والله ما كان من دين أبغض إليّ من دينك، فأصبح دينك أحب الدين إليّ . والله ما كان من بلد أبغض إليّ من بلدك، فأصبح بلدك أحب البلاد إليّ. وإن خيلك أخذتني وأنا أريد العمرة . فماذا ترى؟ فبشره رسول الله r وأمره أن يعتمر فلما قدم مكة. قال له قائل: صبوت. قال لا. ولكن أسلمت مع محمد رسول الله r . ولا والله لا يأتيكم من اليمامة حبة حتى يأذن فيها النبي r " [1]

إن الخلق العظيم انتقل بثمامة انتقالاً لا يأتي إلا مع الرؤوف الرحيم r ، لقد أتت خيل رسول الله بثمامة وموقفه من رسول الله، ودينه، وبلده كما أوضح ثمامة في صراحة، وكشف في صدق، ولو قتله الرسول r ، أو أمر بقتله لذهب كافراً مخلداً في النار، ولكن رحمة رسول الله r ، وحرصه جعلا من ثمامة جندياً من جنود الإسلام، ورجلاً من رجاله يحب الله تعالى، ورسوله r ، وما بعثه الله تعالى به، فلقي المشركين بوجه كاره لهم ولما هم عليه، رافضاً أي بشاشة معهم، أو رفق بهم.

١- رواه مسلم (١٣٨٦/٣)

ويلقن المؤدب المعصوم أمته كيف يكون التعامل مع الجفاة، القساة، غلاظ الأكباد، ويريهم كواقع عملي أي لون من التربية يصلح معهم.

"عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رجلاً أتى النبي r يتقاضاه فأغلظ، فهم به أصحابه، فقال رسول الله r : "دعوه فإن لصاحب الحق مقالاً"، ثم قال :"أعطوه سناً مثل سنه" قالوا: يا رسول الله إلا أمثل من سنه. فقال: "أعطوه فإن من خيركم أحسنكم قضاءً"[٢]

إن الشدة في التربية تزرع البغض ، وتسد منافذ المودة ، وتشعل التنافر ، وتحول بين الداعية والمربي ومن يتصدى لدعوتهم وتربيتهم.

ويضعه مبدأً عاماً تسير عليه أمته، ويحمل مسؤولية بلاغه والعمل به الدعاة، والمربون، حتى تثمر جهودهم خيراً، ويفتح الله تعالى لهم القلوب .

عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : قال النبي r : "يسروا ولا تعسروا وبشروا ولا تنفروا"[١]

""يسروا" هو أمر بالتيسير، والمراد به الأخذ بالتسكين تارة وبالتيسير أخرى من جهة أن التنفير يصاحب المشقة غالباً، وهو ضد التسكين، والتبشير يصاحب التسكين غالبا، وهو ضد التنفير" .[٢]

وما أحوج المربي إلى هذين : التسكين والتيسير لما في الأول من إسكان الثورة، وإراحة النفس، وإدخال الطمأنينة عليها، وما في التيسير من ترغيب، وحمل على الإقبال على طاعة الله عز وجل، والتعلق بما يأتي عن طريق المربي .

٢- رواه مسلم (١٢٢٥/٣).

١- رواه البخاري (٤١٥/١٦فتح)، ومسلم (١٣٥٩/٣) .

٢- الإمام ابن حجر، فتح الباري، (٤١٥/١٦)، مرجع سابق.

وحين يبعث رسله r يحملهم هذا المنهج القويم، ليرى هؤلاء الإسلام سمحاً كريماً، ويروا في الداعين إليه أطيب نماذج السماحة والرفق .

عن سعيد بن أبي بردة عن أبيه عن جده قال: لما بعثه رسول الله r ، ومعاذ بن جبل قال لهما: "يسرا ولا تعسرا، وبشرا ولا تنفرا وتطاوعا ولا تختلفا"[٣]

إنه الإسلام يعلم أتباعه وإن كانوا فاتحين أن كرامة الإنسان موضوعة في الاعتبار، وأن الغلظة لا موضع لها، وأن الإحسان أيسر الطريق وأسهلها لامتلاك القلوب وتأليف البشر.

إن المزيج من البشر قدر لهم أن يجلسوا أمام معلم واحد مختلفي الطباع، والمزاج والبيئات أحوج ما يكونون إلى حكيم يسوسهم، وخبير يتحسس جوانب الضعف فيهم، ثم يعمل في رفق على إصلاح ذلك فيهم، وإثراء دوافع الخير فيهم، مع حسن رعاية واستثمار ما طبعوا عليه من البر، كل ذلك في إطار الرحمة التي أقرها الإسلام ، والرفق الذي دعا إليه المعلم المعصوم r .

عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: قال رسول الله r : "ليس منا من لم يرحم صغيرنا، ويعرف حق كبيرنا."[١]

فالغلظة مع الصغير يأباها الله تعالى، ورسوله r ، وتتنافى مع القيم الأصيلة. التي أقرها الإسلام كما وصفهم الله تعالى: (**مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ**) [٢]

والرحمة في التربية أولى وأحق، وتوافرها ضروري في كل مربٍّ أباً كان أو أماً أو معلماً، بل كل من يوكل إليه التربية .

٣- رواه مسلم (١٣٥٩/٣) .

١- رواه أحمد (١٨٥/٢).

٢- سورة الفتح الآية (٢٩) .

وإذا كان الرسول الكريم r قد وضع هذا المبدأ المعصوم، وواجبنا حسن التأسي به، فإنا مطالبون بالإحسان في كل شيء.

عن شداد بن أوس رضي الله عنه قال : قال رسول الله r : "إن الله كتب الإحسان على كل شيء"[1]

وليست هناك ساحة من ساحات العطاء أولى وأحق بالإحسان من التربية، لأنها بناء الإنسان، وتأهيله لأن عبد الله تعالى يحقق الغاية التي من أجلها خلقه الله تعالى، ولا يتحقق الإحسان إلا بالرفق .

عن عائشة رضي الله عنها عن النبي r قال :"إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه ، ولا ينزع من شيء إلا شانه"[2]

وإذا خلت التربية من الرفق فالمربي لا يصلح لهذه الرسالة، بل هو في أمس الحاجة إلى من يربيه وقد حدد القرآن الكريم معالم الدعوة الصحيحة السديدة، فقال جل شأنه: (**ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ**)[3]

فالتربية دعوة من أرقى مسالك الدعوة، وأعظمها أثراً، وأقدرها على موالاة الفطرة، وتأصيل القيم الفاضلة، حيث تكون التربية في مقتبل العمر، وسني الطفولة أفضل فترة لغراس تربوي ناجح.

يقول ابن مسكويه :

"إن نفس الصبي ساذجة لم تنقش بعد بصورة ولا لها رأي ولا عزيمة تميل بها إلى شيء فإذا نقش بصورة وقبلها نشأ عليها واعتادها"[4]

ويؤكد الغزالي هذه الفكرة ويوليها اهتماماً، فيقول :

١- رواه مسلم(١٥٤٨/٣) .

٢- رواه مسلم (٢٠٠٤/٤).

٣- سورة النحل الآية (١٢٥).

٤- ابن مسكويه، تهذيب الأخلاق، ص(٣٣٨)، مرجع سابق.

"اعلم أن الطريق في رياضة الصبيان من أهم الأمور وأوكدها، وقلبه (أي:الطفل) الطاهر جوهرة نفيسة ساذجة خالية عن كل نقش وصورة، وهو قابل لكل ما ينقش، ومائل إلى ما يمال به إليه ، فإن عود الخير وعلمه نشأ عليه، وإن عود الشر، وأهمل إهمال البهائم شقي وهلك، وكان الوزر في رقبة القيم عليه والموالي له "[1]

والتربية الناجحة سلاسة وليونة وصبر وحسن تكييف بما يحترم ذاتية الطفل ، ويتمشى مع طبعه واستعداده في كل مراحل نموه وتربيته فضلا عن الخبرة التي تعين المربي ، والحكمة التي تحكم مساره.

والرؤوف الرحيم r حين أولى الصغار اهتمامه، وخصهم برحمته فإنما يضع يدنا على من هم أولى بالرعاية، وأحق بالتربية لينشأوا على هدى ويشبوا على دين .

إن النسق العالي في التربية المنزه عن الهوى، المبرأ من القصور والتعصب، المحيط بخبايا البشر، الخبير بما يصلحهم مع سلامة المصدر وقداسته لا يجده المخلصون لقضية التربية إلا عند محمد r . عن أنس بن مالك رضي الله قال: "لما قدم رسول الله r المدينة، أخذ أبو طلحة بيدي، فانطلق بي إلى رسول الله r فقال: يا رسول الله إن أنساً غلام كيّس فليخدمك، قال : فخدمته في السفر والحضر، والله ما قال لي لشيء صنعته لم صنعت هذا هكذا ؟ ولا لشيء لم أصنعه لِم لَمْ تصنع هذا هكذا؟" [2]

وهنا ترى من أدبه التربوي الشريف عدم إعنات المربي بترك العتاب على ما فات، "وتنزيه اللسان عن الزجر والذم، واستئلاف المربَّي"[1]، أما

١- الإمام الغزالي، إحياء علوم الدين، جـ(٣)، ص(٦٩)، مرجع سابق.

٢- رواه مسلم (١٨٠٤/٤).

١- الإمام السفاريني، شرح ثلاثيات مسند الإمام أحمد، ج(١)، ص(٥٠٧)، بتصرف، المكتب الإسلامي للطباعة والنشر، ط(١)، دمشق – سوريا، سنة(١٣٨٠هـ).

٢- رواه مسلم (١٨٠٥/٤).

الأمور اللازمة شرعاً فلا يتسامح فيها، كما تعرفنا بما ينبغي أن يكون عليه المربي من خلق عظيم.

وإذا كان العتاب لابد منه، والتوجيه ضرورة فالطريقة التي ترعى كرامة من نربي، ولا تجرح مشاعره، خاصة إذا اختلط بغيره.

عن أنس رضي الله عنه قال: كان رسول الله r من أحسن الناس خلقاً، فأرسلني يوماً لحاجة، فقلت: والله لا أذهب، وفي نفسي أن أذهب لما أمرني به نبي الله r فخرجت حتى أمر على صبيان وهم يلعبون في السوق فإذا رسول الله r قد قبض بقفاي من ورائي، قال: فنظرت إليه وهو يضحك فقال:"يا أنيس أذهبت حيث أمرتك؟" قال:قلت: نعم أنا أذهب يا رسول الله"[٢]

إن عبارات التأنيب التي تضج منها غرف الدراسة، وأفنية المدارس، والتي أصبحت سمة لازمة لكثير من الآباء والأمهات لم تقم ما اعوج من سلوك، ولم تصلح ما شاع من تقصير، وإنما زادت من نربي عناداً وإصراراً، وأصبحت مهدرة القيمة، معدومة الفائدة.

والبشاشة التي غابت من وجوه المربين، وحل محلها عبوس مفرط جمدت مشاعر من نربي، وجعلت التربية في نظرهم إصراراً وعبئاً ثقيلاً .

إن التربية في حاجة إلى شخصية متوازنة تعرف لكل ظرف ما يناسبه من رحمة أو شدة، أو حلم أو غضب، أو ترغيب أو ترهيب، مع إجادتها التمييز بين الخليط الجالس أمامها من حيث الطباع والأمزجة والبيئات والتربوي المسلم مطلوب التوسط فيما يأخذ نفسه ومن يربي به من مبادئ وأساليب. وما يحكم به مساره من قرارات تقديراً للظروف، واجتيازاً لأيسر السبل، ولعل هذا يكون شيئاً يسيراً من المعطيات الكثيرة التي يعجز البحث عن إحصائها ، بل الإحاطة بأكثرها فالله

تعالى يقول: (**وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً**) [1]

والوسط عدل، واهتمام حكيم بجميع الأطراف، والمربي الذي يأخذ نفسه بالإسلام، ويحاول أن يقيم أمره عليه ينظر بنور الله، ويحكّم إسلامه في التعامل مع هذا المزيج مع تفاوت قدراتهم نفسياً وعقلياً وجسمياً واجتماعياً، وتفاوت استعداداتهم لمسايرة برنامجه التربوي مراعياً ما في الإنسان من ضعف عرفنا به خالقه جل وعلا في قوله تعالى: (**يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفاً**) [2]

وإذا كان الله تعالى قد عرض علينا بني الإنسان هذا العرض الذي لا ريب فيه فما على المشغولين بأمور الناس عامة، وعلماء التربية خاصة إلا أن يراعوا هذا فيما اختارهم الله تعالى له وكلفهم به، وجعلهم أمناء عليه، أضف إلى ذلك ما ركز في طبعه من عجل يقول جل شأنه: (**خُلِقَ الْأِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلا تَسْتَعْجِلُونِ**) [3]

فضلاً عما طبع عليه من هلع يقول تعالى: (**إِنَّ الْأِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً**) [1]

ومن نربي صورة للإنسان في مراحله الأولى، وما دمنا قد خبرناه، وعرفنا طبائعه، فلا أحد أحق بجبر كسره، وتهدئة روعه، وتقويم أمره من معلم حكيم فطن بصير بالنفوس عامة، ونفوس من يربي خاصة لا يجدون فيه غلو المتشددين وشطط المتعصبين، ولا تهاون المفرطين، وإضاعة ما ولوا، بل هم في رياضة حكيمة للشارد، وإرجاعٍ رحيمٍ للنافر، وإخراج للمنطوي من عزلته، ورفق بالضعيف.

١- سورة البقرة الآية (١٤٣).

٢- سورة النساء الآية (٢٨).

٣- سورة الأنبياء الآية (٣٧).

١- سورة المعارج الآية (١٩).

ولا أريد بالملاينة أن يكون المربي مع من يربيهم نسياً منسياً، لا يحاسب مسيئهم، ولا يسائل مهملهم ولا يغار على حرمة التربية، وإنما المرونة كما قالوا: لين في شدة، ورحم الله ابن القيم، وهو يحدثنا عن الرحمة فيقول: "إن الرحمة صفة تقتضي إيصال المنافع والمصالح إلى العبد، وإن كرهتها نفسه، وشقت عليها، فهذه هي الرحمة الحقيقية.

فأرحم الناس بك من شق عليك في إيصال مصالحك، ودفع المضار عنك، فمن رحمة الأب بولده: أن يكرهه على التأدب بالعلم والعمل، ويشق عليه في ذلك بالضرب وغيره، ويمنعه شهواته التي تعود بضرره، ومتى أهمل ذلك من ولده كان لقلة رحمته به، وإن ظن أنه يرحمه فهذه رحمة مقرونة بجهل".[٢]

أهمية المرونة:

المرونة تجمع بين المربي ومَنْ يربي في إطار الحب الصادق، والمودة الخالصة، فيأنسون به، ويأنس بهم، ويضعون بين يديه خواطرهم، ويؤثرونه بأسرارهم ويعودون إليه في مشكلاتهم، ويثقون في نصحه، ويألفون مشورته، ويترسمون خطاه ويقدمون رضاه، ويتأسون به، ويأخذون عنه، ويكثرون الحديث عن وقائعه ونصائحه، ويباهون بمعرفته والقرب منه بره السوي الصالح، ويهتدي به مَنْ ضل طريقه، أو تعثر خطاه.

٢- الإمام ابن القيم، إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان، تحقيق محمد حامد الفقي، جـ(٢)، ص(١٧٤)، دار المعرفة، بدون ط، بيروت - لبنان، بدون ت.

ابن القيم: هو الإمام محمد بن أبي بكر الزرعي الدمشقي، التلميذ النجيب للإمام ابن تيمية كان عالماً فاضلاً ذا عبادة وتهجد، لهج بالذكر، كان واسع الاطلاع، له مؤلفات عديدة منها زاد المعاد، وأعلام الموقعين، توفي سنة (٧٥١هـ).

عن أبي هريرة رضي اللّه عنه عن النبي r قال :"تجدون الناس معادن كمعادن الذهب والفضة، خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا."[1]

وإذا كان الناس معادن كمعادن الذهب والفضة فمن أعزهم وأعلاهم أولو المرونة في التربية على منهج اللّه تعالى، ولن يكون هؤلاء إلا من آتاهم اللّه الحكمة (**يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ**)[2]

وهم من أحسنوا التأسي برسول اللّه r فيما علمه ربه جلا وعلا: (**ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ**)[3]

وما التربية فيما رأيت وأشرت سابقاً إلا دعوة في أنضر مراحل العمر، وأشدها قبولاً لما يستقبل المربَّى من خير أو غيره.

والفظاظة والغلظة مفسدتان للدعوة، وهما للتربية أشد إفساداً، وكثيراً ما نرى الفرار من التعليم منشأه قسوة المعلم وغلظته.

والشواهد كثيرة تؤكد أن خيوط المودة تنسج في اللحظات الأولى من لقاء المربي مع مَنْ يربي ، وتظل محفورة في القلب مكنونة في الضمير ما بقيت الحياة.

والمرونة بداهة وفطنة، وليس كل مربٍّ كذلك، فبمقدار حظّة من هاتين الخلتين تكون مرونته، خاصة أن المواقف الطارئة عديدة، ومتنوعة في العمل التربوي، وقد تكون متصلة في بعض الأوقات وذلك لتباين الطباع والأمزجة والعقول والبيئات فيمن يربي.

١- رواه مسلم (١٩٥٨/٤).

٢- سورة البقرة الآية (٢٦٩) .

٣- سورة النحل الآية (١٢٥).

وليست المرونة سرعة تغيير القرار فقط ولكن لابد مع السرعة من اختيار أنسب القرارات وأحكمها مع من يتم التغيير من أجله، مع ملاءمة التغيير للظروف المحيطة .

وقد كان رسول الله r المثل الأعلى في هذا وغيره في العسر واليسر والمنشط والمكره لقد تأهب المسلمون لخوض معركة بدر وعسكروا في أدنى ماء من بدر، "فجاء الحبّاب بن المنذر إلى رسول الله r فقال: أرأيت هذا المنزل أمنزلاً أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟ قال:"بل هو الرأي والحرب والمكيدة " قال : يا رسول الله فإن هذا ليس بمنزل، امض بالناس حتى تأتي أدنى ماء من القوم فتعسكر فيه ، ثم نغور ما وراءه من الآبار، ثم نبني عليه حوضاً فنملأه ماءً، ثم نقاتل القوم، فنشرب ولا يشربون، فقال رسول الله r :"لقد أشرت بالرأي " ثم أمر بإنفاذه، فلم يجيء نصف الليل حتى تحولوا كما رأى الحباب ، وامتلكوا مواقع الماء".[1]

إن استبداد القادة وإغفالهم من حولهم من ذوي الرأي والمشورة يدمر جيوشاً ويوقع هزائم لم تكن في الحسبان، وكذلك تسلط الحكام وتحقيرهم لنبض الشعوب، واستخفافهم بهم أسرع بالخراب إلى ممالك وأتي على حضارات .

ولكن الرسول الأكرم r ليس هذا أو ذلك، ولكنه كما قال عنه ربه جل وعلا : (**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ**) [2]

والرحمة تتنافى مع القسوة والغلظة، وهو صاحب الخلق الكامل)**وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ**) [3]

١- الشيخ محمد الغزالي، فقه السيرة، ص(٢٣٦- ٢٣٧)، مرجع سابق.

٢- سورة الأنبياء الآية (١٠٧).

٣- سورة القلم الآية (٤) .

والخلق العظيم يتنافى مع الجفاء، ويتسع لصنوف البشر أياً كانوا، ويحتوي العناصر المتنافرة ليملأ بهم مواقع، ويقيم منهم وحدة، وصدق ربنا فيما قال عنه r : (**فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ**) [٤]

وإتاحة الفرصة لإبداء الرأي، وعرض وجهات النظر تتيح للجماعة حياة أفضل في ظل مناخ أطيب، وأكرم، وتثري عوامل النجاح، والترقي، وتلقي الأضواء على جوانب الضعف، وعوامل التخلف، فتحول الضعف قوة والتخلف رقياً وتقدماً، وما أحكم قول العلي الأعلى: (**وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ**)

والتربية أحوج ما تكون إلى ذلك لتخرج إلى الحياة رجالا ونساء أكفاء فيهم كياسة، وسداد رأي، وقدرة على مواجهة الأحداث مع رحابة صدر، وحسن استقبال لخبرات الآخرين ومشورتهم.

٤- سورة آل عمران الآية (١٥٩).

الفصل الرابع

الوضـــــــوح

ضرورة الوضوح في التربية:

"لكل أمة فلسفتها التي تميزها عن غيرها، والتي تحدد معالم هويتها، وتميز ذاتيتها وشخصيتها عمن سواها ، فإذا قيل فلسفة شيوعية فإنما تمثل نوعا من المجتمعات له مواصفاته المحددة، ومعتقداته وتصوراته، إزاء الخالق والمخلوقات والإنسان والحياة والمعرفة والقيم، وهكذا بالنسبة للمجتمع الرأسمالي البراجماتي، أو الرمانتيكي أو غيرهما، وقد تلتقي فلسفة أمة مع فلسفة أمة أخرى ، ولك نها لا تتطابق معها، بحيث تبقى كل منهما متميزة عن الأخرى ، وتلك سنة الله تعالى في خلقة **(وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ (١١٨) إِلاَّ مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ)** [1]

وفلسفة التربية تنبع من فلسفة المجتمع، لذلك تتمايز الفلسفات التربوية بالمفهوم ذاته، و يعتبر استيراد فلسفة تربوية من مجتمع ما إلى مجتمع آخر مناط فشل التربية المستوردة لفلسفتها لأنها لا تتوافق مع معتقدات ورؤى وتطلعات شعبها، هذا ما حدث لدى نقل فلسفة التربية الفرنسية العلمانية الرومانتيكية إلى الجزائر، كذلك في أخذنا بفلسفات غربية في التربية، لا صلة بمجتمعاتنا العربية الإسلامية ، ولا توافق بيننا وبينها.

هذا الأمر يدعو إلى الحرص على أن تكون فلسفة التربية الإسلامية، حاملة للفكر الإسلامي الذي لا يتطابق مع الأفكار الأخرى وإن تلاقى مع بعضها في بعض النقاط، ولا يمنع ذلك من الاقتباس عن الفلسفات الأخرى والاستفادة منها، فالتبادل الثقافي والمعرفي والفكري شيء، والتبعية والانصياع والتقليد، والوقوع في شراك الهيمنة الخارجية شيء

١- سورة هود الآيتان (١١٨- ١١٩)

آخر. والإسلام لا يحجر على الفكر، ولا يقيد الرأي ما دام لا يتعارض معه النص الديني المطلق.

فإذا أخذنا الأهداف الكبرى أو الغايات العليا، أو المثل الأعلى، الذي تسعى التربية لتحقيقه، حيث تعتبر أساس تمييز فلسفة عن أخرى نجدها تنقسم إلى ثلاث مجموعات كبرى هي:

المستوى الأمثل: ويتبنى الارتقاء بالجنس البشري ككل، بكل متطلبات الارتقاء، ولكل بني البشر دون تمييز في حياتهم الدنيا، وإعدادهم للعبور إلى الحياة الأخرى بثقة وأمان، حتى يكونوا مؤهلين للخلافة، قادرين على النهوض بأعبائها، والوصول إلى الغاية التي خلقوا من أجلها

﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْأِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [1]

المستوى الأوسط : يتبنى المحافظة على بقاء الجنس البشري، وإشباع جميع حاجات الفرد وضبط أسس التعاون والتعامل، وتنظيم العلاقات في الحياة الدنيا فقط.

المستوى الهابط: يتبنى إشباع حاجات الجسد فقط دونما اهتمام بالقيم الأخلاقية والسلوك ووسائل الإشباع، وحصر المعنويات في هذا الإطار.

ومن الواضح أن المستوى الأول يحتوي على ذاته وعلى أفضل ما في المستويين الثاني والثالث، والمستوى الثاني يحتوي على ذاته وأفضل ما في الثالث، أما الثالث فيحتوي على ذاته فقط.

ومن الواضح أيضاً أن فلسفة التربية الإسلامية تتبنى المستوى الأول، وتتواءم معه، وتراه الطريق الأمثل لبناء الشخصية المسلمة. والفلسفات المادية الرأسمالية تتبنى الثاني، أما الفلسفات المادية العلمانية كالشيوعية تتبنى المستوى الثالث، وإن كانت بعض فلسفات المستوى الثاني قد أخذت تهبط إلى المستوى الثالث.

١- سورة الذاريات الآية (٥٦).

وفلسفة التربية لا تكتفي بتحديد مستوى مثلها الأعلى، وإنما تحدد محتواه على كل المستويات والعمل على ترجمة المحتوى إلى تطبيق على أرض الواقع، وتهيئة المواقف اللازمة لكل ذلك بما يتناسب ومعطيات الزمان والمكان. وهذا هو المأمول من التربية الإسلامية مثل أعلى صائب، وتطبيق صائب.

ولما كانت التربية تهم كل مواطن، وما كل مواطن بمستطيع أن يستوعب مدلولات الفكر الفلسفي، فإن فلسفة التربية الإسلامية، لا بد وأن تتميز بالوضوح، سواء في فروضها ومسلماتها، أو اتجاهاتها ومساراتها، وتحمل معاني مفهومة بدون لبس أو غموض، وبدون تسطيح للمفاهيم، فالعمق لا يتنافى مع الوضوح ودقة التعبير.

فإذا قلنا: إن مرامي فلسفة التربية فيما يتعلق بالفرد تتلاقى عند تنشئة الإنسان المسلم الصالح فإن مفهوم الصلاح يجب أن يكون واضحاً من منظور إسلامي، والذي يحدده بشكل مبدئي الاعتقاد الصالح والعمل الصالح والسلوك الصالح والإرادة الصالحة، والقدرات الصالحة بكل مستوياتها لتصبح الفلسفة ممكنة الاستيعاب من القائمين عليها والمتعاملين معها.

ولما كان الأصل في الأفكار أنها توضع للتطبيق، وليس لإبقائها محلقة في عالم الخيال فإن الأمر يقتضي أن تكون الفرضيات والمسلمات في فلسفة التربية الإسلامية، حاملة في طياتها سبل التطبيق والترجمة إلى وقائع، والتحول إلى سلوك"[1].

وقد كانت التربية الإسلامية مثلاً أعلى في التمييز والوضوح فلا يتسرب إليها إبهام ولا علم بها غموض، فالوضوح في العقيدة وسلامتها وانطلاقها

١- سورة الإخلاص الآيات (١- ٤).

٢- د. أحمد رجب الأسمر، فلسفة التربية الإسلامية، ص (٨٣- ٨٤)، بتصرف، مرجع سابق.

على هذين المبدأين منذ فجر الإسلام إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها من المسلمات التي لا يدركها ريب، ولا يدخلها لبس، فعقيدة التوحيد سمة من سمات هذه الأمة، ومعلم من معالم خير أمة، منزه عن كل زيف وزيغ مبرأة من الهوى تحملها سورة من قصار السور، لا تتجاوز أربع آيات وهي جامعة مانعة شاملة كاملة شافية كافية ترسي عقيدة تميزت بها هذه الأمة وبقيت فيها، وستظل بإرادة الله تعالى وحفظه إلى يوم الدين. (**قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ** (١) **اللَّهُ الصَّمَدُ** (٢) **لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ** (٣) **وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ** (٤) [١]

هذه السورة الصغيرة تعدل ثلث القرآن كما جاء في الروايات الصحيحة، عن أبي سعد، أن رجلاً سمع رجلاً يقرأ:(**قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ**)يرددها، فلما أصبح جاء إلى النبي (ﷺ) فذكر ذلك له وكأن الرجل يتقالها قال النبي (ﷺ)"والذي نفسي بيده، إنها لتعدل ثلث القرآن".[٢]

وليس في هذا من غرابة، فإن الأحدية التي أمر رسول الله (ﷺ) أن يعلنها: :(**قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ**) هذه الأحدية عقيدة للضمير، وتفسير للوجود، ومنهج للحياة.. وقد تضمنت السورة كذلك أعرض الخطوط الرئيسة في حقيقة الإسلام الكبيرة..

:(**قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ**). وهو لفظ أدق من لفظ "واحد".. لأنه يضيف إلى معنى "واحد" أن لا شيء غيره معه، وأن ليس كمثله شيء.

إنها أحدية الوجود.. فليس هناك حقيقة إلا حقيقته. وليس هناك وجود حقيقي إلا وجوده. وكل موجود آخر فإنما يستمد وجوده من ذلك الوجود الحقيقي، ويستمد حقيقته من تلك الحقيقة الذاتية.

وهي من ثم أحدية الفاعلية. فليس سواه فاعلاً لشيء أو فاعلاً في شيء، في هذا الوجود أصلاً.

وهذه العقيدة في الضمير وتفسير للوجود أيضاً.

فإذا استقر التفسير، ووضح هذا التصور، خلص القلب من كل غاشية ومن كل شائبة، ومن كل تعلق بغير هذه الذات الواحدة المتفردة بحقيقة الوجود وحقيقة الفاعلية.

خلص من التعلق بشيء من أشياء هذا الوجود إن لم يخلص من الشعور بوجود شيء من الأشياء أصلاً! فلا حقيقة لوجود إلا ذلك الوجود الإلهي. ولا حقيقة لفاعلية إلا فاعلية الإرادة الإلهية. فعلام يتعلق القلب بما لا حقيقة لوجوده ولا حقيقة لفاعليته ؟

وحين يخلص القلب من الشعور بغير الحقيقة الواحدة، ومن التعلق بغير هذه الحقيقة..فعندئذ يتحرر من جميع القيود، وينطلق من كل الأوهاق، يتحرر من الرغبة وهي أصل قيود كثيرة وفيم يرغب وهو لا يفقد شيئاً متى وجد الله؟ ومن ذا يرهب ولا وجود لفاعلية إلا من الله؟

ومتى استقر هذا التصور الذي لا يرى في الوجود إلا حقيقة الله، فستصحبه رؤية هذه الحقيقة في كل وجود آخر انبثق عنها وهذه درجة يرى فيها القلب يد الله في كل شيء يراه. ووراءها الدرجة التي لا يرى فيها شيئاً في الكون إلا الله. لأنه لاحقيقة هناك يراها إلا حقيقة الله.

كذلك سيصحبه نفي فاعلية الأسباب. ورد كل شيء وكل حدث وكل حركة إلى السبب الأول الذي منه صدرت، وبه تأثرت.. وهذه هي الحقيقة التي عني القرآن عناية كبيرة بتقريرها في التصور الإيماني. ومن ثم كان ينحي الأسباب الظاهرة دائماً ويصل الأمور مباشرة بمشيئة الله) **وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى**)[1] (**وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ**)[2])**وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً**)[3]

١- سورة الأنفال الآية (١٧) .

٢- سورة آل عمران الآية (١٢٦).

٣- سورة الإنسان الآية (٣٠)

وبتنحية الأسباب الظاهرة كلها، ورد الأمر إلى مشيئة الله وحدها، تتسكب في القلب الطمأنينة، ويعرف المتجه الوحيد الذي يطلب عنده ما يرغب، ويتقي عنده ما يرهب، ولا يعبأ بالفواعل والمؤثرات والأسباب الظاهرة التي لا حقيقة لها ولا وجود!

من هنا ينبثق منهج كامل للحياة قائم على ذلك التفسير وما يشبعه في النفس من تصورات ومشاعر واتجاهات:

على أن الذي تمتاز به صورة التوحيد في العقيدة الإسلامية هو تعمقها للحياة كلها في وضوح تام، وبيان كامل، وقيام الحياة على أسسها، واتخاذها قاعدة للمنهج العملي الواقعي في الحياة، تبدو آثاره في التشريع كما تبدو في الاعتقاد سواء، وأول هذه الآثار أن تكون شريعة الله وحدها هي التي تحكم الحياة، فإذا تخلفت هذه الآثار فإن عقيدة التوحيد لا تكون قائمة، فإنها لا تقوم إلا ومعها آثارها محققة في كل ركن من أركان الحياة.[1]

وهكذا تبدو العقيدة السهلة السمحة التي يتلقاها الصغير فيستشعر تلاؤمها مع فطرته، وانسجامها مع ما ركز في ضميره، واستقر في وجدانه من معرفة بالله تعالى، ويقين بوحدانيته، وتجاوب مع عبادته، فيشب عليها معبراً عن محتواها سلوكه، وتوجهاته وأفعاله، ويحيا لها ، ويضحي في سبيلها، راجيا أن يموت عليها، ويبعث عليها.

فشتان بين هذا الصنف وبين من حكى عنهم القرآن من أعداء الرسل عليهم الصلاة والسلام ... **(وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً (٨٨) لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدّاً (٨٩) تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدّاً (٩٠) أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَداً (٩١) وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَداً (٩٢) إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ**

١- سيد قطب، في ظلال القرآن، المجلد ٦، جـ(٣٠)، ص(٤٠٠٢- ٤٠٠٣)، بتصرف، مرجع سابق.

وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْداً (٩٣) لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدّاً (٩٤) وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْداً (٩٥)[٢]

إنها التربية التي قامت عليها، وستظل بها –إن شاء الله تعالى – هذه الأمة فكانت عصمتها من الضلال والضياع، والكفر والبوار الذي تردت فيه البشرية عامة حين وهن اتصالها بالله، واستعبدها هواها، واستحوذ عليها شياطين الإنس والجن فغابت عن الحق، وغاب الحق عنها، ثم أهل الكتاب خاصة اليهود والنصارى ويكفينا أن نقف على يسير من آيات الله تعالى فيهم، لنرى عظمة هذه الأمة بما أراد الله تعالى لها ومنها، وما أثبت فيها، وحفظه لها، ويبعثها عليه. يقول ربنا جل وعلا: **(وَقَالَتْ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتْ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمْ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ (٣٠) اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا إِلَهاً وَاحِداً لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٣١)**[١]

ويفضح أمر هؤلاء الضالين في موقع آخر فيقول جل شأنه: **(لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ (٧٢) لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٣) أَفَلا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٧٤) مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ**

٢- سورة مريم الآيات (٨٨- ٩٥).

١- سورة التوبة الآيتان (٣٠- ٣١) .

٢- سورة المائدة الآيات (٧٢- ٧٥).

الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلانِ الطَّعَامَانظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمْ الآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ (٧٥) [٢]

أين هذا من نقاء المسلمين، وخالص توحيدهم، وتنزيههم الله العلي الأعلى (**فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجاً يَذْرَأُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ**) [١]

وإذا كان مدخل الإسلام، والركن الأول من أركانه شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله فها هي آفاق النبوة، وصفوتهم وخاتمهم (**ﷺ**)، وهي على كل حال آفاق بشرية، لم يطلب الرسل عليهم الصلاة والسلام عامة غيرها، ومحمد صلى الله عليه وسلم خاصة لم يتطلع إلى سواها، ولننظر إلى ذلك الحوار المعصوم الذي يكشف عن وضوح العقيدة وسلامتها، والتي بعثه الله تعالى بها بيضاء نقية، ثم انصراف الأمم عنها واعتصام الأمة الخاتمة بها: **وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ (١١٦) مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (١١٧) إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١١٨)** [٢]

أما محمد صلى الله عليه وسلم وأمته فهم على الحق قائمون، يشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله يتعبدون بها في صلاتهم وأذكارهم، ويرددها مؤذنوهم خمس مرات كل يوم وفي مقام التشريف والتكريم يقول جلا جلاله عن حبيبه ومصطفاه: (**سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ**

١- سورة الشورى الآية (١١) .

٢- سورة المائدة الآيات (١١٦- ١١٨).

الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ) [١]

ويقول جل شأنه: (**الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجَا**) [٢]

(**تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً**) [٣]

(**هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ**) [٤]

(**فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى**) [٥]

(**أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ**) [٦]

ويعتز (r) بما شرفه الله تعالى به من عبوديته له، ويرفض التجاوز، ويأبى المبالغة، فاختيار الله تعالى هو الأكمل والأشرف والأعظم، فيقول فيما روى ابن عباس رضي الله عنهما، عن عمر رضي الله عنه قال:قال رسول الله r : "لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، إنما أنا عبد، فقولوا عبد الله ورسوله"[١]

١- سورة الإسراء الآية (١) .
٢- سورة الكهف الآية (١).
٣- سورة الفرقان الآية (١).
٤- سورة الحديد الآية (٩).
٥- سورة النجم الآية (١٠).
٦- سورة الزمر الآية (٣٦).
١- البخاري(٢٤٣/١٠ فتح) ومسلم (٥٥٧/١).
٢- البغوي، شرح السنة (٢٤٦/١٣)، مرجع سابق.
٣- نفس المرجع السابق، (٢٤٨/١٣) .

"والإطراء : مجاوزة الحد في المدح والكذب فيه؛ وذلك أن النصارى أفرطوا في مدح عيسى وإطرائه بالباطل، وجعلوه ولداً، فمنعهم النبي (ﷺ) من أن يطروه بالباطل".[٢]

عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله (ﷺ): "يا عائشة لو شئتُ لسارت معي جبال الذهب، جاءني ملك إن حجزته لتساوي الكعبة، فقال : إن ربك يقرأ عليك السلام،ويقول : إن شئت نبياً عبداً ، وإن شئت نبياً ملِكاً ، فنظرت إلى جبريل عليه السلام، فأشار إلى أن ضع نفسك، فقلت: " نبياً عبداً"، قالت : فكان رسول الله (ﷺ) بعد ذلك لا يأكل متكئاً، يقول:"آكل كما يأكل العبد ، وأجلس كما يجلس العبد".[٣]

ويبلغ الرسول (ﷺ) بشريته في بلاغة رسالة ربه جل وعلا فيقول الله تعالى: (**قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً**) [٤]

(**قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ**)بشر يتلقى من ذلك الأفق الأسمى. بشر يستمد من ذلك المعين الذي لا ينضب. بشر لا يتجاوز الهدى الذي يتلقاه من مولاه. بشر يتعلم فَيعْلَمْ فيُعلِّم.. فمن كان يتطلع إلى القرب من ذلك الجوار الأسنى، فلينتفع بما يتعلم من الرسول الذي يتلقى، وليأخذ بالوسيلة التي لا وسيلة سواها:(**فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً**)هذا هو جواز المرور إلى ذلك اللقاء الأثير."[١]

وبقي هذا مركوزاً في ضمير الأمة، وسيبقى إن شاء الله تعالى إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، مع توقير هذه الأمة لرسولها صلى الله عليه

٤- سورة الكهف الآية (١١٠).

١- سيد قطب، في ظلال القرآن ، المجلد (٤)، جـ(١٥)، ص(٢٢٩٧)، مرجع سابق.

٢- سورة الفرقان الآية (٢٠).

٣- سورة الرعد الآية (٣٨).

وسلم، وتعزيزها له، وحسن تأسيها به، فضلاً عن إيمانها بجميع الرسل والأنبياء ويقينها ببشريتهم قال تعالى : (**وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ**) [٢]

ويقول جل شأنه : (**وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجاً**) [٣]

وهكذا تبدأ التربية وبناء شخصية المسلم بعقيدة ثابتة قوية، صحيحة واضحة رضيها الله له، ورضيه لها فضلاً من الله ورحمة.

شرائع الإسلام تربية تثمر تربية :

إن مائدة الإسلام التي التقى عليها السابقون الأولون، فأرست دعائم الأمة، وأقامت معالمها، وأدتها لحمل الرسالة نوراً وهدىً للناس وشفاءً وموعظة للقلوب تربية لا غموض فيها، ولا لبس يعتريها، ولا ريب في صلاحها لكل زمان ومكان، وتوافقها مع جميع البيئات وانسجامها مع كافة العصور تدعم الحضارة الطيبة الصادقة وتستبدل بالتخلف والتأخر نهضة وازدهاراً، انه دين الله تعالى للبشرية كافة بملامحه الكاشفة الواضحة، وسماته الراقية المتميزة، يقول جل شأنه:(**ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ (٢) الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (٣) وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (٤) أُوْلَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٥)** [١]

إنها التربية التي صنعت هذه الأمة فميزتها، وسمت بها فأطلقتها من ضيق المادة وظلمتها إلى رحابة الروح ونورانيتها.

إنها التربية التي وثقت بالله صلتهم، فاستقام ظاهرهم وباطنهم، واستوى حالهم ومقالهم، فقد صلحت منهم القلوب، وخلصت النيات فكانوا بخير وعلى خير.

١- سورة البقرة الآيات (٢- ٥).

"إن السمة الأولى للمتقين هي الوحدة الشعورية الإيجابية الفعالة، الوحدة التي تجمع في نفوسهم بين الإيمان بالغيب، والقيام بالفرائض والإيمان بالرسل كافة، واليقين بعد ذلك بالآخرة.. هذا التكامل الذي تمتاز به العقيدة الإسلامية، وتمتاز به النفس المؤمنة بهذه العقيدة، والجدير بأن تكون عليه العقيدة الأخيرة التي جاءت ليلتقي عليها الناس جميعاً، ولتهيمن على البشرية جميعاً، وليعيش الناس في ظلالها بمشاعرهم وبمنهج حياتهم حياة متكاملة، شاملة للشعور والعمل، والإيمان والنظام."[٢]

وأين يجد الإنسان تلك التربية إذا لم يطلبها في رحاب الحق، في رحاب تلك الشريعة التي لا صلاح للإنسانية إلا بها. (**هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً**) [٣]

"والإيمان بالغيب هو العتبة التي يجتازها الإنسان، فيتجاوز مرتبة الحيوان الذي لا يدرك إلا ما تدركه حواسه، إلى مرتبة الإنسان الذي يدرك أن الوجود أكبر وأشمل من ذلك الحيز الصغير المحدد الذي تدركه الحواس أو الأجهزة التي هي امتداد للحواس وهي نقلة بعيدة الأثر في تصور الإنسان لحقيقة الوجود كله ولحقيقة وجوده الذاتي، ولحقيقة القوى المنطلقة في كيان هذا الوجود، وفي إحساسه بالكون وما وراء الكون من قدرة وتدبير. كما أنها بعيدة الأثر في حياته على الأرض، فليس مَنْ يعيش في الحيز الصغير الذي تدركه حواسه كمن يعيش في الكون الكبير الذي تدركه بديهته وبصيرته، ويتلقى أصداءه وإيحاءاته في أطوائه وأعماقه، ويشعر أن مداه أوسع في الزمان والمكان من كل ما يدركه وعيه في عمره القصير المحدود، وأن وراء الكون ظاهره وخافيه، حقيقة أكبر من الكون، هي التي صدر عنها، واستمد من وجودها وجوده ... حقيقة الذات الإلهية التي لا تدركها الأبصار ولا تحيط بها العقول"[١]

٢- سيد قطب، في ظلال القرآن، جـ(١) ص(٣٩)، مرجع سابق.

١- سيد قطب، في ظلال القرآن، المجلد (١)، جـ(١)، ص(٣٩- ٤٠)، مرجع سابق.

تلك الذات التي عرفها بفطرته، وأشرقت عليه نوراً، واستقرت هدىً في وجدانه حين تلقاها أذاناً وإقامة لأيام من ولادته، إنه بها تحرر من كل عبودية، وبقي عبداً لله رب العالمين، عزيزاً بها، كريماً بآثارها، فهو يتجه بالعبادة لله وحدة، ويرتفع بها عن عبادة من وما سوى الله تعالى، له وحده يخضع، وبين يديه يسجد ويركع، ويكبره ويحمده، ويسبحه ويذكره، "يستشعر أنه موصول السبب بواجب الوجود، ويجد لحياته غاية أعلى من أن تستغرق في الأرض وحاجات الأرض، ويحس أنه أقوى من المخاليق لأنه موصول بخالق المخاليق... وهذا كله مصدر قوة الضمير، كما أنه مصدر تحرُّج وتَقْوى، وعامل هام من عوامل تربية الشخصية وجعلها ربانية التصور، ربانية الشعور، ربانية السلوك".[1]

هو يقيم الصلاة، وهي الصلة المباشرة بين الإنسان الفاني، وربه الباقي بعد فناء كل شيء، إنها التحرر من الواقع الأرضي الضئيل المحدود إلى الواقع الكوني الكبير، إنها الروح والرحبان والظلال في هاجرة الحياة.

إنها صلاة تسبق إليها الروح، ويتعلق بها القلب، وتطمئن بأدائها النفس، وتتجلى آثارها فيه واقعاً ملموساً، وعطاءً طيباً مباركاً.

المال في يده نعمة استخلف فيها، ودُعي إلى البذل منها، ففاضت بها نفسه راضية مطمئنة، مستعلية على هواها، راغبة في رضى الرزاق ذي القوة المتين، فوجوده في ابتداء نعمة تشكر، ولا يكون شكرها بأقوال وأذكار فحسب، بل ببر يغمر ما حوله ومن حوله، فالإنسانية رباط وثيق، والبشرية عروة ينبغي ألا تفصم، وإلا فأين هو من ذلك النداء القدسي: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا**﴾[2]؟!

١- نفس المرجع السابق، مجلد (١)، جـ (١)، ص(٤٠)، مرجع سابق.

٢- سورة الحجرات الآية (١٣).

فالتعارف والتآلف هو الأصل، أما التعادي والتنافر فلا إنسانية ولا بشرية، وإنما هو انحدار وانحطاط، ووحشية، والرزق جماع نعم الله على الإنسان، فالقوة التي تعين بها الضعيف، والبصر الذي تبصر به لضعيف البصر، أو قل الحواس كلها رزق وامتداد وأثرها إلى عباد الله تعالى بالنفع والإفادة شكر لهذا الرزق، وحسن استخدام له، كذلك يأتي العلم، والجاه، والمال، ومن خلال التربية يتحول الإنسان إلى طاقة من البر، ونبع من الإحساس يغمر ما حوله، يجبر الكسر ويكمل النقص، ويقوي الضعف، ولا يتاح للإنسان أن يتعلم هذا إلا من تربية واضحة المعالم وقد اعتبر هذا كله، وأمثاله من كريم الخلال، إنفاقاً تؤجر عليه وصدقة تجازى بها.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله (r):"كل سلامى من الناس عليه صدقة، كل يوم تطلع فيه الشمس، تعدل بين اثنين صدقة وتعين الرجل في دابته فتحمله عليها أو ترفع له عليها متاعه صدقة، والكلمة الطيبة صدقة، وبكل خطوة تمشيها إلى الصلاة صدقة، وتميط الأذى عن الطريق صدقة"[1]

وقد وسع النبي (r) في دلالة كلمة الصدقة التي ينبغي أن يبذلها المسلم فقال: "تبسمك في وجه أخيك صدقة، وأمرك بالمعروف ونهيك عن المنكر صدقة، وإرشادك الرجل في أرض الضلال لك صدقة، وإماطتك الأذى والشوك والعظم عن الطريق لك صدقة، وإفراغك من دلوك في دلو أخيك لك صدقة، وبصرك للرجل الرديء البصر لك صدقة"[2]

فإذا دعا الداعي إلى إنفاق مال، وأنت ذو مال تنفق في غير منٍّ ولا أذىً، منكراً ذاتك ذاكراً مَنْ منحك، وحبب إليك السخاء زكاة مفروضة،

١- محمد ناصر الألباني، صحيح الجامع الصغير وزيادته، إشراف زهير الشاويش، جـ(٢)، ص(٨٣٣)، مرجع سابق.

٢- رواه الترمذي (٤/٣٤٠).

أو صدقة تبتغي وجه الله الذي آتاك.)**إِنْ تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ**([٣]وقوله تعالى: (**وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ**)[٤]

إن الشرائع في الإسلام واضحة سهلة ميسورة في دوافعها، وأدائها، وغاياتها، يلتقي عليها المسلمون، فيكون اللقاء تفاعلاً، ثماره تربية قويمة نادرة لا توجد إلا في رحاب ذلك الدين، تربية يخطط لها الإيمان لتجمع بين الدنيا والآخرة، ويُرى فيها الإنسان من خلال جماعته، وترى جماعتُه من خلال تفاعلاته واتجاهاته.

وضوح المبادئ:

لم يضع البشر منهجاً إلا وللبشر فيه مداخلات ، ولهم مآخذ وانتقادات، وما صنعت مبادئ أمة إلا وأسرع إليها الضعف، والتآكل، وأزالتها الأيام لتثبت غيرها، وهوَّنت من شأنها، لتعلوا بسواها، وما اتخذ منهج في التربية إلا وصارعت نقائصه مزاياه،وبذلت جهود لإنقاذه ،أو إحلال غيره مكانه.

أما ما شرع الإسلام فهو باقٍ لا يبلى، صالح لا يفسد، قائم لا يذهب به تباين البيئات أو اختلاف العصور.

وتلك تربية الإسلام في أخص الخصائص في علاقة الناس بعضهم ببعض، إن ما اعتبره الإنسان عيباً في غيره، ومنقصة تبيح له استعباده جعله الله تعالى ميزة وآية من آياته.

قال تعالى: (**وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ**) [١]

وربى الإسلام المسلمين على ذلك، وقامت الأخوة مع اختلاف الألوان، وتمايز الأجناس واللغات "كلكم لآدم وآدم خلق من تراب"[٢]

١- سورة الروم الاية (٢٢) .

٢- محمد ناصر الدين الألباني، صحيح الجامع، الصغير وزيادته، جـ(٢)، ص(٨٣٨)، مرجع سابق.

وقال جل شأنه: (**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ**) [1]

لقد أدام الله تعالى أمر هذه الأمة على أن يستمد الناس في الأرض قيمهم وموازينهم من اعتبارات سماوية إلهية بحتة، آتية لهم من السماء، غير مقيَّدة بملابسات أرضهم، ولا بمواصفات حياتهم، وهو أمر عظيم جداً، كما أنه أمر عسير جداً، عسير يعيش الناس في الأرض بقيم وموازين آتية من السماء مطلقة من اعتبارات الأرض متحررة من ضغط هذه الاعتبارات.

ندرك عظمة هذا الأمر وعسره حين ندرك ضخامة الواقع البشري، وثقله على المشاعر وضغطه على النفوس، وصعوبة التخلي عن الملابسات والضغوط الناشئة من الحياة الواقعية للناس، المنبثقة من أحوال معاشهم، وارتباطات حياتهم، وموروثات بيئتهم، ورواسب تاريخهم، وسائر الظروف الأخرى التي تشدهم إلى الأرض شداً، وتزيد من ضغط موازينها وقيمها وتصوراتها على النفوس.

إن الميزان الذي أنزله الله تعالى مع الرسل، ليقوموا به القيم كلها، هو(**إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ**)هذه هي القيمة الوحيدة التي يرجح بها وزن الناس أو يثقل وهي قيمة سماوية بحتة، لا علاقة لها بمواصفات الأرض وملابساتها إطلاقاً.

ولكن الناس يعيشون في الأرض، ويرتبطون فيما بينهم بارتباطات شتى؛ كلها ذات وزن وذات ثقل وذات جاذبية في حياتهم. وهم يتعاملون بقيم أخرى.. فيها النسب وفيها القوة، وفيها المال. وفيها ما ينشأ عن توزيع هذه القيم من ارتباطات عملية.. اقتصادية وغير اقتصادية .. تتفاوت فيها أوضاع

١- سورة الحجرات الآية (١٣).

الناس بعضهم بالنسبة لبعض. فيصبح بعضهم أرجح من بعض في موازين الأرض.

"ثم يجيء الإسلام ليقول: (**إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ**) [1] فيضرب صفحاً عن كل تلك القيم الثقيلة الوزن في حياة الناس، الضعيفة على مشاعرهم، الشديدة الجاذبية إلى الأرض ويبدل من هذا كله تلك القيمة الجديدة المستمدة مباشرة من السماء، المعترف بها وحدها في ميزان السماء"[2]

إنها موازين مقنعة واضحة قريبة إلى كل روح أشربت الإيمان، وتوثقت صلتها بالله، وإن كانت ثقيلة فيما يرى قصار النظر، معتمو البصيرة. لقد عانى المجتمع الإنساني ولا زال يعاني من التفرقة، ولكن الإسلام حين ربى أتباعه ركز فيهم عن رضىً واقتناع ويقين صادق أن ميزان الله هو الحق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وأحاطت برسول الله صلى الله عليه وسلم في حياته، ثم بشريعته فيما بعد أجناس تنوعت، وألوان تعددت، ولغات تباينت يظلهم الحب ويوحدهم الود، ويجمعهم الإخاء الذي يفوق كل إخاء.

١- سورة الحجرات الآية (١٣).

٢- سيد قطب، في ظلال القرآن، المجلد(٣٠)، جـ(٦)، ص (٣٨٢٣ - ٣٨٢٤) بتصرف يسير، مرجع سابق.

خلاصة القول:

بعد مدارسة أقوال علماء اللغة، والمفسرين والمحدثين، وإيراد آراء عديدة في الفطرة آثرت أن تكون الفطرة الإسلام لتظاهر أقوال السلف على ذلك حتى كاد يكون شبه إجماع، والفطرة هي العقيدة السليمة التي برأ الله الخلق عليها، وأخذ عليهم العهد بها، والفطرة حق يرتضيه القلب، وتقربه النفس، إذا سلم صاحبها من الهوى، وخلا من الضغوط، وقد تتحول البيئة بما فيها ومن فيها إلى معوق للفطرة، ومشوه لها، كما أن لصداقة السوء، وجرأة الإعلام على الحق، وتجاوزه اللامحدود ادعاء للرقي، وفساد التربية وبعدها عن جوهر الدين، وإن اتخذته شعاراً، وتحول المجتمعات عن الدين انخداعاً ببريق الباطل، وادعاء الحضارة الزائفة، ومباهاة بتحرر أوقع المجتمعات في استعباد الهوى، واستبداد النزوات والشهوات.

والعلم ضرورة في الإسلام، والخلافة لا تقوم إلا بها، ولذا علم ربنا آدم، وهو مظهر من مظاهر تكريم الله للإنسان، ووسيلته لعمارة الأرض، والإفادة مما سخر الله تعالى له، ووسيلته إلى معرفة لله صادقة، وكل تحول عن ذلك جهل وخسران، وحدثت بذلك شواهد القرآن الكريم وقصصه، وهو علم معصوم المصادر، منزه الأصول والفروع، وكل ما خالف فهو جهل وغباء، وما سبق الإيمان إلا بالعلم، وما حاج الرسل عليهم الصلاة والسلام إلا بما علمهم الله تعالى، وأعظم مثل لذلك أبو الأنبياء إبراهيم عليه السلام، وإذا كان العلم نوراً، فنور الإيمان لا يقل، وهداه لا يغيب، وحجته باقية، وصرح الباطل لا يلبث أن يتحول إلى هشيم تذروه الرياح.

والمرونة بما فيها من استمرارية، ولين، وصلابة أيضاً ضرورية للتربية، لتباين من نربي روحياً ونفسياً وفكرياً وخلقياً، بل هي سمة الرجل الصالح مع أهله، وقد ظهرت تلك المرونة جلية واضحة في مواقف كثيرة من شرع أوردنا طرفاً منها، كما أن يسر الإسلام أصدق دليل على تلك المرونة

المنشودة، وأعظم موجه إلى الأخذ بها،وقد زكاها الوحي بالحديث عن رسول الله ومصطفاه (r)، وجعلها (r) من سمات هذه الأمة، ومنها أخذ الأقدمون خلو التربية من العنف، وذلك دأب رسول الله (r) في ريادة الأمة، وما المرونة إلا تصرف حكيم يغرس في قلب المربى حب من يربيه وهيبته.

وإذا كانت فلسفة التربية تنبع من فلسفة المجتمع فوضوح الإسلام في عقيدته وشرائعه، وبناء مجتمعه على ذلك أورث التربية الإسلامية وضوحاً، وارتقاءً بالمربى إلى أسمى الغايات، وشرائع الإسلام في جلائها، وسلامتها من الغموض تربية تثمر استقامة على الحق، وبراءة من الباطل، وسلامة المنهج الإلهي من كل شطط، مع تكامله، وتوازنه، وسلاسة في غير إفراط أو تفريط أبرأ نفوس أتباعه من التعقيد، وحماهم من الغلظة، ومن هنا كان على التربية الإسلامية أن تشق إلى قلوب المربين وعقولهم طريقاً لا جمود فيه، ولا غلظة، ولا إبهام أو تعقيد.

الباب الخامس:

مؤسسات التربية في ضوء القرآن الكريم

- **الفصل الأول:** دور البيت .
- **الفصل الثاني** : دور المسجد.
- **الفصل الثالث:** دور المدرسة.
- **الفصل الرابع:** دور المكتبات.
- **الفصل الخامس:** دور المجتمع.
- **الفصل السادس:** دور وسائل الإعلام.

الفصل الأول:

دور البيت

البيت كمؤسسة تربوية أولى:

الأسرة هي البيئة التربوية الأولى في المجتمع، والتي تتضح فيها سماته، وتعرف توجهاته، وهي التربة التي تستودع غراس المجتمع فتغذوه بما فيها من عناصر النمو، وعوامل البقاء، وتودعه توجهاتها، وتؤصل فيه ملامحها، بما تودعه من خصائص وراثية، أو تؤصل فيه من توجهات واهتمامات يشب عليها المربَّى ولا يستطيع غالباً الفكاك منها؛ حتى إنك لتستطيع أن ترى الأسرة، وتقف على معالمها، وتحصي جوانب القوة والضعف فيها من خلال استقرار شخصية من تربي.

والأبوان محور ارتكاز الأسرة، وهما أساس هذا البناء، وسر وجوده، ودافع قوته وانطلاقه، ومصدر إمداده وإنمائه، في ظلالهما تحيا، وبهما تتفاعل، ومنهما تستمد مقوماتها؛ ولذا أولاها الإسلام اهتمامه، بدءاً بتكوين الأسرة، وانتهاءً ببر الوالدين حتى بعد موتهما.

وقد أثبتت التجارب أن الأسرة جهاز لا يعوض، ومحضن لا يقوم مقامه غيره، مهما تطور الإنسان، وتغيرت معالم الحياة والأحياء، واضطر الإنسان إلى إيجاد معوضات تجبر نقصه، وتسد خلله، وتفي بحاجاته التي قد تحول الحياة بينه وبين الوفاء بكثير منها، لتداخل المصالح، وتعارضها، ونشأة الحاجة إلى بدائل، فمن الصعب أن تستعيض مثلاً بالمحاضن الجماعية عن الأسرة، ذلك النظام الفطري المركوز في طبيعة البشر، فضلاً عن شرعيته، واهتمام الوحي به، وضرب الرسل عليهم الصلاة والسلام المثل والأسوة فيه.

قال تعالى: **وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجاً وَذُرِّيَّةً** [1]

وقد أبرز الإسلام دور كل من الأب والأم، وأوضح واجبات كل منهما، ومسؤولياته، وكلاهما ضروري في بناء الإنسان، أصيل في تكوينه، وإنمائه، وتحديد توجهاته، وتشكيل تفاعلاته، ولا قدرة لغيرهما على تقمص دورهما، أو النهوض بالتزاماتهما، فالحاضنة ليست أماً، بل ليس في مقدورها أن تحاكي دور الأم، حتى وإن أوهم ظاهرها ذلك، وإلا فما حظها من عاطفة الأمومة، وما مدى ارتباطها الروحي والنفسي بمن تُربِّي ؟، وكيف تواجه انفعالاته، وتقاسمه أحاسيسه ومشاعره؟ إن الأولاد ينبتون بمقومات الأم، وتغذوهم بدمائها، وتثريهم بعوامل بقائها أجنة، وترعاهم عن حب في أطوار حياتهم، ترى نفسها فيهم، وتحس وجودها في وجودهم، وتصل آمالها بآمالهم، وتجعل طموحها في طموحهم. فهل يمكن أن تؤدي البديلة المقيمة في البيت المخصصة لرعاية طفل، المكلفة به، المشغولة ـ كما ينبغي ـ بشؤونه دور الأم، وتحمل مشاعرها؟ وهل كفت المحاضن الجماعية الأسر مشقة التربية، وأغنت عنها في مهامها المادية والمعنوية بعد غياب الأمومة الحقيقية لفقدان كثير من الأطفال أهليهم بفعل الحروب التي سعرها الإنسان، وأصاب بشواظها البشرية؟ وهل أشبع المربَّى بعيداً عن أمه العاملة رغباته، ، ووجد كفايته، واستجيبت لحاجاته، في رعاية حاضنة أوقفت عليه، وأتيح لها من الإمكانات المعاصرة ما يساعد على توفير المناخ المناسب لتربية ناجحة موفقة؟

شتان بين فطرة فطر الله الناس عليها، وبين مهنة دفعت إليها الحاجة، وفرضتها ضرورات الحياة.

١- سورة الرعد الآية (٣٨).

ألا يمكن أن تتحول الحاضنة خليلة لمن نشأ معهـــا، وشـــب فـــي أحضانها، ووجد فيها تلبية لكل حاجاته حين يصير مراهقاً؟

وماذا يعنيها من نبوغه وتميزه، أو يضيرها من غبائـــه وتخلفـــه، وهي عُرضة لإنهاء خدماتها، أو إبعاده عنها إذا رأى الوالدان ذلـــك، أو فضَّلا الانتقال به إلى جوٍّ تربويٍّ آخر مناسب؟

الأمومة رباط مقدس، والبيت محراب آمن، والعلاقة بـــين أهلـــه علاقة أكدتها الفطرة، وصاغها الشرع الحنيف، ورعاية الأم ولدها غريزة تأسى الأم العاقلة لفواتها، وتطيب نفساً بالفوز بها، والوفاء لها إن الطفل في العامين الأولين من عمره يحتاج حاجة نفسية فطرية إلى الاســـتقلال بوالدين له خاصة!

وبخاصة الاستقلال بالأم لا يشاركه فيها طفل آخر وكم تعاني ذات التوأم وهما ولداها! وفيما بعد هذه السن يحتاج حاجة فطرية إلى الشعور بأن لـــه أباً وأماً مميزين ينـــسب إليهمـــا، والأمـــر الأول متعـــذر فـــي المحاضن الجماعية، بل مستحيل؛ لتعدد الأطفال وتباين طباعهم، وتنـــوع أمزجتهم، والأمر الثاني يستعصي وجوده في غير نظـــام الأســـرة، وأي طفل يفقد هذين أو أحدهما يكون أشد عرضة للانحراف، وتوارد العلـــل النفسية والمشاهد أنه حين تكون كارثة تُفْقِدُ الطفل إحدى هاتين الحاجتين تكون ولا شك كارثة في حياته، فمـــا بالنـــا وقـــد فرضـــت الحـــضارة المزعومة، والتقدم الموهوم ذلك على جميع الأطفال، وســـوغ للأمهـــات البراءة من الأمومة ولو بعضاً من الوقت اســـتجابة لـــدواعي التطـــور،

وخضوعاً لضرورات الحياة، وانخداعاً ببريق تحرر المرأة، وانطلاقها لمنافسة الرجال، ومقاسمتهم الصراع المادي الجارف؟

إن لمسات الأم، وقبلاتها الحانية، ونظراتها المُعِّبرة، وتقاسيم وجهها، ودفء صدرها تفعل فعلها في ولدها، وتؤثر تأثيراً بالغاً لا يكون من غير الأم، ولا يثمر في غير الابن، وما أعظم الإسلام وهو يستثير الأمومة، ويعرض بين يديها، وعلى مرأىً منها ومسمع حاجات الأولاد إليها، وأثرها فيهم، فيقول جل شأنه: **وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ** (١)

شتان بين ما يمتص الرضيع من صدر أمه، وما يملأ به جوفه من صدر غريب، أو يكال له من حليب غير آدمي أياً كان تطويره، واهتمام العلم به.

ولست مبالغاً إذا قلت: إن اختيار كل من الزوجين للآخر ليس أمراً خاصاً بهما، معيناً على تحقيق أغراضهما فقط، بل هو يمس الذرية، ويمهد لها، ويضعها في الاعتبار الأول، وما كان اهتمام الإسلام بذلك، وعرضه في آيات محكمات، أو توضيحه في أحاديث شريفة إلا حضّاً على تكوين مناخٍ مناسب طيب، تنشأ في ظلاله أجيال مؤمنة، قال جل جلاله: **وَلا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ وَلأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُوْلَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ** (٢)

١- سورة البقرة الآية (٢٣٣).

٢- سورة البقرة الآية (٢٢١).

وراعت السنة الشريفة ذلك، ورغب الرسول (r) في ذات الدين عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي (r) قال: " تنكح المرأة لأربع: لمالها، ولحسبها، ولجمالها، ولدينها فاظفر بذات الدين تربت يداك" [١]

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما عن رسول الله (r) قال "الدنيا متاع، وخير متاعها المرأة الصالحة"[٢].

قال الحسن:"هب لنا من أزواجنا في طاعة الله، وما شيء أقر لعين مؤمن من أن يرى حبيبه في طاعة الله"[٣]

وعن أبي حاتم المزني رضي الله عنه قال: قال رسول الله (r):"إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فأنكحوه إلا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد" قالوا يا رسول الله، وإن كان فيه: قال "إن جاءكم من ترضون دينه وخلقه فأنكحوه" ثلاث مرات. [٤]

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله (r): "إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فأنكحوه إلا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد عريض"[٥]

وعن فاطمة بنت قيس رضي الله عنها أن النبي (r) قال لها: "أنكحي أسامة" فكرهته، ثم قال: "أنكحي أسامة" فنكحته، فجعل الله فيه خيراً، واغتبطت فأمرها بنكاح أسامة مولاه،

١- رواه البخاري (١١٥/٩فتح)، ومسلم (١٤٦٦).

٢- رواه مسلم (١٠٩٠/٢) .

٣- رواه البغوي، شرح السنة، جـ(٩)، ص(١١)، مرجع سابق .

٤- رواه الترمذي (٣٩٥/٣)، والحاكم(١٦٤/٢- ١٦٥)..

٥- رواه الترمذي(٣٩٤/٣- ٣٩٥)

وابن مـــــــولاه، وهي قرشية، وقدمه على أكْفائها من أمثال معاوية بن أبي سفيان وأبي جهم. [1]

"وعن الحسن: أتاه رجل، فقال: إن لي بنتاً أحبها، وقد خطبها غير واحد فمن تشير علي أن أزوجها؟ قال زوجهـــا رجـــلاً تقيـــاً إن أحبهـــا أكرمها، وإن أبغضها، لم يظلمها". [2]

وما كان هذا الاهتمام البالغ بالدين في الـــزوجين رعايـــة لهمـــا، وحرصاً على سعادتهما ويسر حياتهما فقط؛ بل لأنهما أساس لأكرم بناء، وقوة الأساس قوة للبناء ودعم لوجوده، ولا يكتمل بناء الأسرة إلا بذريـــة تبر الوالدين، وتصل ما انقطع بعد موتهما، فإذا لم يكونا أو أحدهما على دين فماذا يعطيان البنين والبنات؟ إن الطفل يتلقـــى العقيـــدة، ويعـــرف الفرائض، ويأخذ السلوك الحسن، ويدرب على حسن التفاعل مع الحياة، والأحياء أول ما يكون في ظلال أبويه، وفي رحاب أسرته المؤمنة، فإن افتقد ذلك فيها غلب عليه السوء، وخالطه الشر، وجفاه الخير، وملَّ الحياة وملَّتْهُ، وجفا معاشريه وجَفَوهُ، واحتواه رفاق السوء، واســـتحوذت عليـــه شياطين الإنس والجن. فالشخصية السوية لا تكون إلا نتاج أسرة طيبـــة متميزة سوية تؤثر أولادها بكريم التربية، وتمـــنحهم بـــصادق النـــصح، وتزكي فيهم الحسن، وتحضهم عليه، وتكافئهم به، وتقيمهم منـــذ نعومـــة أظافرهم في طاعة الله، وترغبهم فيما يقربهم منه، وتنفرهم من كل مـــا يسخطه عليهم، وأساس الصلاح التزام الفرائض، وعمادها الصلاة يقول ربنا جل وعلا داعياً إلى خير تربية: **وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا** [3]

١- رواه مسلم (١١٤/٢).

٢- البغوي، شرح السنة، جـ (٩)، ص(١١)، مرجع سابق.

٣- سورة طه الآية (١٣٢)

والصلاة صلة بين العبد وربه، ومواصلة من الله تعالى لعباده، وإذا كان الرجل عمود بيته، وميزان أهله فإذا توثقت صلته بالله تعالى بإحسان صلاته، وإحسان دعوة زوجه وأولاده إليها فالثمرة لا شك أعظم من أن توصف، وأكبر من أن يحاط بها، وتتحمل الأم قدراً كبيراً من هذه الدعوة باشتغالهم بما يعينهم على النهوض بأعبائهم، والوفاء لمسؤولياتهم قد يشغلون معظم الوقت، وملازمة الصغار للبيت ــ وهو مملكة الأم ــ أطول، وهنا يبرز دور الأم، فإن كانت صالحة ملأت أسماع وأبصار وقلوب من حولها من البنين والبنات بمعرفة الله تعالى، وزودتهم بزاد طيب في طاعته، وحاطتهم بسياج من خشيته، والوصية بذات الدين توضح خطورة فقدان المرأة للدين، أو رقته فيها، سواء بالنسبة لزوجها أو أولادها.

وأعظم الأبوين، وأكرمهما، وأحقهما بتلك المنزلة السامية من رأى فيهما أولادهما مثلاً أعلى في علاقتهما بالله، ثم في علاقة كل منهما بالآخر حتى يتحول البيت إلى محراب دنياه تخدم آخرته، وآخرته تُرشِّد دنياه، فلا يحس الأولاد بينهما جفوة، ولا يرون بينهما تنافراً، ولا يظهران إلا على وفاق، وإن كانت الحياة لا تخلو من المنغصات، والخطأ في طبع الإنسان وجبلته، ولكن ينبغي أن يكون هذا في كِنٍّ لا يطلع عليه الأولاد ولا يشاركون فيه، لأن الأسرة محضن يعد البنات لأن يكُنَّ زوجات، وأمهات ، والبنين ليكونوا أزواجاً وآباءً، فإذا لم تكن الأم خير معلمة لبناتها، والأب أصدق وأخلص معلم لبنيه فعمَّن يأخذون تلك الدروس وبمن يقتدون في مستقبل أيامهم؟

وإذا كانت مقومات الأسرة في الإسلام السكن، والمودة والرحمة فليكن حظ الأولاد من تلك القيم عظيماً، وميراثهم منها أكبر لتكون خير

عون على احتوائهم، وأكبر عاصم من وقوعهم في شَرَكِ صداقة السوء، أو انجرافهم بتيار الحياة الصاخب اللاهي.

والحكمة لازمة للوصول بالأولاد إلى بَرِّ الأمان خاصة في عصر كثرت فيه مداخلاتٌ فُتنَ بها الكبار، ويخشى أن تكون ضياعاً للصغار، وإن وضعت تحت مسمى التطور، أو عُدَّت من معطيات العلم، وهي أمور أكبر من أن يقدر الوالدان مهما أوتيا من قوة مدافعتها أو الحيلولة بين الأولاد وبين السقوط في مزالقها، فأكثرها إن لم يكن في البيت يدرك خارجه، بل بعضها تحتمه مناهج التربية، وتعتبره مادة أو جزءاً من مادة، ولا نقول: إنها شر كلها، فالنفع متوقع بل متيقن فيها، ولكن الخير لا يأتي، و لا يتوصل إليه من خلالها إلا بعد رياضة للنفس، واحتواء للمربَّى وتمكن منه قلباً وقالباً في تقبل واقتناع.

إن إيقاظ ضمائر الناشئة أمر ليس بالهيِّن، وهو عمل لا يقوى له إلا القليل من الآباء والأمهات، وهو خير حارس، وأبلغ واعظ، حيث الأبناء يقضون أكبر وقت بعيدين عن الأبوين داخل البيت أو خارجه، ويقظة الضمير هي صمام الأمان في غيبة الرقيب أو حضوره، بل إنها عصمة للفكر الذي لا يحيط به، ولا يحصي عليه إلا الله تعالى.

ومع تعدد المؤسسات التربوية، وتنوع عطائها ففاعلية الأسرة أقوى، وأثرها أعمق، ودورها أهم، وتميزها لا يشك فيه عاقل، وهي قادرة ما صدقت على بناء النشء روحياً، ونفسياً، واجتماعياً، وجسمياً بناءً سوياً، لا يتطرق إليه ضعف، ولا تؤثر فيه عوامل النقض والهدم؛ لأن المربَّى بالأسرة ألصق، وهو فيها ومنها.

معوقات التربية في الأسرة :

ومع خطورة الدور الذي تتحمله الأسرة، ومسؤولياته الأولى في التربية، وتفردها بخصائص تجعلها ذات دور متميز في التربية، فقد دخلت على الأسرة المعاصرة مدخلات أثرت في أدائها التربوي تأثيراً بليغاً، ووسمتها بالتقصير، ووضعتها موضع النقد واللوم من هذه المدخلات:

١- انخفاض مستوى كثير من الأسر اقتصادياً، وثقافياً، وعلمياً، مما عاق دور الأسرة التربوية وأثر فيه، وعرَّض النشء لمخاطر لا مرد لها إلا بعودة الأسرة إلى وضعها الأمثل وتحملها بأمانة لأعبائها.

٢- عمل المرأة وخروجها لتقاسم الرجال العمل والكفاح، وتنافس في كل الميادين مما أضاع على الأسرة جزءاً كبيراً من جهد الأم ووقتها وفكرها، وصرفها عن رعاية البيت، وأصاب كثيراً من عطائها.

٣- تسلل الخادمات والخدم إلى البيوت لسد العجز الذي ظهر بخروج المرأة إلى العمل، واشتغالها عن أعلى وأجل مهامها كمليكة للبيت، وربة أسرة، وكذلك انصراف الآباء إلى إنماء ثروتهم أو دعم موقفهم الاجتماعي ، واستجابتهم لأهوائهم وتمكن هذا العنصر الغريب من البيت فلم تعد لأسراره قداسة، أما الأسرة فغاب منها التماسك والتناصح، وغابت التربية، وسرى الفساد إلى شباب الأسرة وفتياتها، وامتلأت الساحة المقدسة بمخالفات لا علم للآباء أو الأمهات بها.

٤- تسرب بعض دعاة التربية إلى البيوت كمعلمين خصوصيين بقصد الكسب، لا بهدف التربية، أو تردد الأبناء والبنات عليهم في بيوتهم، أو أماكن خالية من الرقابة مما أوقع النشء في محظورات لا يمكن لهم الوقاية منها إلا في أحضان الأسرة، وفي رعاية الآباء والأمهات.

٥- التطور السريع الكبير الذي عاشته الأسرة راضية أو مرغمة من خلال مخترعات جاء بها التطور العلمي السريع لإنسان هذا العصر، وتحول العالم إلى قرية صغيرة من خلال نوافذ كالفضائيات والإنترنت، والاتصالات مما هيأ للجيل سبق عصره، والاطلاع على نقائض بشرية لا يتناسب العلم بها مع مستواه الفكري والعلمي والنفسي.

٦- قصور الإعلام، وانشغاله عن التربية، وسيطرت التوجهات المنحرفة عليه فأصبحت البرامج العلمية والدينية والمهنية والاجتماعية الهادفة نادرة مُعتَّم عليها، بينما طغت مظاهر التغريب، والتحول عن الشرق دينياً وخلقياً، واجتماعياً، والانبهار بالغرب، والانخراط في فلكه لاعتباره الحضارة والرقي والتقدم.

٧- ضياع كثير من القيم الفاضلة تحت دعوى التحرر، والانفتاح، والانتصار على الجمود والرجعية والتخلف.

ولست أرى فيما أشرت إليه استقصاءً؛ فأمراض الأسرة المعاصرة، وقصورها، وتضاؤل دورها أمر يعز على الحصر، ويدعو إلى حركة مستنيرة يقظة تنشر الوعي وتحرك نحو الإصلاح لعلنا نصلح ما يمكن إصلاحه، مع مجانبة الاستسلام وتنحية اليأس **إِنَّهُ لا يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الكَافِرُونَ** (٨٧) [١]

١- سورة يوسف الآية (٨٧).

الفصل الثاني :

دور المسجـــد

المسجد كمؤسسة تربوية :

المساجد بيوت الله تعالى، ورياض جنته، وأقدس أماكن الأرض وأطهرها، وملتقى المؤمنين على طاعته، ومجتمعهم للتَّفقُّه في الدين، ومدارسة التطبيق العملي لتلك الشريعة، والارتقاء بالمسلم واقعاً وسلوكاً، ديناً وخلقاً.

" لقد كان مسجد رسول الله (r) بيتاً من بيوت الله لإقامة الفرائض والنوافل، وتطبيق عملي للدعوة إلى الإيمان والعمل الصالح والجهاد في سبيل الله، كما كان المسجد جامعة كبرى لتعليم وتخريج الأَكْفاء لمختلف الوظائف في الدولة الإسلامية، كما كان داراً للفتوى ومحكمة للقضاء، هذا إلى جانب كون مسجد رسول الله(r) رباطاً يأوي إليه المحتاجون والفقراء مثل أصحاب الصفة، كما كان المسجد ساحة للتدريب الفروسي والمصارعة، كما كان المسجد مقراً لأهل الشورى والحل والعقد، هذا إلى كونه مقراً لاستقبال الوفود والمفاوضات، خاصة بعد فتح مكة، كما أنه المكان المخصص لإعلان السياسة العامة للدولة"[1]، "إن كل ذلك يدل دلالة واضحة على أن الرسول(r) كان لا يفرق بين أداء الشعائر التعبدية وغيرها من سياسة الدولة، ليعرف أمته أن الدين شامل لإقامة كل خير في هذه الأرض وليس خاصاً بنوع معين من أنواع العبادة .، كما أراد أن يكتب جواباً عملياً في صفحات التاريخ

١- عبد الله أحمد قادري، دور المسجد في التربية ،ص (٥٩- ٦٠)، دار المجتمع، بدون ط، جدة – السعودية، (١٤٠٧ه).

للعلمانيين الذين يريدون أن يعتدوا على حكم الله فيجعلوه ملكاً لهم ليرضوا أهواءهم، ويستعبدوا عباد الله من دونه"[1] .

هذه بعض الجوانب التربوية للمسجد على عهد الرسول (r) وصحابته، فأي مؤسسة تعليمية تستطيع الآن أن تعطي كما كان المسجد يعطي سابقاً؟"[2]

فدور المسجد التربوي كما عُرف من مسجد رسول الله (r) بالغ الأمر، فيه إعداد تام للمسلم، وبناء متكامل قويم لشخصيته، فضلاً عن شموله لخيري الدنيا والآخرة للفرد والمجتمع وقد أولى القرآن الكريم المساجد اهتماماً كبيراً، وأشاد بعُمَّارها، ورفع شأن أهلها الدائمين عليها، المتعلقة قلوبهم بها، فقال جل شأنُه: **إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلاَّ اللَّهَ فَعَسَى أُوْلَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنْ الْمُهْتَدِينَ** (١٨) [3]

"أي : أن المستحقين لعمارة المساجد هم الجامعون بين الإيمان بالله تعالى على الوجه الأكمل الذي بينه في كتابه من توحيده، واختصاصه بالعبادة، والتوكل عليه، والإيمان باليوم الآخر الذي يحاسب الله فيه عباده ويجزي كل نفس ما كسبت، مع إقامة الصلاة المفروضة على وجه جامع بين أركانها وآدابها، وتدبر تلاوتها وأذكارها، وبذا تُكْسِب مَنْ يقيمها مراقبة ربه وخشيته والخشوع إليه، وإعطاء زكاة الأموال لمستحقيها من الفقراء والمساكين، وخشية الله دون غيره مما لا

١- نفس المرجع السابق، ص(٦٦).

٢- خالد عبد الكريم الخياط، الأسلوب التربوي للدعوة إلى الله في العصر الحاضر، ص(١٣٦)، دار المجتمع، ط١، جدة – المملكة العربية السعودية، سنة (١٤١٢هـ - ١٩٩١م) .

٣- سورة التوبة الآية (١٨).

ينفع ولا يضر كالأصنام وغيرها مما عبد من دون الله خوفاً من ضرره أو رجاء نفعه.

(فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين) أي: فأولئك الذين يجمعون بين الأركان الهامة من أركان الإسلام هم الذين يرجون أن يكونوا من المهتدين إلى ما يحب الله ويرضيه من عمارة المساجد حِسّاً ومعنىً بحسب سنته تعالى في أعمال البشر وتأثيرها في نفوسهم، وبذا يستحقون عليها الجزاء في جنات النعيم"[1]

كما قال جل شأنه: ﴿ **فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ (٣٦) رِجَالٌ لا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْماً تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالأَبْصَارُ (٣٧) لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٨)** ﴾ [2]

"أي: في بيوت أمر الله بتطهيرها من الأنجاس الحسية والمعنوية، كاللغو ورفث الحديث وأمر بذكره فيها وإخلاص العبادة له.

روى سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: "المساجد بيوت الله في الأرض ، تضئ لأهل السماء كما تضئ النجوم لأهل الأرض"

وعن عمرو بن ميمون قال: "أدركت أصحاب رسول الله (r) وهم يقولون: المساجد بيوت الله، وحق على الله أن يكرم من زاره فيها"

(يسبح له فيها بالغدو والآصال رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة) أي ينزه الله ويقدّسه في أول النهار وآخره، رجال لا تشغلهم الدنيا وزخرفها ولا بيوعهم وتجاراتهم عن ذكر

١- الشيخ المراغي، تفسير المراغي، جـ (١٠) ص (٧٤- ٧٥)، مرجع سابق .

٢- سورة النور الآيات (٣٦ - ٣٨).

ربهم وهو خالقهم ورازقهم، إذ يعلمون أن ما عنده خير لهم وأنفع مما بأيديهم، فما عندهم ينفد، وما عند الله باقٍ، ويؤدون الصلاة في مواقيتها على الوجه الذي رسمه الدين، ويؤتون الزكاة المفروضة عليهم تطهيراً لأنفسهم من الأرجاس.)[1]

فإذا كانت هذه هي المساجد، وتلك سمات عمارها، المتعلقة قلوبهم بها، فإن ذلك لا يكون إلا ثمرة تربية لا تتوقف، وبناء أعد له، وكان الوحي أسبق بذلك، وكان نهج رسول الله (r) تطبيقاً عملياً له، وبياناً شافياً لتربية مبرأة من الهوى، سليمة من الشك والتعصب تستهدف المؤمن ليعيش على نور من ربه، وليكون أسوة حسنة لغيره، حيث يتحول إلى خير في ذاته، وخير لمجتمعه، ولكل من يلمُّ به، أو يأخذ عنه، وهي ليست تربية للإنسان المسلم في مرحلة خاصة من مراحل عمره، وإنما تربية عامة شاملة من سن التمييز حين يؤمر بالصلاة، وتستمر معه تمده، وتزوده إلى وفاته، فضلاً عن قيامها على ارتباط روحي يصل المسلم (موضوع التربية) بالله تعالى ، يؤصل فيه الإحسان، ويربيه على التقوى، ويزوده بها كرصيد يصلحه، ويصلح به، ويجعله مصدر بر دائم وعطاء طيب متصل، أعظم من أن يوصف، وقد تولى القرآن الكريم بيان ذلك في آيات بينات؛ فقال جل جلاله:) **وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ** (١٣٣) **الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنْ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ** (١٣٤) **وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ وَلَمْ**

١- الشيخ المراغي، تفسير المراغي، جـ(١٨) ص (١١٠)، مرجع سابق .

يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٣٥) أُوْلَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ (١٣٦) [١]

إن حظ هؤلاء من الهدى كبير، ورصيدهم من رحمة الله تعالى أوسع وأعظم، وصلتهم بكتابه أوثق وأكبر، فيقول جل جلاله: **ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ (٢) الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (٣) وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (٤) أُوْلَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٥)** [٢]

إن تربية تثمر هذا، وتصل بالإنسان المربَّى إلى هذا المستوى لابد وأن تكون على مستوىً عالٍ منزه عن الخطأ، سليم من آفات البشر، وأهواء النفوس، ومحال أن يكون هذا في غير التربية الإسلامية، والتي أرسيت قواعدها في مسجد رسول الله (r).

الداعي الأول والمربي المعصوم:

وإذا كانت المساجد مؤسسة تربوية لها دورها البارز، وأثرها المتميز في صياغة المسلم، وصنع المجتمع الذي أراده الله تعالى لخير أمة أخرجت للناس، فلا بد أن يكون لتلك المؤسسة مربوها القادرون على العطاء، العارفون بأدواء النفوس، الخبراء بطرائق علاجها، ولا يكون ذلك غير الدعاة، وقد كان رسول الله (r): "الداعي الأول إلى الله تعالى، بعد أن أنعم الله علينا بالإسلام هو رسولنا الكريم محمد (r). قال تعالى: **(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً (٤٥)** [١] وقد كرر القرآن الكريم الخطاب إلى الرسول (r) يأمره بالدعوة إلى الله والاستمرار

١- سورة آل عمران الآيات (١٣٣ - ١٣٦).

٢- سورة البقرة الآيات (٢ - ٥).

١- سورة الأحزاب الآية (٤٥).

عليها وعدم التحول عنها، فمن هذه الآيات الكريمة قوله تعالى: **وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَى هُدًى مُسْتَقِيمٍ** (٦٧) [٢] وقوله تعالى: **وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ وَلا تَكُونَنَّ مِنْ الْمُشْرِكِينَ**[٣]

وقوله تعالى **قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبِ** (٣٦) [٤] وقد ظل (ﷺ) يدعو إلى ربه تبارك وتعالى حتى أتاه اليقين من ربه وصار إلى جواره الكريم راضياً مرضياً فجزاه الله عن المسلمين خير الجزاء".[٥]

وإذا كان رسول الله (ﷺ) مسك ختام النبوة ورسالة الأنبياء واحدة، ودعوتهم جميعاً إنما كانت لبناء الإنسان لإقامته على الحق، وإنقاذه من براثن الشر فهم جميعاً عليهم الصلاة والسلام مربون " فالدعوة إلى الله وظيفة رسل الله جميعاً، ومن أجلها بعثهم الله تعالى إلى الناس، فكلهم بلا استثناء دعوا أقوامهم ومَنْ أرسلوا إليهم إلى الإيمان بالله وإفراده بالعبادة على النحو الذي شرعه لهم، قال تعالى عن نوح عليه السلام: **لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ** (٥٩) [٦] وقال تعالى عن هود عليه السلام: **وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلا تَتَّقُونَ** (٦٥) [١] وعن صالح قال

٢- سورة الحج الآية (٦٧).

٣- سورة القصص الآية (٨٧).

٤- سورة الرعد الآية (٣٦).

٥- د. عبد الكريم زيدان، أصول الدعوة، ص (٢٩٧)، مكتبة المنار الإسلامية، بدون ط، بغداد – العراق،سنة (١٤٠١هـ- ١٩٨١م).

٦- سورة الأعراف الآية (٥٩).

١- سورة الأعراف الآية (٦٥).

٢- سورة الأعراف الآية (٧٣).

٣- سورة الأعراف الآية (٨٥).

تعالى: **وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ** [٢]

وعن شعيب عليه السلام قال تعالى: **وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ** [٣]

وهكذا جميع رسل الله دعوا إلى الله، إلى عبادته وحده، والتبرؤ من عبادة ما سواه، قال تعالى: **وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنْ اُعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (٣٦)**[٤]

فرسل الله هم الدعاة إلى الله، وقد اختارهم الله لحمل دعوته وتبليغها إلى الناس". [٥]

وقد ورَّث الله تعالى تلك الأمة عن رسولها (r) الدعوة، وأقرها فيهم، وميزهم بها عن غيرهم من الأمم، وما كان خطاب الله تعالى لرسوله (r) إلا خطاباً لأمته، حيث كلفها بالبلاغ من بعده، ودعاها إلى أن تظل معتصمة بالخير داعية إليه "لأن الأصل في خطاب الله لرسوله (r) دخول أمته فيه إلا ما استثني، وليس من هذا المستثنى أمر الله تبارك وتعالى بالدعوة إليه، ومعنى ذلك أن الله تعالى أكرم هذه الأمة الإسلامية وشرفها أن أشركها مع رسوله الكريم في وظيفة الدعوة إليه. وهذا التشريف والتكريم لايستفاد فقط من الخطابات الإلهية لرسوله بالدعوة إليه كما ذكرنا وإنما هو صريح الآيات الكثيرة في القرآن، قال تعالى: **كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنْ الْمُنكَرِ** [١] فهذه الآية الكريمة أفادت معنيين: الأول: خيرية هذه الأمة، والثاني: أنها

٤- سورة النحل الآية (٣٦).

٥- د. عبد الكريم زيدان، أصول الدعوة، ص(٢٩٧- ٢٩٨)، مرجع سابق .

حازت هذه الخيرية لقيامها بوظيفة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهي وظيفة رسول الله ورسل الله جميعاً، وأول ما يدخل في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الدعوة إلى الله وحده والبراءة من الشرك بأنواعه. بل إن القرآن الكريم جعل من صفات المؤمنين الدعوة إلى الله، بخلاف المنافقين الذين يصدون عن سبيل الله يدعون إلى غيره، قال تعالى: **الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنْ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمْ الْفَاسِقُونَ** (٦٧) [٢]

ثم قال تعالى بعد ذلك: **وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنْ الْمُنكَرِ** [٣] قال القرطبي في تفسير هذه الآية الكريمة (فجعل تعالى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فرقاً بين المؤمنين والمنافقين، فدل على أن أخص أوصاف المؤمن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ورأسها الدعاء إلى الإسلام والقتال عليه). [٤] وأضيف إلى ذلك أن الله تبارك وتعالى، بهذه الآية، وصف الأمة الإسلامية بما وصف به رسوله(r) قال تعالى عن رسوله: **يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنْ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمْ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمْ الْخَبَائِثَ** [١][٢]

١- سورة آل عمران الآية (١١٠).

٢- سورة التوبة الآية (٦٧).

٣- سورة التوبة الآية (٧١).

٤- القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، جـ(٤) ص (٤٧)، مرجع سابق .

١- سورة الأعراف الآية (١٥٧).

٢- د. عبد الكريم زيدان، أصول الدعوة، ص (٢٩٨ - ٢٩٩)، مرجع سابق .

٣- سورة يوسف الآية (١٠٨).

٤- سورة فصلت الآيات (٣٠ - ٣٣).

الدعوة إلى الله تعالى واجب يشرف به كل مسلم ومسلمة بما يتيسر لكل منهما من علم يدلنا على هذا قوله تعالى: **قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنْ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنْ الْمُشْرِكِينَ** [٣]

فالدعوة إلى الله تعالى جزء لا يتجزأ من التأسي به (r)، وهي دليل الإيمان، وأمارة الاستقامة، قال جل شأنه: **إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمْ الْمَلائِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ (٣٠) نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ (٣١) نُزُلاً مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ (٣٢) وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنْ الْمُسْلِمِينَ (٣٣)** [٤]

من سمات الداعية الناجح:

ويتفاوت واجب الدعوة بتفاوت ما منَّ الله به على الداعية من علم، والمساجد بيئة خصبة للدعوة، حيث يرتادها المسلمون جميعاً صغاراً وكباراً،أميين ومتعلمين، عامة ومثقفين يؤدون الصلوات الخمس، ويجتمعون على موائد العلم فيما يقام من دروس أو ندوات، وفي خطب الجمعة والعيدين وبذلك ينبغي أن يقوم على الدعوة فيها رجال توافرت فيهم سمات المربي على منهج الله ورأى فيه الناس أسوة حسنة، وواقعاً عملياً للإسلام محسوساً في تقلباته ومن السمات ما يجعله محل ثقة من المسلمين، وموضع الاقتداء منهم، ويتضح ذلك في أمور:

١- سلامة عقيدته، وصدق إيمانه بالله الذي يدعو إليه، وبالدعوة التي حُمِّل أعباؤُها، وشرف بالتزامها. قال تعالى: **وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنْ الْمُسْلِمِينَ (٣٣)** [١]

١- سورة فصلت الآية (٣٣).

٢ - الاستقامة على منهج الله ظاهراً وباطناً حتى يكون مثلاً يحتذى وأسوة يقتدى به قال تعالى مخاطباً رسوله (r): **فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ** [٢] والأمر لرسوله (r) أمر لأمته.

٣- حب الله تعالى وإخلاص العمل له جل شأنه تأدباً بما علمنا ربنا جل وعلا: ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾ ﴾[٢]

٤- التزود بالعلم، والحرص على الاستزادة منه ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، والتواضع في طلبه، وأخذه عن كل مبلغ صادق وإن كان دونه فيما يرى. قال تعالى مخاطباً رسوله **فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً** [١]. والخطاب لكل عارف بربه مخلص لدعوته، مقبل على الله تعالى، غيور على دينه ويقول جل شأنه: **نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ** [٢]

٥- ألا يخالف قوله فعله، فيفر الناس منه، ويفقدوا الثقة فيه، ويكون شأنه كما علمنا ربنا جلا وعلا:) **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ (٢) كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ (٣)** [٣]

٢- سورة الشورى الآية (١٥).

٣- سورة الكهف الآية (١١٠).

١- سورة طه الآية (١١٤).

٢- سورة يوسف الآية (٧٦).

٣- سورة الصف الآيتان (٢- ٣).

٤- سورة النحل الآية (١٢٥).

٥- سورة آل عمران الآية (١٥٩).

٦- سعة صدره، وليونة طبعه، وصبره ومصابرته، وسرعة بديهته وسلامة حجته قال تعالى **ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ** (١٢٥) [٤]وقال تعالى مخاطباً رسوله (r): **فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنْ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ** (١٥٩) [٥]

٧- سلامة قلبه، وعفة منطقه وإحسان الظن بالمسلمين جميعاً، ومعاملتهم على الظاهر منهم، ورد باطنهم إلى الله تعالى يعلم السر وأخفى. قال تعالى **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنْ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ** [١] ولا يستلزم إحسان الظن بالناس الغفلة عن دوافعهم، والسكوت عن أخطائهم، وإهمال نصيحتهم. فعن أبي رقية تميم بن أوس الداري رضي الله عنه أن النبي (r)قال "الدين النصيحة" قلنا لمن؟ قال :"لله، ولكتابه، ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم"[٢]

٨- ألا يتتبع عورات المسلمين، فيفضحهم ويُشّهر بهم، فتكون الفتنة، وتشتعل العداوات بين المسلمين، فيخالف ما دعا الله إليه : **وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلا تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ**(٢) [٣] بل يعرف العيوب ليتقيها وأهله، ومن يلوذ به، ويعالجها ما استطاع فيمن أصيبوا بها.

٩- أن يتواضع لغيره من العلماء والدعاة، ويتشاور معهم، ويتحاور في حرص وأدب، ويأخذ عنهم دون حرج، ويتناصح معهم ابتغاء وجه الله تعالى، فمن أخص خصائص المؤمنين فضلاً عن الدعاة ما قال

ربنا جل وعلا: ﴿ **وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ** (٣٨) [١].

١٠- معرفة آفات المجتمع، والوقوف عليها إحاطة بها، وتفهماً لدوافعها، واجتهاداً في علاجها مستعيناً بالله تعالى في ذلك

١١- الحركة بالدعوة وعدم الجمود فيها دون إفراط، أو تفريط.

١٢- استمرار العمل في الدعوة، والتخطيط لمستقبلها.

١- سورة الحجرات الآية (١٢).

٢- رواه مسلم (١/٧٤).

٣- سورة المائدة الآية (٢).

٤- سورة الشورى الآية (٣٨).

الفصل الثالث:

دور المدرسة

المدرسة المعاصرة:

مع رقي المجتمع وازدهاره، وتطور العلم وتنوع فروعه ومعطياته، وتعدد حاجات الإنسان، وتشعب سبل الحياة، وتطلع الإنسان إلى خوضها، والإفادة منها، وعجز الأسر عن الوفاء بذلك، وقصور النظم التعليمية القديمة (الكتاتيب)، وغياب كثير من فروع المعرفة عنها، وظهور التخصصات كان لابد من قيام المدارس، ووضع الأسس التنظيمية لها، وتحديد ضوابط سيرها، وتدافع الناس إليها رغبة في العلم، وأملاً في بلوغ مستوىً اجتماعيٍّ أفضل، وأصبح الالتحاق بها في سن السادسة أو السابعة إلزاماً يسأل عنه ولي الأمر، وتعددت مراحل التعليم بها، فتتبع المرحلة الابتدائية المرحلة الإعدادية، ثم تليها المرحلة الثانوية، وقد أصبحت ذات تخصصات متنوعة، تشمل التعليم العام، والشرعي والمهني والتجاري والزراعي، وغير ذلك من التوجهات التي فرضها العصر، وأملتها ظروف الحياة حتى صارت هناك مدارس فندقية، وغير ذلك مما طالعتنا به الحياة، وفرضه واقع الإنسان المعاصر، وتبعاً لذلك قام التعليم العالي في صورة معاهد متوسطة، أو كليات شاملة فنون العلم، متخصصة في مجالات عطاء متنوع، كما تفسح المجال لدارسيها للترقي ومواصلة البحث للوصول إلى درجات أعلى في مجالات التخصص.

وبحساب فترات مراحل التعليم نجدها مجتمعة تبلغ ثلث عمر الإنسان أو تزيد، وبحساب الساعات اليومية نجد الطالب أو الطالبة يقضي أكثر من نصف ساعات اليقظة في المدرسة ثم يوزع الباقي على حاجاته الأخرى، ومنها ما يرتبط بالمدرسة كالتحصيل، أو حل الوظائف المنزلية؛ فضلاً عن اتصاله بأساتذته أو رفاقه فيها فالمدرسة كمؤسسة تربوية تستحوذ على الجزء

الأكبر من جهد الإنسان ووقته، وتترك بلا شك بصماتها العميقة، وآثارها الموجهة في حياة المربَّى.

والمدرسة مجتمع له سماته الخاصة، وملامحه المميزة، وأعرافه التي يجب الحفاظ عليها والوفاء لها، وهي مسؤولة مسؤولية تامة عن بناء الإنسان المربَّى فردياً واجتماعياً.

فبناء الشخصية السوية، والعمل على النهوض بها، وحسن متابعة التطور البنائي لها، والوقوف على مدى سلامة هذا البناء، وإمداده بما يدعمه، ثم حمايته من كل عوامل الهدم، وصيانته مما يعوق انطلاقه في طليعة الواجبات المفروضة على المدرسة كمؤسسة تربوية تدعمها وتساندها الأسرة، وغيرها من المؤسسات التربوية، وتبدو صعوبة البناء إذا انفصمت عُرى التواصل بين المدرسة والأسرة، وكثيراً ما يحدث ذلك في كثير من المجتمعات النامية، حيث يكون المستوى الثقافي للأسرة أقل بكثير مما يجب أن يكون عليه لإيجاد تكامل بين الأسرة والمدرسة مما يجعل دور المدرسة شاقاً، ورسالتها صعبة.

والأسرة بطبيعة الحال سابقة في حياة المربَّى تمكنت منه بعوامل الوراثة، ثم زودته باهتماماتها، وتوجُّهاتها، وجعلت منه دليلاً عليها، ومؤشراً على طبيعتها، ومعالم حياتها، ولذا كان الجهد التربوي المدرسي في أشد الحاجة إلى الإيمان بقضية التربية، واعتبارها رسالة لا مهنة، والنظر إلى من نُربِّي على أنهم مستقبل الأمة، وإمكانات المجتمع الحضارية البشرية، فالوفاء للتربية مع مشقته وَوُعورة مسالكه قيمة غالية مردها نهضة الوطن وتوالي انتصاراته روحياً وعلمياً وثقافياً واجتماعياً وصحياً وحضارياً، ولا يقوى لهذا الكفاح إلا جهاز تربوي مخلص واعٍ غيور على قضية الإنسانية عامة، واهتمامات أمته خاصة.

وإذا كان البناء الحسي أمراً يحتاج إلى تخطيط وإعداد، ثم إلى إعمال فكر وتنسيق جهود، وإحصاء لمراحل البناء ومتطلبات كل مرحلة منها، والعناية التامة بجودة الإخراج وروعة نهايات العمل، فبناء الإنسان أعظم وأقوى، وإحكامه أشد وأشق، حيث تهدف التربية إلى الوصول به إلى شاطئ الأمان نفسياً وجسمياً واجتماعياً حتى يصدق انتماؤه، ويحق ولاؤه، ويكون كما أراد الله تعالى منه أخاً لكل من حوله من حوله وهي صلة سامية في كل ما يأتي أو يذر، خاصة أن منطلق هذه الأخوة عقيدة سليمة قوامها الإيمان بالله تعالى رباً، وبمحمد (ﷺ) رسولاً، وبالإسلام ديناً، وهي منطلقات نظيفة طاهرة مطهرة تجمع ولا تفرق، وتصون ولا تبدد، قال جل شأنه: **إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ**[1]

حتى في حالة الاختلاف والتخاصم تراعى هذه الأخوة، حتى في إهدار الدم ووجوب القصاص ينال المعتدى عليه حقه، ويؤخذ الجاني بجرمه إيماناً بالله ورعاية لحرمات أقرها الشرع والإخاء قائم لا يحول ولا يزول، قال تعالى: **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالأُنثَى بِالأُنثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنْ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٧٨) وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٧٩)** [2]

إلام يحتاج بناء الشخصية حتى تصل إلى هذا المستوى السامي الذي أراده الله تعالى للإنسان بجعله خليفة في الأرض؟ ومنحه فطرة سليمة من الآفات مبرأة من العيوب؟

١- سورة الحجرات الآية (١٠).

٢- سورة البقرة الآيتان (١٧٨- ١٧٩).

وكفى المهتمين ببناء الإنسان إن صدقوا ما ركز الله في ضميره حين أبدعه من خير، وما أقرَّ في وجدانه من معرفة بالله تجعل منه طاقة طيبة فاعلة في الحياة، مؤثرة في الأحياء إذا سلمت من العبث، وخلصت من أكدار المادة، وبرئت من خداع الوهم.

وما قامت الفطرة على الأثرة، وما نهضت على تحييد المجتمع، فإذا كانت الحياة خلقت للإنسان، وسخرت في شتى مظاهرها له كما قال تعالى: **هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الأَرْضِ** [1] وقوله تعالى: **وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (١٣)** [2]

فقد خلقه الله تعالى للحياة، وهيأ له سبل العيش فيها والتفاعل معها من خلال ذاته، وبمحركات من جماعته التي قدر له أن يعيش فيها، قال تعالى: **وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً** [3]

وقال جل شأنه:) **وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنْ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ** [4]

وقال جل جلاله: **فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ (١٥)** [5]

وهو في حركته تلك، وتفاعله الذي وجد من أجله غير منفصم عمن حوله، ولا منعزل عن أمته يقول الله تعالى: **أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً سُخْرِيّاً وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ (٣٢)** [1]

١- سورة البقرة الآية (٢٩) .
٢- سورة الجاثية الآية (١٣).
٣- سورة البقرة الآية (٣٠).
٤- سورة القصص الآية (٧٧).
٥- سورة الملك الآية (١٥).

١- سورة الزخرف الآية (٣٢)

وتقوم حياتهم على أساسٍ من التعاون الذي يجبر النقص، ويعوض الضعف، ويصل الناس بعضهم ببعض خاصة إذا كان الإيمان رباطهم، وقد دعانا الله تعالى إلى ذلك في محكم كتابه فقال جل شأنه: **وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلا تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ** [٢]

ويكون التواصل الذي تميزت به هذه الأمة، والتلاحم تفرد به رسول الله r في دعوته: عن النعمان بن بشير رضي الله عنهما قال: قال رسول الله (r): "مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو، تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى"[٣]. وفي رواية لمسلم عن النعمان بن بشير رضي الله عنهما قال: قال رسول الله(r): "المؤمنون كرجل واحد إن اشتكى رأسه، تداعى سائر الجسد بالحمى والسهر".[٤]

وليقوم البناء المتماسك المتكامل المتآزر سلماً أو جهاداً في سبيل الله تعالى قال جل شأنه: **إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفّاً كَأَنَّهُمْ بُنيَانٌ مَرْصُوصٌ** (٤) [٥]

وعن أبي موسى رضي الله عنه، عن النبي r : "المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً" ثم شبك بين أصابعه. [١]

والفطرة مُجْتمعُ هذا ومنطقه لا يشك في هذا عاقل، ولا يحيد عنه من كانت به أثاره من علم.

"ولقد عانينا طويلاً من تفريغ، وتحييد فطرة الإنسان، وصببنا فيها، وصببناها، جيلاً بعد جيل من النفسانيين في الغرب، وعندنا تبعاً لهم، ما نشاء من التعلم والبيئة، وحملناها على مراكب النظريات والتحيزات إلى ما

٢- سورة المائدة الآية (٢).

٣- رواه البخاري (٣١٢/١٦ فتح) ومسلم (٢٠٠٠/٩٩٩/٤) واللفظ له .

٤- رواه مسلم (٢٠٠٠/٤) .

٥- سورة الصف الآية (٤).

١- رواه البخاري (٣٢٥/١٦- ٣٢٦ فتح) ورواه مسلم (١٩٩٩/٤).

شاءت لها هذه المراكب من الاتجاهات، فكانت فطرة الإنسان التي نتعامل معها في علم النفس وفي التربية فطرة مثلناها تمثيلاً، محتواها مما صببناه فيها، ثم نريد أن نوجهها بأساليب تربوية وطرائق تعليمية مبنية على ذلك التصور المصنوع للفطرة. وفطرة الإنسان أغنى من أن تفرغ لتملأ، أو تحيد لتحرف، وأقوى من أن تسلب قواها الأصيلة لتنبت فيها قوى عنها غريبة. فطرة الإنسان أرشد من أن نسقط عنها حكمتها لنشدها بحبال ونجرها بأوهاق موجهين إياها وجهات عليها مسوح من ظاهر العلم، وباطنها ضياع من خداع الوهم.

فطرة الإنسان أغنى وأقوى وأرشد مما نظن أننا نعلم لهذا علينا، نفسانيين وتربويين مسلمين، أن ننظر، بصفاء وصدق، ننظر ببصرنا وببصيرتنا نحن، ننظر بتواضع إلى ما في فطرة الطفل الإنساني من كنوز، وما يستكن فيها من قوىً، وما يستودع فيها من حكمة لنحاول أن نستفيد ما في الفطرة، حتى يتوافق ما نرسم لها من طريق مع ما هو قابل فيها للتحقيق.

لا تعمل التربية الخلقية، ولا التربية عامة، على فطرة غفل من كل استعداد أخلاقي، إنها لا تضيف إليها عنصراً غريباً عنها، هو "الأخلاقية"، إنها لا تفرض جزءاً في بنية لا تتسع له، إنها لا تنشئ أخلاقية من عدم أخلاقي بل الأقرب إلى حقيقة الأمر، أن التربية الخلقية، تصوغ مما هو موجود في الفطرة، وتعمل منشطة ومشكلة وموجهة إياه.

وما كان الإنسان ليعرف الأخلاقية إلا لأن في فطرته استعداداً لمذاقها، وما كانت لتنمو عنده الاستجابة الأخلاقية، إلا لأن في فطرته شوقاً إلى أن يبلغ الاستعداد للحاسة الأخلاقية فيها تمام اكتماله، وأن يتحرر في ترقيه إلى غاية كماله.

والإنسان أعز على خالقه، وهو اللطيف الخبير، من أن يبرأه وقد زود فطرته باستعدادات وإمكانيات الحفاظ على بقائه الذاتي، وصحته الفردية، والاستمرار الطبيعي لنوعه، ولا زود، سبحانه وتعالى، هذه الفطرة باستعدادات وإمكانات الحفاظ على وجوده الاجتماعي، وصحته الأخلاقية، وترقيه الوحيد الممكن الاستمرار وهو ترقيه الأخلاقي.

فالإنسان أخلاقي بطبعه. أخلاقي بحتم فطرته المتضمنة لعنصر الأخلاقية، المتضمن في خاصته الاجتماعية. إلا أن الأخلاقية على الرغم من تضمنها في الاجتماعية فإنها تتجاوز الأخلاقية الاجتماعية من حيث كونها أوسع حدوداً وأرحب آفاقاً منها، ومن حيث كونها متسامية عليها من جهة قابلية الأخلاقية غير المحدودة في الإنسان للتسامي.

والإنسان أكرم على خالقه، جلت حكمته وعزت قدرته، من أن يكلفه دون أن يمده بمقومات واستعدادات إدراك هذا التكليف، واستعدادات نهوضه بمهام التكليف وتبعاته ثم استعدادات الحساب على قدر التوفيق في امتحان التكليف وابتلائه".[1]

المدرسة مؤسسة تربوية:

والمدرسة كمؤسسة تربوية مجتمع له سماته المميزة، وملامحه الخاصة، وتوجهاته التي ينفرد بها عن المؤسسات التربوية الأخرى وذلك لأمور منها:

١- إدارة هذا المجتمع ينبغي أن تكون تربوية لها خبراتها، وتوجهاتها، وممارساتها، بل وإبداعاتها في مجال التربية، وما يتصل به ويدعمه من العلوم المشاركة في التربية المهتمة ببناء الإنسان.

١- أ.د. سيد أحمد عثمان، المسؤولية الاجتماعية والشخصية المسلمة، ص (٧١- ٧٢)، بتصرف، مكتبة الأنجلو المصرية، بدون ط، القاهرة – مصر، سنة (١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩م).

٢- القائمون على التربية مؤهلون علمياً، وواقعياً من خلال الدراسة، ومعايشة الآراء والبحوث التربوية، ثم بالخبرة والممارسة والتجربة، والتعرف الواقعي على أصناف من البشر، ومعايشتهم، وتصنيفهم من خلال تجربة فاعلة مؤثرة.

٣- الأسس التي قامت عليها المدرسة المعاصرة، والتي ينبغي الالتزام بها تعمل مجتمعة من أجل بلوغ هدفٍ واحد هو بناء شخصية المربَّى، وإن اختلفت هذه القواعد تحت تأثير البيئة، وتوجهات المجتمع، والعصر الذي يعيشه.

٤- وضع المناهج وإقرار المواد ينبغي أن يلاحظ فيه، بل يكون من أسسه ومنطلقاته تيسير الطريق إلى التربية وإيجاد الجو المناسب لها في إطار خطة محكمة، صاغتها خبرات عميقة، وأعطت كل مرحلة ما يتفق وقدرات الدارسين روحياً وعقلياً، ونفسياً وجسمياً وغير ذلك مما تقوم عليه التربية وكان ذلك بناءً على دراسات فاحصة، وخبرات عميقة شغلت التربويين قديماً وحديثاً، وعبَّرت عنها أقلامهم فيما سطروا في كتبهم، أو أبحاثهم ومقالاتهم.

٥- الكتاب المدرسي أياً كان عطاؤه ينبغي أن يخدم جانباً أو أكثر من جوانب التربية، ويرقى بقدرات واستعدادات معينة حتى تكون الكتب مجتمعة من أقوى العوامل وأهمها في بناء شخصية سوية.

٦- النظم واللوائح المنظمة للعمل في تلك المؤسسة التربوية تجعل من المربَّى أهم أطراف التربية، بل هو المحور الأساسي المقصود الأول بها، واضعة في اعتبارها بناءه شخصياً واجتماعياً إيماناً بأهمية الأفراد ودورهم في حضارة الأمم، وصنع أمجادها، مع تنوع استعداداتهم، وتعاون قدراتهم.

٧- المشرفون على المدرسة من خارجها، والمتابعون لها مساهمون في البناء التربوي مهما اختلفت مهامهم، وتعددت واجباتهم، يعدون لذلك من خلال دراساتهم واهتماماتهم، مع ما ينالون من خبرات تفاعلاً مع الميدان التربوي الذي يتقلبون فيه، أو الخبرات التربوية المنقولة إليهم عن طريق الاحتكاك بقيادات أعلى أو التدريب البناء الهادف.

٨- "المدرسة هي المسؤولة أساساً عن تأصيل وتمكين وتنمية ورعاية المسؤولية الاجتماعية عند أبنائها إذ لا يمكن أن تكون المدرسة محايدة إزاء المسؤولية الاجتماعية؛ لأن تنميتها جزء من مسؤولية المدرسة تجاه المجتمع عامة وأبنائه من الناشئين الذين تشارك في تكوينهم خاصة".[١]

٩- وهي المسؤولة عن البناء الخلقي، وهو روح، وباعث انسجامها، وتكاملها وتماسكها، "والتخطيط الأخلاقي في المجتمع، في جانب كبير منه، تخطيط تربوي، وكأي تخطيط، لابد أن تكون الهيمنة في درسه، ورسمه، وتحديد معالمه، في يد سلطة تربوية عليا، تضمن التناسق والتآزر والتركيز في السير نحو تحقيق تصور الشخصية الأمثل في المجتمع".[٢]

١٠- بمقدار التزام المدرسة بدورها، وإيمان القائمين عليها برسالة التربية، وتوالي ذلك في مراحل التعليم المختلفة، وتناسقه يكون ضمان استمرار البناء الذاتي للمربَّى، وامتداد المسؤولية الاجتماعية، وتتابع النمو الخلقي لدى الناشئة حتى بعد انتهاء مسيرة الدراسة في مؤسسات التعليم الرسمية المختلفة وهنا يبرز دور المدرسة التربوي، وتتجلى آثاره البالغة في صنع الأجيال، وصوغ الحياة في المجتمع.

١- أ.د. سيد أحمد عثمان، المسؤولية الاجتماعية المسلمة، دراسة نفسية تربوية، ص (٦٦)، مرجع سابق .

٢- نفس المرجع السابق ص (٦٩).

المدرسة المعاصرة في الميزان:

بمراجعة نشأة المدرسة العربية المعاصرة، ومتابعة مسيرتها ترى عوامل الهدم تكتنفها مستهدفة عوامل البناء التربوي السليم خلقياً ودينياً واجتماعياً لتجعل من المدرسة مؤسسة تعليمية محايدة غايتها الارتقاء بالمستوى التعليمي، وإنماء الأجيال علمياً دون الاهتمام بالتربية التي هي الغاية الأولى من قيام تلك المؤسسة، فغابت عن المدرسة المعاصرة رسالتها، وضاعت منها أعظم اهتماماتها، وظن كثير أن العملية التعليمية يمكن أن تنمو، وتتفاعل، وتؤدي دورها مع غياب التربية، أو تناسيها، والغض من قيمتها، مما جعل المدرسة المعاصرة قاصرة في تحمل مسؤولياتها، وإن أتيح لها من الوسائل، والإنجازات المتطورة ما لم يتح لها في عصر من العصور، ويمكننا إرجاع هذا التدهور إلى عوامل من أهمها:

١- "أن المدرسة في مجتمعاتنا اتجهت تدريجياً إلى الحياد الأخلاقي والاجتماعي، تمشياً مع الضغوط الخافية والفعالة التي أثرت في الفكر التربوي العربي الذي نجح في جعل المدرسة مؤسسة محايدة أخلاقياً واجتماعياً، تبعاً لحيادها الديني، أو على الأصح حيادها الطائفي هناك وتأثرت مدارسنا، بصفة عامة، بذلك النموذج التربوي الغربي، وساندها فكر عربي تربوي تأثر، في الأغلب دون تمام وعي، بذلك الاتجاه بعينه من الفكر التربوي الغربي وكان من نتائج هذا الحياد، أو العزل أو الانعزال الأخلاقي، والاجتماعي والديني في مدارسنا أن تناقص كل اهتمام بهذه الجوانب الثلاثة: الأخلاقي، الاجتماعي، والديني ، حتى تلاشى، أو كاد، وأصبح الاهتمام بها بصيصاً خافتاً من اهتمام فردي لدى قلة من المربين ذوي الانتباه واليقظة. ولكن الأمر في تكوين الخلق، وتنمية الاجتماعية، ورعاية التدين، لا يمكن أن يقف عند اهتمامات أفراد.

٢- أن المدرسة هي المؤسسة المؤهلة علمياً وتعليمياً، وهي جهة التخصص في كل ما يتصل بتكوين أبناء المجتمع في نواحي شخصيتهم جميعاً أما وقد خلعت مدرستنا عن نفسها في التطبيق العلمي وليس في الترديد اللفظي مسؤولية التكوين الخلقي والديني والاجتماعي لأبنائها، فقد حملت مؤسسات أخرى هذه الأمانة حملتها، بظلم، منظمات، وجمعيات، وأحزاب، وهيئات، على سبيل الاهتمام الشخصي الذي أقل ما يقال عنه: إنه بعيد عن أصول التربية بُعْدَ السِّحْر عن أصول الطب. وكم عانت، وتعاني، مجتمعاتنا من نتاج تلك الاهتمامات الشخصية، ومن أسف أن المعاناة التي كانت ومازالت، لم تنبه أو تلفت إلى عزلة المؤسسة التربوية المتخصصة وانعزالها وإهمالها لهذه المهمة الجليلة.

٣- أن توكيد دور المدرسة باعتبارها مؤسسة التربية المسئولة في المجتمع عن تنمية المسؤولية الدينية والخلقية والاجتماعية عند أبنائها، إنما هو توكيد في الوقت ذاته لضرورة الاحتراس من إجهاض هذه المؤسسة وإزهاق دورها، وهذه عملية، أو عمليات مقصودة، موجَّهة، مرسومة، مُخطَّطٌ لها، وليست أمراً جانبياً، أو هامشياً، أو عرضياً، تكفي فيه كلمات تقال، أو نصائح تُوجَّه، أو تعليمات تُلْقى، دون أن يجمعها نسق، أو يضمها إطار، أو تنتظمها خطة. في أي شأن من شؤون التربية، بل شؤون الحياة، إنما هو تعطيل وتبديد وضياع، بل إنه في شؤون التربية، وتربية الخلق بصفة خاصة، إفساد لا تحمد عقباه، وعقباه هنا امتداد في الزمن في مستقبل الأمة من اضطراب واعتلال في ضمائر شبابها".[1]

٤- فقدان كثير من القائمين على أمر التربية للإيمان برسالتهم، وعظم مسؤوليتهم مما جعل العمل التربوي عملاً وظيفياً تضبطه ظواهر روتينية لا

١- أ.د. سيد أحمد عثمان، المسؤولية الاجتماعية والشخصية المسلمة دراسة نفسية تربوية، ص (٦٦- ٦٧)، بتصرف، مرجع سابق.

تساعد على إنمائه، أو الحرص على تطويره والنهوض به، وقد يلي التربية مَنْ لا علاقة له بها، وإن علت ثقافته في مجال آخر، وشارك في بعث حضاري آخر في زاوية من زوايا نهضة وطنه ومِنَ العجيب أن يترقى إدراك مجتمعاتنا فتؤثر التخصص في كل المجالات، بينما يتولى التربية من لا يستطيعون القول فيها، أو الفصل في قضاياها،بل تترك على خطورة شأنها لكل من يبدي اهتماماً، أو يحسن المواجهة، أياً كان حظه من الفهم أو الدراسة التربوية، أو حتى من الصدق والإخلاص لتلك الرسالة، مما أدى إلى تخبط وعشوائية في القرارات التربوية في بلاد كثيرة بإلغاء صفٍّ مُعَّينٍ مثلاً، ثم العودة إليه، أو إقرار مناهج، أو نظم معينة، ثم اكتشاف قصورها، وعدم وفائها، لفقدان الدراسة المسبقة، والانبهار في كثير من الأحيان ببريق النظم الغربية، وإغفال أن التربية وثيقة الصلة بالمجتمع، مُعِّبرة عن توجهاته، متمشية مع ظروفه ومقدراته، واضعة في اعتبارها النهوض به دون إلغاء هويته.

٥- إغفال دور المعلم والتقليل من شأنه، وإهدار قيمته اجتماعياً ومادياً مع ارتفاع مستوى المعيشة وعجز الدخل عن الوفاء بالمتطلبات الضرورية لمن يفترض فيه أنه مسؤول عن بناء الأجيال، مما يجعله ينصرف إلى ممارسات مادية غير لائقة، ولا معبرة عن الإيمان بقداسة التربية كرسالة، فتتحول المدرسة عنده إلى موقع مجرد من الروح خالٍ من المشاعر يقضي فيه وقتاً يؤهله لنوال راتب زهيد قدر له في نهاية كل شهر.

٦- عكوف المهتمين بالتربية على دراسة، ومتابعة أبحاث غريبة عن مجتمعاتنا، مناهضة لقيمنا أياً كان انتماؤها، وإغراق الدارسين للتربية على جميع المستويات بها دون إعارة المنهج التربوي الإسلامي أدنى اهتمام لفقدان صلتهم بهذا المنهج، أو عجزهم عن النظر فيه والكشف عن معالمه، وإبراز توجهاته التربوية غير المسبوقة، والتي جعلها كثير من باحثي الغرب

أساساً لأبحاثهم، وإن أنكروا ذلك عُلوّاً واستكباراً، أو لتعصب كثير من باحثينا للتوجهات الغربية ويقينهم المخدوع أن الإصلاح التربوي لا يقوم إلا بها.

٧- فقدان الجانب التربوي لدى كثير من المعلمين ، وإن كان جزءاً أصيلاً من مناهجهم المدروسة والممتحن فيها غير أنه لم يخالط ضمائرهم، ولم يأخذ مكانه في قلوبهم وتوجهاتهم.

٨- غياب دور الأسرة، وهي الجناح المساند للمدرسة للنهوض بالمربَّى، ومتابعة شؤونه وأحواله، للعمل على تقويمه المستمر، والارتقاء به، وحمايته من التحول أو الانحراف.

٩- اتخاذ الخادمات، وإيلاؤهن رعاية البنين والبنات مع الثقة المفرطة والغفلة القاتلة، وفقدان الخدم والخادمات للقيم، وولاؤهم لاهتمامات واتجاهات مخالفة لبيئاتنا، ودِيننا وأخلاقنا.

١٠- التطور الإعلامي المضاد المناهض للتربية، والمسيطر على مشاعر أبنائنا وبناتنا، والمُسفِّه لقيمنا ومبادئنا، والمُعجَبُ بكل غربي أو غريب. وغير ذلك من العوامل التي أفقدت التربية قيمتها، وجعلت من المربين طبقة أدنى في أمة كانت التربية أولى اهتماماتها في مصدري تشريعها، وتوجهات أجيالها المعصومة على مر العصور.

وبعد هذا العناء الكبير يحق لنا أن نسأل:

"هل استطاعت هذه المدارس أن تحقق أهداف التربية وهل تقدم المجتمع وقضى على الفساد والجهل وسائر أسباب التخلف؟ وهل أصبح الحائز على أعلى الشهادات الجامعية مختلفاً في تفكيره ونظرته إلى الوجود وسلوكه وخلقه عن الذي لم يتلق تعليماً قط؟ أم أن المجتمع تتعقد مشاكله، وتتسع عوامل فساده والمتخرج من أرقى الجامعات لا يتميز في سلوكه وجشعه وأنانيته عن غيره؟

ألسنا نعاني من الغش وعدم الإتقان لشيء، ومن الفوضى والاضطراب، ومن الظلم والفساد، ومن الأثرة والجشع، ومن الرشوة والاحتكار ومن ضياع الأمانة وانتشار الخيانة ومن الكذب ونقض العهود، وغير ذلك من الأمراض الاجتماعية والاقتصادية، والخلقية؟

وما فائدة المدارس إن لم تكن وسيلة لرقي المجتمع ؟ وما قيمة العلم إذا لم يؤد إلى سمو الإنسان ؟ وما السبيل إلى هذا ؟ "[1].

إصلاح المسار التربوي في المدرسة المعاصرة:

إذا سلمنا أن التربية هي مستقبل الأمة فلابد أن تكون هناك وقفة تجاه هذا المستقبل، تستوضح جوانبه، لتستثمر ما فيه من مميزات، وتُخلِّصه من عوامل الهدم، ولا يقوى، ويضحي في سبيلها في مجتمعنا الإسلامي إلا مخلصون أوفياء لعقيدتهم قائمون على حراستها، عارفون بما يدعمها، مدركون لما يسيء إليها.

"إن مستقبل الأمة، وفيه ما نرى من بوادره مما يتهدد، أخطر من أن يترك في فلاة تهيم فيها كل ضالة من الوحش، وكل خبيث من هوام الأرض، وكل كاسر من جوارح الطير، لن يكون بذلك مستقبلاً مأموناً وما كذلك ينبغي أن يترك مستقبل الأمة، وفيها من أهل الوعي والحكمة، وأهل الاختصاص التربوي والنفسي من فيها.

أمتنا أمانتنا. وإن من رعاية هذه الأمانة أن نعمل في الحاضر، بالوعي والحرص وسلامة التقدير، ليكون مستقبل أمتنا آمناً بقوة خلق من نربي وحسن إسلامه.

والتخطيط الأخلاقي في المجتمع أجل شأناً من أي تخطيط، بل هو روح كل تخطيط وكم تبددت منا خطط اقتصادية وعمرانية واجتماعية وكم

١- عمر أحمد عمر، منهج التربية في القرآن والسنة، تقديم أ.د. وهبة الزحيلي، ص (٢٨٠)، دار المعرفة، ط١، دمشق – سوريا سنة (١٤١٦ – ١٩٩٦م).

انفرطت من بين أصابعنا عقود خطط جيدة الإحكام في مجالها، ولكنها لم توضع والتخطيط الأخلاقي في حسبان مصمميها، ولم تنفذ على أرض مهدها مخطط أخلاقي اجتماعي يحسب لضوابط الضمير ومعايير السلوك قدرها ودورها في حركة الحياة من خلال أي تخطيط إنساني.

وما أكثر ما يغفل التخطيط، وما أكثر ما يغفو المخططون، وما أقل ما تبلغ الخطط عندنا مقاصدها المرجوة" [1].

إن التربية السليمة أساس لكل عطاء، فاتصال المُربِّي بالله تعالى يجعله صادقاً في درسه، وتقويمه، مستنيراً في توقعاته، مخلصاً متقناً لأدائه، طموحاً في غاياته لإحساسه التام أن الله معه، فأنى يخالفه؟ وكيف يرضى أن يأتي ما يغضبه؟ فاستقامة التربية وسلامتها أساس كل نجاح.

وسوء التربية خطر لا يدرك مداه، ولا يحاط بآثاره، ولذا كان الاحتراس لازماً عند اصطفاء أي منهج تربوي، على أنه من المُسلَّم به أن لكل منهج مصادره، ومصادر التربية البشرية تحكمها توجُّهات وأعراف، وبيئات وأهواء فيها تعصبها وميلها ونقصها البشري أما المنهج الإسلامي فهو منهج معصوم لأن مصدريه الأولين (القرآن الكريم والسنة النبوية) وحي من الله تعالى، يقول عز وجل عن رسوله ومصطفاه (٢):**وَمَا يَنْطِقُ عَنْ الْهَوَى** (٣) **إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى** (٤) [1]

وإذا كان الوحي هو الأصل والمنطلق فهو من الله ذي الجلال: **أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ** (١٤) [2]

١- أ.د. سيد أحمد عثمان ، المسؤولية الاجتماعية والشخصية المسلمة، ص(٦٩)، بتصرف، مرجع سابق.

١- سورة النجم الآيتان (٣- ٤).

٢- سورة الملك الآية (١٤).

٣- سورة النساء الآية (٦٥).

حتى حين يكون الخلاف وتشعب الآراء كتفاوت عطاء الله تعالى لمن أخذوا أنفسهم بالبحث، وعكفوا على الدراسة نجد العودة إلى الله تعالى ورسوله (ﷺ) (القرآن الكريم والسنة الشريفة)أمراً محتوماً يقول جل شأنه: **﴿ فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً ﴾** (٦٥) [٣]

"فالسبيل إلى إصلاح الفرد والمجتمع هو صياغة التربية وفق منهج القرآن الكريم والسنة الشريفة ولا يعني هذا الاقتصار عليهما في التعليم، بل جعلهما أساساً في التربية والانطلاق مما فيهما من الأحكام والأسس تلك الضوابط الربانية التي لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها ويجب أن تكون مناهج المواد المختلفة منبثقة من منهج القرآن والسنة وموافقة لهما، وملائمة للطلاب الذين يدرسونها، وللمجتمع الذي يعيشون فيه ولا يتمكن من وضع هذه المناهج غير العلماء المؤمنين الذي نهلوا من معين القرآن، واقتبسوا من نوره، فتخلصوا من رواسب المجتمعات الجاهلية، وطرحوا الأفكار الدخيلة على هذا الدين.

ولا يحسبن أحد أن مناهج الدول الغربية التي سبقتنا في مضمار الرقي والتقدم صالحة لبلادنا؛ لأن المناهج يجب أن تكون متفقة مع عقيدة الذين وضعت لهم وملائمة لواقعهم. ثم إنا لا نريد تقدما في الناحية المادية وحدها كما حدث في تلك الدول الغربية، حيث استعبدتها المادة وماتت فيها الروح فتقدمت صناعتها، واخترعت أجهزة لرفاهية الإنسان، ولكنها افتقدت الصلة بالله تعالى، فغابت عنها القيم الفاضلة، وبرئت من إنسانيتها، فضلاً عن فساد عقيدتها، فأضرت بالكون أكثر مما نفعت، وأفسدت الحياة والأحياء أكثر مما أصلحت، فاخترعت أسلحة فتاكة تعرض البشرية للفناء، وعجزت عن النهوض بالجانب الاجتماعي والروحي للناس، فبقي المرء يعيش في عزلة عن غيره، وبقي المجتمع متفككاً، يعاني

من سلب الأموال وسفك الدماء، وانتهاك الأعراض، ولم يذق الإنسان طعم السعادة؛ فانصرف إلى تناول الخمور والمسكرات والمُخدِّرات، وأصبح يئن مما أصابته به تلك الحضارة المادية من أمراض نفسية وعصبية وعقلية وجسمية، وأقدم على الانتحار ليضع حداً لبؤسه وشقائه.

أما المناهج المستمدة من القرآن والسنة فإنها تصلح للفرد والجماعة، وتتلاءم مع فطرة الإنسان، وتحقق سعادته، وتشمل كيانه كله، وتنهض بكل جانب من جوانبه الجسمية والنفسية والاجتماعية والخلقية، وتؤدي إلى التقدم والتفوق على أمم الأرض كلها"[1]

ولتحقيق ذلك يجب أن يكون هناك تحرك تربوي إسلامي يحرص على أن يعيد النظر في المسار التربوي في مجتمعنا المسلم بحثاً ودراسة، وواقعاً وتطبيقاً من خلال خطوات:

١- الذين أوتوا بسطة في علم التربية، وقد شرفوا بالإسلام ديناً عليهم أن يراجعوا أنفسهم فيما أفاء الله عليهم من علم، ويوقنوا أن لذلك الدين الحنيف عليهم حقاً، فهم إن تحدثوا أو كتبوا، بحثوا أو دَرَسوا أو دَرَّسُوا فإنما يعبرون عن الإسلام، ويتحدثون بلسانه، ويكشفون للعالم دلائل عظمته من خلال عطائهم، والانسلاخ عن الإسلام أو إغفاله ضياع وبوار، وما علا بناء الغرب في التربية وغيرها إلا بأسس جدَّ فيها أسلافنا، وكان القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة منطلقهم وهداهم فيما أعطوا.

٢- إعادة النظر فيما وضع من مناهج في التربية لبناء المعلم في الجامعات، أو دور المعلمين أو غير ذلك من المؤسسات المعنية بتخريج المعلم المسلم، والحرص على ألا تكون هذه المناهج عارية من الفكر الإسلامي مجردة من الأخذ به، بل ينبغي أن يكون الإسلام باعثها ومحركها، وأن تكون تعريفاً يسبق الإسلام التربوي وحداثته، وإن بدأ منذ قرون بعيدة.

١- عمر أحمد عمر، منهج التربية في القرآن والسنة، ص(٢٨٠- ٢٨١)، بتصرف، مرجع سابق.

٣- أن يراعى في تدريب الطلاب السلوك التربوي واقعاً وممارسة، ويحكم للطالب أو عليه من خلال التزامه أو تفريطه ولا ينبغي أن تكون فترة التدريب منحة ترويح للطالب والمشرف عليه، يعقبها فرض هذا المدَّرب على التربية وربما كان ذلك التوجيه بلاءً على التربية، ومن نعمل من أجل تربيتهم.

٤- ألا يدخل ميدان التربية إلا مؤمن بها، حريص عليها، قادر على بلاغها، راغب في ذلك، ويقصى من الساحة من لا طاقة له بها، ولا قدرة له على تحمل معاناتها، ولا رغبة لديه في العمل وفاءً لها، ويبدأ هذا من اختيار الطالب، واختباره اختباراً دقيقاً كاشفاً يقر حقه في أن يكون معلماً أو لا يكون أما أن يكون المجموع هو الأصل في التوجيه إلى كليات التربية، أو تكون الحاجة المُلِحَّة إلى ملء الفراغ، وتوفير الطاقات البشرية للمدارس، بغض النظر عن استعدادات المرشح لهذا العمل فلا إنصاف فيها للتربية، ولا بلوغ بهذه العلل الواهية وغيرها، ولنضع في اعتقادنا أننا مسؤولون بين يدي الله تعالى؛ لأن الأمر جد خطير، والرسالة كبرى لا يقوى لها إلا العظماء.

٥- أن يعاد النظر في أوضاع صانعي الأجيال وإنصافهم وحسن الظن بهم فقد صارت مهنة التربية في كثير من البلاد النامية دنيا المهن، وأيسرها إذا سدت الأبواب في وجه طالبي العمل، فالتحق بحقول التربية فاقدوها الجاهلون بها، الغرباء عن ميدان جهادها، بل وُلُّوا القيادة في كثير من مواقعها، ومن المُسلَّم به أن فاقد الشيء لا يعطيه فلن يكونوا غير بوار وضياع لأعظم رسالة ألا وهي التربية.

٦- إعادة النظر في إدارات المدارس، ودقة متابعة القائمين دون حرج، أو مراعاة لأي اعتبار غير صالح التربية، فالأصل أن إدارة المدرسة تعمل في اتجاهين لا ينفك أحدهما عن الآخر: اتجاه تربوي يعين المربِّي والمُربَّى، ويهيئ المناخ المناسب لقيام تربية سوية، وآخر إداري: يخدم الاتجاه السابق،

ويؤازره، مع رعايته للنظم والضوابط ، وما هي إلا خادمة للتربية عاملة على إنجاحها.

٧- الإشراف الإداري بالمدارس ركن مهم من أركان التربية في تلك المؤسسة، فدور المشرف في متابعة الطلاب خطير، وإحصاؤه لتحركاتهم، ومحاولة اكتشاف توجهاتهم خارج الصف، وتقلباتهم في مرافق المدرسة، فقد تؤدي خلوة الطالب أو مجموعة من الطلاب إلى تصرفات لا يحمد عقباها فضلاً عن وجود نظام التعليم المشترك الذي يتيح اختلاط الجنسين في بلاد كثيرة فيكون ذلك حتى نهاية المرحلة الثانوية، وهي فترة خطيرة في حياة الفتى والفتاة، وهنا تصبح اليقظة التامة ضرورية، والمتابعة شاملة متنوعة.

٨- الإشراف الاجتماعي تربية من نوع فريد- أو ينبغي أن تكون كذلك - حيث تدفع كليات التربية الاجتماعية بأفواج من الأخصائيين والأخصائيات ملئت رؤوسهم بنظريات غربية أكثرها خاصة قد تكون ذاتية وقد تعبر عن بيئة وزمان معينين واقتنع بها باحثونا، وصبغوا فكرهم وتوجهاتهم بها، وما كلف أكثرهم أنفسهم مشقة البحث والإضافة إضافة تكشف عن هويته كمسلم، وجهوده كمتابع لفكرنا الإسلامي وإفادته منه، وإثراء طلابه وطالباته به ، وقد يقال: إن الفكر الإسلامي فقير في هذا المجال، والحق غير ذلك فمنشأ علم الاجتماع إسلامي الأصل وتوالت إضافات قد تكون محدودة، ولكنها ذات قيمة، واكتفى كثير من الباحثين بالغوص في الفكر الغربي وأعطوه الريادة، وحكموا على أنفسهم ومن يلونهم بالتبعية، وخلدوا إلى الراحة، فكانوا لسان غيرنا، وفكر من عملوا لبيئاتهم، وصار جل اهتمام الإشراف الفني في هذا المجال ورقيات حددت مسمياتها، وروعي الإتقان في إخراجها وملء سطورها، ورسالة الأخصائي معطلة، حيث يعاني من الفراغ، ويؤدي دوراً رتيباً خالياً من الروح والعمق الاجتماعي، وهو المكلف بمعايشة طلابه، والغوص في أعماقهم، والوقوف على مشكلاتهم،

والعمل على وضع الحلول المناسبة لها، ولكن أنى له ذلك؟ وقد تحول هو إلى عبء ومشكلة.

٩- أن يولي معلمو ومعلمات النشاط اهتمامات تربوية خاصة تجعلهم يدركون قيمتهم، ودورهم الرئيسي في التربية، فمن المؤكد الذي لا مراء فيه أن معلم أي مادة نشاطية قد يكون موضع جذب يلتف حوله طلاب المدرسة، ويستجيبون له، ويدخلونه في كثير من مشكلاتهم الخاصة،أو الناجمة عن الاحتكاك داخل المدرسة، فلو أحسنَّا اختيار معلمي ومعلمات النشاط، وأَجَدْنا إثراءهم تربوياً لحققنا كسباً له أهميته في عملية البناء التربوي، مع ضرورة تعديل النظرة إلى هذه المواد، والتركيز على أهميتها.

١٠- إعادة النظر في الإشراف الفني الوارد إلى المدرسة، فقد خلا من روح التربية، وانحصر اهتمامه في قدرة المعلم وكفاءته العلمية، وأثره التعليمي في الطلاب، وقياس مستواهم العلمي، ومراجعة أعمالهم التحريرية دون غوص في المشكلات التربوية والعلاقات التربوية بين المعلم وطلابه، أو بين المعلم وإدارته، وقد يُتعَّلل بإثقال المشرف بكم هائل من المعلمين، مما يباعد بين الزيارات، وليت الوفاء قائم في تلك الزيارات القليلة، بل النادرة، فالمشرف لا يمضي في المدرسة غير وقت محدود ينصرف بعده إلى مصالحه الخاصة تاركاً كل التعليقات، ورفع أقوام وخفض آخرين دون سند من واقع عملي.

١١- توثيق العلاقة بين البيت والمدرسة،باعتبارهما شريكين في خدمة عالية لا انفكاك لأحدهما عن الآخر، والتفنُّن في تنويع دوافع هذه العلاقة، وعوامل إثرائها ليظل وجها التربية على اتصال دائم، يرعى التميز ويثريه، وينقي المناخ التربوي من عوامل الهدم والتخلف.

١٢- إعادة النظر في العلاقة بين المعلم والطالب، فقد ذهبت هيبة المعلم في كثير من بلادنا الإسلامية والعربية، وتطاول كثير من الطلاب على

معلميهم، ورفعت هذا التعدي على المعلم غالباً أو على الطالب إلى القضاء، ووقف المعلم والمتعلم خصمين في ساحة القضاء، وافتقدت المدرسة الضوابط التي تصون للمعلم كرامته، وتهيئ المناخ المناسب لقيام عملية تربوية أساسها التوافق والانسجام في العلاقة بين أطراف العملية التربوية.

هذا ولا أدعي استقصاء كل متطلبات إصلاح المسار التربوي في المدرسة المعاصرة، فالموضوع أكبر من أن يحيط به باحث، وهو أحد الموضوعات التربوية الهامة التي تحتاج إلى تضافر الجهود، وتجميع الخبرات والآراء للوصول إلى حل مناسب يخدم التربية، ويعيد للمدرسة كمؤسسة تربوية مصداقيتها، ومكانتها في البناء التربوي.

الفصل الرابع:

دور المكتبات

المكتبة والبناء التربوي:

تحتل المكتبة مكاناً مرموقاً في المجتمعات الراقية عامة ، وفي التربية خاصة، والحق أن تاريخ المكتبات جزء لا يتجزأ من تاريخ الحضارة الإسلامية والفكر الإسلامي ارتقت بارتقائه وساعدت على ازدهاره ونضجه وانحطت بانحطاطه، ولا غرو في ذلك فالإسلام العظيم دعا إلى المعرفة وإلى التعليم وإلى إنارة العقول بالقراءة والكتابة وإن أول ما أوحى به الله سبحانه وتعالى لعبده ورسوله محمد (ﷺ) هو القراءة والتعليم بالقلم في قوله تعالى: **اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (٥)** [1]

"وكرر الأمر؛ لأن القراءة لا تكسبها النفس إلا بالتكرار والتعود على ما جرت به العادة، وتكرار الأمر الإلهي يقوم مقام تكرار المقروء ، وبذلك تصير القراءة ملكة للنبي (ﷺ)،وتدبر قوله تعالى: **سَنُقْرِئُكَ فَلا تَنسَى (٦)** [2] [3] "

وصارت القراءة طريق المعرفة التي أرادها الله تعالى لتلك الأمة ودعاها إليه.

"والآيات والأحاديث الحاضة على العلم والتعلم كثيرة ومتنوعة ، وهذه التعاليم أثمرت ثمرتها بسرعة مذهلة إذ لم يكد يمضي قرن من الزمان على ميلاد الإسلام حتى شمل هذا الدين الحنيف القسم الأكبر من العالم المعروف آنذاك وحتى بدا العلماء يجوبون تلك المنطقة بحثاً عن العلم والتعلم والمعرفة وحتى انتشر نور المعرفة في أرجائها.

١- سورة العلق الآيات (١- ٥) .

٢- سورة الأعلى الآية (٦) .

٣- المراغي، تفسير المراغي، جـ(٣٠)، ص(١٩٩)، مرجع سابق.

إن تاريخ الكتب عند المسلمين مهم جداً وأساسي لمعرفة تطور المعرفة عندهم ذلك أنه لم يتفوق على المسلمين أمة من الأمم في حبهم الكتب والعناية بالمكتبات والمعرفة عامة وإنه ليبدو غريباً أن شعباً بدوياً ساذجاً خرج من شبه الجزيرة فجأة ليحتل العالم المعروف آنذاك وفي سنوات قلائل أصبح سيد العالم.

أقول إن من الغرابة بمكان أن مثل هذا الشعب احتضن المعرفة الإنسانية عامة ورقاها وساهم بها بشكل رائع لا مثيل له، ولكن هذا العجب يزول إذا تذكرنا أن العرب كانوا حملة رسالة وأن رسالتهم تدعوهم للاطلاع والاستزادة من المعرفة وأن الحضارة الإسلامية في أساسها حضارة إنسانية تشمل الإنسانية بكاملها وتحترم ما ينتجه الآخرون ولا نرى مانعاً من تقبله وتمثله إذا وجدت في ذلك فائدة وهذه الصفة الإنسانية للحضارة الإسلامية هي من أهم صفاتها إن لم تكن أهمها وهي التي مكنتها أن تحيا على مر العصور وأن تثير الإعجاب بشكل دائم وأن تكون معيناً لا ينضب للدراسات المتعاقبة إن العجب ليس في أن العرب لم يدمروا الثقافات التي وجدوها في البلاد التي فتحوها فحسب وإنما العجب في أنهم وبسرعة خاطفة شاركوا أبناء تلك البلاد ثقافاتهم وبعد هنية أصبحوا هم سادة هذه المعارف التي كانت غريبة كل الغرابة عليهم.

اهتمت الحضارة الإسلامية بنشر العلم وتعميمه وجعله ميسراً مبذولاً لكل فرد من أفراد الشعب والمكتبات من أهم وسائل نشر المعرفة على مدى العصور وقد انتشرت المكتبات في الإسلام انتشاراً واسعاً وهي، وإن كانت ثمرة من ثمار الحضارة العربية الإسلامية، إلا أنها تعكس في تاريخها تطور هذه الحضارة التي كانت هي نفسها ثمرتها. وأن الأطوار التي مرت بها المكتبات هي أطوار الحضارة الإسلامية بشكل عام فقد مرت في الأدوار المألوفة من دور حضانة إلى دور ترعرع وازدهار إلى دور تدهور وانحطاط

فكانت كما قلت كائنات عضوية في المجتمع الإسلامي عاشت حياته وازدهرت بازدهاره وانحطت بانحطاطه"[1]

فالمكتبة في المجتمع المتقدم ليست من الكماليات ، ولا من متممات الحضارة الظاهرة، ولكنها ركن أساسي في بناء الحضارة وصنع الإنسان.

"فالمدرسة مثلاً تعطي التلميذ والطالب مفاتيح العلم ومقدمات المعرفة، تعلمه القراءة والكتابة والحساب ، وتضع يده على الخطوط العامة العريضة في بعض فروع العلوم، أي أنها تقوم بما نسميه بعملية التعليم ، أما العلم نفسه وما نسميه بعملية التعلم فإنه لا يوجد إلا في المكتبة؛ تلك المؤسسة التي تقتني مصادر العلم وتنظمها وتحللها وتدعو القارئ إلى الاستفادة مما تحمله من معلومات، وتهيئ له الفرصة للتعلم الذاتي والولوج إلى عالم رحب فسيح من العلم والمعلومات.

إن الكتاب المقرر يلقّن الطالب المعلومات التي قد يفرض عليه استذكارها واستظهارها لأداء الامتحان فيها ثم ينساها بعد ذلك. أما المكتبة فإنها تقدم له فرص البحث عن المعلومات بنفسه وفي مصادر متعددة ومن ثم فإن هذه المعلومات تبقى في ذهنه ولا تنزع نحو النسيان كما يحدث في المعلومات المقررة."[2]

وليس هناك بناء للإنسان يداني بناء القراءة له ، وإثراءها لقدرته، وتنميتها لاستعداداته ومواهبه؛ حيث اتسع الكتاب لكل شيء ، واستقبلت المطابع ذخائر التراث، واهتمت بنتاج العقول المعاصرة مع كثرتها وتنوعها، واختلافها باختلاف البيئات ، ومدى العمق الحضاري لأي مجتمع من المجتمعات ، وساعد تطور الطباعة على الإبداع في إخراج الكتاب، وإضفاء

١- د. محمد ماهر حمادة، د.علي القاسمي، تنظيم المكتبة المدرسية، ص(١٠- ١١)، مؤسسة الرسالة، ط(٣)، بيروت – لبنان، سنة (١٤٠٥هـ - ١٩٨٤م).

٢- لجنة من وزارة التربية والتعليم وجامعة قطر ،التربية المكتبية في المدرسة القطرية،ص(٨)، مطابع وزارة التربية والتعليم ، ط(١)، الدوحة – قطر، ١٩٩٢م.

ما يمكن من عوامل الجذب على شكله، فضلاً عن التلوين في المحتوى ، والحرص على أن يكون ذا جاذبية تقربه من القارئ وتدفعه إلى اقتنائه والحرص عليه، وقد أدركت الدول المتقدمة ذلك وأعطت الكتاب ما يستحق من أهمية " إن الكتب في بلاد الغرب جزء لا يتجزأ من حياة الكثير من الأطفال ، حيث يترعرع المحظوظون منهم مع الكتب وتُهدى لهم مجموعات مختلفة منها حتى قبل دخولهم المدرسة ولا حاجة هناك لتعويد الأطفال على الكتب ما داموا قد اعتادوا سابقاً على القراءة للمتعة والتسلية . أما أطفالنا فإن القليل منهم قد أتيحت لهم مثل هذه الفرصة ذلك أن قسماً كبيراً من المدن والقرى العربية لا يوجد فيه محلات لبيع الكتب وكثير من الآباء لا يجد ثمن أرخص الكتب لشرائه لأطفاله الذين قد لا يجدون المكان الهادئ لمطالعة ما قد يقع في أيديهم من كتب "[1]

وإذا كنا نحن المسلمين أعظم الأمم إيماناً بالمعرفة، وحرصا على التراث، ودعوة إلى طلب العلم فأولى أن نحذوا حذو سلفنا ، وأن نربي أجيالنا على ما نشأت عليه أجيال سلفنا من رغبة في العلم، وسبق إليه، وتنافس في تحصيله، ومجتمعاتنا أحق بأن تهيئ ذلك لأجيالها، حيث تخلو كثير من المدن والقرى العربية من مصادر لعرض الكتاب وبيعه، وفي كثير من الأحيان إذا وجدت تميل إلى لون معين وتخدم طوراً خاصاً من أطوار الإنسان، وقد يَحُول ارتفاع الأسعار دون شراء الكتب ولا بديل لذلك غير المكتبات العامة بسماتها المميزة ، وقدرات القائمين عليها في تحديثها وتزويدها بما يلبي شتى الميول، ومختلفي الأعمار ، أو على الأقل قدرتهم على احتواء الرواد ، ونجاحهم في تضاعف أعدادهم.

١- د. محمد ماهر حمادة، د. علي القاسمي، تنظيم المكتبة المدرسية، ص(٣٣)، مرجع سابق.

أهمية المكتبات :

ومع تطور الحياة، وتنوع معطيات العلم، زادت أهمية المكتبة، وتطور محتواها، استجابة لروح العصر وتلبية لرغبات قاصدي تلك الصروح الزاخرة بالعلم، القائمة لرعاية الثقافة، وتنوير الفكر ، وبناء الإنسان بناءً يتناسب وروح عصره، ويعده لمستقبل أفضل؛ ولذا كانت المكتبات العامة ضرورة في القرية ، والمدينة على السواء، بل في النادي والمصنع، وذلك لأمور منها :

١- " إن الغاية الأساسية من إيجاد مكتبة في كل مدرسة هي خدمة البرامج التعليمية المقررة وتعزيزها وإكمال نواقصها فيجب أن تكون المواد الموجودة في المكتبة منتقاة وبالدرجة الأولى من أجل هذا الهدف وفي كثير من مكتبات المدارس في الولايات المتحدة ألغيت غرف الحصص وأصبح المدرس يجتمع مع تلاميذه في قاعة المكتبة أو على الأرجح في ركن معين منها ، ذلك أن مواده الأساسية والتكميلية موجودة في المكتبة تحت متناول يده". [١]

٢- إن ارتفاع الأسعار لم تسلم منه الكتب، بل تأثرت به تأثراً واضحاً، فارتفعت أسعارها ارتفاعاً ملحوظاً لا يتناسب مع دخل الأفراد في كثير من البلاد مما يجعل شراء الكتب صعباً على كثير من الناس فضلاً عن المراجع الأساسية، وهنا يبرز دور المكتبة، وتتجلى قدراتها في جمع ما يستعصي على الأفراد جمعه، وتيسيره لراغبي الاطلاع عليه.

٣- بلغت الكتب من الكثرة والتنوع ما يصعب معه على أي فرد أو أسرة جمع أقل القليل مما تنتجه المطابع في عام واحد، بل ربما يستحيل ، فضلاً عما ينتجه العالم حديثاً، أو بعيد طباعته ونشره من كتب التراث.

١- د. محمد ماهر حمادة، د. علي القاسمي، تنظيم المكتبة المدرسية، ص(٣٤)، مرجع سابق.

٤- نظراً لإمكانات المكتبات، وقدراتها المالية تستطيع أن تجمع كثيراً من نتاج العقول، وعطاء المطابع محلياً وعالمياً، وتنظمه بخبراتها، وتعرضه عرضاً مناسباً على القراء ليختار كل ما يلائم ذوقه، ويتفق وقدراته.

٥- الباحث أو المؤلف تتنوع اهتماماته، وتتكاثر مراجعه ما بين تراثي ومعاصر، ولا يتسنى له الحصول عليها بجهد فردي فضلاً عن أن وجوده داخل مكتبة، ومعايشته لمراجعها قد يضيف إلى مراجعه جديداً، ويوفر له حاجاته من المراجع المُعِينة للوصول إلى هدفه.

٦- يمثل التراث في أي أمة من الأمم ذخيرة يعتز بها ، ويحافظ عليها، لتحمل أمانته أجيالها جيلاً بعد جيل ، ولا يتحقق ذلك على الوجه الأكمل إلا عن طريق المكتبات.

٧- "إن المكتبة بالنسبة للمجتمع هي كالذاكرة بالنسبة للفرد فكما أن كل فرد له ذاكرته الخاصة به يستعين بها عند الحاجة ويجمع بها معلوماته ويغذيها على الدوام كذلك المكتبة هي ذاكرة المجتمع يختزن فيها خبراته وتراثه، مع خبرات الآخرين وتراثهم،ويغذيها على الدوام غالباً بكل جديد ونافع ليستخدمها أبناؤه حين الحاجة إليه، ويجعلوا منه منطلقهم الفكري والثقافي.

٨- تلعب المكتبة دوراً متزايداً في التعليم والتدريس وفي الحياة الاجتماعية والاقتصادية، أو قل: في حياة الناس عامة؛ بحيث يمكن القول: إن المكتبة تحتل في المجتمعات المتقدمة مركز الصدارة وهي الموجه لذلك المجتمع في جميع الميادين."[١]

ولذا ليس بغريب أن نرى الأمم المتقدمة تسعى جاهدة للنهوض بالمكتبات، والعمل على نشرها، وتزويدها بزاد ثريٍّ يفي بحاجات

١- د. محمد ماهر حمادة، د. علي القاسمي، تنظيم المكتبة المدرسية، ص(٦)، بتصرف، مرجع سابق.

البيئة، ويصلها بغيرها، مع إمدادها بما تيسر من المعدات والأجهزة مسايرة للعصر، وظهور التقنيات، وتطورها السريع تمشياً مع تطور الحياة، وتوفير الخبرات البشرية اللازمة المؤهلة لإدارة المكتبات، وتأكيد قيمتها وأهميتها في المجتمع.

أهمية المكتبات المدرسية:

تعتبر المكتبة ركناً أساسياً في المجتمع، ومركز إشعاع ينبغي أن يبهر جميع أبناء وبنات المدرسة، ويجمعهم على موائده، ويقدم كل شهي نافع ذي قيمة، مما يجعلهم يُجلُّون هذا المكان ويودون العودة إليه، والاستمرار في ارتياده.

ولم تعد المكتبة المدرسية مجرد نشاط خارج المنهج الدراسي، بل أصبحت مركزاً مرموقاً، وموطناً أصيلاً للتعليم والتعلم، ولم تعد قاصرة على الطلاب، بل نافسهم فيها المعلمون، واطلعوا من خلالها على كل جديد مفيد للمعلم والمتعلم.

وغالباً ما تكون المكتبة المدرسية أول نوع من المكتبات يطالع الطفل في حياته، ومنها تتحدد علاقته بتلك المؤسسة ويتحدد موقفه حيالها، ومدى رغبته في ارتيادها، وحرصه على التعرف على مقتنياتها ارتواءً منها، واستعانة بها في إبراز مواهبه المكنونة ، فإذا نمت علاقته بالمكتبة من خلال المكتبة المدرسية نمواً طيباً وتوثقت صلته بها عن حب ورغبة استمرت تلك العلاقة، وزادت، ومنحها هو من فكره ووجدانه كل ما يدعمها، ويؤصل ارتباطه بها طول حياته عاش وفياً لها، مولعاً بزيارتها، والتزود منها.

إن المكتبات المدرسية ضرورية وهامة في كل مكان وزمان، والحاجة إلى هذه المكتبات تظهر بصورة أوضح في العالم العربي . ولقد شُبِّهت المكتبة المدرسية بالقلب الذي يمد سائر الجسم بالدماء إليه ترد وعنه تصدر نقية فاعلة، وهي الرأس الذي هو مركز تفكير الإنسان ودعامة

توازنه ومقر أهم حواسه فكما أن الجسد لا خير فيه ولا حياة بدون رأس ولا قلب، كذلك المدرسة تكون جسداً بلا روح، وهيكلاً بلا حياة، وشكلاً من غير معنىً إذا خلت من مكتبة مدرسية معطاءة تتسع لطلابها وتستجيب لطموحاتهم.

وقد اتجهت الحكومات الحديثة إلى إنشاء مكتبة في كل مدرسة، وعملت على توفير الخبرة البشرية المتخصصة لإدارتها، وعقدت دورات تدريبية للارتقاء بهم، وتزويدهم بكل جديد في عالم المكتبات المعاصر، والارتقاء بهم تربوياً، ليكونوا عوامل جذب ، وبواعث رغبة في ارتياد المكتبة والتعرف على ما فيها، كما حرصت على إمداد المكتبات المدرسية بالمعدات والأجهزة اللازمة، وتدريب القائمين على المكتبات على التعامل مع تلك الأجهزة، تجديداً لنشاط الرواد، وتشجيعاً لهم على المكث بها، وإزهاقاً للملل والنفور، وتتضح أهمية المكتبات المدرسية في أمور من أهمها:

١- غرس عادة القراءة وتعهدها، وتشجيع التلاميذ عليها، وترغيبهم في الاطلاع للمتعة والتسلية، ثم لجمع المعلومات ، وإثراء عمليتي التعليم والتعلم ، وإيلاف القراءة الصامتة الواعية.

٢- ليس بمقدور الطالب التعرف على أنواع الكتب ، واختلافها، وتنوع المادة المقدمة من خلالها بإمكاناته الخاصة مادياً ومعنوياً، مهما بلغت، والمكتبة إذا جمعت بإتقان، وروعي في انتقاء قوامها الأصول المكتبية شملت أنواعاً شتى من الكتب يمكن أن يتعرف الزائر من خلالها، على هذه الأنواع، ويألفها ويفرق بينها.

٣- يتعود الطالب من خلال المكتبة المدرسية حسن التعامل مع الكتاب والحرص على أن يظل رونقه جميلاً، حتى يجده القراء دائماً في أحسن صورة، وأبهى منظر، وبذلك تنجح في تنمية احترام الكتاب في نفوس التلاميذ، وتعويدهم على العادات الصحيحة فيما يتعلق

بإمساك الكتب، وعدم قطع الصور منها أو التعديل فيها، أو التعليق عليها، أو ثني الصفحات، أو كتابة التعليقات، أو وضع الإشارات الخاصة بنهاية المقروء عليها، ويجب إرشادهم إلى أحسن السبل لفتح الكتب الجديدة، أو الرجوع بها إلى أمين المكتبة ليكسبهم تلك الخبرة، ويغرس فيهم الحرص على سلامة الكتاب وعدم تمزيق ورقه حتى في حالة فتح أوراق الكتاب الجديد.

٤- تنمية قدرات التلاميذ على استعمال الكتب واختيارها بأنفسهم، والتعلم منها دون حاجة إلى المدرس أو مساعدة منه.

٥- تعود المكتبة الطلاب على حسن استخدام أوقات فراغهم فالطالب الذي يجد متعة في الذهاب إلى المكتبة يستخدم وقت فراغه استخداماً مفيداً فيه المتعة، وفيه التسلية، وفيه الترقي المعرفي، والتوسع الفكري، كما أن فيه إشباعاً لكثير من هواياته، واستجابة طيبة موفقة موجهة لاستعدادته.

٦- القضاء على التقسيمات الجامدة التي يصطنعها الجدول الزمني بين المواضيع المختلفة: حيث يشعر الطلاب بأن عملية التعلم يمكن أن تحدث في العمل المدرسي، وفي اللعب، وفي الهوايات، وفي الأحداث اليومية، بينما يوحي الجدول المدرسي بوجود حواجز بين المواد المختلفة فتعمل المكتبة المدرسية على إذابة ذلك عن طريق تجميع الكتب المتنوعة في مكان واحد مما يبعث الشعور بوحدة المعرفة وتكاملها ويسر التعامل معها ، والأخذ في حرية لا تعوقها قيود المنهج، ولا جمود الكتاب المقرر، ولا رتابة الفصل، وثقل التزاماته وتبعاته.

٧- العناية بالجانب الاجتماعي، وإمداده بقيم تدعمه، وتؤصله، وتحسن توجيهه، بحيث تمكن للطالب أن يعمل من خلال الجماعة

في تعاون تام، واحترام لحقوق الآخرين وتقدير لمشاعرهم، وتوفير الجو المناسب للتحصيل، مع كثرة العدد، وربما تلاصق المقاعد، فلا ضوضاء ولا تدخُّل في اختيارات الآخرين، ولا تطلع لما لديهم من كتب إلا بعد فراغهم منها.

٨- إكساب الطلاب خبرات مكتبية من خلال تكليفهم ببعض الأعمال المكتبية مثل ختم الكتب الجديدة، وإعداد بطاقات الاستعارة، والإلمام بتصنيف الكتب والفهرسة، وقوائم الكتب ومصادرها، بحيث يمكن للطالب الحصول على المعلومات المطلوبة من المكتبة بأنفسهم دون مساعدة.

٩- توجيه الطلاب إلى المثل العليا والأخلاق الفاضلة، والسلوك الحسن، بطريقة عملية بسيطة يقدمها أمين المكتبة كمربٍّ واعٍ حكيم من خلال ما يقدم لأبنائه من زاد روحي ، وخلقي وعلمي ، يجعل من الطالب مواطناً صالحاً فاعلاً.

١٠- "تقديم خبرات التثقيف جنباً إلى جنب مع خبرات العمل، والتدريب على طرق البحث وتنمية أسلوب التفكير السليم والقدرة على التحمل والربط والتركيب ومن ثَمَّ التطوير .

١١- تدريب الطلاب على تحديد المشاكل وعزلها بعضها عن بعض وتحليلها وتدريبهم على أساليب حلها.

١٢- إعداد الطلاب الذين لا يرغبون في مواصلة تعليمهم لمراحل أعلى للعمل في مهنةٍ مّا أو وظيفة بالذات."[١]

١٣- تعمل المكتبة على توظيف القراءات الوظيفية، والمهنية والقراءات التثقيفية جنباً إلى جنب في بيئتها المهيأة ، ومناخها المناسب.

١- لجنة من وزارة التربية والتعليم وجامعة قطر، التربية المكتبية في المدرسة القطرية، ص(١٤)، مرجع سابق.

١٤- إتاحة خدمات متميزة للفئات الخاصة كلٌّ بما يناسبه كالفائقين، والموهوبين ، وكذلك المتخلفين ، والمعاقين.

١٥- أضافت التقنية الحديثة إلى المكتبة خبرات أخرى، كالحاسوب والإنترنت، والتسجيلات الصوتية، وغير ذلك .

١٦- مساعدة المعلمين بالمدرسة في قراراتهم: أثبتت بحوث القراءة أن هناك علاقة طردية بين قراءات المعلم وقراءات طلابه فكلما كانت قراءاته كثيرة ومتنوعة كلما كثرت وتنوعت قراءات طلابه، والأهم من ذلك أنه كلما كثرت قراءات المعلم وتنوعت كلما ارتفع أداؤه، وتميز عطاؤه، وزادت قدراته على احتواء طلابه.

والمعلم يقرأ لتحضير الدروس التي يلقيها على الطلاب وتوسيع معلوماته حول محتوى الكتاب المقرر كما يقرأ للتثقيف الذاتي وأيضاً للترفيه والترويح عن النفس وكانت المكتبات المدرسية في الماضي تضع الطالب وحده في الاعتبار عند اقتناء مصادر المعلومات وعند تقديم الخِدْمات المكتبية ولا تضع المعلم في اعتبارها حيث كان عليه أن يتوجه إلى مكتبة الوزارة أو المكتبة العامة أو الوطنية بحثاً عما يقرأه، إلا أن الحال تغير تماماً في الوقت الحاضر وأصبح لزاماً على مكتبة المدرسة أن تهيئ للمعلمين مصادر المعلومات اللازمة لهم في إعداد دروسهم وقراءاتهم التثقيفية والترويحية شأنهم في ذلك شأن الطلاب، بل أصبح من المهم في تقويم المعلم متابعة زوراته المكتبية.

ليس هذا فحسب بل إن المكتبة المدرسية مطالبة بتدريب المعلمين على استخدام مصادر المعلومات واسترجاع المعلومات منها وأيضاً استخدام أدوات وأجهزة المكتبة شأنهم في ذلك شأن الطلاب وإن اختلفت الطريقة والظروف؛ لأنهم هم الذين يحققون أهداف التربية الحديثة وبالتالي فلابد وأن البدء بهم وتسليحهم بالأسلحة اللازمة حتى إذا ما دعونا إلى تربية حديثة

تقوم على البحث والتحليل، والفهم والتلخيص، وَجَد الطالب في المعلم موجهاً، عارفاً بمصادر البحث ومغذيات الفكر، ومعينات الدراسة، ومصادرها؛ ليوقف عليها الطالب، ثم يقيمه من خلال امتحان تربوي حديث، فإذا لم تتوفر للمعلم هذه الإمكانات مع توفير المكتبة لها، كانت ممارسته للتربية الحديثة عبثاً، حيث أن فاقد الشيء لا يعطيه.

وقفة مع المكتبات المدرسية المعاصرة :

١- مع تطور المكتبات وتطور إمكاناتها وكثرتها وتنوعها لازال الإعلام قاصراً عن لفت الأنظار إليها، وتأكيد ضرورة التردد عليها، والتزود منها، شاملة تلك الزيادة كل أفراد الأسرة صغيرهم وكبيرهم.

٢- يعتبر بُعْد المجتمع عن المكتبات من أسباب الجفاء بين الطلاب والطالبات والمكتبات المدرسية.

٣- لازالت النظرة العقيمة المتخلفة تلف كيان المكتبة، وتشوه دورها وصورتها، حيث ينظر إليها كموقع نشاطي، بعيد عن العملية التعليمية، والبناء التربوي، رغم أنها أصل ذلك كله، ومن هنا كان لابد من نشر الوعي المكتبي، وتجنيد كل ما يمكن من وسائل الإعلام؛ لتحبيب الطلاب في المكتبة، وتعويدهم ضرورة ارتيادها، والاستفادة منها اعتباراً من الصف الأول الابتدائي بل من رياض الأطفال؛ لتنشأ أجيالنا على احترام المكتبة، والتعلق بها، وتتحمل الأسرة مسؤولية كبرى في هذه التوعية مشاركة للمدرسة ، ويبقى العبء الأكبر على الإعلام.

٤- تعاني المكتبات من فقد الأمين الكفء ذي الشخصية المتميزة، ويغطى العجز في هذا التخصص الهام بمن لا خبرة لهم، ولا دراية لديهم بالعمل المكتبي، أو أمناء متخصصين خالين من سمات الأمين

التربوي الناضج المؤمن برسالته، مما صرف الطلاب عن المكتبة، ودعاهم إلى اعتبار وقتها وقتاً ضائعاً في الترويح والمزاح، قد يفضلون عليه الممارسات الرياضية، أو العبث في ساحات المدرسة وأفنيتها.

٥- تعتبر مسؤولية المدرسة عن التوعية المكتبية مسؤولية تضامنية تجمع مدير المدرسة ووكلاءها، ومشرفيها، ومعلميها حتى تتأكد لدى الطلاب أهمية المكتبة، وقيمة الاتصال بها.

٦- بُعْد كثير من أمناء المكتبات عن مستجدات الميدان المكتبي التربوي رغم شهود العصر الحديث نهضة مكتبية لم تتح لهذا المجال في عصر من العصور، ومن هنا كان لابد من تكثيف الدراسات، والتدريبات للعاملين في المكتبات، وإطلاعهم على المستجدات في حينها؛ ليأخذوا بها في أداء مسؤولياتهم.

٧- رغم القدرات الهائلة للمكتبات المدرسية لازال نشاطها تقليدياً لا يتجاوز الجماعات التي تعارفت عليها الأجيال السابقة، وكأن المكتبة لازالت تعيش عصوراً سابقة، لم يدركها التطور، ولم يشغل الفكر التربوي المكتبي المعاصر دورها التربوي المناسب، أو جفاءنا لجميع الأمناء فهناك مكتبات مدرسية تعيش عصرها بل تسبقه، ومدارس تولي مكتباتها اهتماماً لا نظير له، وأمناء آية في الصدق والوفاء ، ولكن هذه لا تتجاوز كونها ظواهر فردية، نرجو الارتقاء بها والوصول إلى جعلها السمة العامة لمكتباتنا المدرسية.

أمين المكتبة: دوره وسماته:

من الطبيعي أن يناط بالمكتبة وليس الفصل تنمية عادة القراءة، وإتاحة الفرصة للتفكير السوي المنفرد؛ لأن جو المكتبة يختلف عن جو الفصل حيث يتسم هذا الأخير بالجفاف والانضباط الشديد والمسارب المحددة التي يسير فيها . بينما يتسم جو المكتبة بحرية الحركة وحرية الاختيار وجمال العرض وجاذبية اللقاء واللمسات الجمالية والفنية بين أرجاء المكتبة، وروح البهجة والسرور التي يلقاها القارئ بين جنبات الكتب. إن التنوع الشديد في مستويات وموضوعات القراءة التي تقدمها المكتبة المدرسية يجعلها مكاناً محبباً إلى نفوس التلاميذ وبالتالي يحبون ارتياده والانتفاع بما تقدمه المكتبة من فرص للقراءة.

ومن هنا كان لزاماً علينا أن نحسن اختيار أمين المكتبة ، وأن تتوفر فيه سمات من أهمها :

١- تميزه في التربية حيث أن موقعه بالمكتبة يحمله مسؤوليات لا تناط بمعلم الصف، ولديه من الإمكانات ما لا يتاح لزملائه من المعلمين ، وفي استطاعته أن يكون مرجع الطلاب جميعاً، وموضع ثقتهم، وأن يجعل من المكتبة مأوىً للفائدة والمتعة والترويح، فلابد أن تتوافر فيه سمات المربي الموهوب الخبير، بشاشة في الوجه، وجاذبية في اللقاء، وحكمة في التوجيه، ومرونة في القيادة، وتميزاً فكرياً، وسعة اطلاع، مع سمو خلقي، والتزام ديني.

٢- الولوع بالعمل المكتبي ، والرغبة الصادقة في إتقانه، والإبداع فيه، وفتح قنوات ذاتية باعثها الإيمان بتلك الرسالة لبلوغ الأهداف التربوية في رواد المكتبة.

٣- سعة الصدر التي تعصمه من الضيق، وتحول بينه وبين الغضب، وتَجمُّع شارد الطلاب، وسويهم حوله.

٤- أن يكون ذا روح تعاونية عالية ، تجعل منه قدوة ومثلاً أعلى لطلابه.

٥- أن يكون معلماً ماهراً ، حسن الأداء، مرتب الفكر، شيق العرض حتى ينجح في تعليم طلابه، والوصول بهم إلى المستوى المرجو في عصر التربية الحديث.

٦- استعداده للتضحية بالجهد والوقت استكمالاً لمهامه، وتحقيقاً لأغراض العمل المكتبي التربوي.

المكتبة التي أتطلع إليها:

إذا كانت حركة الحياة سريعة نشيطة، والتطور يملأ جوانب الحياة، ويبهر الإنسان فلابد أن يكون قدراً من هذا الرقي، وإذا كانت هي صانعة العلماء فمن المحتم أن يكون حظها من نتاجهم أوفر وأعظم.

لا أحد ينكر فضل الكتاب، ولا يتردد منصف في الإقرار له بحراسة التراث، وصيانة ذخائر العلم قديماً وحديثاً، وتيسير انتقالها عبر العصور، وإذا كان تقدم الإنسان العلمي قد أهدى رفاقاً، وجعل له أعواناً يحملون رسالته، ويؤدون دوره بطريقة جديدة شائقة ميسرة، وهي به قامت، وعليه اعتمدت، فلماذا لا تفسح لها مجالاً، ونعطيها الحق في استقبال رواد المكتبة، وإسعافهم، وتلبية رغباتهم؟

الأقراص المدمجة خفيفة الحمل، محدودة الحجم، باهرة العطاء، عظيمة المحتوى، دقيقة البحث، بارعة الإجابة، اتسعت لتراثنا (قرآن كريم، وسنة مطهرة) وما يتبعهما من علوم، واستقرت فيها موسوعات تضيق بها خزانات المكتبات وإن اتسعت، وتعقبت العباقرة والعلماء المحدثين فما تركت صغيرة ولا كبيرة إلا وأحصتها خطاً وصوتاً، فلتتافس قاعاتها قاعات القراءة، وتزود تلك القاعات بأجهزة الحاسوب ملحقاً بها محتوى المكتبة في أقراص مدمجة، ويجلس الزائر إلى الحاسوب يطرح عليه تطلعاته، وبالتالي يخرج له ما عنده.

إن الحاسوب لغة العصر ولسان الحضارة، وقاموس التراث البشري، وهو إلى النفوس أقرب، وبالقلوب ألصق، فضلا عن تيسيره العلم والوقت، وشغف الإنسان المعاصر به، والبحث عن طريقه أدق وأسرع، وأكمل وأشمل، وقد حبب إلى الصغار والكبار، فلتهيء له المكتبة المعاصرة سبل العطاء للصغار والكبار على مختلف أعمارهم، وتنوع مشاربهم، وكثرة تطلعاتهم.

الإنترنت ذلك الذي أدخل الرهبة في قلوب المربين، وخيف منه على النشء، وحذر منه الشباب، وغيرهم ليس شرا كله، ففيه من الخير ما يساعد في بناء الأفراد، ونهضة الأمم، ولبى رغبات الأسوياء فكرياً، وعلمياً ودينياً، وروحياً فضلاً عن إسعافه للباحثين، وإتاحته لهم الخروج إلى مكتبات عالمية لا تتيح لهم إمكاناتهم الوصول إليها، أو مدارسة مراجعها.

وإني لأود أن يكون أحد مخططات مكتبتنا المعاصرة قسم الإنترنت مع وضوح خبراء للإشراف عليه، واليقظة في تحديده مساره، وتحويله إلى الخير، وتيسيره لطلاب المعرفة.

المعاقون مع اختلاف إعاقاتهم، وتباين قدراتهم يجب أن يوضعوا في الاعتبار في مكتباتنا المعاصرة، حتى يشعروا بوفاء المجتمع لهم، وحرصه عليهم، واهتمامه بهم، والعلم يتيح هذا ، ويدعمه إنشاءً وعمارةً، أو تجهيزاً وإعداداً.

وبذلك تكون المكتبة المعاصرة مأوى الجميع، وملتقى الراغبين، وإن اختلفت قدراتهم، وتنوعت ميولهم.

الفصل الخامس:

دور المجتمع

المجتمع الإسلامي:

"الأصل في المجتمع الإسلامي أنه مجتمع عقيدة رائدة، شاملة متكاملة، بنيت علاقاته على أسس قوية متينة من الوحدة والتفاهم والتآزر والتعاون، والتلاحم، والمودة والإخاء، والتكافل والتضامن، فأثمرت مجتمعا فريداً في قوته وعزته ومنعته، تسوده روح العدالة والحرية والمساواة والحق والخير والنهوض بالمسؤولية، فأنجز نهضة حضارية تعتبر عصارة القيم والمثل والفضائل والرقي الإنساني".[1]

وقد ظهر ذلك في عصور اتخذت من تشريعات الإسلام مرتكزاً سبقت به، ومنطلقاً سمت بمحركات منه ودافعت عنه، فكانت حضارتها حضارة نادرة، جمعت بين الروح والجسد، حيث نجح بناء النفوس، وتوثيق علاقتها الطيبة بالله جل وعلا، ثم أقامت علاقاتها في ظلال هذه العلاقة التي لا ريب فيها، فكانت تلك العلاقات لقيام أمة قال الله تعالى فيها: **كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنْ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ** [2]

وكانت خيريتها كاملة شاملة واضحة دينياً، وسياسياً، واقتصادياً، واجتماعياً، وعلمياً وصحياً، ونفسياً، فإذا صنعت تاريخاً فلابد أن يكون متميزاً، وإذا أقامت حضارة فليس في مقدور أمة أخرى أياً كانت أن تنافسها، وتجلى هذا واضحاً في عصور النهضة الإسلامية.

"ولكن الصورة الحالية لا تدل على الأصل، قد تراها البصيرة وتستحيل على البصر، فالمجتمع الإسلامي أصبح مجتمعات عديدة، ممزقة،

١- د. أحمد رجب الأسمر، فلسفة التربية في الإسلام انتماء وارتقاء، ص (٥١٢- ٥١٣)، دار الفرقان، ط١، عمان – الأردن، سنة (١٤١٧هـ - ١٩٩٧م).

٢- سورة آل عمران الآية (١١٠).

لا يجمعها موقف ولا يوحِّد بينها اتجاه، فآل كل منها إلى الضعف والتخلف والتبعية للآخرين، ومع أنها تشكل مجتمعة خُمس سكان العالم أو تزيد إلا أنها في ميزان القوة الدولية لا تعدو الصفر إلا بقليل.

والتربية إذ تعمل على النهوض الاجتماعي تنطلق من الواقع وليس المثال، جاهدة لتحقيق التطابق مهما طال الزمن بين الصورة والأصل، وإضافة ما يمكنها إضافته؛ لذلك لا بد وأن تجد نفسها في بؤرة الاهتمام الاجتماعي".[1]

إن أهم ما يحقق وحدة المجتمع، وينفي عنه كل عوامل الفرقة، ويجعل منه جسداً واحداً، وروحاً متآلفة هو قيام علاقات تربط أفراده وجماعاته على أسس سليمة قوية، ولن يكون ذلك إلا إذا أرسى هذه العلاقات تشريع محكم مبرأ من الهوى بعيد عن الانحراف والزيغ حتى يقوم بناء المجتمع سليماً قوياً، لا تؤثر فيه هزات الأحقاد والتنافر.

بناء المجتمع الإسلامي والشخصية المسلمة:

"إن الأساس الأول لبناء المجتمع هو الأخلاق الفاضلة وقد عمل الإسلام على تربيتها بالعبادات أولاً، ثم بمنع ظهور الشرور وكتمها ثانياً، ثم بتكوين رأي عام فاضل ثالثاً، ولذلك حق للنبي (ﷺ) أن يقول: "إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق"(٢) وفي هذا الحديث النبوي إشارة بينة إلى أن مكارم الأخلاق هي دعوة النبيين أجمعين، وكل نبي ساهم في بناء ذلك الصرح الشامخ الذي تتكون به الحضارات الإنسانية العالية، ولقد جاء النبي (ﷺ) من بعدهم. فأتم ما بدءوا، وإن الانحلال الاجتماعي في هذا العالم اليوم، إنما وقع لأن الفضيلة قد ذهبت في علاقات الآحاد، وفي علاقات الجماعات، وفي علاقات الدول.

١- د. أحمد رجب الأسمر، فلسفة التربية في الإسلام، ص (٥١٣)، مرجع سابق.

٢- رواه أحمد (٣٨١/٢)، والحاكم (٦١٣٢).

وإنه لا ائتلاف بين جماعة، كما أنه لا ائتلاف بين الجماعات في أمة إلا على بنيان من الفضائل.

وإن الفضائل ليست هي التي تؤلف بين الآحاد في الأمة الواحدة، بل هي التي تؤلف أيضاً بين الأمم، فإنه إذا غلبت فكرة العدالة التي هي قوام الأخلاق بين الدول فإن الحروب تختفي والأحقاد تموت، ولا يحكم قانون الغابة، كما عبر بعض الساسة، وإنه إذا كانت الصداقات الحقيقية التي تبنى على الإلف الروحي الفاضل هي التي تربط الدول، كما تربط بين الآحاد، فإنه بلا شك تختفي الروح المادية الشرسة التي تجعل الدول تتغالب على موارد المال، كما تتغالب الوحوش على فرائسها، وتريد المال للغلب وللقهر، لا للانتفاع بخيرات الأرض.

وإن المجتمع الذي ينظمه الإسلام يحكم بقواعد عامة، وهذه القواعد تبدو في الأسرة ، وفي الجماعات وفي الدولة وفي العلاقات الإنسانية بين الناس مهما تختلف ألوانهم وأجناسهم وأديانهم، وهذه القواعد تتلخص في المحافظة على الكرامة الإنسانية والعدالة بكل صورها والتعاون العام، والمودة والرحمة بالإنسانية والمصلحة ودفع الفساد في هذه الأرض." [1]

والفرد أساس المجتمع، ولكي تتحقق هذه العلاقات ، وتنمو نمواً طبيعياً بنمو الإنسان لابد من تربية الإنسان عليها، وتنشئته في رحابها، ومعايشته لها فيما وفيمن حوله في كل مراحل حياته ، ويعيشها واقعاً حياً ملموساً في أسرته، ومدرسته، ومجتمعه، فمعارف المجتمع واتجاهاته الخلقية، وأنظمته الاجتماعية تتعاون في بناء أفراد هذا المجتمع، وتحكم مساراتهم، وتستكمل معالم شخصياتهم، وتجعل منهم نماذج بشرية تعطينا مُجْتمعِةً صورة المجتمع الذي عاشوا فيه، وتربوا في أحضانه، واكتمل كيانهم.

١- محمد أبو زهرة، تنظيم الإسلام للمجتمع، ص(٢٤- ٢٥)، مرجع سابق .

"كل بني الإنسان يولدون على الفطرة ، ويعيشون في كنف حضانة تربوية، إما قادرة واعية سليمة، تذكي ملكات الطفل وتشحذ مواهبه وتصقل قدراته، وترقي قيمه وأخلاقه ومشاعره وتضبط سلوكه وتصرفاته وممارساته فيشب مثالاً للجد والإنجاز والإتقان والإبداع، يحمي حقوقه وحرياته وينهض بواجباته ومسؤولياته، ويتميز بالمبادأة والمبادرة والشجاعة والإقدام، متعشقاً للحق والخير والعدل والفضيلة، وإما أن تكون حضانة تربوية غير واعية أو قادرة، تهبط بملكاته وتصادر حقوقه، وتكبل حرياته ، وتصفد ذاته فيتردى في مهاوي الصَّغار ويصبح عالة على الحياة والأحياء.

لذلك تعقد الأمم والشعوب على التربية آمالها في إعداد أبنائها لحياتهم المستقبلية، إعداداً صالحاً، كفؤاً قديراً، يحقق لهم الصلاح ليرتادوا سبل الإصلاح، وتعتبر أهداف التربية الموجِّه الرئيسي لحركتها في اتجاه الصلاح المقصود؛ لذا يجب أن تراعى ما يأتي:

التربية الدينية:

وتعنى بالأسس التي تمكن الفرد المسلم من الإسلام ليكون منطلقه في كل ما يصدر عنه في سلوكه، وأفعاله، وأقواله، في التزامه واجتنابه، في أخذه وعطائه حتى يكون تطبيقاً عملياً للإسلام.

التربية الجسمية:

وتعنى بسلامة البناء الجسمي، ليعيش المتعلم صحيحاً معافىً، قوياً قادراً، فتلك نعمة أشاد رسول الله (ﷺ) فقال:"من أصبح آمناً في سربه معافىً في جسده عنده قوت يومه فكأنما حِيزتْ له الدنيا"(١) وذلك من حيث :الوعي بأهمية الغذاء، وتنوعه، واعتداله في حفظ الجسم سليماً، ومراعاة

١- رواه الترمذي (٤/٥٧٤) .

٢- سورة الأعراف الآية (٣١).

ذلك في تغذيته. قال تعالى :**كُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ** (٣١) [٢]

- الوعي بأهمية الحركة، وبذل الجهد المعتدل في صحة الجسم، والقيام بممارسة الألعاب الرياضية المناسبة له، قال (r) "إن لبدنك عليك حقاً". [٣]

- الاهتمام بأساليب وطرق ومقومات الوقاية من الأمراض المختلفة، لحماية الجسم من التعرض للأمراض المتنوعة.

- الاهتمام بالعلاج لدى الشعور بأي تعب أو مرض، حتى لا يستفحل الداء وينهك الجسم.

الوعي بأهمية صحة البيئة التي يعيش فيها، وخطورة تلوثها على الصحة ليعمل على سلامتها، قال تعالى **وَلا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا** [٤] وقال (r):"وتميط الأذى عن الطريق صدقة"[٥].

- الاهتمام بمتطلبات الأمن والسلامة في كل عمل يقوم به، تلافياً للأخطار وإلقاء نفسه إلى التهلكة **(وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ** [١]

- تفهُّم الدور الذي يقوم به كل عضو وكل جهاز من أجهزة الجسم، ليحافظ على توازن عمل كل منها واستمرارية سلامته.

٣- تقدم تخريجه ص (٥١) رقم (١) .

٤- سورة الأعراف الآية (٥٦).

٥- رواه مسلم (٦٩٩/٢)

١- سورة البقرة الآية (١٩٥) .

٢- رواه البخاري (٤٠٨/١٦ فتح) ، ومسلم (٢٠١٤/٤).

٣- سورة الفتح الآية (٢٩) .

التربية النفسية:

وتسعى إلى تحقيق السلامة النفسية، واندماج الفرد في مجتمعه على أساس سوي وعادل خير، يضفي على نفسه الرضا والسرور وحب الخير للآخرين وتعنى بـ:

- التمكين من رعاية النضج الانفعالي، وتهذيب الانفعالات وضبطها أولاً بأول لتبقى في إطارها القويم، قال (r): "ليس الشديد بالصرعة....."[٢]

- رعاية النضج العاطفي بالتحريك النفسي لتنمية العواطف النبيلة وإزاحة العواطف الشاذة والمنحرفة، قال تعالى: **(مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ** [٣]

- إزالة كل ما يمكن إزالته من العوامل التي تؤدي إلى الانحراف بالانفعالات والعواطف، وتصيب المتعلم بالتوتر والغضب والبغض والحقد والكراهية وغيرها، وإذا كانت تلك منطلقات الدعوة في مستوياتها العليا كما علمنا ربنا جل وعلا: **ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (١٢٥)** [١] أفلا ينبغي أن تكون أساساً لتربية سلمية قوية تحترم العقل، وترشده، وتدعمه؟.

- اتِّباع أقوم الأساليب في تحقيق التفاهم مع الآخرين، وتبنِّي أساليب الحوار الموضوعي، والنقد الهادئ، وأدب الخلاف والحوار، واحترام آراء الآخرين. قال تعالى: **(وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (٣٤)** [٢]

١- سورة النحل الآية (١٢٥).

- الاندماج في الجهود الجماعية والأعمال والنشاطات المشتركة التي تصفي روح التعاون، والود، والإخاء، والتقبل، والتفاهم الذي يحقق الألفة والراحة النفسية. قال تعالى: **وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلا تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ** (٢) [٣]

- معالجة أي بوادر لجنوح نفسي كالعزلة والانطواء، والاعتداء وإفساد العلاقات وغيرها، بأساليب حكيمة، حتى لا تستحكم ويستفحل ضررها، قال تعالى : **إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ** (١٠) [٤]

- إضفاء التكريم والتقدير والاحترام على معاملة المتعلمين ، وعدم اللجوء إلى تحقير النفس وجرح الكرامة وإذلال الذات لينموا أسوياء النفوس قال تعالى مخاطباً رسوله (ﷺ): **فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنْ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ** (١٥٩) [١]

التربية العقلية:

العقل كأي قوة فطرية في الذات الإنسانية ينمو ويكبر ويعظم عطاؤه، إذا أحسنت تربيته وتوجيهه ورعايته، تتلمس آثاره في الوعي والفهم والاستيعاب والحكم على الأمور والتصرف العقلاني الذكي في المواقف، وفي نوعية التفكير، بل وفي التصرف والسلوك والممارسات العملية، وإذا أهمل ولم يُعْتَن به، فإنه يخبو تدريجياً ويفقد كثيراً من قدراته؛ لذلك فإن التربية وأهدافها مَعْنيَّة بالتربية العقلية من حيث:

٢- سورة فصلت الآية (٣٤).

٣- سورة المائدة الآية (٢) .

٤- سورة الحجرات الآية (١٠) .

- تصميم مادة التعلم بصورة هادفة بحيث تتطلب بذل جهد عقلي وإعمال فكري، بأسلوب متدرج يتناسب ومرحلة نمو المتعلم والتخلص من أساليب التلقين، والحفظ والاستظهار.

- وضع المتعلم في مواقف تعليمية تتطلب استبصاراً وفكراً لماحاً، واختياراً ذكياً بين البدائل وابتكار الحلول، وتحميله قدراً مناسباً من المسؤولية في حل المشكلات وتلك تربية رسول الله (r) تستثير الهمم، وتحرك الذكاء فيقول لأصحابه: " فما تعدون الصرعة فيكم "[٢]

- مساعدة المتعلمين في اكتشاف مواهبهم وملكاتهم المبدعة وتوجيهها الاتجاه القويم، ورعايتها والعناية بها وتنظيم استثمارها والارتقاء بها بالأساليب العلمية الصحيحة. "إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها وإنها مثل المؤمن...."[٣] وإذا كان ابن عمر رضي الله عنهما قد منعه حياؤه، وتوقيره لمن يكبرونه من الصحابة، فلقد كان الموقف درساً عظيماً يرينا كيف تكون التربية، وكيف ينجح المعلم في استثارة الفكر، وتحريك العقل، وحفز المتعلم إلى البحث عن الحل المناسب ؟.

- تمكينهم من متطلبات البحث ومواجهة التحديات واكتشاف الحقائق بأنفسهم، بما يتناسب ومستوى نموهم وتشجيع مبادراتهم الفردية في هذا المجال." [١]

التربية ومراعاة جوانب الشخصية:

والتربية التي ترسي قواعدها على هدي ديننا الحنيف مراعىً فيها جوانب شخصية الإنسان، معطية الاهتمام لكل قدراته، مستثمرة كل

١- سورة آل عمران الآية (١٥٩) .

٢- رواه مسلم (٢٠١٤/٤).

٣- تقدم تخريجه ص(٩٤)، رقم (٢).

١- د. أحمد رجب الأسمر، فلسفة التربية في الإسلام، ص (٥١٥- ٥١٧)، بتصرف، مرجع سابق .

استعداداته، وهي استعدادات مفتوحة مرنة أي أنها قابلة للنمو الذي لا حدود له إلا الحدود التي تفرضها طبيعة خلقته.

وعملية النمو الفكري والاجتماعي عند الإنسان عملية مستمرة مدى الحياة وذلك نتيجة لتفاعله مع الآخرين في علاقات اجتماعية متعددة، ولتفاعله مع الوسائل الثقافية والإعلامية المختلفة، وعملية التفاعل هذه تتضمن الأخذ والعطاء.

- الإنسان ليس مجرد مستقبل سلبي لمؤثرات البيئة، أو مجرد صفحة بيضاء يكتب عليها بل كائن متطور من خلال بيئته، ويساهم بعطائه في تطويرها فهو عنصر أساسي في بدء وتأويل تفاعلاته مع بيئته الطبيعية والاجتماعية وهو ليس مجرد أجزاء منفصلة تعمل بصورة ميكانيكية فالوسائل والغايات بالنسبة إليه في استمرارية وليسا منفصلين لذلك فإن أي فصل بين العقل والجسم، والخبرة والتفكير، والمعرفة والعمل والاعتقاد فصل خاطئ.

"الإنسان كائن اجتماعي ولديه نزعة فردية فهو من ناحية يشعر بالحاجة إلى الانتماء إلى الجماعة، ومن ناحية أخرى يحرص على الحفاظ على شخصيته المستقلة. وقد بين الإسلام هاتين النزعتين فمنحه باعتباره فرداً شخصية مستقلة، وجعله في الوقت نفسه لبنة في بناء المجتمع"[1] "فغاية حياة الفرد في الإسلام إنما هي غاية الجماعة بعينها، أي تنفيذ المنهج الإلهي في الدنيا، وابتغاء وجهه تعالى في الآخرة. زد على ذلك أن الإسلام قد منح الفرد ما يتعلق بذاته من الحقوق، وفرض

١- د. أحمد علي الفنيش، أصول التربية، ص (١٢٦)، مرجع سابق.

٢- أبو الأعلى المودودي، نظر الإسلام وهديه، ص (٥٥)، نقلاً عن عمر عودة الخطيب، المسألة الاجتماعية بين الإسلام والنظم البشرية، ص (٢٠١)، مؤسسة الرسالة، بدون ط ، بيروت – لبنان، سنة (١٩٧٠م).

عليه واجبات مخصوصة للجماعة. وبهذه الصورة ظهر بين الفردية والاجتماعية في الإسلام توافق وانسجام، بحيث يتيسر للفرد نماء قوته وارتقاء شخصيته، ثم يصبح عوناً بقوته الرامية فيما فيه الخير والسعادة للمجتمع".[٢]

ولذا كانت التربية الناجحة تربية بصيرة تجمع بين الذاتية والاجتماعية، وبهما يكون الإنسان خليفة الله في الأرض، والمسؤول عن عمارتها والتفاعل معها، والمستقبِل لوحي الله تعالى ورسالاته السماوية فيها.

الإسلام والكمال الاجتماعي :

أقام الإسلام مجتمعاً نظيفاً لا يعرف التفاخر بأي صورة من الصور أو بأي دافع من الدوافع فالركون مثلاً إلى عرض الدنيا، وما حمل الإنسان من أوزارها ضلال، أو زيغ، وغفلة عن الحق، وإصرار على الباطل، وعود ذميم إلى عصبية الجاهلية بظلماتها الكثيفة، وأوزارها المهلكة بعد أن أنجانا الله منها، ولذلك يقول الرسول (r) لأبي ذر: "أسابيت فلاناً؟ " قال أبو ذر: نعم قال: "أفنلت من أمه؟" قال: نعم قال : "إنك امرؤ فيك جاهلية"[١]

إنها كلمة هينة تمرق على لسان صغارنا وكبارنا لا نلقي لها بالاً، ولكنها تمزق المشاعر، وتخترق القلوب، وتوقظ الفتنة، وتزرع الضغينة، ولذا كانت عودة إلى ما قبل الإسلام، وخروجاً على قيمه الفاضلة.

وقد حول الإسلام المسلمين إلى العقيدة لا إلى القبيلة، أو الوطن، أو الجنس، أو اللون، وعمل على تعميق المودة بين المسلمين أفراداً وجماعات، وأرسى قيمة غالية لم تتح لأمة من الأمم، ولم تجد من التطبيق من الواقعي ما وجدت في رسول الله (r) ، وخير قرون تلك

الأمة، وهم المهاجرون والأنصار، وأكده القرآن الكريم: **إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ** [٢]

فلا استعلاء، ولا ترفع، ولا تكبر، ولا خيلاء، حيث تأبى أخوة الإيمان ذلك وتمقته، وتحذر الذين يأخذون، ولو بطرف يسير منه:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْراً مِنْهُمْ وَلا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْراً مِنْهُنَّ وَلا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلا تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ بِئْسَ الاِسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُوْلَئِكَ هُمْ الظَّالِمُونَ (١١) [٣]

وقد جعل الإسلام السلطة تشريفاً لا تكليفاً يسمو بها صاحبها إذا أخذ الحق وأعطى الحق، وفي رسالة لعمر بن الخطاب رضي الله عنه : حيث كان يقول :"إني لم أسلطكم على دماء المسلمين ولا على أبشارهم ولا علي أعراضهم ولا على أموالهم؛ ولكني بعثتكم لتقيموا بهم الصلاة وتقسموا فيهم فيئهم وتحكموا بينهم بالعدل"[١]

وجعل التفاضل في أمور ليس منها السلطة، وهي الدين وخشية الله تعالى، وجماعها التقوى، فقال جل شأنه: **يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (١٣)** [٢]

عن حبيب بن خراش العصري عن أبيه أنه سمع رسول الله (ﷺ) يقول:"المسلمون إخوة لا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى"[٣]

١- رواه البخاري (٣٤٧/١٦فتح) .
٢- سورة الحجرات الآية (١٠) .
١- الشيخ حسن أيوب، الخلفاء الراشدون، ص(٨٩)، دار السلام، ط(١)، القاهرة- مصر، سنة(١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م).
٢- سورة الحجرات الآية (١٣) .
٣- الطبراني، المعجم الكبير، (٢٥/٤) ، مرجع سابق.

وهكذا " جاء الإسلام ليؤكد أن المؤمنين إخوة، وأن جميع الأجناس خلق الله، خلقهم بإرادته وقدرته من أصل واحد، أبيضهم وأسودهم، أحمرهم وأصفرهم، لذلك فهم سواسية كأسنان المشط في تكريمهم وتفضيلهم، ولا مفاضلة في الشكل أو اللون أو الجنس، لأن التفاوت إنما يكون فيما للإنسان عمل أو إرادة فيه، وليس فيما لا رأي ولا إرادة ولا عمل له فيه.

من هنا أكد الإسلام على أن تكريم الإنسان من قبل خالقه، يجب أن ينعكس على واقعه من قبل من يؤمن بهذا الخالق، ينعكس عصمة وسيادة وعزة ومنعة، دونما تفريق بين قوي وضعيف، وغني وفقير، ورئيس ومرؤوس، فالسيادة الذاتية المبنية على الحرية المسؤولة حق من حقوقه، لذلك لا يبيح له أن يهين أن يهان أو يُذِل أو يُذَل، أو يقهر أو يقهر، لتبقى عبوديته الوحيدة لخالقه وحده." [٤]

٤- د. أحمد رجب الأسمر، فلسفة التربية في الإسلام، ص(٢٧٤)، مرجع سابق.

الفصل السادس:

دور الإعلام

الإعلام ودوره:

لم يصل الإعلام في عصر من العصور ما وصل إليه في عصرنا، تعددت وسائله وتطورت وداخلت الناس على اختلاف توجهاتهم، ومستوياتهم العلمية والثقافية، والروحية، والاجتماعية، والاقتصادية وغيرها وأصبحت آثار الإعلام واضحة في الأفراد والجماعات، وإن اختلف هذا التأثير باختلاف الوسيلة الإعلامية.

فالتقدم الهائل في الطباعة هيأ المناخ المناسب للعطاء الإنساني بكل صوره ومظاهره، في الصحف، والمجلات، ومختلف الدوريات. وظهر الكتاب في أوضاع لم يسبق إليها، وكثرت دور النشر، وطارت الثقافة عبر العالم متجاوزة الحدود الزمانية والمكانية حاملة ما لديها من فكر إلى بقاع لم يكن في تصورها أن تحوز هذا الكم الهائل من الفكر البشري الذي يشارك في صنع ثقافة إنسانية عامة فيها الغث وما أكثره وفيها الثمين.

وعبر موجات الأثير عبرت الإذاعات المسموعة، ثم ظهر الإرسال التلفازي الذي تطور إلى الفضائيات بما فيها من وسائل جذب استهوت الأفراد صغاراً وكباراً والأسر والجماعات، وأثرت في نمط الحياة وطرائقها، وتداخلت الأعراف، وتمازجت العادات والتقاليد، وطغت المحاكاة، وظهر الشرقي المستغرب، والغربي العارف بتوجهات الشرقي وملامحه وسماته النفسية والاجتماعية.

ثم كان الحاسوب واحتل (الإنترنت) مكانة مرموقة لدى المجتمعات، ولبى ــ وبسرعة ــ حاجات الإنسان العليا، والمتدنية الرخيصة، ودخلته مختلف الأعمار.

وأمام هذا التيار الجارف الذي لا تمر لحظة دون أن يولد فيه جديد أو يسجل ابتكار كان لابد للتربية أن تأخذ حظها من هذه المخترعات تقدماً وارتقاءً، أو تخلفاً وانتكاساً بفعاليات الإعلام نفسه، أو تأثيره في المؤسسات التربوية الأخرى.

والإعلام عملة ذات وجهين، أو كما يقولون سلاح ذو حدين، فله مخاطره التي يعجز المجتمع الإنساني عن مقاومتها والتغلب عليها، ومنافعه التي تسهم بحظ وافر في صنع الحياة والأحياء أفراداً وجماعات.

والإعلام وسيلة فاعلة ذات جذب قوي، وأثر بالغ تحسه في ظاهر المجتمع، وتدركه في قيمه وأخلاقه، وإن اختلف ذلك باختلاف الوسيلة الإعلامية، وموادها المتاحة.

التلفاز كوسيلة إعلامية:

تشغل وسائل الإعلام المختلفة وأجهزتها المتنوعة حيزاً كبيراً في حياة الناس، فلا يكاد يخلو منها بيت أو نادٍ أو مقهىً، أو متجر، حتى وسائل المواصلات، وصالات الاستقبال وذلك لما اشتملت عليه في كثير من الهيئات والمؤسسات هذه الأجهزة من تقنية متطورة، وجاذبية فائقة وسهولة في استخدامها.

ولهذه الوسائل بصفة عامة تأثيرها البالغ على المتلقي لرسائلها، المستقبل لموجاتها، كما أن لها من القدرة البارعة على تحويل صورة المجتمعات، وتغيير أصباغ وملامح البيئات ما يشهد به واقع العالم المعاصر. "وعملية تبديل الآراء والاتجاهات عن طريق الاتصال ليست بالأمر السهل- وإن كان البعض يرى للإعلام والدعاية الأثر الفعال في

ذلك فالبحوث الكثيرة التي أجريت في هذا المجال أثبتت أن هناك عوامل تؤثر في عملية الاتصال، وتؤثر في عملية التغيير"[١]

وتستوقفنا ظاهرة إعلامية احتلت مكانة متميزة في المجتمع عامة، والأسرة خاصة، واستهوت قلوب الصغار والكبار، وتحكمت في وقتهم، ووجهت أفكارهم، وصاغت اهتماماتهم، هي ذلك الجهاز العجيب (التلفاز)

ويعد التلفاز من أكثر الوسائل الإعلامية انتشاراً، وأشدها تأثيراً، وأكبرها جاذبية، حتى أصبح يمثل ضرورة عصرية لا غنىً عنها.

ومن المُسلَّم به أن التلفاز "أحد المؤسسات الثقافية الهامة، وأهم وسائل الاتصال الجماهيرية، وأكثرها تأثيراً على الإنسان"[٢]، "ويقف هذا الجهاز بشاشته الصغيرة ليكون أخطر وأهم جهاز إعلامي في هذا العصر يمكنه التأثير في الكبار والصغار"[٣]؛ وذلك لما شمله بناؤه التقني من الجمع بين الصورة والصوت؛ مما جعل رسالته الإعلامية أسهل، وأقرب للاستيعاب والإدراك عند جميع الطبقات المثقفة منها وغير المثقفة. وقد شغف به الأطفال شغفاً شديداً لما فيه من جذب، وإمكانية فائقة على إشغال وقت الفراغ، إلى جانب سهولة تناوله، واستعماله.

وما كاد هذا الجهاز ليصل قبل سنوات إلى أسواق المنطقة الإسلامية ودول الخليج خاصة حتى أصبح بالنسبة لأكثر الناس ضرورة عصرية ملحة لابد منها، فملكت هذه الشاشة قلوب الكبار قبل الصغار، وأصبح الجميع يتابع برامجه طوال الإرسال دون تخطيط، أو نظام حتى

١- حسين حمدي الطويجي، وسائل الإعلام والتكنولوجيا في التعليم، ص(١٨٩)، دار القلم (الكويت) ط٩، ١٤٠٥هـ، قطر، ذو القعدة (١٤٠٤هـ).

٢- نفس المرجع السابق، ص(١٨٩) .

٣- مجلة التربية، دور التلفزيون الخليجي في توازن الثقافة والترفيه والتوجه، ص (٩٦)، العدد (٦٦).

أصبح زمن مشاهدته بالنسبة للأطفال العرب أطول من أي زمن يمكن أن يقضيه الأطفال في نشاط منفرد آخر".[1] ويتضاعف زمن المشاهدة في الإجازات، وتتضح خطورة هذه العادة إذا عرفت طبيعة هذه البرامج، ومدى خطورة محتواها بالنسبة لسنهم، وقدراتهم العقلية، إلى جانب الأضرار الجسمية والعصبية التي تترتب على طول الجلوس أمام التلفاز، وتركيز حاستي البصر والسمع عليه، والتعرض للأشعة المنبعثة منه.

"وقد صار التلفاز جزءاً من المجتمع المعاصر وعنصراً أساسياً من عناصر التوجيه والإعلام بكل وظائفه، وسيظل جهازاً حيادياً بحتاً.

وقد أثارت هذه الخاصية جدلاً واسعاً بين الآباء والمربين بل ورجال الدين مما طرح تساؤلاً حول شرعية هذا الجهاز هل هو حرام أم حلال؟ وحتى يتجاوز الناس هذا الجدل الفقهي بأن تحريم التلفاز أو تحليله إنما يكون بالمادة التي يقدمها والفكر الذي يتبناه فالجهاز نفسه إنما هو وعاء قد يحمل دواءً يشفي أو سماً يقتل ومما لا شك فيه أن تأثير التلفاز أمر لا يحتمل الإنكار أو التجاهل فقد أثبتت الدراسات العديدة تأثيره على الصغار والكبار على حد سواء فقد ثبت تأثيره الإيجابي في التثقيف والتعليم والتوجيه والدعاية، ولعله مما يؤكد ذلك ما للإعلان التلفازي من أثر على المشاهدين عامة والأطفال بصفة خاصة بما يجعلهم أكثر ولاءً لما يقدمه الإعلان التلفازي وثقة أكبر مما يكون عليه الحال في أهليهم أو والديهم، وتعظم القضية أمام تأثير الدراما التلفازية والتي تعتمد على الخيال والحبكة والإخراج المعبر بما يشد الكبار والصغار معاً حتى ارتفع

١- محمد عبد الله عطيات، أثر برامج التلفزيون على الأطفال، ص(٥١)، مجلة رسالة المعلم، العدد(٣) الأردن، شوال (١٣٩٩).

الصوت بطلب حماية المجتمع من تأثير الإعلان التلفازي والدراما التلفازية على الناشئة والمجتمع عامة."[١]

إن تأثير هذا الجهاز لا يقف عند حد معين، ولا يختص بفئة معينة، وإنما يمتد ليشمل شتى الجوانب، ويغطي كل الفئات، ويؤثر تأثيراً واضحاً على سلوك الأفراد وخاصة الأطفال.

"لقد اتخذ الرائي (التلفاز) مكانه في الصف الأول بين وسائل الاتصال الجماهيري ففاز بعدد كبير جداً من المشاهدين، وهم في ازدياد مستمر، فما هو السبب في ذلك؟ إن لهذا أسباباً عديدة ولا شك ومن أهمها:

١- يعتبر الرائي (التلفاز) من أقرب الوسائل للاتصال الشخصي وذلك لاستغراقه حاستي السمع والبصر، فهو يستخدم الصورة والصوت والحركة معاً، وهذا ما يشد المشاهد ويجذب انتباهه حتى وصف الرائي (التلفاز) بأنه أناني؛ لأنه لا يسمح بالانصراف عنه أو أداء عمل آخر أثناء مشاهدته، ورغم أن هذا الأمر يعتبر من سلبياته إلا أنه في الوقت نفسه يعتبر من المميزات الأساسية له؛ لأن الانتباه للرسالة الإعلامية يساعد في فهمها وتذكرها، وهما أمران مهمان جداً حتى أن جميع وسائل الإعلام تسعى جاهدة وبشتى الطرق لجذب الانتباه إليها والاهتمام بمضمونها، ثم إن الرائي (التلفاز) بوجوده في المنزل يجعل صاحبه يتلافى صعوبات الذهاب لدور الخيالة (السينما) أو المسرح، ويصبح بإمكانه الاتصال بالعالم الخارجي وهو جالس على كرسيه المريح أو راقد في فراشه. وهذه الإمكانات والتسهيلات التي يتيحها الرائي

١- د. أحمد حسن محمد – أستاذ مشارك بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة أفريقيا العالمية.
بتصرف يسير (نت)

(التلفاز) تجعله أكثر مقدرة على الإقناع لأن المشاهد يتعرض له باستمرار، وخاصة إذا كانت برامجه متنوعة وهادفة بحيث لا يمل المشاهد من متابعتها.

٢- الاحتفاظ بالأصالة الشخصية وحاسة النقد: فنحن نشاهد الرائي (التلفاز) ولكن لا تصيبنا عدوى العاطفة الجماهيرية التي نلحظها في اللقاءات الحاشدة عندما نكون أحد أعضائها، ففي هذه الحالة نرى الفرد يندمج بما حوله اندماجاً كلياً، ومثال ذلك الخطب السياسية الحماسية أو مباريات كرة القدم في الملاعب الكبرى. أما في حالة مشاهدتها عن طريق الرائي، فإننا نلاحظ أن المرء يظل محتفظاً بشخصيته وقدراته النقدية فلا يخضع لما يراه؛ لأنه بعيد عن هذه الجماهير منفصل عنها في الواقع وهو ينظر إليها من مختلف الزوايا، وربما من نظرة أعلى من نظرتهم.

٣- بث الثقافة الجماهيرية: الثقافة الجماهيرية تعني رفع المستوى الفكري والروحي والسلوكي لكافة فئات الشعب بحيث يجد كل فرد ما ينمي قدراته واستعداداته، وبث هذه الثقافة يحتاج إلى وسائل إعلامية تصل إلى مختلف الفئات، وهنا يأتي دور الرائي (التلفاز) الذي أصبح جهازاً شعبياً لأنه دخل معظم البيوت لانخفاض أسعاره، وتنوع أحجامه بحيث أصبح شبيهاً بالمذياع من وجوه عدة.

وبهذا أصبح الرائي (التلفاز) وسيلة إعلامية هامة لبث الثقافة الجماهيرية مخاطباً جميع الفئات مقرباً الفجوة بينهم، بحيث يجعلهم أكثر تفاهماً وتجانساً، فالوسائل الإعلامية المقروءة لا يحظى بها سوى فئة معينة، هي الفئة المتعلمة، وخاصة من لديهم موهبة القراءة منهم أما الغالبية فإنها محرومة من ذلك.

وهنا يأتي دور الرائي (التلفاز) بجاذبيته وحيويته ليملأ هذا الفراغ الكبير، ويساعد على ترقية الاهتمامات، ويحسن من أنماط السلوك، وذلك إذا تولى أمره أناس مخلصون مدركون للدور الخطير الذي يستطيع القيام به."[1]

سلبيات التلفاز ومحاولة التغلب عليها:

وإذا سلمنا بحيادية التلفاز، ورأينا له من الإيجابيات ما يمكن الوصول به إلى أهداف عُلْيا تساهم في بناء الفرد، وتشارك في حضارة الأمة، فإن له كأي مُخْتَرع سلبيات يجب أن يكشف عنها الباحثون، ويحاولوا الوقوف عليها في صدق، ويعملوا على تحويلها أو بعضها ما أمكن إلى إيجابيات تفيد البشرية، وتبني الأجيال، وتعدهم إعداداً سليماً لخوض غمار الحياة، والقوة في تحمل أعبائها، ومن هذه السلبيات:-

١- أكثر ما يُبثُّ تلفازياً صاغته عقول وخبرات غير مسلمة، أو مسلمة تحولت بفكرها واهتماماتها إلى الغرب، واتخذته مثلاً أعلى، ومصدراً وثيقاً لهذه الصناعة غير عابئة بما يبث من سموم، وما يشعل من حرب على الإسلام والمسلمين من خلال مواده المعروضة على المشاهد العربي، ويمكن مواجهة ذلك بدعم جيل تلفازيٍّ التوجه متميز في عقيدته، غيور على إسلامه، شغوف بتراثه، وفيّ للتربية، حريص على النجاح فيها على منهج الله تعالى من خلال هذا الجهاز السحري العجيب.

٢- "تحتل البرامج المُعدَّة للكبار البالغين المساحة الكبرى في التلفاز حيث تتضمن المسلسلات التمثيلية، والمسرحيات، والمسابقات، والنشرة الإخبارية، وبعض البرامج الرياضية، وغيرها من الفقرات،

١- حسين حمدي الطويجي، وسائل الإعلام وأثرها في وحدة الأمة، ص (١٣٧ - ١٣٩)، بتصرف، مرجع سابق.

ولكن الملاحظ أن أكثر هذه البرامج إن لم يكن كلها لم تتطبع بعقيدة أهل المنطقة الإسلامية، ولم تُراعَ فيها الآداب الشرعية واحترام مبادئ الإسلام"[1]، "فالمتأمل لما تبثه الشاشة الصغيرة طوال ساعات إرسالها على القنوات لا يصدق أنه يعيش في مجتمع دينه الإسلام"[2]. ونظراً لفوضى المشاهدة في الأسرة المسلمة يشارك الصغار الكبار، ويحرصون على المتابعة، ويوقفون كل نشاطهم تفرغاً لمشاهدة هذه الأعمال رغم مجافاتها للدين، وإدخالها في نفوس الصغار قيماً وتوجهات لا تناسبهم سنياً فضلاً عن انحرافها، وهنا يبرز دور الأسرة في تنظيم علاقتها بهذا الجهاز، وتحديد موقفها مما يعرض ليكون الكبار أسوة حسنة للصغار، ولتنشأ أجيال مسلمة على بصيرة منذ نعومة أظفارها، حتى لا يعاني الصغار من التناقض بين أقوال الآباء والأمهات وأعمالهم وسلوكهم.

٣- "قد يكون الخيال مفيداً في بعض الأحيان لأنه يخرج بالمرء من عالم الواقع المشحون بالمثبطات إلى عالم الغد الزاخر بالآمال والأماني وقد علمنا الإسلام عدم اليأس والقنوط، قال سبحانه: **يَا بَنِي اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلا تَيْئَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لا يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ** (٨٧)[3]؛ لأن عدم اليأس يدفع إلى الجد والعمل والوقوع فيه يدفع للكسل والخمول.

٤- التلفاز لا يتيح مجالاً للتخيل؛ لأنه يشغل حواس المشاهد ولا يسمح له بأن يحلِّق في أجواء الخيال، وذلك بعكس المذياع مثلاً حيث يشغل حاسة السمع فقط، والمواد المقروءة التي تشغل حاسة النظر

١- عدنان حسن صالح باحارث، مسؤولية الأب المسلم، ص(٤٨٤)، مرجع سابق.

٢- محمد كامل عبد الصمد، التلفزيون بين الهدم والبناء، ص (٢١) بتصرف، دار الدعوة، الإسكندرية – مصر، سنة (١٤٠٥) هـ.

فحسب، فمن واجب القائمين على الرائي أن يلاحظوا هذا الأمر بأن يتيحوا للمشاهد فرصة للتفكُّر والتخيُّل من خلال المشاهد لتتحقق الاستفادة كاملة وبهذا نتلافى سلبية الرائي (التلفاز) في هذا الجانب، ومثالاً على ذلك أقول: إن واقع العالم الإسلامي الآن واقع مؤلم لكل مسلم، لما حل بالمسلمين من فرقة وتشتت، ولو أن الرائي (التلفاز) اكتفى بعرض هذه الصورة لأصيب الناس باليأس من الإصلاح. وهنا يأتي دور التخيل المبني على أسس سليمة لا على مجرد الخيال الجامح. إن بإمكان القائمين على الرائي (التلفاز) أن يصوروا لنا حالة المسلمين فيما لو عاد إليهم تمسكهم بالإسلام وكيف ستكون علاقاتهم مع بعضهم، وهذا الأسلوب ليس بالأمر الصعب من الناحية الفنية ولكن بدون شك يحتاج إلى جهود مخلصة ودائبة ويحتاج قبل هذا إلى القناعة الكافية بهذا العمل.

٥- يوصف التلفاز بأنه أناني لا يسمح للمشاهد بممارسة أي نشاط آخر. وهذه السلبية يمكن تلافيها بتنظيم فترات البث بحيث تكون في أوقات الفراغ، وكذلك بنوعية البرامج ومستواها ليستفيد المشاهد من الوقت فالمفروض ألا تكون ترفيهياً كلها بل لابد أن تشمل أموراً أخرى ذات فائدة للجمهور كالعلم والثقافة، ومعالجة المشكلات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية.

٦- ينظر كثير من الناس إلى التلفاز على أنه وسيلة ترفيهية فقط، ولعل هذا الظن انتشر نتيجة لواقع (التلفاز) في بلادنا تقليداً لما كان عليه أول اختراعه في الغرب، ولكنه الآن أصبح من أهم وسائل الاطلاع والمعرفة حتى بالنسبة للاختصاصات الدقيقة في بعض البلاد المتقدمة كما أدخلت البرامج التعليمية إليه، ومع هذا فإنه لا يزال للترفيه الحيز الأكبر فيه، وذلك تلبية لرغبة الجمهور من جهة، والانصراف عن الجد

والبناء لدى كثير من القائمين على هذا العمل من جهة أخرى والترفيه بحد ذاته مطلب إنساني طبيعي لأن الإنسان يمل من استمرار الجد ولأجل هذا عني الإسلام بتلبية هذا الجانب عن عبد الله بن مسعود (t) قال : "كان النبي (r) يتخولنا بالموعظة في الأيام كراهة السآمة علينا"[١]. وكان رسول الله (r) يمزح ولكن لا يقول إلا حقاً،فعن أبي هريرة t أن الصحابة قالوا: يا رسول الله! إنك تداعبنا. قال:" إني لا أقول إلا حقاً"[٢]

ولكن المشكلة الآن هي في حجم هذا الترفيه، حيث تكثر وسائل الإعلام ومنها الرائي من هذا اللون وهو أمر خطير لأن الوقت له قيمته في الإسلام، فعن ابن عباس (t)قال: قال النبي (r): "نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس الصحة والفراغ"[٣]. فالحفاظ عليه من سمات المجتمع المسلم، والواجب إذاً التقليل من هذا اللون إلى الحد المعقول والاستفادة من طاقة الرائي (التلفاز) الهائلة في البرامج النافعة".[٤]

١- رواه البخاري (٢٨٢/١- ٢٨٣ فتح)

٢- البخاري، الأدب المفرد، تصحيح محمد هشام البرهاني، ص (١١٨)، المطبعة العصرية، ومكتبتها، بدون ط، الإمارات العربية المتحدة، سنة (١٤٠٢هـ - ١٩٨١م) .

٣- رواه البخاري (١٨٢/١٧ فتح) .

٤- حمدي حسين الطويجي، وسائل الإعلام وأثرها في وحدة الأمة، ص (١٤١- ١٤٣) بتصرف، مرجع سابق.

التلفاز التربوي المنشود:

وإذا كان للتلفاز ذلك المقام الإعلامي الكبير، والأثر البالغ في بناء الأفراد، وتحويل المجتمعات، فإن للتربية عليه حقوقاً، ومن خلاله يمكن تقديم زاد تربوي يكون مقره قلوب أبنائنا وبناتنا، وثمرته إخراج جيل واعٍ غيور سليم العقيدة، قويم الفكر، حسن التوجه، وفيّ لأمته، وذلك من خلال:

١- بث البرامج التربوية الهادفة المثيرة الجذابة التي تعبر عن هويتنا كمسلمين من خلال رسائل تلفازية يحركها فكر واعٍ تربوي مستنير، يحمل خصائص الإسلام، ويعبر عن قيمه وشريعته.

٢- تصوير المجتمع المدرسي بما قد يشوبه من تناقضات، وتباين في توجهات أعضائه، مع إبراز المثل العليا، وتمثل انتصار القيم الفاضلة، وقدرة الأسوياء على المواجهة، ونجاحهم فيها، وبراعتهم في تحويل المدرسة ككل إلى مجتمع تربوي فاضل.

٣- ضرب أمثلة لعظماء نبغوا في التربية، وفاقوا علمياً، وقد أفادوا من معايشة مربين فضلاء، سمحت لهم إمكاناتهم بالأخذ عنهم، والاستجابة لعطائهم فكانوا نماذج تحتذى، وصوراً مشرقة تعبر عن عظمة التربية الإسلامية وسموها.

٤- بيان أهمية الخُلق، وضرورته في التربية، وأصالته في بناء الإسلام لأهله، وأهميته في إنجاح الأعمال، والارتقاء بالمجتمعات، والمساهمة في صنع حضارة تمثل نهضة الأمة ، وتؤكد عظمة أبنائها.

٥- إيقاف السيل الجارف من الأعمال المناهضة للتربية الساخرة من الاستقامة الناقمة على الالتزام الخلقي الساخرة من المدرسة

والمربين وتنشئة الأجيال الجديدة على توقير المعلم والولاء للمدرسة والإخلاص للعلم مع التزام القيم التربوية الأصيلة.

وإذا كان العالم قد سبق إلى اتخاذ التلفاز كوسيلة تعليمية تخدم المعرفة وتسهم في إثراء التخصصات الدقيقة، وتعمل في إنماء العملية التعليمية حيث "يوجد في أمريكا قنوات تلفزيونية خاصة بالعلوم ويقوم من يهتم بها بالاشتراك فيها كل حسْب ما يريد، ويوجد في الولايات المتحدة حوالي ستين محطة تلفزيون تعليمي تديرها مؤسسات ومدارس وجامعات وتبثُّ برامج متنوعة وفي بريطانيا تبث برامج تعليمية خمسة أيام في الأسبوع خلال السنة."[١]

كما أن كثيراً من الدول ومنها بعض دول العالم الثالث أدخلت البرامج التعليمية إليه، فإن واجب الإعلاميين الغيورين على التربية أن يعملوا جاهدين على إفادة التربية، وبثِّ أفكارها السامية من خلال أعمال تلفازية بارعة يبدع فيها حماة التربية، ويعملون على تنويعها، وحسن عرضها، وجاذبية محتواها.

إلى نضج إعلامي:

وبروز دور التلفاز لا تنقص من قيمة وسائل الإعلام على اختلاف طرائقها، وتنوع عطائها، وتمايز الراغبين في كل منها، فلا ينبغي أن ننسى جناية الطباعة على التربية من خلال الكتابات الساقطة، والصور الماجنة، والعروض التي لا تنسجم مع خُلق أو دين فضلاً عن أن حظ الطفولة منها محدود، وما هو قائم لها وخاص بها يحتاج أكثره إلى مراجعة وتمحيص، وقد كان ولايزال بلاء المراهقين من الطباعة

١- حمدي حسين الطويجي، وسائل الإعلام وأثرها في وحدة الأمة، هامش ص(١٤٣)، مرجع سابق.

فادحاً، خاصة أن الإنترنت بالطابعة الخاصة به أخرج من الكلمات والموضوعات، والصور ما يهدم الفضيلة، ويذبح العفة، ويدعو إلى بهيمية لا تعترف بفكر ولا خُلق؛ ولذا كانت بوابات الطباعة، وهي أعظم من أن تُحصى، ومواقع الترويج للمطبوعات الساقطة، وقد غص بها العالم في حاجة ماسة إلى عقول مؤمنة، وقلوب طيبة تُبصِّر أجيالنا، وتوضح لهم معالم طريق السلامة.

"وللإعلام بكافة وسائله دور في التربية وخصوصاً الإعلام التربوي، فكثيراً ما كنا نرى أن الإهمال الأسري وضعف المتابعة وقلة الوعي قبل ذلك من جانب الأسر من أهم أسباب إخفاق وتأخر الطالب دراسياً وأخلاقياً ولكي نمد جسر الترابط والاتصال بين البيت والمدرسة وننشر الوعي التربوي لدى الأسر والمجتمع عموماً وبالتالي لا نجعل للطالب مجالاً للتأخر سواء في دراسته أو تربيته لابد من أن يكون للإعلام دور في نشر ذلك الوعي وتحفيز الهمم لدى الآباء وحتى الأبناء بتعريفهم بسبل النجاح ومضار الفشل ونتائجه وآثاره على مستقبل الابن وحياته العملية والاجتماعية، وكذلك مساوئ الصحبة السيئة في ضياع مستقبله – لا سمح الله – وكذلك تربيته وأخلاقه حيث أننا نعاني في مجال التعليم من ضعف الوعي لدى الكثيرين، وكذلك الجهل من البعض بسبل التربية السليمة وخصوصاً واجبات ومهام ولي الأمر أو الأسرة عموماً تجاه أبنائها. والإعلام قد يذلل كثيراً من هذه العقبات والفواصل الموجودة حالياً بين مؤسسات التربية المختلفة." [1]

١- عمر بن سليمان الشلاش ، المرشد الطلابي بمجمع الأمير سلطان للمتفوقين ببريدة ، القسم المتوسط. (نت).

خلاصة القول:

البيت مؤسسة تربوية أولى، قوامها الوالدان، وقد نشأت علاقتهما وفق شرع الله تعالى، وصاغت لهما الشريعة أسس التربية الرشيدة، ولخطورة دور البيت، وتفرده بخصائص أحاطت به معوقات عرضنا لها، وكشفنا عن الطريق الأمثل لتجاوزها، والتغلب عليها.

والمسجد مؤسسة تربوية أعم وأشمل، له دوره البارز، وأثره المتميز في صياغة المسلم، وعماد التربية فيه الدعاة، وأولهم رسول الله (r)، ولتنجح الدعوة وتسم التربية في المسجد لابد من حسن تأسي الدعاة برسول الله (r) وكانت سلامة التربية المسجدية وقفا على أمور يتعلق أهمها بالداعية أبنت كثيرا منها مستمداً ذلك من كتاب الله تعالى وسنة رسوله (r).

والمدرسة هي المؤسسة التربوية، وبعد أن بينت ما للمدرسة وقفت أمام ما عليها، وذكرت مآخذ على المدرسة المعاصرة، وحاولت تحديد وجهة نظري في إصلاح المسار التربوي في المدرسة المعاصرة غير مدع أنني استقصيت ما يجب في هذا المجال، ولكنها على طريق يعلم الله مداه، وعلى التربويين أن يعطوه ما استطاعوا من الجهد والوقت.

أما المكتبات فلها مكانة مرموقة، ودور خاص في التربية، وإشارات القرآن الكريم، والتنويه بفضل القراءة والعلم والعلماء خير دليل على عظمة المكتبات ودورها، فضلاً عما للمكتبة المدرسية من أهمية وخصائص متميزة في خدمة العلم والتربية، وقيام المكتبات المدرسية له دوره وأهدافه، مما يدفعنا إلى حسن رعايتها، وتيسير سبيلها لأداء رسالتها، وأمين المكتبة هو القلب المحرك لها وقد حرصت على إلقاء الضوء عما يجب أن يكون فيه من سمات، ولم تحز المكتبة المدرسية مني الرضا كباحث فنقدتها راجياً إصلاح ما استطعت، وكشفت عن طموحاتي، وتطلعاتي إلى

مكتبة المستقبل مضيفاً إليها، فاتحاً أبوابها لذوي القدرات الخاصة على حد سواء مع غيرهم.

والمجتمع مؤسسة تربوية أعم وأشمل، واتصال الإنسان به ضرورة، وتفاعله مع من حوله فطرة، وهو مجموعة أفراد ومن هنا كان اهتمام الإنسان ببناء شخصية المسلم دينياً وجسمياً ونفسياً وعقلياً حرصاً على إقامة مجتمع مسلم له سماته، وخصائصه المميزة له عن غيره من المجتمعات، وكان للتربية الإسلامية دورها البارز في مراعاة جوانب الشخصية المسلمة، حتى كان الكمال الاجتماعي معلماً من معالم الإسلام.

وللإعلام واجبه التربوي الذي فرضه عليه العصر بما فيه من رقي وتطور، وقد تعددت وسائله، وأوسعها المفكرون بحثاً، وكان التلفاز أو كما سماه بعضهم (الرائي) أبرز هذه الوسائل، ،وألصقها بالناس أفراداً وجماعات، وأشدها تأثيراً بإيجابياته وسلبياته التي حاولت ما استطعت التغلب عليها، والوقاية من آثارها، وتطلعت إلى تلفاز تربوي منشود ترجح إيجابياته، وتتلاشى قدر الاستطاعة سلبياته، وامتد طموحي إلى نضج إعلامي يشمل جميع وسائل الإعلام، ويغطي جميع معطياته.

الباب السادس:

الشخصية السوية كما وصفها القرآن الكريم

- **الفصل الأول:** التوجه الديني .
- **الفصل الثاني** : السمو النفسي.
- **الفصل الثالث:** الارتقاء الخلقي.
- **الفصل الرابع:**الوفاق الاجتماعي.
- **الفصل الخامس:** النضج السياسي.

الفصل الأول:

التوجه الديني

دين خاتم وسماحة بالغة :

يحدثنا القرآن الكريم عن الإسلام فيقول جل شأنه: (**إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْأِسْلامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ**) [1]

ويقول جل جلاله: (**وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْأِسْلامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ**) [2]

ويقول عن أبي الأنبياء إبراهيم عليه و عليهم السلام (**مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيّاً وَلا نَصْرَانِيّاً وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفاً مُسْلِماً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ**) [3]

ويرفع اللّه ذكر خليله إبراهيم بإسلامه، ووصيته بنيه أن يستمسكوا بالإسلام ويموتوا عليه، وتظل الوصية قائمة في عقبه فيقول القرآن الكريم:(**وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنْ الصَّالِحِينَ (١٣٠) إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (١٣١) وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمْ الدِّينَ فَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (١٣٢) أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ إِلَهاً وَاحِداً وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (١٣٣)** [4]

1- سورة آل عمران الآية (١٩)

2- سورة آل عمران الآية (٨٥)

3- سورة آل عمران الآية (٦٧)

4- سورة البقرة الآيات (١٣٠ - ١٣٣)

بل هو دين الأنبياء جميعا: (**قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ**) [1]

ورضي اللّه تعالى الإسلام دينا لتلك الأمة الخاتمة خير أمة أخرجت للناس، وارسل به خاتم النبيين r ، فقال: (**الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْأِسْلامَ دِيناً**) [2]

وشاء اللّه تعالى لهذا الدين أن ينتصر، وينتشر في سنوات قلائل في عصر رسول اللّه r داخل الجزيرة العربية وخارجها، ثم في عصر الخلفاء الراشدين.

ورغم أن الإسلام دين الفاتحين، وهو الحق، وللناس كافة لم يكره المسلمون أحداً من أهل البلاد المفتوحة على الإيمان، فكل ذي دين أو مذهب دينه ومذهبه، لا إجبار ولا ضغط ليعتنق الإسلام، وأساس ذلك قوله تعالى: (**لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ**) [3]

يقول ابن كثير: "لا تكرهوا أحداً على الدخول في دين الإسلام، فإنه واضح جلي دلائله، وبراهينه، ولا يحتاج إلى أن يُكْرَهَ أحدٌ على الدخول فيه، بل من هداه اللّه للإسلام، وشرح صدره دخل فيه على بينة، ومن أعمى اللّه قلبه، وختم على سمعه، وبصره فإنه لا يفيده الدخول في الدين مقهوراً، مقسوراً"[4]

" وسبب نزول الآية كما ذكر المفسرون يبين لنا جانباً من إعجاز هذا الدين، فقد رووا عن ابن عباس قال: كانت المرأة تكون مقلاة قليل

1- سورة البقرة (١٣٦)

2- سورة المائدة (٣)

3- سورة البقرة الآية (٢٥٦)

١- الإمام ابن كثير، تفسير القرآن العظيم ، جـ (١) ص (٣١٠) ، مرجع سابق.

النسل فتجعل على نفسها إن عاش لها ولد أن تهوده (كان يفعل ذلك نساء الأنصار في الجاهلية)، فلما أجليت بنو النضير كان فيهم من أبناء الأنصار، فقال آباؤهم: لا ندع أبناءنا. (يعنون: لا ندعهم يعتنقون اليهودية)، فأنزل الله عز وجل هذه الآية (لا إكراه في الدين)[1].

فرغم أن محاولات الإكراه كانت من آباء يريدون حماية أبنائهم من التبعية لأعدائهم المحاربين، الذين يخالفوهم في دينهم وقوميتهم، ورغم الظروف الخاصة التي دخل بها الأبناء دين اليهودية وهم صغار، ورغم ما كان يسود العالم كله حينئذاك من موجات التعصب والاضطهاد للمخالفين في المذهب، فضلا عن الدين، كما كان في مذهب الدولة الرومانية التي خيرت رعاياها حينا بين التنصر والقتل، فلما تبنت المذهب "الملكاني" أقامت المذابح لكل من لا يدين به من المسيحيين من اليعاقبة وغيرهم.

ورغم كل هذا، رفض القرآن الإكراه، بل من هداه الله، وشرح صدره للإسلام ونور بصيرته بالهدى دخل فيه على بينة، ومن طمس الله قلبه، وختم على سمعه فأنى يسلم مرغما، مقهورا؟

فالإيمان عند المسلمين ليس مجرد كلمة تلفظ باللسان أو طقوس تؤدي بالأبدان، بل أساسه إقرار القلب وإذعانه وتسليمه.

ولهذا لم يعرف التاريخ شعبا مسلما حاول إجبار أهل الذمة على الإسلام، كما أقر بذلك المؤرخون الغربيون أنفسهم". [2]

"وقال الأستاذ الإمام محمد عبده رحمه الله كان معهودا عند بعض الملل لا سيما النصارى حمل الناس على الدخول في دينهم بالإكراه، وهذه المسألة ألصق بالسياسة منها بالدين لأن الإيمان هو أصل الدين، وجوهره

٢- الإمام ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، جـ(١) ص (٣١٨)، مرجع سابق.

١- د. يوسف القرضاوي، غير المسلمين في المجتمع الإسلامي، ص (١٨) بتصرف، مؤسسة الرسالة، ط(٦)، بيروت – لبنان، سنة (١٩٩٤م).

عبارة عن إذعان النفس، ويستحيل أن يكون الإذعان بالإلزام والإكراه، وإنما يكون بالبيان والبرهان"[1]

وقوله جل شأنه:

(وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ) (يونس:٩٩)

"فالإيمان إذا متروك للاختيار، ولا يكره الرسول عليه أحدا، لأنه لا مجال للإكراه في مشاعر القلب وتوجهات الضمير" [2]

لقد سادت النصرانية مع تفوق الروم السياسي والعسكري، وضغوطهم على أهل البلاد المفتوحة.

"ولم يعرف التاريخ على الصعيدين الجماعي والفردي أي حادثة إكراه أو إجبار على اعتناق الإسلام، وإنما كان غير المسلم حراً حرية تامة في البقاء على دينه دون إعنات، ولا مضايقة، ولا قسر على تغيير عقيدته" [3]

ورأينا في المعاصرين من مفكري الغرب من يشهدون للإسلام، ويقرون بتسامحه، ورفقه بأهل الأديان الأخرى، وحسن رعايته لهم.

يقول العلامة الفرنسي غوستاف لوبون: "رأينا من آي القرآن التي ذكرناها آنفا أن مسامحة محمد لليهود والنصارى كانت عظيمة للغاية، انه لم يقل بمثلها مؤسسو الأديان التي ظهرت قبله كاليهودية والنصرانية على وجه الخصوص، وسنرى كيف سار خلفاؤه على سنته، وقد اعترف بذلك التسامح بعض علماء أوروبا المرتابون أو المؤمنون القليلون الذين أمعنوا النظر في تاريخ العرب، والعبارات الآتية التي أقتطفها من كتب الكثيرين منهم تثبت أن رأينا في هذه المسألة ليس خاصا بنا. قال روبرتسن في كتابه (تاريخ

٢- الشيخ محمد رشيد رضا، تفسير المنار، جـ (٣) ص (٣٧)، مرجع سابق.

٣- سيد قطب، في الظلال القرآن، جـ (٣) ص (١٨٢٠)، مرجع سابق.

3- د. وهبة الزحيلي ، الإسلام وغير المسلمين ، ص(٧)، دار المكتبي، ط(١)، دمشق – سوريا، سنة (١٩٩٨م).

شارلكن): إن المسلمين وحدهم الذين جمعوا بين الغيرة لدينهم، وروح التسامح نحو أتباع الأديان الأخرى، وأنهم مع امتشاقهم الحسام نشرا لدينهم. تركوا من لم يرغبوا فيه أحرارا في التمسك بتعاليمهم الدينية." [1]

ولا عجب في أن يسلك المسلمون مع غيرهم مسلك التسامح والرفق والإحسان، فقد دعاهم القرآن الكريم إلى ذلك: (**لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ**) [2]

وعهد رسول الله r وصلحه مع نصارى نجران تطبيق عملي لسماحة عزَّ أن نجدها في غير الإسلام، وتأمينهم أماناً شمولياً يحقق لهم استقراراً، واطمئناناً وقد جاء في شروط هذا الصلح: (أنَّ لنصارى نجران جوار الله وذمة محمد النبي، على أنفسهم وملتهم وأرضهم وأموالهم، وغائبهم وشاهدهم، وعشيرتهم وتبعهم. وأن لا يغيروا مما كانوا عليه، ولا يغير حق من حقوقهم ولا ملتهم، ولا يغير أسقف من أسقفيته، ولا راهب من رهبانيته، ولا ما تحت أيديهم من قليل أو كثير. وليس عليهم ريبة ولادم جاهلية ولا يحشرون (لا يكلفون بجهاد) ولا يعشرون (لا يكلفون بزكاة) ولا يطأ أرضهم جيش. ومن سأل منهم حقاً فبينهم النصف غير ظالمين ولا مظلومين، ومن أكل رباً فذمتي منه بريئة ولا يؤخذ رجل منهم بظلم آخر.وعلى ما في هذه الصحيفة جوار الله وذمة محمد رسول الله حتى يأتي الله بأمره ما نصحوا وأصلحوا فيما عليهم ير منقلبين بظلم"[3]

1- حاشية من ص (١٣٨) من كتاب (حضارة العرب) ترجمة (عادل) نقلا عن د/ يوسف القرضاوي،غير المسلمين في المجتمع الإسلامي، ص(٢١)، مرجع سابق.

2- سورة الممتحنة الآية (٨)

3- الشيخ محمد الغزالي، فقه السيرة، ص(٤٦٣)،مرجع سابق.

"وكذلك صان الإسلام لغير المسلمين معابدهم، ورعى حرمة شعائرهم، بل جعل القرآن من أسباب الإذن في القتال حماية حرية العبادة، وذلك في قوله تعالى: (**أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (٣٩) الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (٤٠)**) [1]

وقد رأينا كيف اشتمل عهد النبي r ، إلى أهل نجران، أن لهم جوار الله وذمة رسوله على أموالهم وملتهم وبيعهم ".[2]

وسار الخلفاء الراشدون وقوادهم رضوان الله عليهم أجمعين سيرة رسول الله r ، وأحسنوا التأسي به في معاملة غير المسلمين .

"وفي عهد عمر بن الخطاب إلى أهل إيلياء (القدس) نص على حريتهم الدينية، وحرمة معابدهم وشعائرهم: "هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان: أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم ولكنائسهم وصلبانهم وسائر ملتهم، لا تسكن كنائسهم، ولا تهدم ولا ينتقص منها، ولا من حيزها، ولا من صليبها، ولا من شيء من أمواهلم، ولا يكرهون على دينهم، ولا يضار أحد منهم، ولا يسكن بإيلياء معهم أحد من اليهود، .وعلى أهل إيلياء أن يعطوا الجزية كما يعطى أهل المدائن، وعليهم أن يخرجوا منها الروم واللصوت[3]، ومن أقام منهم فهو آمن، وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية، ومن أحب من أهل إيلياء أن يسير بنفسه وماله مع الروم ويخلي بيعهم وصلبهم فإنهم أمنون على أنفسهم وعلي بيعهم وصلبهم، حتى يبلغوا مأمنهم، ومن كان بها من أهل الأرض قبل مقتل فلان، فمن

1- سورة الحج الآيتان(٣٨ ، ٣٩)

2- د. يوسف القرضاوي، غير المسلمين في المجتمع الإسلامي، ص (١٩)، مرجع سابق.

3- اللصت مثل (اللص): السارق ، والجمع لصوت

شاء منهم قعدوا عليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية، ومن شاء سار مع الروم، ومن شاء رجع إلى أهله فإنه لا يؤخذ منهم شيء حتى يحصد حصادهم، وعلى ما في هذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله وذمة الخلفاء وذمة المؤمنين إذا أعطوا الذي عليهم من الجزية. شهد على ذلك خالد بن الوليد، وعمرو بن العاص، وعبد الرحمن بن عوف، ومعاوية بن أبي سفيان، وكتب وحضر سنة خمس عشرة"[1]

وعلى هذا النهج القويم سار خالد بن الوليد في عهده لأهل (عانات) ومما جاء فيه..

"... ولهم أن يضربوا نواقيسهم في أي ساعة شاؤوا من ليل أو نهار، إلا في أوقات الصلاة، وأن يخرجوا الصلبان في أيام عيدهم" [2]

وكان دخول المسلمين مصر فتحاً للمصريين سَرَّى الله به عنهم، وأذهب عنهم رجس الرومان، وأزاح عنهم كابوس الاستبداد، ويسر لهم الهدى، وحبب إليهم الإيمان لما رأوا من عدل المسلمين، وتسامحهم، ورفقهم بأهل مصر الذين عانوا من حكم الرومان رغم اتفاقهم في الدين (النصرانية)، أما المسلمون، فقد سرت روحهم السمحة الطيبة في المجتمع المصري، وأنسوا بهم، واطمأنوا إليهم حتى الذين ظلوا قبطاً، ولم يدخلوا في الإسلام، وزاد الثقة، وضاعف الشعور بالاستقرار والأمان ذلك الصلح المبرم والعهد الوثيق بينهم وبين الدولة الإسلامية ممثلة في القائد الفاتح الصحابي الجليل عمرو بن العاص رضي الله عنه. .

١- الإمام الطبري، تاريخ الطبري، حققه محمد أبو الفضل إبراهيم، جـ(٣)، ص(٦٠٩) بتصرف، دار المعارف، ط(٣)، القاهرة – مصر.

٢- د. يوسف القرضاوي، غير المسلمين في المجتمع الإسلامي، ص (١٩)، مرجع سابق.

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا ما أعطى عمرو بن العاص أهل مصر من الأمان على أنفسهم وملتهم وأموالهم وكنائسهم وصلبهم، وبرهم وبحرهم، لا يدخل عليهم شيء من ذلك ولا ينتقص، ولا يساكنهم النوب، وعلى أهل مصر أن يعطوا الجزية إذا اجتمعوا على هذا الصلح، وانتهت زيادة نهرهم خمسين ألف ألف، وعليهم ما جنى لُصوُتُهُم ، فإن أبى أحد منهم أن يجيب رفع عنهم من الجزاء بقدرهم، وذمتنا ممن أبى بريئة، وإن نقص نهرهم من غايته إذا انتهى رفع عنهم من الجزاء بقدر ذلك، ومن دخل في صلحهم من الروم والنوب فله مثل ما لهم، وعليه مثل ما عليهم، ومن أبى واختار الذهاب فهو آمن حتى يبلغ مأمنه، أو يخرج من سلطاننا، عليهم ما عليهم أثلاثاً في كل ثلث جباية ثلث ما عليهم، على ما في هذا الكتاب عهد الله وذمته وذمة رسوله وذمة الخليفة أمير المؤمنين وذمم المؤمنين، وشهد الزبير، وعبد الله، ومحمد ابناه، وكتب وردانُ وحضر" .[1]

الفاتحون العظماء :

لم يكن الفاتحون المسلمون غير مجاهدين في سبيل اله تعالى، يؤثرون الشهادة إعلاء لكلمة الله جل شأنه، ونشراً لدينه، ووصولاً بالدعوة إلى من سبق لهم من الله الهدى من تلك الشعوب المغلوبة على أمرها، المضروب عليها الذل، والمقهورة حتى في عقيدتها، ولن يكون ذلك إلا بدك حصون الظلم، والطغيان، وزلزلة عروش لا يرفعها غير الباطل، ولا يملؤها إلا الغرور، والأمر شاق فقد أقيمت بالباطل دول، وتوج ملوك، ورفع قياصرة، وإنزالهم ليس بالأمر الهين، غير أن الذين تحركوا للفتح، رُبُّوا على الوحي، وغُذُّوا من مأدبة القرآن الكريم، وعاشوا في ظلال الأسوة الحسنة، وما خرجوا هم، ولكن الله أخرجهم، ووعدهم بنصره، وشد أزرهم بمعيته..

1- الإمام الطبري، جـ (٤)، ص (١٠٩)بتصرف، مرجع سابق.

(كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ) [1]

وقال تعالى: (فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً) [2]

فهم عباد الله لا يعبث بقلوبهم هوى، ولا تميل بهم نزوة، ولا تحركهم في فلكها دنيا يؤثرونها، ولكنهم حملة مشاعل، ومعالم هدى، ودعاة توحيد لله الخالق البارئ المصور، وقد باعوا فقبل الله بيعهم، نعمت الصفقة، وربح البيع!

(إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ) [3]

وإذا كانوا كما عرفنا أصحاب رسالة، ودعاة رشاد فلا عداوة بينهم وبين تلك الشعوب المغلوبة المقهورة، وهي المقصودة بالدعوة المطلوبة لذلك النور.

إنما خرجوا القطف رؤوس علت بالباطل، وإسقاط عروش قامت على دعائم الظلم والطغيان، والإثم والعدوان، فهي لا شك زائلة.

(وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ) [4]

لقد انطلق جند الله بالحق تشرق وجوههم نورا يجذب إليهم المستضعفين، وتفيض قلوبهم حبًّا يجمع حولهم من حرموا الحب، وافتقدوا الرحمة، وتتلألأ نظراتهم برا، وسماحة لمن استسلموا للقهر والظلم، وها هو

1- سورة البقرة الآية (٢١٦).

2- سورة النساء الآية (٧٤).

3- سورة التوبة الآية (١١١).

١- سورة العنكبوت الآية (٤١)

دستور آداب الجهاد كما يراه الإسلام يجعله الرسول الكريم r نبراس المجاهدين الأبرار، الذين رُبُّوا في رحاب الوحي قادة وجنوداً ليكونوا على نهج الله تعالى في جهادهم كما التزموه راضين مسلمين في سلمهم، عن سليمان بن بريدة عن أبيه قال كان رسول الله r إذا أَمَّرَ أمير ا على جيش أو سرية أوصاه. في خاصته بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيراً ثم قال: "اغزوا باسم الله في سبيل الله قاتلوا من كفر بالله اغزوا، ولا تغلوا، ولا تغدروا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا وليدا، وإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى ثلاث خصال أو خلال فأيتهن ما أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم ثم ادعهم إلى الإسلام فإن أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين وأخبرهم أنهم إن فعلوا ذلك فلهم ما للمهاجرين وعليهم ما على المهاجرين فإن أبوا أن يتحولُوا منها فأخبرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين يجري عليهم حكم الله الذي يجري على المؤمنين ولا يكون لهم في الغنيمة والفيء شيء إلا أن يجاهدوا مع المسلمين فإن أبوا فسلهم الجزية فإن هم أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم فإن هم أبوا فاستعن بالله وقاتلهم وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تجعل لهم ذمة الله وذمة نبيه فلا تجعل لهم ذمة الله ولا ذمة نبيه ولكن اجعل لهم ذمتك وذمة أصحابك فإنكم أن تخفروا ذممكم وذمم أصحابكم أهون من أن تخفروا ذمة الله وذمة رسوله وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك تنزلهم على حكم الله فلا تنزلهم على حكم الله، ولكن أنزلهم على حكمك فإنك لا تدري أتصيب حكم الله أم لا"[1]

ليت المهتمين بالتربية يدركون أن التربية عند محمد r لا تقف عند السلم فقط، إن التربية في الإسلام تبني شخصية سوية تصلح للتفاعل مع الحياة والأحياء مع اختلاف البيئات وتنوع الأحوال سلما وحرباً، وهاهو

1- أخرجه مسلم (١٧٣١)

القرآن الكريم يربي المؤمنين للجهاد المفروض عليهم فيقول تعالى: (**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**) [1]

هكذا تكون التربية المؤمنة، والإعداد القادر على المواجهة، الصابر على ويلات الحرب، الواثق أن النصر آت لا محالة ممن يملك النصر وحده ما أحسنا التوجه إليه، والإخلاص لدينه إن ذكر الله عند لقاء العدو يؤدي وظائف شتى: حيث يجعل المجاهد على اتصال بالله الواحد الأحد الذي يجير ولا يجار عليه، وينصر أولياءه ..(**وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ**)[2]

ويهيئ للنصر أسبابه، ويعد النفوس البشرية للعمل له وحسن استقباله، إنه تطبيق عملي للتربية القرآنية(**وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ**) [3] وهذا أشد مواقف الحاجة إلى عون الله تعالى، ثم هو تأكيد للالتزام بمنهج الله تعالى حتى في ملاقاة الكفر والكافرين، وعلى صراط الله العزيز الحميد يسير الرسول الأكرم r بالمجاهدين قادة وجندا، وأول وصاياه تقوى الله وهو ما لم تهتد إليه الحضارة المعاصرة، ولا تطيقه، إنها حضارة الأهواء والشهوات والنزوات والأحقاد، حضارة لا تتقي الله في سلمها فأنى لها بتقواه في الحرب؟

وناهيك عما يكون لها من أثر في المجاهد تجاه نفسه والآخرين، وفي مقدمتهم الأعداء إنها تربية الإسلام.

"اغزوا باسم الله، في سبيل الله قاتلوا من كفر بالله" إن على المقاتل أن يخلي نفسه من كل شيء إلا عقيدته، وأن يفرغ قلبه لله، وفي سبيله يقاتل مبرأ من كل آفات النفس ونزعات الهوى.

1- سورة الأنفال الآية (٤٥)

2- سورة الأنفال الآية (١٠)

١- سورة الفاتحة الآية (٥).

أين تربية الإسلام القتالية "لا تغلوا، ولا تغدروا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا وليداً؟" أين هذه التربية من حروب الإبادة التي لا تغادر طفلاً ولا امرأة، ولا كبيراً فانياً؟ ثم ذلك الحوار الهادئ، والعرض الذي لا إرهاب فيه (إما، إما وإما) ثم بسط اليد للصلح، والمسلمون في مركز القوة بالحق.

إن أمة تسوس معاركها على هذا المنهج الإلهي يستحيل عليها أن تستذل من هزمتهم ، أو تجافي الرحمة والرفق فيهم، أو تتجاوز حدود الله معهم، وتكرههم على ما لا يريدون ولو كان الإسلام.

الأسوة الحسنة يبدأ التربية العملية :

والأسوة الحسنة r يبدأ التربية العملية لأمته لينهجوا نهجه ويسلكوا طريقه، ويستنوا سنته فيمن لا يدينون بدين الإسلام، إن صلة الأمة بالأجانب عنها الذين لا يدينون بدينها قد سن الرسول r في ذلك قوانين السماحة، والتجاوز التي لم تعهد في عالم مليء بالتعصب والتغالي، والذي يظن أن الإسلام دين لا يقبل حوار دين آخر، وأن المسلمين قوم لا يستريحون إلا إذا انفردوا في العالم بالبقاء والتسلط، هو رجل مخطئ قاصر الإدراك متحامل جريء.

"عندما جاء النبي r المدينة، وجد بها يهودا توطنوا، ومشركين استقروا، فلم يتجه إلى رسم سياسة للإبعاد، أو المصادرة، أو التضييق والإذلال، أو المنافرة والخصام، بل قَبِلَ عن طيب خاطر وجود اليهود والوثنية، وعرض على الفريقين أن يعاهدهم معاهدة الند للند، وسنورد طرفا من هذه المعاهدة لنجتلي منها عدل الإسلام ورسوله r مع غير المسلمين إذا ملكوا أمرهم" [1]

وقد جاء فيها:

"وإن المؤمنين بعضهم موالي بعض دون الناس؛ وإنه من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة، غير مظلومين ولا متناصرين عليهم، وإن سلم المؤمنين واحدة، لا يسالم مؤمن دون مؤمن

كما جاء فيها: وإنكم مهما اختلفتم فيه من شيء، فإن مرده إلى الله عز وجل، وإلى محمد r ، وإن اليهود يتفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين، وإن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم، وللمسلمين دينهم، مواليهم وأنفسهم، إلا من ظلم وأثم، فإنه لا يوتغ إلا نفسه وأهل بيته، وإن ليهود بني النجار مثل ما ليهود بني عوف، وإن ليهود بني الحارث

١- الشيخ محمد الغزالي، فقه السيرة، ص(١٩٦)، بتصريف يسير، مرجع سابق.

مثل ما ليهود بني عوف، وإن ليهود بني بني ساعدة مثل ما ليهود بني عوف، وإن ليهود بني جشم مثل ما ليهود بني عوف، وإن ليهود بني الأوس مثل ما ليهود بني عوف، وإن ليهود بني ثعلبة مثل ما ليهود بني عوف، إلا من ظلم وأثم، فإنه لا يوتغ إلا نفسه وأهل بيته، وإن جفنة بطن من ثعلبة كأنفسهم، وإن بطانة يهود كأنفسهم، وإنه لنبي الشُّطَيْبَة مثل ما ليهود بني عوف، وإن البر دون الإثم، وإن موالي ثعلبة كأنفسهم وإن بطانة يهود كأنفسهم ، وإنه لا يخرج منهم أحد إلا بإذن محمد r ، وإنه لا ينحجز على ثار جرح، وإنه من فتك فبنفسه فتك، وأهل بيته، إلا من ظلم ، وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة، وإن بينهم النصح والنصيحة، والبر دون الإثم، وإنه لم يأثم امرؤ بحليفه، وإن النصر للمظلوم، وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين، وإن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة، وإن الجار كالنفس غير مضار ولا آثم، وإنه لا تجار حرمة إلا بإذن أهلها، وإنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده، فإن مرده إلى الله عز وجل، وإلى محمد رسول r ، وإن الله على أتقى ما في هذه الصحيفة وأبره ، وإنه لا تجار قريش ولا من نصرها، وإن بينهم النصر على من دهم يثرب وإذا دعوا إلى صلح يصالحونه ويلبسونه، وإنهم إذا دعوا إلى مثل ذلك فإنه لهم على المؤمنين، إلا من حارب في الدين، على كل أناس حصتهم من جانبهم الذي قبلهم، وإن يهود الأوس، مواليهم وأنفسهم، على مثل ما لأهل هذه الصحيفة، مع البر المحض من أهل هذه الصحيفة.

قال ابن إسحاق: وإن البر دون الإثم، لا يكسب كاسب إلا على نفسه، وإن الله على أصدق ما في هذه الصحيفة وأَبَرِّه، وإنه لا يحول هذا

الكتاب دون ظالم وآثم، وإنه من خرج آمن، ومن قعد آمن بالمدينة، إلا من ظلم أو أثم، وإن اللّه جار لمن بر واتقى، ومحمد رسول اللّه r "[1].

وبمتابعة فاحصة منصفة يبدو واضحا ما نال غير المسلمين خاصة اليهود في ظل الإسلام مما لم يدركوه قبله، وما أظنهم مدركيه بعده إلى يوم القيامة، ولكن هل كانت قلوب اليهود خالصة، ونياتهم صادقة، وعزمهم قويما على تلقي هذه الحقوق، وصيانتها، والتزام الواجبات بمقتضاها؟ لا أظن ذلك، والواقع يؤكد فما كان من شأن رسول اللّه r أن ينقض عهدا، وما غدر؛ واحدٌ من المسلمين ؛لأن من ربوا على التقوى لا يغدرون ولكن اليهود غدروا، ومكروا، فكان شأنهم (**وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ**) [2]

(**وَلا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ**) [3]

فحصدوا ثمار مكرهم، وكفى اللّه تعالى رسوله r والمؤمنين شرهم.

١- ابن هشام، السيرة النبوية، تحقيق مصطفى السقا وزميليه، ص(١١٧- ١١٨)، دار إحياء التراث العربي، ط(١)، بيروت – لبنان، سنة (١٩٩٤م).

2- سورة آل عمران الآية (٥٤)

3- سورة فاطر الآية (٤٣)

الفصل الثاني:

السمو النفسي

السمو الإنساني فطرة:

إذا كان الله تعالى قد اصطفى الإنسان، واختاره لما لم يجعله في غيره من خلقه، فكانت له الخلافة في الأرض، وأسجد له الملائكة، قال تعالى: (**وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً**) [1]

وكشف الله تعالى لهم عن تميزه، ثم أمرهم بالسجود له: (**وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ**) [2]

وكرمه الله وفضله (**وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ**) [3] صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين وفطره على الإيمان، واصطفى من البشر رسله وأنبيائه واختصهم بوحية وأنزل عليهم شرائعه، وكان لزاماً عليه أن يرعى ذلك كله في نفسه ويعينه من حوله، قربت صلتهم به، أو بعدت، يدعمون فيه السمو، ويدفعون عنه التدني، ويحفظونه من السقوط، ومن ثم يهيئون له الترقي المركوزة فيه أسسه ودوافعه، قال تعالى: **وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (٨) قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (٩)** [4] وذلك امتثالاً لأمر الله تعالى: (**وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ**) [5]

١- سورة البقرة الآية (٣٠) .
٢- سورة البقرة الآية (٣٤) .
٣- سورة الإسراء الآية (٧٠) .
٤- سورة الشمس الآيات (٧- ٩) .
٥- سورة المائدة الآية (٢) .

وأي بر كحياطة الفطرة بسياج من الرعاية يحفظ عليها نقاءها، ويدفع عنها أكدار الحياة؟.

والتزاماً بذلكم النهج القويم الذي دعانا إليه الكتاب العزيز: **وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (٣)** [١] بل جعل الرسول (r) الدين النصيحة، عن أبي أمامة تيمم بن أوس الداري رضى الله عنه قال : قال رسول الله (r)"الدين النصيحة"[٢]

وإذا كان ذلك نهج الإسلام عامة، فالتربية أولى به وأحق، وعلى المربين أن يكونوا في أنفسهم أسوة حسنة لمن يربون في ذلك النهج العالي تعاوناً على البر والتقوى، وتواصيناً بالحق والصبر، وتناصحاً وهو واجب كل المربي ، وإن اختلف عطاؤهم العلمي ماداموا مسلمين، وإذا لم تَسْمُ التربية بنفوس أبنائنا وتوليهم كريم اهتمامها، وجليل عنايتها بتوجيهٍ رشيد، وتتبع حكيم، وتقويم بصير، وإشباع وفير، يحسه ويلمسه النشء في القول والفعل والسلوك ، أو نقول في كل ما يصدر عن المعلم فعلاً أو تركاً، فعلى سبيل المثال، المربي المدخن كيف يسمو بمن يربيه ويجعله فوق هذا العبث إذا كان هو دون ذلك ؟ ولا يتسنى لنا بناء شخصية سوية متكاملة يتحقق لها النضج الوجداني والسمو النفسي إلا إذا نهضت تربيتها على أسس أهمها:

١- القدرة على ضبط النفس، والتحكم في الانفعالات، فلا اندفاع، ولا تهور، ولا انقياد للأهواء ، وقد أشاد القرآن الكريم بذلك، وأعظمه،

١- سورة العصر الآيات (١- ٣) .

٢- رواه مسلم (١/٧٤).

وأعظم أهله فقال تعالى: (**وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ (١٣٣) الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنْ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣٤)** [١]

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله (r) قال: "ليس الشديد بالصرعة، وإنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب"[٢]

٢- الاتزان الانفعالي، والحكمة في ردود الأفعال، والثبات على الحق، وعدم التقلب والتردد وفقاً للأهواء ، والتسامح ، وحسن التعامل مع الآخرين وقد جاء من وصايا لقمان لابنه: (**وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ**) [٣]

وقال تعالى:)**وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ**) [٤]

وقال جل شأنه مخاطباً رسول ومصطفاه (r): (**فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ**) [٥]

وعن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله (r): "لا تحقرن من المعروف شيئاً ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق" [٦]

"٣-الاتصاف بالنظرة الواقعية للذات وعدم المبالغة في الاعتداد بالنفس، والإسراف في تقدير الذات مما يؤدي إلى الغرور والترفع والكبرياء مما يدعو إلى احتقار الآخرين، والسخرية منهم والتعالي عليهم، فيكرهونه، ويملون لقاءه، ويودون الخلاص منه، وهنا ينفرط عقد الإخاء"[٧]

١- سورة آل عمران الآيتان (١٣٣- ١٣٤).
٢- رواه البخاري (٤٠٨/١٦ فتح)، ومسلم (٢٠١٤/٤).
٣- سورة لقمان الآية (١٧).
٤- سورة الشورى الآية (٤٣) .
٥- سورة آل عمران الآية (١٥٩) .
٦- رواه مسلم (٢٢٢٦/٤).
٧- د. عبد الحميد الزنتاني، أسس التربية الإسلامية في السنة النبوية، ص (٥٤٤)، بتصرف، مرجع سابق.

وقد حكى القرآن الكريم من وصية لقمان لابنه: **وَلا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحاً إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ** (١٨) **وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ** (١٩) [١]

وقال تعالى محدثاً عن المتكبرين، واصفاً تجاوزهم، والإسراف في تقدير ذواتهم، وفي ذلك وبالهم ودمارهم: (**وَلا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً**) [٢]

وجاء في القرآن الكريم حكاية عن قوم قارون نصحاً له ، في تأديبه، ورده إلى الله: (**إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ**) [٣]

وقال تعالى مخاطباً رسوله (**r**) ومؤدبا أمته: (**وَلا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى**)[٤]

وأي تربية كتربية رسول الله (**r**) لأمته حين يحثها على اتباع النظرة الواقعية للذات والمطامح ؟

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "إذا نظر أحدكم إلى مَنْ فُضِّل عليه في المال والخَلْق فلينظر إلى مَنْ هو أسفل منه ممن فُضِّل عليه"[٥]

كما حذر من الكبر، وجعله حائلاً بين العبد والجنة.

١- سورة لقمان الآيتان (١٨- ١٩) .

٢- سورة الإسراء الآية (٣٧) .

٣- سورة القصص الآية (٧٦) .

٤- سورة طه الآية (١٣١) .

٥- رواه البخاري (١٧/٢٩٤فتح)، ومسلم (٤/٢٢٧٥).

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله (r) قال:" لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر "[1]

٤- الحرص على الأخذ بالأسباب، والقدرة على مواجهة المشكلات واتخاذ القرار المناسب، وتجنب الضعف والانهيار، مع الثقة بالنفس، وحسن التوكل على الله.

قال تعالى مخاطباً رسوله (r) ومؤدباً أمته: **وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ (١٥٩) إِنْ يَنْصُرْكُمْ اللَّهُ فَلا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلْ الْمُؤْمِنُونَ (١٦٠)** [2]

ولا يكون التوكل إلا بعد جهد صادق ، ويقين ثابت، وحسن ثقة بالله، ثم بالنفس، قال جل شأنه:(**اللَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ**)[3]

كما يقول جل جلاله: (**وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ**) [4]

ويكشف الرسول (r) عن أهمية الحزم، وقوة التحمل، والصبر والتجلد، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :" المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير. احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز. وإن أصابك شيء فلا تقل لو أني فعلت كان كذا وكذا. ولكن قل قَدَرُ الله وما شاء فعل، فإنَّ لو تفتح عمل الشيطان"[5]

١- رواه مسلم (٩٣/١).
٢- سورة آل عمران الآيتان (١٥٩- ١٦٠).
٣- سورة التغابن الآية (١٣) .
٤- سورة الطلاق الآية (٣) .
٥- رواه مسلم (٢٠٥٢/٤)

٥- تنمية الإرادة، "والاستقلال العاطفي، وعدم الانسياق الأعمى وراء الآخرين في عواطفهم وانفعالاتهم ومواقفهم، والتحلي بروح التضحية والإثارة والتعاون، ونبذ الأنانية والأثرة والتوكل.

فقد حث رسول الله (r) المؤمن على التحلي بالاستقلال الفكري والعاطفي والانفعالي في اتخاذ المواقف الإيجابية." [١]ودعاه إلى الدقة والتحري، ثم الحزم. قال تعالى: ﴿ **وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلا تَعَاوَنُوا عَلَى الْأِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ** ﴾ [٢]

وقال جل شأنه: ﴿ **وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ** ﴾ [٣]

وإنك لترى عظمة الإيمان، وثبات اليقين، وصدق العطاء، وخالص المودة من ذلك العرض القرآني الكريم في قوله تعالى **لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنْ اللَّهِ وَرِضْوَاناً وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ هُمْ الصَّادِقُونَ (٨) وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمْ الْمُفْلِحُونَ (٩)** [٤]

عن حذيفة رضي الله عنه قال: قال رسول الله (r): " لا تكونوا إمعة تقولون إن أحسن الناس أحسنا، وإن ظلموا ظلمنا، ولكن وطِّنوا أنفسكم إن أحسن الناس أن تحسنوا، وإن أساؤوا فلا تظلموا" [١]

١- د. عبد الحميد الزنتاني، أسس التربية الإسلامية في السنة النبوية، ص(٥٤٥)، بتصرف، مرجع سابق.

٢- سورة المائدة الآية (٥) .

٣- سورة البقرة الآية (١٩٥) .

٤- سورة الحشر الآيتان (٨- ٩)

١- رواه الترمذي (٤/٣٦٤).

٢- تقدم تخريجه ص (٤٢٨)، رقم (٢).

٣- د. عبد الحميد الزنتاني، أسس التربية الإسلامية في السنة النبوية ، ص (٥٤٦)، مرجع سابق .

٤- سورة الزخرف الآية (٢٣) .

بل جعل منظومة الخلق أساس التعامل، ودليل التعاون، وأمارة الوفاق والمودة عن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله (r): "تبسمك في وجه أخيك لك صدقة، وأمرك بالمعروف ونهيك عن المنكر صدقة، وإرشادك الرجل في أرض الضلال لك صدقة، وبصرك للرجل الردئ، البصر صدقة، وإماطتك الحجر والشوك والعظم عن الطريق لك صدقة، وإفراغك من دلوك في دلو أخيك لك صدقة" [٢]

٦- "عدم التأثر العاطفي وإثارة الانفعالات بناءً على الأفكار المسبقة غير الصحيحة عن الأشخاص أو التصورات والمشاعر الخاطئة، أو الظنون والأوهام، وضرورة التبين، والتثبت قبل صدور أية ردود أفعال غير محمودة، وغير مبنية على اليقين" [٣]

وقد نعى القرآن الكريم على قوم إيثارهم الهوى على الهدى، وتقليد الآباء على الوحي، فقال جل شأنه: ﴿**وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ**﴾[٤]

ودعا إلى التثبت، وطرح الظنون طلباً للحق، وحرصاً على تماسك الأمة، وتجنباً للشقاق والتنافر.

قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ**﴾ [١]

١- سورة الحجرات الآية (٦) .

٢- سورة الحجرات الآية (١٢)

٣- رواه البخاري (٣٦٨/١٦فتح)، ومسلم (١٩٨٥/٤).

وقال عز وجل: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ**﴾ [٢]

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "إياكم والظن، فإن الظن أكذب الحديث"[٣]

سكينة النفس الطريق لحياة راشدة:

"إن سكينة النفس هي الغاية المثلى للحياة الرشيدة، وهي تزهر بغير عون من المال، بل بغير مدد من الصحة أو الجاه، وبها يتحول الكوخ إلى قصر رحيب، والضيق إلى فرج، والعسر إلى يسر ، والشدة إلى رخاء، أما فقدها فإنه يحيل القصر إلى قفص وسجن موحش، ويجعل الحياة هماً، والعيش نكداً.

وإذا تأملت دعوات الإنسانية من كل ملة في كل عصر، فإنها كلها تلخص في أمرين: رزق اليوم، والسكينة الباطنة. على أن هذه الدعوات من أجل سكينة النفس لا ينبغي أن تخلط بالهرب من عباب الحياة، واعتزال الآخرين، وسوء الظن بالحياة والأحياء، وإنما غايتها التوازن الباطن الذي يمكننا من التغلب على أحداث الحياة.

ولا يكون الفوز بسكينة النفس بجهد يسير أو فكر عابر أو عاطفة موقوتة، وقد يعين على إتيانها أن يكون المرء على صلة بالأعمال النبيلة غير أن هذه وحدها لا ترضي مطالب الروح كل الرضى. ومن المحقق أننا لا نجد السكينة بعنف الجري وراء المال الذي يتفلت كالزئبق من بين أصابعنا المتشبثة، أو لسعي حثيث في طلب الدنيا، والحرص على حيازتها بل لن نجد السكينة على نحو وطيد في الحب الإنساني وجلال تبادله. وإن كانت هذه العاطفة أقوى ما يوهم الإنسان أنه فاز بالسعادة التامة".[١]

قال تعالى ممتناً على قريش، وقد كفرت وجحدت: **لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ** (١) **إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ** (٢) **فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ** (٣) **الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ** (٤) [٢]

إذن أين نلتمسها؟

إن مفتاحها هو الصلة الوثيقة بالله تعالى معرفة، وعبادة، وانقياداً، ورضاً بالله وعنه، قال تعالى: (**الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ**) [٣]

مما يعين الإنسان على بر نفسه، وحسن رعايتها، وكريم توجيهها إلى الله تعالى، وها هي وصية الله تعالى لمن طعموا الإيمان، وعرفوا حلاوة اليقين، يقول جل شأنه: (**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً**) [٤]

وكثيراً ما ينهانا ربنا جل وعلا عن ظلم النفس قال تعالى: (**إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْراً فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ**) [١]

ونهى على من ظلموا أنفسهم فذاقوا الوبال في الدنيا والبوار في الآخرة فقال تعالى: (**وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ**) [٢]

وتوطين النفس على معرفة الله تعالى، والعدل معها بمقتضى شرع الله يجعلها مصدر بر، ونبع خير.

١- نجيب إلياس برسوم، ومحمد مصطفى زيدان، المرشد النفسي إلى الحياة السوية، ص(١٨١)، بتصرف، دار نهضة مصر، بدون ط، القاهرة – مصر، سنة ١٩٩٥م.

٢- سورة قريش الآيات (١- ٤).

٣- سورة الرعد الآية (٢٨).

٤- سورة التحريم الآية (٦)

قال رسول الله (r):"لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه"[٣]

وهيهات أن يبذل الإنسان الحب للآخرين كما أراد الله تعالى إذا لم يسعد به نفسه في ظل عقيدة قوية، وقلب مطمئن بالإيمان ، وإلى هذا يدعونا الرسول الكريم (r)؛ حيث يقول: "وأحب للناس ما تحب لنفسك تكن مسلماً"

وقد يبالغ البعض فيقول: "إن الناس مسرفون فعلاً في حبهم لأنفسهم، والغاية الحقيقية للحياة هي إنكار الذات في خدمة الغير،وهذا تقدير للطبيعة الإنسانية لا يخلو من أخطاء، فهل صحيح أننا نحسن إلى أنفسنا؟

إن الدلائل تشير إلى العكس، فكثيراً ما نعامل أنفسنا معاملة أصرم وأحفل بروح الانتقام من معاملتنا للغير، فالمسرفون على أنفسهم بالمعاصي، المنغمسون في الآثام متجاوزين حد الله الذي دعانا إلى التزامه، حيث يقول جل شأنه: (**وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ**) [١]

وكثير من صور تحقير الذات مثل إدمان السكر ، أو المخدرات، أو الفجور. وشوارع العالم غاصة برجال ونساء يشوهون أنفسهم تشويهاً روحياً بانتقاد النفس، وإيرادها موارد السوء ويسيرون في الحياة مسيرة

١- سورة التوبة الآية (٣٦).

٢- سورة النحل الآية (١١٨).

٣- رواه مسلم (٦٧/١).

١- سورة البقرة الآية (١٩٥) .

٣- نجيب برسوم، محمد مصطفى زيدان،المرشد النفسي على الحياة السوية، ص (١٨٢- ١٨٣) بتصرف، مرجع سابق

من ينتحر بعض الانتحار فيقضون على مواهبهم ، ونشاطهم وقدراتهم الإنشائية المبدعة.

ومثل هذه الأعمال جريمة لا ضد أنفسنا فحسب، بل ضد الجماعة أيضاً فإن الذي ليس عنده رعاية صحيحة لكفاياته ومواهبه، لا يمكن أن ينطوي على احترام للغير. ولست أعني بحب النفس تدليلها أو الإغراق في تمجيد الذات، ولكني أصر على وجوب احترام الذات، على أنه شرط لازم لحياة أخلاقية حميدة نافعة"[٣]

إن سكينة النفس هو النبع الفياض الذي يثري الحياة والأحياء بكل عوامل الخير، ودوافع العطاء الطيب، ويسرع بالسعادة إلى كل أفراد المجتمع، ولو ربينا نشئنا على طلبها والحرص عليها لكانت أعظم هبة لأجيالنا، وأكبر عاصم لهم من الضياع.

دلائل سكينة النفس:

والسكينة إذا استقرت في النفس، وتمكنت منها، ظهرت آثارها، ووضحت دلائلها، ووجب علينا مراعاة ذلك، والعمل دائماً على استكمال النقص، وسد الثغرات، والوقوف أولاً بأول على كل ما يمس هذه السكينة، حتى تظل قوية معطاءة، ونغرسها في نفوس أبنائنا، ومن دلائل ذلك :

١- "القدرة على التفكير السوي، والعمل الجاد في اعتداد تام وثقة مطلقة، وقدرة بالغة على تعرف ما تريد، وإدراك ما ينبغي أن يكون.

٢- القدرة على تحمل المسؤولية. لا مجرد قبولها فحسب، والاضطلاع بها بروح مجردة، مبتكرة والقدرة على البت في الأمور واتخاذ القرارات.

٣- القدرة على أن تؤدي العمل الذي يحتاج لأداءٍ لمجرد أنه يحتاج لأن يؤدى، ولو كان يبعد بك مؤقتاً عن رغباتك الخاصة الملحة.

٤- القدرة على تحمل الصدمات فلا تجعلها تقعد بك، ولا تكون سبباً في تمكن اليأس (**إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ**) [١]

٥- القدرة على أن تظهر التقدير والعطف والحب لأولئك الذين تفرط منهم غاياتهم الأنانية رغبة في الإصلاح، وتأليفاً لهم قال تعالى:)**وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ**) [٢]

على أن تخلص في ولاءٍ للقضايا العادلة، والحق الذي هديت إليه، والمبادئ الطيبة.)**قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ**) [٣]

٦- القدرة على كبح جماح الحسد والغيرة الذميمة، وكفاك ذلك التحذير القرآني:)**أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ**) [١] والبعد عن الرثاء للنفس)**وَلا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى**) [٣] وتجنب القلق والنظر للحياة بمنظار أسود .. بل القدرة على الارتقاء بالنفس فوق هذه المشاعر.

١- سورة يوسف الآية (٨٧).
٢- سورة فصلت الآية (٣٤).
٣- سورة الأنعام الآية (٩١).
١- سورة النساء الآية (٥٤) .
٣- سورة طه الآية (١٣١).
٤- سورة الحجرات الآية (١٠).
٥- سورة المائدة الآية (٢) .
٦- البغوي، شرح السنة، (٨٦/١٣)، مرجع سابق.

٧- القدرة على التخلص من الوحدة والعزلة، وعلى اكتساب الأصدقاء والاحتفاظ بودهم، وإلا فأين رابطة الإخاء التي أكبر ربنا فقال جل شأنه: (**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ**) [٤] والتعاون الذي أشاد القرآن به، فقال: (**وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ**) [٥] وقول رسول الله (ﷺ): " المؤمن هين لين مألوف"؟[٦]

٨- القدرة على التعاون في حماس ورغبة، وعلى الاضطلاع بنصيبك كاملاً من الأعباء، حتى في أشد الظروف تأثيراً عليك، وقد رفع الله ذكر قوم ثبتوا بإيمانهم في مواجهة الشدة ، ووثقوا بالنصر وقد تمزقت أسبابه فيما يرى الناس، فقال تعالى: (**الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ**) [١]

٩- القدرة على مواجهة الحياة ومشكلاتها اليومية في استعداد وعزم ودون تردد أو خداع للنفس، لعل الدرس القرآني يثمر (**فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ**) [٢]

١٠- القدرة على التراجع في حزم وحكمة حماية للظهر، واستعدادا للتقدم، ومواصلة الكفاح أدباً في الأمور كلها بذلك الأدب العالي في سلمنا وحربنا في أمورنا الخاصة والعامة. قال تعالى: (**يَا أَيُّهَا**

١- سورة آل عمران الآية (١٧٣).

٢- سورة آل عمران الآية (١٥٩) .

٣- سورة الأنفال الآيتان (١٥- ١٦)

٤- نجيب إلياس برسوم، محمد مصطفى زيدان، المرشد النفسي إلى الحياة السوية، ص(١٩٢- ١٩٣)، مرجع سابق.

الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفاً فَلا تُوَلُّوهُمْ الأَدْبَارَ (١٥) وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلاَّ مُتَحَرِّفاً لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنْ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٦) [٣]، فلا تتخل عن شيء من الأمور التي يتغلغل الإيمان بها في قلبك، ولا عن عنصر من العناصر التي تقوم عليها شخصيتك."[٤]

الفصل الثالث :

الارتقـــاء الخلقي

الإنسان أخلاقي بفطرته :

لقد ميز الله الإنسان، وجمع فيه من الخصائص ما يجعله أهلاً لما خُلق له، ويعينه على حمل أمانته، وبلاغ رسالته، وأودعه فطرة فطره الله تعالى عليها، فكان مما يتميز به الإنسان عن سائر الحيوان، الميل الفطري إلى الأخلاق، والتزامه الذاتي بقواعد ومعايير أخلاقية مُعيَّنة يراعيها في شتى المواقف والاتجاهات، وإن كانت سلطة الضبط الخارجي غائبة عنه.

فهو أخلاقي بفطرته "ولا عجب فإن النفس البشرية مجبولة على الاستعداد للتكوين الخلقي والتهذيب السلوكي وفق عدة عوامل فطرية أهمها: عامل اللذة والألم، وعامل النفع، وعامل الخضوع لرقابة المجتمع وحمل هذه الرقابة في النفس، وعامل الالتزام بالقيم والمبادئ والمثل العليا.

ونتناول فيما يلي بشيء من الإيضاح هذه العوامل:

١- اللذة والألم:

الإنسان مفطور على الإحساس باللذة والألم، وهو بذلك ميال إلى كل ما يحقق له اللذة، عَزُوفٌ عن كل ما يسبب له الألم. ولهذا العامل تأثير كبير جداً في تربية الإنسان وتكوينه الخلقي وتوجيهه السلوكي؛ لأنه يجذبه إلى السبل المحمودة التي تنتهي به إلى اللذائذ المعنوية أو الحسية، ويجنبه السبل المذمومة التي تلحق به الآلام المعنوية أو الحسية.

وقد أكد القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة أهمية هذا العامل في التربية الأخلاقية والسلوكية بما تضمناه من ترغيب في المحمودات

وترهيب في المذمومات، ووعد بالنعيم المقيم في الجنة، ووعيد بالعذاب الأليم في جهنم".[1]

فالميل الجنسي فطرة يجب احترامها وترشيدها، وتحقيق لذتها من طريق حلال نظيف منزه عن العبث والفجور أدباً مع الله، وصوناً لحرماته، وحفاظاً على سلامة الأنساب، وطهارة المجتمع، وقد جعل الإسلام النكاح مصرفها الحلال، ورغب فيه، وحث عليه، فقال تعالى: ﴿**وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ**﴾ [2].

" إن الزواج هو الطريق الطبيعي لمواجهة الميول الجنسية الفطرية، وهو الغاية النظيفة لهذه الميول العميقة. فيجب أن تزول العقبات من طريق الزواج، لتجري الحياة على طبيعتها وبساطتها. والعقبة المالية هي العقبة الأولى في طريق بناء البيوت، وتحصين النفوس. والإسلام نظام متكامل، فهو لا يفرض العفة إلا وقد هيأ لها أسبابها، وجعلها ميسورة للأفراد الأسوياء، فلا يلجأ إلى الفاحشة حينئذٍ إلا الذي يعدل عن الطريق النظيف الميسور عامداً غير مضطر .

لذلك يأمر الله الجماعة المسلمة أن تعين من يقف المال في طريقهم للوصول إلى النكاح الحلال" [3]

بل اعتبر الإسلام مباشرة الرجل امرأته، وهو سلوك مادي شهواني بحت فيما ترى النظرة البشرية جعله طاعة من الطاعات لكل من الزوج والزوجة رغم ما يحققان من لذة ففي الحديث المروي عن

١- د. عبد الحميد الصيد الزنتاني، أسس التربية الإسلامية في السنة النبوية، ص (٦٤٦)، بتصرف، مرجع سابق.

٢- سورة النور الآية (٣٢) .

٣- سيد قطب ،في ظلال القرآن، مجلد (٤)، جـ(١٨)، ص(٢٥١٤- ٢٥١٥)، بتصرف، مرجع سابق..

أبي ذر رضي الله عنه أن الرسول (r) قال: " وفي بُضع أحدكم صدقة. قالوا: يا رسول الله، أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟ قال أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه وزر؟ فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجر "[1]

أي ارتقاء باللذة الجنسية الحلال كارتقاء الإسلام بها، وسموه بأهلها ؟

"ولا يجوز أن يقوم الفقر عائقاً عن التزوج – متى كانوا صالحين للزواج راغبين فيه رجالاً ونساءً فالرزق بيد الله، وقد تكفل الله بإغنائهم. وإن هم اختاروا طريق العفة النظيف: **(إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ** [2] وقال رسول الله (r): "ثلاثة حق على الله عونهم: المجاهد في سبيل الله، والمكاتب الذي يريد الأداء، والناكح الذي يريد العفاف".[3]

وفي انتظار قيام الجماعة بتزويج الأيامى يأمرهم بالاستعفاف حتى يغنيهم الله بالزواج: (**وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لا يَجِدُونَ نِكَاحاً حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ**) (**وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ**) لا يضيق على من يبتغي العفة، وهو يعلم نيته وصلاحه.

وهكذا يواجه الإسلام المشكلة مواجهة عملية؛ فيهيء لكل فرد صالح للزواج أن يتزوج، ولو كان عاجزاً من ناحية المال. والمال هو العقبة الكؤود غالباً في طريق الإحصان.

وهذا ما يصنعه الإسلام بنظامه المتكامل النظيف العفيف، الذي يصل الأرض بالسماء، ويرفع البشرية إلى الأفـــــــــق المشـــــــــرق الوضيء والمستمد من نور الله"[4]

١- رواه مسلم (٣/٦٩٧ – ٦٩٨) .

٢- سورة النور الآية (٣٢) .

٣- رواه الترمذي (٤/١٨٤) .

٤- سيد قطب، في ظلال القرآن، مجلد (٤)، جـ(١٨)، ص(٢٥١٦- ٢٥١٧)، بتصرف يسير، مرجع سابق.

أما تحصيلها بالجانب العفن، وطريق الفاحشة فالإسلام يرفضه رفضاً تاماً، ويمقته وأهله، ويضع حداً من أعظم الحدود وأقواها في الإسلام، فيقول جل شأنه: (**وَلا تَقْرَبُوا الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً**) [1]

"ولا عبرة بما يقال من أن البغاء أو الفوضى الجنسية صمام أمن. يحمي البيوت الشريفة؛ لأنه لا سبيل لمواجهة الحاجة الفطرية إلا بهذا العلاج القذر عند تعذر الزواج، أو تهجم الذئاب المسعورة على الأعراض المصونة، إن لم تجد هذا الكلأ المباح !

إن في التفكير على هذا النحو قلباً للأسباب والنتائج، فالميل الجنسي يجب أن يظل نظيفاً بريئاً موجهاً إلى إمداد الحياة بالأجيال الجديدة. وعلى الجماعات أن تصلح نظمها الاقتصادية بحيث يكون كل فرد فيها في مستوىً يسمح له بالحياة المعقولة وبالزواج. فإن وجدت بعد ذلك حالات شاذة عولجت هذه الحالات علاجاً خاصاً.. وبذلك لا تحتاج إلى البغاء. وإلى إقامة مقاذر إنسانية، ويمر بها كل من يريد أن يتخفف من أعباء الجنس، فيلتقي فيها بالفضلات، تحت سمع الجماعة وبصرها !

إن النظم الاقتصادية هي التي يجب أن تعالج، بحيث لا تخرج مثل هذا النتن، ولا يكون فسادها حجة على ضرورة وجود المقاذر العامة، في صور آدمية ذليلة" .[2]

قِسْ على هذا موقف الإسلام من الطعام والشراب حلاله وحرامه، وغير ذلك من اللذات التي فُطر الإنسان على الميل إليها، والإحساس بها، ولِتُنال تلك اللذات في إطار من الأمن، وتخلو من المنغصات كانت تربية الإسلام أهله على فضائل تنظيم حاجات الإنسان، وترفع عنه الحرج،

١- سورة الإسراء الآية (٣٢) .

٢- سيد قطب، في ظلال القرآن، مجلد (٤)، جـ(١٨)، ص (٢٥١٦ – ٢٥١٧)،مرجع سابق .

وتتيح له التنعم بالحياة، والتمتع بخيراتها قال تعالى : ﴿**وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ**﴾ (١)

وقال جل شأنه: **يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ (٣١) قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنْ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٣٢) قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ (٣٣)** (٢)

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي (r) قال: "إن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة، وإن الرجل ليصدق حتى يكون صديقاً. وإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذابا."(٣)

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله (r): "الحياء من الإيمان والإيمان في الجنة. والبذاء من الجفاء والجفاء في النار."(٤)

١- سورة القصص الآية (٧٧) .

٢- سورة الأعراف الآيات (٣١- ٣٣) .

٣- رواه البخاري (١٦/٣٩٥- ٣٩٦ فتح).

٤- رواه أحمد (٢/٥٠١)، والترمذي (٤/٣٦٥) .

"٢- النفع والمضرة:

وكما أن الإنسان مفطور على طلب اللذة وتجنب الألم، فهو مفطور على حب كل ما ينفعه إنْ عاجلاً أو آجلاً، وترك كل ما يضره أو يؤول به إلى الخسارة والوبال.

ولهذا العامل تأثيره الكبير، كذلك، في تنشئة الإنسان تنشئة أخلاقية سليمة وتوجيهه توجيهاً سلوكياً قويماً. وقد ركز كل من القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة على أهمية هذا العامل بما تضمنه من تبشير بالثواب للمحسنين، وإنذار بالعقاب للمسيئين"[١] .

قال تعالى: ﴿**مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾ [٢]

وقال تعالى: ﴿ **مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ (٨٩) وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ** ﴾ [٣]

وعن جرير بن عبد الله من حديث طويل أن رسول الله (ﷺ) قال: " مَنْ سَنَّ في الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر مَنْ عمل بها مِنْ بعده، من غير أن ينقص من أجورهم شيء . و مَنْ سَنَّ في الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر مَنْ عمل بها مِنْ غير أن ينقص من أوزارهم شيء" . [٤]

١- د.عبد الحميد الزنتاني، أسس التربية الإسلامية في السنة النبوية، ص (٦٤٨)، بتصرف، مرجع سابق.

٢- سورة النحل الآية (٩٧) .

٣- سورة النمل الآيتان (٨٩- ٩٠) .

٤- رواه مسلم (٢/٧٠٥) .

"وهذا الكلام البليغ دعوة إلى التنافس في الخير، والتسابق في افتتاح مشروعاته النافعة وفي ذلك كمال النفع للإنسان والمجتمع وهو تحذير كذلك لأولئك الذين ينشئون التقاليد السمجة ويعقدون بها شئون الجماعة، ويستمسكون بالإثم، ويدعون إلى تعدي حدود الله تعالى تأييداً لدعاوى باطلة تزينها شياطينهم، ويرون فيها رقياً وتحضراً، فيصيبهم بدعواها ما يصيبهم، ثم يتركون مَنْ بعدهم يضطرب في شرورها ومتاعبها". (١)

"٣- رقابة المجتمع في النفس:

يتميز الإنسان عن الحيوان في قدرته على امتصاص وتشرب الرقابة الاجتماعية، وحملها في طيات صدره، والالتزام بقواعدها وقيودها والخضوع لتعاليمها ولو في غياب السلطة الخارجية ورقابة الآخرين.

ولهذا العامل أثره الفعال في تكوين الضمير الخلقي، وطبع السلوك بالطابع الاجتماعي السائد، وغرس العرف والعادات والتقاليد والقيم الاجتماعية في نفس الفرد الإنساني منذ نشأته الأولى.

ولذلك فإنه لا بد من مراعاة غرس العادات والتقاليد الاجتماعية السليمة في نفوس الناشئة، وتجنبهم تشرب وامتصاص العادات والتقاليد الضارة، وعدم الاستبداد في تربيتهم الخلقية وقهرهم على معايير وقيم معينة قد لا تكون صالحة، وقد تتعارض مع عواطفهم ورغباتهم وحاجاتهم المشروعة، وإلا أصبح الالتزام الأخلاقي التزاماً ظاهرياً مبنياً على النفاق والتملق والخداع، سرعان ما يتخلى عنه الفرد في غيبة الرقيب الخارجي الذي يخشى عقابه.

١- الشيخ محمد الغزالي، خلق المسلم، ص(١٤٤)، بتصرف، مرجع سابق

ولن تصلح الرقابة الاجتماعية إلا إذا ارتبطت بالقيم والمبادئ والمثل العليا الصحيحة التي تكرم ذات الفرد وتحترمه، وإن أحسنت للمحسن فلتشجيعه، وإن عاقبت المسيء فلإصلاحه وتقويمه لا الانتقام منه وإذلاله، مع فتح باب التوبة له، والرجوع عن غيه، والصفح عنه، وعدم تحقيره المستمر بأخطائه السابقة".[١]

قال تعالى: (**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحاً عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**) [٢]

وقال جل شأنه:(**وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَاباً**) [٣]

"وقد اهتم القرآن الكريم والسنة النبوية بميل الإنسان الفطري إلى الخضوع لرقابة المجتمع، وتشربها وامتصاصها منذ الصغر وحملها في النفس في الكبر، والالتزام الذاتي بها وإن كان الإنسان في منأىً عن السلطة الخارجية، وأكدا ضرورة ارتباط هذه الرقابة بالخلق القويم، والسلوك الكريم والقيم والمبادئ والمثل العليا، والمعاملات والعلاقات الشريفة بين أفراد المجتمع."[٤]

قال تعالى: (**وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**) [٥]

١- د. عبد الحميد الزنتاني، أسس التربية الإسلامية في السنة النبوية، ص (٦٤٨- ٦٤٩)، مرجع سابق .

٢- سورة التحريم الآية (٨) .

٣- سورة الفرقان الآية (٧١) .

٤- نفس المرجع السابق ص(٦٤٩).

٥- سورة آل عمران الآية (١٠٤) .

بل جعل هذا الخلق القويم سمة مميزة لخير أمة أخرجت للناس، فقال جل شأنه: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ (١)

بل حكى القرآن الكريم تربية لقمان ولده على ذلك فكان من وصاياه: ﴿ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ ﴾ (٢)

وعن أبي سعيد رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله (r) يقول: " من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان."(٣)

ودعا المجتمع إلى أن يكون عوناً لأفراده على الالتزام الخلقي، مترفعاً بهم عن التدني والسقوط فقال جل شأنه: ﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢﴾ ﴾ (٤)

وعن أبي هريرة أنه كان يقول: قال رسول الله (r): " ما من مولود إلا يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسبون فيها من جدعاء."(٥)

وعن أبي موسى رضي الله عنه عن النبي (r) قال: "إنما مثل الجليس الصالح والجليس السوء كحامل المسك ونافخ الكير، فحامل المسك إما أن يحذيك وإما أن تبتاع منه وإما أن تجد منه ريحا طيبة، ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك وإما أن تجد ريحاً خبيثة." (٦)

١- سورة آل عمران الآية (١١٠).
٢- سورة لقمان الآية (١٧) .
٣- رواه أحمد (٣/١٠، ٢٠، ٥٢، ٩٢)، ومسلم (١/٦٩).
٤- سورة المائدة الآية (٢) .
٥- سبق تخريجه ص(٥٩) رقم (١).
٦- رواه مسلم (٤/٢٠٢٦) .

٤- الالتزام بالقيم والفضائل والمثل العليا:

"يولد الإنسان مؤمناً بربه، عارفاً به، مزعناً له، وهذا الإيمان هو صمام الأمان، وهو رأس كل الفضائل وبالتربية والتنشئة الصالحة يكتسب القيم والمبادئ والمثل العليا التي يميل إليها فطرياً" (١)

قال الله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ ﴾ (٢)

وقال جل شأنه: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾(٣)

وكلما زاد الإيمان وتوثقت صلة العبد بربه، واستقام يقينه على الحق الذي فطره الله، وسلم من عبث العابثين، وبرئ ظاهراً وباطناً مما يخالف ذلك الدين القيم كلما ازداد خشية لله، واستشعر رقابته جل شأنه عليه فيقيم من نفسه حارساً على نفسه، فيستوي سره وعلنه، فلا يجده الله إلا حيث أمره، ولا يفتقده إلا حيث نهاه التزاماً مصدره النفس، ويقيناً مستقره القلب ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ

١- د. عبد الحميد الزنتاني، أسس التربية الإسلامية في السنة النبوية، ص(٦٤٩- ٦٥٠)، بتصرف، مرجع سابق.

٢- سورة الأعراف الآيتان (١٧٢- ١٧٣).

٣- سورة الروم الآية (٣٠) .

عَلَى ٱلْعَرْشِۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَاۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾ ﴾ (١)

" وهو ما يكفل له التكوين الخلقي العظيم، والاستقامة السلوكية المتينة، وضبط النفس والنوازع، والتحكم في الميول والشهوات، واتباع سبل الخير والفضائل، وتوقي سبل الشر والرذائل، وحب الآخرين كحب النفس، والحرص على مصلحة الجماعة كالحرص على المصلحة الذاتية، والموازنة بين مطالب الدين والدنيا، والمعادلة بين حاجات البدن وشواغل الروح.

وقد اهتم القرآن الكريم والسنة النبوية بالتوجه إلى تقوية الميل إلى القيم والمبادئ والمثل الأخلاقية العليا بالتربية الواعية السليمة، وغرسها في النفس منذ بواكير الحياة الأولى للإنسان، حتى يصبح مراقباً لله تعالى في كل شؤونه، مستشعراً لحضوره معه فإن لم يكن يراه فإن الله تعالى يراه، ولا شك أن هذه الرقابة الإلهية هي أساس السمو الروحي والتهذيب الخلقي والتقويم السلوكي؛ لأن المؤمن يحملها في قلبه، وهي معه أينما كان في صحوه ومنامه، وفي حله وترحاله، وفي سره وعلنه، وفي وحدته ووجوده مع الآخرين."(٢)

قال تعالى: ﴿فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿٢﴾ ﴾ (٣)

١- سورة الحديد الآية (٤) .

٢- د.عبد الحميد الزنتاني، أسس التربية الإسلامية في السنة النبوية، ص(٦٥٠)، بتصرف، مرجع سابق.

٣- سورة الزمر الآية (٢) .

٤- سورة النور الآية (٥٢).

وقال جل شأنه: ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخۡشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقۡهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾ [٤]

وفي حديث جبريل عليه السلام، قال فأخبرني عن الإحسان، قال : "أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك "[١]

وعن سفيان بن عبد الله الثقفي قال: قلت: يا رسول الله قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً بعدك، قال: "قل آمنت بالله ثم استقم"[٢]

وعن الحسن بن علي.. قال حفظت من رسول الله (r): " دع ما يريبك إلى مالا يريبك، فإن الصدق طمأنينة، وأن الكذب ريبة."[٣]

وعن النواس بن سمعان الأنصاري قال: سألت رسول الله (r) عن البر والإثم، فقال: "البر حسن الخلق، والإثم ما حاك في نفسك وكرهت أن يطلع عليه الناس."[٤]

الأخلاق غاية الإسلام الأولى:

وحين عرفنا برسوله (r)،خاتم أنبيائه، المبعوث إلى الناس كافة، المبعوث رحمة للعالمين أثبت له الكمال الخلقي، فقال جل شأنه: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾[٥] وقال جل جلاله: ﴿ فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡۖ ﴾ [٦]

١- رواه مسلم (٣٩/١).
٢- رواه مسلم (٦٥/١) .
٣- رواه الترمذي (٦٦٨/٤)، والحاكم (١٣/٢)
٤- رواه مسلم (١٩٨٠/٤) .
٥- سورة القلم الآية (٤) .
٦- سورة آل عمران الآية (١٥٩) .
٧- سورة آل عمران الآية (١١٠) .
٨- سورة الفتح الآية (٢٩) .

وأقام أمته على الخلق، وميزها بآداب افتقدتها أمم سابقة، فقال تعالى: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ (٧)

وقال عنه وعن أمته: ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾ (٨)

"ولقد حدد رسول الله (r) الغاية الأولى من بعثته، والمنهاج المبين في دعوته بقوله: "إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق"(١)

فكأن الرسالة التي خطَّت مجراها في تاريخ الحياة، وبذل صاحبها جهداً كبيراً في مد شعاعها وجمع الناس حولها، لا تنشد أكثر من تدعيم فضائلهم، وإنارة آفاق الكمال أمام أعينهم، حتى يسعوا إليها على بصيرة..

والعبادات التي شرعت في الإسلام واعتبرت أركاناً في الإيمان به ليست طقوساً مبهمة من النوع الذي يربط الإنسان بالغيوب المجهولة، ويكلفه بأداء أعمال غامضة وحركات لا معنىً لها. كلا كلا فالفرائض التي ألزم الإسلام بها كل منتسب إليه، هي تمارين متكررة لتعويد المرء أن يحيا بأخلاق صحيحة، وأن يظل متمسكاً بهذه الأخلاق، مهما تغيرت أمامه الظروف..

والقرآن الكريم والسنة المطهرة، يكشفان بوضوح عن هذه الحقائق.

فالصلاة الواجبة عندما أمر الله بها أبان الحكمة من إقامتها فقال: ﴿ ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ ﴾ (٢)

فالإبعاد عن الرذائل، والتطهير من سوء القول وسوء العمل، هو حقيقة الصلاة، وقد جاء في حديث يرويه النبي عن ربه: "إنما أتقبل الصلاة ممن تواضع بها لعظمتي، ولم يستطل على خلقي، ولم يبت مصراً على معصيتي، وقطع النهار في ذكري، ورحم المسكين وابن السبيل والأرملة، ورحم المصاب"

والزكاة المفروضة ليست ضريبة تؤخذ من الحبوب أو إتاوة يكره عليها الناس، بل هي أولاً غرس لمشاعر الحنان والرأفة والمودة والرحمة، وتوطيد لعلاقات التعارف والألفة والتعاون والتراحم بين شتى الطبقات.

وقد نص القرآن على الغاية من إخراج الزكاة بقوله: ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾ ﴾ (١)

فتنظيف النفس من أدران النقص والترقي بها في درجات الكمال، والتسامي بالمجتمع إلى مستوىً أنبل، وعطاء أرحب وأشمل هو الحكمة الأولى.

ومن أجل ذلك وسَّع النبي (r) في دلالة كلمة صدقة التي ينبغي أن يبذلها المسلم فقال: "تبسمك في وجه أخيك صدقة، وأمرك بالمعروف

١- رواه أحمد (٣٨١/٢)، والحاكم (٦١٣/٢) .

٢- سورة العنكبوت الآية (٤٥) .

ونَهْيُك عن المنكر صدقة، وإرشادك الرجل في أرض الضلال لك صدقة، وبصرك للرجل الرديء البصر لك صدقة وإماطتك الحجر والشوكة والعظم عن الطريق لك صدقة، وإفراغك من دلوك في دلو أخيك لك صدقة" [٢]". [٣]

إن انفراج أسارير الوجه، وإظهار ابتسامة حانية رحيمة في لقاء مقبل عليك أو ذي حاجة من أعظم الصدقات، وكذلك بذل النصح دلالة على الخير، أو تنفيراً من الشر، وإعانة الضال على الوصول إلى هدفه، والحرص على سلامة الطريق من كل أذىً، وتوفير الري ما استطعت للناس وما يملكون، وإن لم يكلفك شيئاً، ورؤيتك لفاقد الرؤية، تلك كلها صدقات مجَّدها الإسلام وأقرها في أمته.

"وكذلك شرع الإسلام الصوم، فلم ينظر إليه على أنه حرمان مؤقت من بعض الأطعمة والأشربة، وهجر موقوت لحلال الشهوات، بل اعتبره خطوة إلى حرمان النفس دائماً من شهواتها المحظورة ونزواتها المنكورة". [١]

١- سورة التوبة الآية (١٠٣) .

٢- رواه الترمذي (٣٤٠/٤) .

٣- الشيخ محمد الغزالي، خلق المسلم، ص(٦- ٧)، بتصرف يسير ، مرجع سابق .

١- المرجع السابق ص(٨).

٢- سورة البقرة الآية (١٨٣) .

٣- رواه البخاري (٢١٤/٦فتح)

٤- ابن خزيمة، صحيح ابن خزيمة، تحقيق د. مصطفى الأعظمي، جـ(٣) ص(٢٤٢)، المكتب الإسلامي، ط١، بيروت- لبنان، سنة (١٣٩٥هـ- ١٩٧٥م) .

وإقراراً لهذا المعنى، وكشفاً عن ثمرة هذه العبارة، وأثرها التربوي في الإسلام قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ ﴾[٢]

وقال الرسول (r):"من لم يدع قول الزور، والعمل به فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه" !! [٣]

وقال (r): "ليس الصيام من الأكل والشرب، إنما الصيام من اللغو والرفث، فإن سابك أحد، أو جهل عليك، فقل: إني صائم".[٤]

إن إمساك الجوارح عن الأذى، وتطهيرها من العدوان، وتوجيهها إلى النفع، فضلاً عن حسن الخلق، ونظافة المشاعر، واستحضار عظمة الله تعالى معانٍ يصبغ بها الصوم الصائمين، فيعرفون به، ويتوقع منهم.

والسفر إلى البقاع المقدسة، وما يتبعه من مشاق، وما يتطلب من جهاد، وقد كلف به المستطيع، واعتبر من أركان الإسلام ليس مجرد رحلة عارية من المعاني الخلقية، والقيم الغالية، ولا هو مثل لما قد تحويه بعض الأديان أحياناً من تعبدات غيبية، بل هو بناء خلقي، وتقويم روحي ونفسي، وتوطيد لعلاقة وثيقة بالله تعالى، ورسوله (r)، وبالمسلمين، بل الإنسانية كلها، ولذا يحدثنا القرآن الكريم عنه فيقول ربنا جل وعلا في الحديث عن تلك الشعيرة: ﴿ ٱلۡحَجُّ أَشۡهُرٞ مَّعۡلُومَٰتٞۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلۡحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلۡحَجِّۗ وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ يَعۡلَمۡهُ ٱللَّهُۗ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيۡرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقۡوَىٰۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿١٩٧﴾ ﴾ [١]

١- سورة البقرة الآية (١٩٧) .

٢- سبق تخريجه ، ص (٥٤٦) رقم (١).

إنها تربية الإسلام من خلال تلك الفريضة، نقاء من الوقت والفسوق، وسلامة من المراء، وصدق في التوجه إلى الله تعالى وإخلاص العمل له، وخشيته وحسن مراقبته، ولا ريب أن تلك المعاني السامية ستثمر أعظم الثمر في التفاعل مع الآخرين، والإحسان إليهم.

"وهذا العرض مجمل لبعض العبادات التي اشتهر بها الإسلام، وعرفت على أنها أركانه الأصيلة، نستبين منه متانة الأواصر التي تربط الدين بالخلق.

إنها عبادات متباينة في جوهرها ومظهرها، ولكنها تلتقي عند الغاية التي رسمها الرسول (r): في قوله "إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق". [٢]

فالصلاة والصيام والزكاة والحج، وما أشبه هذه الطاعات من تعاليم الإسلام، هي مدارج الكمال المنشود، وروافد التطهر الذي يصون الحياة ويعلي شأنها... وبهذه السجايا الكريمة – التي ترتبط بها أو تنشأ عنها – أعطيت منزلة كبيرة في دين الله.

فإذا لم يستفد المرء منها ما يزكي قلبه، وينقي لبه! ويهذب بالله وبالناس صلته، فقد هوى.

قال الله عز وجل: ﴿ إِنَّهُۥ مَن يَأۡتِ رَبَّهُۥ مُجۡرِمٗا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحۡيَىٰ ٧٤ وَمَن يَأۡتِهِۦ مُؤۡمِنٗا قَدۡ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلۡعُلَىٰ ٧٥ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ مَن تَزَكَّىٰ ٧٦ ﴾(١) » (٢)

١- سورة طه الآيات (٧٤- ٧٦).

٢- الشيخ محمد العزالي، خلق المسلم ، ص(٩)، مرجع سابق.

٣- سورة الشورى الآية (٥٣).

والبيئة التي أرسيت فيها هذه الركائز، وأصلت فيها هذه القيم، وطولب أهلها بها، بل جُعلوا دعاة إليها، وحماة لها، "بيئة صحراوية قاحلة، عاشت دهورا على التخاصم والتمزق، جفاف أهلها أشد من جدبها، وقلوبهم أقسى من صخورها، وسلوكهم صاغه التعصب، وأخذهم وعطاؤهم من صنع الجاهلية، فأعاد الإسلام صوغهم، وصبغ بالهدى مشاعرهم، وربط بالحق أفكارهم، وآتاهم الله رشدهم حين تولى الرسول (r) بتوجيهٍ من ربه تعالى تربيتهم، ومزج شرائع الإسلام بدمائهم وأرواحهم، فأعطوا عطاءً لا نظير له، وبذلوا في سخاء لم تعرف الإنسانية مثله، فأقاموا خير مجتمع، وجعلهم الله تعالى خير أمة.

أهمية البيئة:

ومما تقدم يتضح أهمية البيئة في حراسة الفطرة، وإكساب مَنْ تُربِّى كل ما يتفق مع الفطرة، ويلزمه الصراط المستقيم. ﴿ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ (٣)

فكلما كانت البيئة تقية نقية كان عطاؤها طيباً، وكانت آثارها عظيمة، وجنت ممن تُربِّي أطيب الخُلُق، وأكرم الخلال، فالأخلاق تتكون بتنمية الميول والعوامل الفطرية في بيئة نقية صالحة، بحيث يمتزج فيها الجانب الفطري والجانب الكسبي.

"وبهذا المعنى نجد أن الأخلاق إنما هي سلوك تتفاعل في صنعه العقيدة والعقل والعاطفة والانفعال والإرادة والعادة المألوفة.

وهذا السلوك يتأصل ويتأكد ويترسَّخ حتى تصبح تصرفات ومواقف واتجاهات الفرد الخلقية تصدر عنه بطريقة تلقائية سهلة وكأنها طبع جوهري فيه، لا تطبعاً ظاهرياً عارضاً لديه".(١)

إن التربية على الخلق أمر يحتاج إلى جهد، ويتطلب صدقاً وإخلاصاً ليعطي المربي من خلقه فيكون ذلك أدعى إلى إثمار التربية، وظهور أثرها فيمن نربي، وهي في حاجة إلى يقظة تامة، ونفس بصيرة ناقدة، وصدر رحب، ونصيحة دائمة متتابعة وإرشاد متصل؛ ليرسخ في الأفئدة والأفكار، أن الإيمان والصلاح والأخلاق أمور متلازمة متماسكة، لا يستطيع أحد تمزيق عراها.

لقد سأل الرسول (r) أصحابه يوماً "أتدرون من المفلس؟" قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع، فقال : "المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاة وزكاة وصيام، ويأتي وقد شتم هذا، وقذف هذا وأكل مال هذا، وسفك دم ذاك، وضرب هذا فيعطى هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضي ما عليه، أخذ من خطاياهم فطرحت عليه، ثم طرح في النار".[٢]

ذلك هو المفلس: إنه كتاجر يملك في محله بضائع بألف، وعليه ديون قدرها ألفان، كيف يعد هذا المسكين غنياً؟.

والمتدين الذي يباشر بعض العبادات، ويبقى بعدها بادي الشر، كالح الوجه، قريب العدوان، كيف يُحْسَبُ امرأً تقيًّا؟.

روي أن النبي ضرب لهذه الحالات مثلاً قريباً قال:" الخُلق الحسن يذيب الخطايا كما يذيب الماء الجليد، والخلق السوء، يفسد العمل كما يفسد الخل العسل".[١]

١- د. عبد الحميد الزنتاني، أسس التربية الإسلامية في السنة النبوية، ص(٦٥١)، مرجع سابق.

٢- رواه مسلم (١٩٩٧/٤).

١- البيهقي، الجامع لشعب الإيمان، تحقيق مختار أحمد الندوي، جـ(١٤)، ص(١٨٩)، الدار السلفية، ط١، بومباي –الهند، سنة (١٤١٤هـ- ١٩٩٣م).

٢- سورة الصف الآيتان (٢- ٣)

وإذا كانت البيئة أساساً في التربية الخلقية فالمؤسسات التربوية (مدارس أو غيرها) بيئات لها أثرها العميق، ودورها البالغ في بناء الإنسان، وإرساء معالم شخصيته، ومن هنا كان عبء المربين أقوى الأعباء وأشقها، وكان على كل من يتصل بالعملية التعليمية، ويشارك فيها أن يكون بين أبنائه مثلاً أعلى، وقيمة عظمى في أقواله وأفعاله، في سلوكه وتوجهاته، موقناً أن عيون طلابه، وأسماعهم، وقلوبهم متعلقة به، فلابد أن يتكون لهم فيه أسوة حسنة، ومن هنا يعاب أن يقوم على التربية من ضعفت صلته بها، وخلت تقلباته من معالمها، وسمع منه ما يخالف عمله وسلوكه، وقد كان القرآن الكريم حاسماً في نبذ هذا الصنف صريحاً في تبرئة الإيمان منه، فقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٣ ﴾ (٣)

وأولى بالالتزام بذلك من حملوا رسالة التربية، وسئلوا عن تنشئة الأجيال.